بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية المزيدة
٢٠١٨

دار التعارف للمطبوعات

لبنان- بيروت- حارة حريك- شارع دكّاش- بناية الحسنين

هاتف : ٢٧١٩٠٧ - ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

فاكس : ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

موبايل : ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

البصيرة

السيد عمار الحكيم

دار التعارف للمطبوعات

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم المصطفى محمد ، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين الميامين .

السلام عليك يا أبا عبد الله ، السلام عليك يا ابن رسول الله ، السلام عليك وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك وأناخت برحلك ، عليك منّا جميعاً سلام الله أبداً ما بقينا وبقي الليل والنهار ، ولا جعله الله آخر العهد منّا لزيارتكم . السلام على الحسين ، وعلى علي بن الحسين ، وعلى أولاد الحسين ، وعلى أصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام .

إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو مدرسة العطاء ، والمشروع الحسيني أُطروحة إلهية ، جسدت المشروع السماوي والرسالي على الأرض ، فكلها دروس وعبر . والإمام الحسين عليه السلام عِبرة وعَبرة ، ودمعة وتعاطف وجداني مع تلك الظلامات .

إنّ إحدى المحطات والسمات الأساسية في واقعة الطف التي تميز بها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه هي سمة البصيرة ، فقد كانوا من أهل البصائر . وهذا ما شهد به أعداؤهم قبل أوليائهم وأصدقائهم ، لقد كانوا على بصيرة من أمرهم .

وتمثل خصلة البصيرة مفتاح النجاح والتألق لكمال الإنسان ؛ فمن يمتلك البصيرة والرؤية الثاقبة ، تكون لديه القدرة على تحليل الأمور تحليلاً صحيحاً ، وبالتالي اتخاذ المواقف الصحيحة والسديدة . ومثل هذا الإنسان ، ومثل هذه الجماعة والأمة ، تعيش حالة الانطلاق وحالة التكامل المستمر نحو الله تبارك وتعالى .

إنّ البصيرة تعني الوضوح واليقين وقوة الإدراك والفراسة والتمكن من رؤية المستقبل وتقدير الموقف الصحيح والفهم الصحيح لما يجري حولنا. وهي من السمات المهمة والمفاتيح الأساسية في نجاح الإنسان الفرد، ونجاح الجماعة ونجاح الأُمة في مساراتها، وفي علاقتها بالله سبحانه وتعالى، وفي مسارها التكاملي نحو الله جل وعلا، وفي مسار تكاملها الدنيوي في حركتها وبنائها أيضاً.

ما زلنا نعيش في رحاب واقعة الطف الأليمة، والثورة الحسينية بكل ما تحمله من أبعاد عظيمة وجسيمة تركت آثارها ليس في الوسط الإسلامي وحده، وإنما على الإنسانية جمعاء. ومدرسة الحسين عليه السلام مليئة بالدروس والعبر، ووقفنا عند درس من دروس كربلاء، ألا وهو (البصيرة) التي تمتع بها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

وتعدّ البصيرة المفتاح السحري والمدخل المهم لتحقيق النجاحات الكبرى، على مستوى الإنسان والجماعة، وسواء في علاقة الإنسان مع الله سبحانه وتعالى وسيره التكاملي نحو الله، أو في علاقته مع البشر وتنظيم اُموره وشؤونه.

وهي تعني أن تكون للإنسان القدرة على التقاط الإشارات والسنن والعبر التي يجدها حوله، وأن تكون له القدرة على قراءة ما بين السطور وما وراء الحدث.

وحيثما نجد تعثرا وتلكؤا وتراجعا، فهو ناتج من قصور في البصيرة، وفي استخدام هذه الآلية والأداة والورقة الرابحة التي منحها الله سبحانه وتعالى لوجود الإنسان.

بين يديك عزيزي القارئ الطبعة الثالثة المزيدة والمنقحة من كتاب (البصيرة) الذي يضم محاضرات سماحة السيد عمار الحكيم في المجالس الحسينية التي كانت تعقد في مكتبه الخاص في بغداد، من الليلة الأولى من محرم الحرام الى اليوم العاشر، إذ يكون اليوم العاشر مخصصا لقراءة المقتل الحسيني بصوت سماحة السيد عمار الحكيم، وفي هذه النسخة

المزيدة بعد طباعة الجزأين الأول والثاني من البصيرة، ارتأينا بعد نفادهما طبعه مرة ثالثة، بإضافة المحاضرات التي تناولت موضوع البصيرة لهذا العام، ليكون جامعا لجميع المحاضرات على مدار خمس سنوات. .

ومن الله التوفيق

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى الشهادة

يطل علينا شهر محرم الحرام من جديد، ويتجدد الألم والمحنة والمصيبة والعزاء بذكرى استشهاد سيد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين سلام الله عليه. وكلما جاءنا محرم تجدد المصاب وكأنّنا في هذا اليوم وفي هذه السنة فقدنا سيد الشهداء، وهذه إحدى الكرامات التي خص بها الله سبحانه وتعالى أبا عبد الله الحسين عليه السلام؛ فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «إنّ لقتل الحسين في قلوب المؤمنين حرارة لن تبرد أبداً»[1]، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يقول: لا تبرد أبداً، بل، يقول: «لن تبرد أبداً»، و(لن)في اللغة العربية تفيد التأبيد لا النفي، وأما «لا» فهي التي تنفي وقوع ما بعدها اليوم ولا تنفي إمكان وقوعه غداً. وهذا يعني أن هذه الجذوة والحرارة والعاطفة والمشاعر ستبقى جياشة متجددة في كل عام، وهو واقع كما بشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله. وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فنحن وبعد مرور ألف وأربعمئة سنة ونيف، ما زلنا نعيش جذوة المصاب بفقد سيد الشهداء عليه السلام.

المجالس الحسينية

والمجالس الحسينية كهذا المجلس الذي نجتمع فيه تمثل واحدة من أهم الشعائر الحسينية التي سنّها أئمة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، والتي مارسوها بأنفسهم حتى أصبحت مصداقاً واضحاً لإحياء

١. مستدرك الوسائل ١٠: ٣١٨، ح ١٣.

الشعائر الحسينية؛ لأنّها مصداق واضح لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا من تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٢]. والإمام الحسين عليه السلام ثأر الله، وبالتالي فهي تعظيم لشعائر الله سبحانه وتعالى.

وإذا أردنا أن نرجع إلى تأريخ هذه المجالس، نجد أنّ أول مجلس عقد للإمام الحسين عليه السلام هو المجلس الذي أقامه الإمام زين العابدين علي بن الحسين صلوات الله وسلامه عليه في الشام وعلى مقربة من قصر يزيد بن معاوية، حينما دخلت السبايا إلى الشام، فقد كان يزيد يتبجح ويعاملهم معاملة الخوارج، ولكن الخطب التي خطبها زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه والحوراء زينب عليها السلام بدأت تحرك مشاعر الناس، وفضحت وكشفت وعرّت مخططات ومحاولات التلبيس والتشويش.

وهذه قضية نبتلى بها دائماً، فالباطل يُنمّق، ويصوّر بصورة الحق ويُقدّم بصورة مغرية، وعندما يسمعه الإنسان يمتدحه ويقول عنه انّه كلام لطيف. ولهذا ترون المجتمع تعصف به الشائعات والتفسيرات الباطلة والقراءات المغلوطة والمحاولات البائسة لحرف أفكار الناس وتوجهاتهم وتسويق الباطل إليهم.

وظن يزيد أنّه بماكنته الإعلامية الضخمة وهو السلطان آنذاك وهؤلاء سبايا ليس بيدهم شيء يستطيع أن يغيّر ويشوّه الحقيقة لصالحه، ولكن تلك الخطب العظيمة التي خطبتها الحوراء زينب عليها السلام وإمامنا زين العابدين عليه السلام عرّت وكشفت زيف الادعاءات الأموية، فبدأ المد الشعبي يرتد على يزيد بن معاوية، وبدأ يزيد يشعر بالخوف والقلق بعد ثلاثة أو أربعة أيام من حضور السبايا، فأخذ يخفف عنهم بعض الشيء، وتحولت القضية من أسرى خوارج إلى سبايا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ عبيد الله بن زياد هو الذي ارتكب هذه الخطيئة ويزيد بريء منها.

وحاول يزيد أن ينمّق صورته بنوع من التساهل مع أُولئك السبايا عليها السلام وقد استفاد الإمام زين العابدين عليه السلام من هذه الفرصة، وكما تشير بعض القراءات التأريخية، فقد عقد مجلساً رثائياً لسيد الشهداء عليه السلام لثلاثة أيام في الشام وعلى مقربة من قصر يزيد، ولعله أول مجلس حسيني يعقد.

---

٢. الحج: ٣٢.

وبعد ذلك هناك المجلس الذي أقامته بعض أزواج النبيﷺ، فقد حدّثنا التأريخ أنّ أُم سلمة حينما عادت السبايا إلى مدينة رسول اللهﷺ عقدت مجلساً حضره الإمام زين العابدينعليه السلام والناس، وقد أبّنت فيه سيد الشهداء عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكان الهدف من هذه المجالس التي انطلقت من خلفية عاطفية رثائية هو التعاطف والتفاعل والتضامن مع مصيبة سيد الشهداءعليه السلام، التي كانت صدمة للمجتمع الإسلامي آنذاك، فهل من المعقول أنّ ابن بنت رسول اللهﷺ يُقتل، وهو الوحيد في العالم كله الذي يحمل هذا العنوان، وهو ما قاله الإمام الحسينعليه السلام في احتجاجاته في يوم عاشوراء حين قال: أنا ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم..، أنا الوحيد فكيف تقتلونني؟.!

لقد كانت صدمة عنيفة لضمير المجتمع الإسلامي آنذاك، وهذا الاستهداف بتلك الطريقة المروعة مثّل صدمة حقيقية وألماً يعتصر قلوب المسلمين، فتحولت المجالس الحسينية إلى مجالس عواطف ورثاء وعزاء.

ثم تطورت بالتدريج هذه المجالس من التركيز على البعد العاطفي الصرف إلى أبعاد أُخرى مهمة جداً أعطت أهمية وتأثيرا كبيراً لهذه المجالس، كالبعد الثقافي والبعد الروحي والبعد الاجتماعي والبعد السياسي والتعبئة الواسعة التي تحصل عبر المجالس لصالح الحق وضد الباطل، وهذه كلها أبعاد مهمة جعلت هذه المجالس مؤثرة ومهمة في مجمل مسار المجتمع الإسلامي، وهذا ما نجده اليوم من عزة وهيبة وكرامة في المجالس الحسينية. وهكذا استمر أهل البيت عليهم السلام بعقد هذه المجالس في شهر محرم الحرام، وحيثما حصلت فرصة لعقد مثل هذه المجالس على مدار السنة.

أهداف المجالس الحسينية

لقد حثّ أهل البيت عليهم السلام وشجّعوا أتباعهم على إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسينعليه السلام وإقامة هذه المجالس الحسينية، وحدّدوا لها مجموعة من الأهداف المهمة والحيوية. ونحن حينما نحضر مجلس عزاء الإمام

الحسين عليه السلام علينا أن نلتفت إلى هذه الأهداف، وأن نعمل جاهدين على تحقيق هذه الأهداف في مساراتنا، وهذه الأهداف هي:

الهدف الأول: الحفاظ على القضية الحسينية

لقد كان هناك تعتيم وتشويش وتشويه كبير للقضية الحسينية في البداية، فقالوا إنّ الحسين عليه السلام قد شق عصا المسلمين وخرج على إمام زمانه وخليفة المسلمين، فتعاملوا مع الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه على أنّهم خوارج، أي أنّهم خرجوا عن الدين وجماعة المسلمين.

وعندما فشلت هذه الأكذوبة رجعوا وقالوا إنّ الصراع بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد هو صراع عشائر وقبائل، وصراع على كرسي الحكم والسلطان، وإنّ المعركة بين بني أُمية وبني هاشم معركة تأريخية تجددت في عهد الحسين عليه السلام، وإنّ القضية ليست قضية حق وباطل، وليست قضية انحراف ومحاولات إصلاح كما يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله»[٣]، بل القضية هي أن ينتصر الإمام الحسين عليه السلام ويثأر لبني هاشم من بني أُمية الذين استولوا على مقاليد الحكم.

وقد فشلت هذه الأكذوبة أيضاً؛ فإنّه إذا كانت هذه المعركة ذات طابع قبلي وعشائري، فما الذي دعا جون العبد الأسود، وحبيب بن مظاهر الأسدي شيخ العشيرة القرشي العربي وأمثالهما إلى الاشتراك في معركة بين عشيرتين؟ فأُولئك الذين وقفوا مع الإمام الحسين عليه السلام لم يكونوا من بني هاشم، فما الذي جمعهم في صراع عشائري؟!.

وعندما لم يجدوا تفسيراً لها ولا تأويلا بحثوا عن طريقة أُخرى فقالوا: كان ذلك من فعل الرعيل الأول، ومن يعرف أن يُقيّم الأولين الكبار؟! فمعاوية بن أبي سفيان وولده يزيد من الصحابة، وهما من الشخصيات الكبيرة المهمة، وكذلك الحسين عليه السلام، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن الأفضل عدم التدخل في الصراع الدائر بين الكبار، ونكتفي بالقول بأنّ

٣. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين، فهذا سيدنا وذاك سيدنا، والله هو يحكم بينهما، وليس من حقنا أن نحكم.

وهذا هو السدّ الدفاعي الأخير، فالحسين عليه السلام هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن يزيد يجب أن ندخله في المعادلة بعنوان سيدنا ونعطيه نوعا من الحق، وهكذا تنهار المعركة التي قامت على أساس قيم ومفاهيم النور والظلمة التي لا تجتمع، وعلى أساس الحق والباطل اللذين لا يجتمعان، ولكن كيف يمكن لمن يحترم عقله أن يقبل بتفسير واقعة الطف بأنّ سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين؟! . وهكذا انهارت كل هذه المحاولات البائسة في تبرير الجريمة الشنعاء التي أقدم على ارتكابها يزيد وأعوانه.

وكان للمجالس الحسينية الدور الكبير في الحفاظ على القضية الحسينية وشرحها للناس وإيضاحها، ليبقى الناس مرتبطين بقضية الحسين عليه السلام ولا تؤثر فيهم هذه المحاولات.

الهدف الثاني: إبقاء القضية الحسينية حيّة بين الناس

الهدف الثاني من أهداف المجالس الحسينية هو إبقاء القضية الحسينية حيّة بين الناس، لا تبرد ولا تضيع، إذ كثيراً ما تحظى قضية باهتمام الرأي العام وتتكلم بها الناس، ولكن بعد أيام أو أسابيع تُنسى وتذهب، فما الذي جرى؟ ألم تكن قبل أيام محط اهتمام الإعلام والرأي العام؟.

واليوم مع الأسف، أصبحت قضية الإرهاب في العراق من هذا النوع؛ ففي يوم يهز العالم تفجير واحد وتصدر بيانات من الأمم المتحدة وتستنكر الدنيا بأجمعها هذه الجريمة، بينما يقتل أُناس أبرياء في كل يوم في العراق بالمفخخات والعبوات الناسفة، ويسقط مئات الشهداء والجرحى، ولا تحظى هذه الجرائم إلا بالنزر اليسير من الأخبار، بينما نرى في شريط «عاجل» خبر انفجار عبوة صغيرة في صحراء دولة عربية، ويؤخذ الخبر في نشرات الأخبار، في حين تحدث عشرات التفجيرات في العراق ويذهب ضحيتها مئات من الشهداء والجرحى ولا تحظى باهتمام الرأي العام العالمي، وأصبحت قضية روتينية، وهكذا القضية الحسينية؛ فهناك خشية وقلق من أن تتحول إلى حالة رتيبة تبرد وتذهب، فمن أهداف

المجالس الحسينية إبقاء هذه الجذوة وهذه الحرارة وهذه الحماسة في نفوس المؤمنين.

وفي البعد الوجداني والمشاعري والعاطفي نجد الخطباء والشعراء والأدباء يكتبون وينشدون ويتحدثون ويصورون القضية الحسينية، وهناك سؤال مهم يطرح نفسه؛ وهو أنّه في قضية مهمة كالقضية الحسينية، عندما نراجع كل تراثنا لا نرى أي رواية من أئمتنا الأطهار عليهم السلام فيها سرد تفصيلي لما جرى في واقعة الطف، بالرغم من أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان حاضراً فيها، وكان من الممكن أن يكتب كلّ ما جرى، ولكنه لم يكتب، واكتفى والأئمة الآخرون بإشارات وعناوين عامة، نسميها في أدبياتنا الإعلامية «مانشيتات»، فلماذا لم يذكر أئمتنا عليهم السلام واقعة الطف بالتفصيل لكي نتعرف على كل ما حدث، ونهمل ما خالف ذلك؟ ولدينا اليوم مجموعة من كتب المقاتل تختلف في سرد بعض التفاصيل، فلماذا هذا الاختلاف؟.

والجواب: إن أئمة أهل البيت عليهم السلام لو سردوا الواقعة بحذافيرها لكنا نلتزم بهذا النص ونترك كل ما عداه، وسنبقى نتعاطى مع النص بحدوده، فيغيب الإبداع والابتكار والإنشاد الذي يصوّر حجم وفداحة المصيبة التي ألمت بسيد الشهداء عليه السلام من قبل الناس، ولهذا اقتصروا على إعطاء الخطوط العريضة. ولذلك نرى اليوم التراث الشعري والأدبي الرثائي الذي ينقل واقعة الطف، قد يكون من المجاميع الأدبية النادرة في الأدب الإنساني، وليس في الأدب الإسلامي فقط، وليس هناك قضية في التأريخ أُنشد فيها من الشعر بقدر ما أُنشد في قضية الإمام الحسين عليه السلام، إذ توجد مئات الآلاف من القصائد الشعرية المدونة، أعطت للقضية الحسينية عمقا، وعمّقت الحالة العاطفية وأبقتها متفاعلة.

الهدف الثالث: إيجاد ثقافة الشعور بالمسؤولية

ومن الأهداف المهمة للنهضة الحسينية إيجاد الأرضية الملائمة لتنمية شعور تحمل المسؤولية تجاه المجتمع؛ ففي كل سنة نستذكر بالتفصيل واقعة الطف، ولو أنّ الإمام الحسين عليه السلام أراد العافية والامتيازات والعيش بدون ضغوط فإنّهم كانوا يقبلون منه السكوت فقط، ولم يكونوا يريدون

منه أن يرفع راية الولاء لبني اُمية ومبايعة يزيد، فكان يكفيهم ألا يتعرض ليزيد ويأخذ ما يريد، ويترك لهم الحكم فقط.

هكذا كانت تجري الاُمور، والإمام الحسين عليه السلام لم ينهض من أجل أهداف شخصية، بل نهض من أجل حقوق اُمة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ولتصحيح الانحراف الحاصل في إدارة شؤونهم، والانحراف في تأمين مصالحهم، والانحراف عن القيم والضوابط والاُطر التي جُعلت لتنظيم شؤونهم وإدارتهم، وهذه القضية تستحق أن يضحي من أجلها الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وأهل بيته وأصحابه، وكل هذه التضحيات الجسام هي من أجل تقويم الانحراف في الحكم، وهي تعطي ثقافة الشعور بالمسؤولية تجاه الناس جميعاً، وهذه مسألة مهمة جداً.

وهكذا قضية الإيثار وقضية المثابرة وقضية التضحية والعطاء ونصرة المظلوم والتعاطف مع المنكوب ورقّة القلب تجاه أي مظلمة، ولذلك ترون أتباع أهل البيت عليهم السلام لديهم سمات لا توجد عند أي جماعة من البشر.

البعض لا يعرفون ويسألون: لماذا تبكون وتحزنون على الإمام الحسين عليه السلام؟.. ويطلبون منّا أن نستمتع بهذه الدنيا ونفرح فيها. إنّ هؤلاء لا يعرفون الحياة إلا مجموعة من اللذات الشخصية، فإذا أراد الإنسان أن يعيش اللامبالاة تجاه الحياة والمجتمع والمظلومين وتجاه الانتهاكات لحقوقهم، فما فرقه عن أي حيوان آخر؟، فإنّ ميزة الإنسان عن سائر الحيوانات ليست في الأكل والشرب والمرح، لأنّ الحيوان يفعل ذلك أيضاً، بل إنسانية الإنسان هي في تحمل المسؤولية تجاه الآخرين، وأنّه صاحب رسالة ومشروع وقضية.

وهذه الثقافة نحصل عليها من المجالس الحسينية، ولذلك تضخ المجالس معرفة سياسية لجماهيرها في التصدي لهموم الاُمة والتصدي للشؤون العامة وتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك للمسلمين، إذ قال: «من أصبح لا يهتم باُمور المسلمين فليس بمسلم»[٤]، فلا يكفي أن اُسمّي نفسي مسلماً وهناك قضية تحدث فأقول:

٤. الكافي ٢: ١٦٣، ح١.

ما دامت لم تصل إلى بيتي وعملي يسير على ما يرام، فالناس لها الله، ومن يقول مثل هذا الكلام يسلب عنه رسول الله صلى الله عليه وآله صفة الإسلام، فيجب على كل مسلم أن يكون مهتماً مكترثاً بهموم المسلمين وبقضاياهم العامة.

الهدف الرابع: نشر الثقافة والوعي

إنّ هذا الضخ المعرفي الكبير في المجالس الحسينية عن المفاهيم الإسلامية وتفسير الآيات القرآنية والمسائل الفقهية والظواهر الاجتماعية والمواضيع الأخلاقية والمشاكل التي تواجه المجتمع، وكلها تعضد بالآيات القرآنية والروايات الشريفة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، هي دروس وعطاء تجتمع فتمثل خزيناً معرفياً كبيراً لأتباع أهل البيت عليهم السلام.

ولذلك أصبح أتباع أهل البيت عليهم السلام يخيفون المتشددين من المذاهب الأُخرى، فنراهم عبر الفضائيات يطلبون من الناس عدم الاحتكاك بأي شخص من أتباع أهل البيت عليهم السلام، ويفعلون ذلك بعنوان النصح! وهكذا كان الشيطان عندما أتى إلى آدم وحواء بلغة النصح وأراد أن يضلهما، كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٥]، وهؤلاء أيضاً يقولون: أيها المسلمون لا تسمعوا لهؤلاء فإنّهم يسحرونكم، ولا تقتربوا منهم، وعندما ترونهم اهربوا منهم.

ونحن لا نملك سوى المنطق والعلم والمعرفة، صغارنا وكبارنا، لأنّ هذه المجالس لا تنحصر بفئة دون أُخرى، وهي مفتوحة للجميع، وكل من يرتاد هذه المجالس ويشارك فيها يزداد علماً ومعرفة وتفقهاً في الدين وخزيناً معرفياً كبيراً.

ولكي يوجدوا فجوة وثغرة ويمنعوا الناس من المجيء إلى المجالس الحسينية والاستفادة من المعارف الدينية، قالوا إن هذه مجالس شركية، وانظروا الى المنشورات التي وزعتها القاعدة والمتطرفون من أذنابها، ولاسيما في المناطق المختلطة، يهددون بها أتباع أهل البيت عليهم السلام أنّهم إذا حضروا

٥. الأعراف: ٢١.

المجالس الحسينية فسوف يستهدفونهم بالقتل والتفجير، ويعتقدون بأنّهم يخيفوننا، ولا يعلمون أنّا ومنذ زمان أجدادنا الأوائل ومن زمن الحجاج، كان شعارنا حينما هددونا: «لو قطّعوا أرجلنا واليدين نأتيك زحفاً سيدي يا حسين».

لذلك لا يخيفنا التهديد، ولا يزعجنا، بل يحفزنا أكثر، فمن كان قد قرر أن يتابع المجالس الحسينية عبر الفضائيات سيأتي إلى المجالس بنفسه عندما يرى المنشورات، ودائماً هذا ردّ فعل طبيعي لأتباع أهل البيت عليهم السلام والحسينيين تجاه التهديدات.

إن المجالس الحسينية ملؤها فكر وعظة وآيات القرآن الحكيم والسنّة النبوية الشريفة والنصح، وهي مجالس يتعمق فيها الانتماء إلى الإسلام الصحيح، وتتجسد فيها الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهي ليست مجالس شركية كما يزعمون، بل هي مجالس توحيدية، ومجالس معرفية، ومجالس نتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

المجالس الحسينية في روايات أهل البيت عليهم السلام

نذكر هنا بعض الروايات الواردة في فضل المجالس الحسينية لنعرف مدى قيمتها، ونعرف كم من توفيق عظيم نحن فيه حينما نحضر هذه المجالس.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب، «ولنحيينه حياة طيبة»[٦]، فالذي يحضر المجالس الحسينية ويذكر مصاب سيد الشهداء عليه السلام وتأخذه العبرة وتنزل دمعته وتتحرك مشاعره وعواطفه تجاه الحسين عليه السلام ومظالم أهل البيت عليهم السلام فهو معهم وفي درجتهم في الجنة، ومن الممكن أن نتقبل ونتفهم بسهولة أن نكون معهم في الجنة، ولكن كيف نكون معهم في درجتهم؟ وأين هي درجة أهل البيت عليهم السلام في الجنة؟.

ومن ذكّر بما جرى عليهم من المصائب فبكى وأبكى الآخرين لم تبك

٦. ٦. بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٨، ح١.

عينه يوم تبكي العيون عند الحساب يوم القيامة، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمر أهل البيت عليهم السلام لم يمت قلبه يوم تموت القلوب، فهذه المجالس فيها حياة القلوب، ثم يتنعم بالحياة الطيبة التي يحصل عليها بالحضور في مجالس الحسين عليه السلام فيتعاطف ويتفاعل مع الحق ويتمسك به، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٧]، وأي حبل لله أصدق من حبل الحسين عليه السلام.

وفي رواية أُخرى، عن الإمام أبي جعفر الباقر صلوات الله وسلامه عليه قال: «كان علي بن الحسين السجاد عليه السلام يقول: أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي حتى تسيل على خديه، بوأه الله في الجنة يسكنها أحقاباً، وأيما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتى يسيل على خده لأذى مسّنا من عدونا في الدنيا، بوأه الله مبوأ صدق في الجنة، وأيما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خديه من مظاظة ما أُوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار»[٨].

يُعرف شخص بأنّه من أتباع أهل البيت عليهم السلام، فيقولون له إنك مشرك ورافضي ويسيئون إليه ويؤذونه، فتدمع عيناه فيثيبه الله تعالى بدخول الجنة. يا أهل البيت، لأنّنا من أتباعكم يهينوننا ويذلوننا ويقتلوننا ويقتلون نساءنا وأطفالنا ويمثّلون بهم. فهنيئا لكم يا شعب العراق، والإرهاب يستهدفكم لا لشيء إلا لأنّكم من محبي أهل البيت عليهم السلام، هذه العاقبة الحسنة وهذا العطاء الجزيل من الله سبحانه وتعالى على ما تقدمون.

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال لفضيل: «تجلسون وتتحدثون في مناقبنا وفي أمر دينكم ودنياكم؟» قلت: نعم جعلت فداك، قال: إنّ تلك المجالس أُحبها، يا فضيل رحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل من ذكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب ــ يعني دمعة صغيرة حباً لنا وتعاطفاً مع مظالمنا غفر الله له

٧. آل عمران: ١٠٣.

٨. بحار الأنوار ٤٤: ٢٨١، ح١٤.

ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[٩]. الله سبحانه وتعالى كريم ومعطاء وغفور ورحيم، ولابد من أن نستثمر هذه المجالس ونتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

وعن أبي عمارة قال: قال لي الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي. قال: فأنشدته بعض الأبيات فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت أنشده ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار»، يعني ارتفع البكاء من المكان الذي فيه العائلة وذراري رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ كن يسمعن هذا الرثاء ويبكين على الإمام الحسين عليه السلام. قال: «فقال: يا عمارة من أنشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى عشرة فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة»[١٠]، أي أراد أن يبكي فلم تنزل الدمعة وتظاهر بالبكاء، فهذه هي ثقافة الحسينيين، فإن كانت عندك دمعة فابكِ، وإن لم تكن فأظهر الحزن وتباكَ، فإنّ ثواب البكاء والتباكي الجنة.

وعن يزيد الشحام قال: «كنا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ونحن جماعة من الكوفيين، فدخل جعفر بن عفان الطائي»، وكان شاعراً معروف الولاء لأهل البيت عليهم السلام، «على أبي عبد الله فقربه وأدناه، ثم قال: يا جعفر، قال: لبيك جعلني الله فداك، قال: بلغني أنك تقول الشعر في الحسين وتجيد. فقال له: نعم جعلني الله فداك. قال عليه السلام: قل، فأنشده صلى الله عليه فبكى ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته. ثم قال: يا جعفر والله لقد شهدتُ ملائكة الله المقربين هاهنا يسمعون قولك في الحسين. ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعته الجنة بأسرها، ثم قال: يا

٩. وسائل الشيعة ١٤: ٥٠١، ب٦٦ من أبواب المزار، ح٢.

١٠. بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢، ح١٥.

جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي. قال: ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له»[١١].

ولذلك نزداد معرفة وعلماً ونبلاً والتحاماً وتمسكاً بالحسين عليه السلام بهذه المجالس الحسينية، ولا نتخلى عنها، ونحضرها ونحفظها ونحيي ذكر الحسين عليه السلام، ونتقرب إلى الله تعالى بها، ونبني مجتمعنا على أساس الأخلاق الحسينية، وعلى أساس المنهج الحسيني، وعلى أساس الفكر الحسيني، وعلى أساس التسامح الحسيني، وعلى أساس التعايش الحسيني، وعلى أساس الانفتاح الحسيني، ونحن حسينيون، ولابد من أن نبقى حسينيين، ونتمسك بالحسين عليه السلام، ولابد من أن نتعلم من الحسين عليه السلام دروس الحياة، فهنيئاً لكم يا أنصار أبي عبد الله الحسين عليه السلام بحضوركم ومشاعركم ومواساتكم لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأهل بيته الكرام عليهم السلام بمصيبة سيد الشهداء عليه السلام.

أصناف الشعائر الحسينية

الشعائر على صنفين:

الصنف الأول: شعائر مسنونة، وهي الشعائر التي ورد النص عليها من أهل البيت عليهم السلام، وهي ثلاث شعائر:

١ البكاء على سيد الشهداء

لا شك في أن استدرار الدموع على مصيبة سيد الشهداء عليه السلام فيه أجر عظيم كما وردت بذلك النصوص، وهو يعبر عن تعاطف وجداني مع القضية، وهذه الشعيرة الكبرى من الشعائر الحسينية ليست دمعة ماء وضعفا وجبنا وانكسارا، كلا، فهذه الدموع تزيدنا اندفاعاً وحماسة والتحاماً بالحسين عليه السلام وبمشروعه، فهذه دموع الشجعان، ودموع من يريد أن يقتبس العبرة ويوظف التاريخ في بناء الحاضر والمستقبل، وهي دموع الأمل والتفاؤل والحماسة والانطلاق نحو الحسين عليه السلام وتبني أهدافه السامية.

---

١١. بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢، ح١٦.

٢ـ زيارة سيد الشهداء

إنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام توفيق إلهي عظيم، ونحن كشعب عراقي محظوظون بزيارة سيد الشهداء عليه السلام لقربه منا، ولكن هناك من هو في أقصى الأرض يتشوق حرقة ويتوسل إلى الله تبارك وتعالى أن يرزق زيارة الحسين عليه السلام.

٣ إقامة مجالس العزاء على سيد الشهداء

وهي أن نجلس ونجتمع ونذكر مناقب أهل البيت عليهم السلام، ونستذكر الإمام الحسين عليه السلام ونسكب الدموع عليه وعلى أهل بيته ونحيي ذكراهم، ونستلهم من ملحمته الخالدة العبر والدروس بما يساعدنا على تخطي المحن والصعوبات ومواصلة مسيرته الإصلاحية.

الصنف الثاني : الشعائر المبتكرة

هناك شعائر مبتكرة لم يأت بها نص شرعي بشكل مباشر وبعنوان خاص، ولكنها ابتكارات منا، وهي وسائل جديدة للتعبير عن التضامن مع سيد الشهداء عليه السلام والتصاقنا والتزامنا وانصهارنا في ركبه وغاياته. ونحن نقدر هذه الشعائر؛ لأنّ المهم فيها أن تكون ممارسات شرعية، وأن تكون من حيث الشكل والمضمون منسجمة مع الثورة الحسينية، فأي ممارسة تبتعد في شكلها أو في مضمونها عن أهداف الثورة الحسينية لا تكون ضمن الشعائر، وأي ممارسة تنسجم مع أهداف الحسين عليه السلام يمكن أن تكون شعيرة حسينية.

فضيلة البكاء على الحسين

وردت في فضل البكاء على الحسين عليه السلام روايات كثيرة، نقتصر على ذكر الرواية التالية: عن ريان بن شبيب قال: دخلت على الإمام الرضا عليه السلام أول يوم من المحرم، فقال عليه السلام: يا ابن شبيب إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية في ما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيها، لقد قتلوا في هذا

الشهر ذريته وسبوا نساءه وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يا ابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فانه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيه، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله.

يا ابن شبيب إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك، غفر الله لك كل ذنب أذنبته، صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً.

يا ابن شبيب إن سرك أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام.

يا ابن شبيب إن سرك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعن قتلة الحسين عليه السلام.

يا ابن شبيب إن سرك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين بن علي عليه السلام فقل متى ذكرته: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يا ابن شبيب إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا [١٢].

سر نجاح المجتمعات

إنّ البصيرة واليقين والوضوح الذي يحصل للإنسان في لحظات الفتن، سر نجاح المجتمعات، فهي التي يمكن أن تحدد البوصلة في حركتها، والبصيرة في زماننا نعبر عنها بالرؤية الاستراتيجية، وهي أن نقرأ الواقع ونكتشف ما علينا فعله في ظل الظروف القاهرة والصعبة، أي هي الاعتقاد القلبي والوضوح والفطنة والاستشراف وقراءة ما بين السطور التي تمكننا من قراءة الأمور قبل الآخرين، والإنسان صاحب البصيرة يخطو بالاتجاهات الصحيحة، والفرد الذي هو على بصيرة من أمره بإمكانه أن يحقق الكثير ويواجه التحديات التي تقف بوجهه.

---

١٢. بحار الأنوار ١٤: ١٦٤ ح٢.

أهمية الرؤية الاستراتيجية لمعالجة الأزمات

إنّ الحسين عليه السلام حمل رسالة الحياة فعلّمنا كيف نعيش، وإذا كانت حياة الأُمة تتطلب التضحية، فقد علّمنا كيف نضحّي ليعيش الآخرون، فثورة الإمام الحسين عليه السلام مدرسة معطاء، ولابد من أن نقف عندها ونتعلّم، وكلما تعمقنا أكثر في هذه الثورة والحركة وهذا المشروع الرسالي، اكتشفنا المزيد من السمات والصفات، وإحدى هذه الصفات التي شهد لها الأعداء والخصوم قبل الأصدقاء والموالين في الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه هي خصلة البصيرة، فقد كان الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من أهل البصائر.

وهذا ما نجده في كلام عمر بن الحجاج الذي كان يقود ميمنة جيش عبيد الله بن زياد، حينما كان يحرض الجيش على قتل الحسين عليه السلام وأصحابه، كان يقول لهم: «أتدرون من تقاتلون؟! تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين»[١٣]، فمن سمات الحسين عليه السلام ومن معه أنّهم كانوا من أهل البصائر، وحين يكون الإنسان على بصيرة يكون قوياً وثابتاً ومتحدياً ومستميتاً، «لا يبرز إليهم أحد منكم إلا قتلوه على قلّتهم»، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١٤]، فالله تعالى يجعل البركة والتوفيق لدى الجماعة التي تتحرك بمنطلقات رسالية وضوابط ومعايير إنسانية.

بينما كان عمر بن الحجاج أحد قادة جيش يزيد يقول: «والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم»[١٥]. لاحظوا الخسة والدناءة، فقد كان الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه سبعين شخصاً ونيفاً، وكان جيش العدو ثلاثين ألفاً، وفي رواية أُخرى سبعين ألفاً، ومع ذلك لم يجرؤوا على قتالهم وجهاً لوجه، فطلب منهم قائدهم أن يرضخوهم بالحجارة ويرموهم من حيث لا يقدرون على الرد، كما يفعل الإرهاب اليوم بشعبنا، حين يستعمل أساليب غير شريفة، لا أساليب الخصومة، فإنّه حتى لو كانت

١٣. بحار الأنوار ٤٥: ١٩.

١٤. البقرة: ٢٤٩.

١٥. بحار الأنوار ٤٥: ١٩.

هناك خصومة فانّ الخصم يقف بوجه الآخر ويخاصمه، فيقتلون الناس ويقطعون أشلاءهم على قارعة الطريق هنا وهناك.

وقبل أيام قليلة مرت ذكرى فاجعة كنيسة سيدة النجاة، وكيف استهدف الإرهاب أهلنا وشركاءنا المسيحيين في هذا الوطن، وفي كل يوم نستذكر ونعيش حالة الفجائع والمجازر التي يرتكبها الإرهابيون المتسترون الخائفون الذين يفتكون ويبطشون بأبناء شعبنا، فهل هذه شجاعة؟ وهل هذه جرأة وصلابة أن يأتي من يفجّر الأطفال والنساء؟.

إذن، فالبصيرة من المفاهيم المهمة ومن السمات الأساسية في الشخصية الإنسانية، وقد تجلت وتجسدت في الإمام الحسين عليه السلام وفي أهل بيته عليهم السلام وأصحابه. ونسعى في هذا العام في ذكرى عاشوراء الى أن نتحدث بمجموعة من المواضيع والمحاور بشأن البصيرة.

المحور الأول: معنى البصيرة

المحور الثاني: أهمية أن يكون الإنسان من أهل البصائر، وأن يكون على بصيرة من أمره.

المحور الثالث: الأدوات والوسائل التي تحقق للإنسان الوصول إلى مرحلة البصيرة، فيكون من أهل البصائر، وكيف نستطيع تقوية هذه البصيرة وتجديدها في نفوسنا وفي وجودنا، كأفراد وكمجتمع.

المحور الرابع: العوامل والعناصر التي تساعد على تحقيق البصيرة.

المحور الخامس: آثار ومعطيات ونتائج أهل البصائر، أي ما الآثار والإيجابيات التي تترتب على الإنسان حينما يكون من أهل البصيرة، وكذا المجتمع البصير والجماعة البصيرة.

المحور السادس: الموانع التي تمنع من تحقق البصيرة عند الإنسان.

المحور السابع: مصاديق أهل البصائر في نظرة لحركة الأنبياء والأولياء والأوصياء على مر التأريخ.

هذه هي العناوين التي نسعى للتحدث فيها في هذا الموسم الكريم من شهر محرم الحرام.

المحور الأول

معنى البصيرة

البصيرة في اللغة هي حالة اليقين . .حالة الاعتقاد الراسخ في القلب . . حالة الفطنة والتنبّه . . العبرة والنظرة التقييمية من السلف ، ومن التأريخ ، ومما جرى على الأقوام والأمم السابقة ، ومما جرى على الإنسان في ظروف سابقة ، فمن لا يقرأ التأريخ يكون هو عبرة من عبر التأريخ ، ومن لا يقف عند تجارب الأمم السابقة يتحول إلى تجربة من التجارب للأمم اللاحقة .

إنّ مشكلتنا أنّنا لا نركّز كثيراً على تجارب السابقين ، ولا نبدأ من حيث انتهى الآخرون ، بل نبدأ من الصفر ونجرب ونقع في مطبات وقع فيها السابقون ، ولو قرأنا وتبصّرنا وتدبرنا ونظرنا وراجعنا تجارب السابقين لكان بالإمكان أن نجنّب أنفسنا الوقوع والسقوط في هذه المطبات والإشكاليات ؛ لأنّ الحياة وإن كانت تتجدد في تفاصيلها وفي رجالها وطبيعة معطياتها ولكنها تخضع لمعايير وضوابط وسنن وقوانين واحدة لا تتغير ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[١٦] .

فهناك حق وهناك باطل ، والصراع دائر بين الحق والباطل ، وبين النزعات الشريرة والنزعات الخيرة في الإنسان ، وهذا الصراع الداخلي بين نزعات الشر والخير والصراع المجتمعي بين الشر والخير ، بين الحق والباطل ، قد تجسد أيضا في قضية الإمام الحسين عليه السلام ، وهو يتجسد في كل زمان ومكان ، ولذلك نقول : كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء ؛ لأنّ قضية عاشوراء التي وقعت على أرض كربلاء هي قضية متجددة في كل زمان ومكان ، وهي قضية الحق والباطل والصراع الأزلي بينهما .

إذن ، البصيرة هي قوة الإدراك وقوة العقيدة واليقين والوضوح والفطنة والتنبّه والرؤية الثاقبة والقراءة العميقة ، وكما نعبّر : قراءة ما بين السطور ،

١٦ . فاطر : ٤٣ .

فيكتشف الإنسان الحقائق قبل أن تنفجر في وجهه، وهذه هي البصيرة.

ونجد الاستعمال القرآني لهذه المفردة في صياغات عديدة كلها بنفس المعنى، فجاءت «مبصرة» بمعنى الوضوح، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[١٧]، وجاءت «بصيرة» بمعنى الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[١٨]، أي هو ذو علم وخبرة، وجاءت لفظة «مستبصر» بمعنى مستبين يطلب البصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[١٩]، ومتبصّر أي متأمل، وتبصير بمعنى إيضاح، ونجد كل هذه التشقيقات لمفردة البصيرة تركز على ذات المعنى والحقيقة، وهي حالة الوضوح لدى الإنسان؛ الوضوح في العقيدة، والوضوح في ما هو صلاحه، والوضوح في ما ينبغي عليه فعله، والوضوح في تشخيص وتقدير الموقف.

والبصيرة في مصطلحاتنا الحديثة تعني الرؤية الاستراتيجية، فالأُمة التي تمتلك رؤية واضحة نعبّر عنها بالاستراتيجية، أي التي لا تتغير بالانفعالات، ولا تتأثر ببعض الإزعاجات والمنغصات، وهي تختلف عن الرؤية التكتيكية الوقتية، فالرؤية الاستراتيجية تركّز على بيان المصالح والمفاسد والاصطفافات، والأمة التي تمتلك مثل هذه الرؤية لا تضيع ولا تتلكأ ولا تخفق ولا تتردد؛ لأنّها شخّصت مسارها وحددت اتجاه البوصلة مهما كانت العوائق كبيرة والتحديات ضخمة والأخطار جسيمة، فهي قادرة على أن تتلمس طريقها وتصل إلى الهدف، وكذا الفرد الذي يمتلك هذه الرؤية الإستراتيجية والجماعة التي تمتلك هذه الرؤية الإستراتيجية.

والبصيرة مفهوم قرآني يرتبط بالعقيدة الإيمانية، ويرتبط بالوضوح في ما يجب أن يفعله الإنسان حتى يحقق لنفسه السعادة الأبدية ويصل إلى الجنة ويحقق رضا الله تعالى، والرؤية الاستراتيجية التي نتحدث عنها اليوم لا تختص بالحركة التكاملية نحو الله تعالى فقط، وإنّما ترتبط بتنظيم حياتنا اليومية وتفاصيلها، ولكن المعيار واحد والإطار واحد.

---

١٧. الإسراء: ١٢.

١٨. القيامة: ١٤.

١٩. العنكبوت: ٣٨.

المحور الثاني

أهمية البصيرة

لقد اخترنا الحديث عن البصيرة في هذا العام ، لأنّ أحد أهم تحدياتنا المجتمعية وإحدى أهم إشكالياتنا المعاصرة في العراق وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي والمجتمع العالمي الإنساني ، هي حالة التخبط وحالة الارتجالية وحالة المواقف الانفعالية وحالة ردود الأفعال غير المدروسة بعيداً عن التقدير الصحيح للمصالح ، فكم من حركة يقوم بها الإنسان ترتد عليه وتضر بواقعه وبحاله ، وكم من قرار يتخذه المجتمع ثم يرتد عليه بعد أن يتبيّن له أنّ هذا القرار لم يتسم بالحكمة والاستقامة فيتحول إلى حالة عكسية .

ويجب علينا تقدير الموقف الصحيح ، والانطلاق في كل موقف من رؤية استراتيجية ، والحرص على ألا نتحرك اعتباطاً وارتجالاً ، ونفكر ونقدّر ونقيّم ونحلّل ونصفّح ونقلّب الأُمور ونتريث فيها حتى تكتمل الرؤية ، وحينما نكون قد وصلنا إلى مرحلة الرؤية نصبح على قناعة واضحة وتامة بأنّ الخطوة الصحيحة هي أن نذهب بهذا الاتجاه .

لماذا يعيش المجتمع كل هذه الإشكاليات والتخبطات؟ ولماذا يعيش الفرد حالة التراجع في حركته ؛ لأنّه يتخذ قرارات ثم يندم عليها ، ثم يتراجع عنها ، ثم يقول ليتني لم أقم بهذه الخطوة ، وليتني لم أفعل هذا الفعل ، وليتني لم أذهب بهذا الاتجاه .

إذن ، فالرؤية الصحيحة أي البصيرة تمكّن الإنسان من اتخاذ المواقف الصحيحة التي لا يندم عليها ، ويستطيع أن يذلل بواسطتها كل العقبات ، فهناك أزمة اجتماعية كبيرة نعيشها اليوم في مجتمعنا العراقي وفي مجتمعات أُخرى ، وقد قدّم الإسلام تصوراً واضحاً لكيفية معالجة هذه الأزمة من خلال البصيرة التي ينبغي أن يتصف بها الإنسان .

وحينما نتحدث عن أهمية البصيرة نتحدث عن المفتاح السحري

والمدخل الصحيح لمواجهة الكثير من التحديات وللتخلص من ظاهرة التخبط والارتجالية والانفعال الذي نقع فيه على مستوى الفرد والجماعة،

البصيرة في القرآن

لقد تحدث القرآن الكريم عن أهمية البصيرة في مجموعة من الآيات:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠].

تناولت الفقرة الأُولى من الآية الشريفة موضوع توقعات الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله لو كان رسولاً حقاً من الله سبحانه وتعالى من باب التحدي، فقد كانت عندهم توقعات عالية وكبيرة، فمثلاً كانوا يقولون له: يا محمد إذا كنت رسول الله بالفعل فاجعل بيوتنا من ذهب!، أو يقولون: يا محمد إذا كنت رسول الله حقاً فإنّ مكة قاحلة بصحرائها فحوّلها إلى جنة فيها عيون وأنهار وبساتين!، وهكذا كان كل واحد منهم يتمنى ويطلب شيئاً ما، وكان جواب القرآن الكريم واضحاً وجلياً: أيها الناس هذا رسول الله جاء بمشروع، ولم يأت ليحقق أمانيكم على خلاف نظام السببية الذي يحكم هذا الكون، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، فالأشياء التي تطلبونها هي عند الله، وأنا لا أملك خزائن الله، فلا تطلبوا مني أشياء لا يمكن أن تتحقق، فإنّ النظام الذي وضعه الله تعالى لا يسمح بتحققها؛ لأنّ الله تعالى يقول ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢١]، أي أنّ الله تعالى ينزل مقداراً معينا من خزائنه التي فيها كلّ شيء وبمقادير لا نهاية لها، ولكنّه سبحانه بحكمته لم يجعلها في متناول أيدي الناس، حتى الأنبياء منهم، إلا بمقدار ما قدّر سبحانه وتعالى.

وتناولت الفقرة الثانية من الآية الكريمة مسألة علم الغيب، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، إذ كانوا يأتون إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويطلبون

٢٠. الأنعام: ٥٠.

٢١. الحجر: ٢١.

منه معرفة كم يعمرون، أو هل يربحون صفقة تجارية معينة، وأمثال هذه الطلبات، يريدون معرفة خيرها وشرها من دون أن يستعملوا عقولهم، بل يستغلون مواقع الرسالة الإلهية للوصول إلى مآرب شخصية أو الوقوف أمام أضرار شخصية.

وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يقول لهم إني لا أعلم الغيب، والله وحده هو عالم الغيب ويعلم كل شيء، وأنا لم أقل لكم إنّي أعلم الغيب، ولكن الله سبحانه وتعالى أحياناً يقدّر بحكمته أن يطلع بعض أنبيائه على بعض الغيب، فيطلعوا عليه بإرادة الله تعالى، كما أخبر تعالى بذلك في كتابه الكريم فقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[٢٢]، فلا أحد يطلع على غيب الله سبحانه إلا من ارتضاه وأراد أن يطلعه، وهذا كله تشكيك وذرائع يحتجون بها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا بالرسالة الإسلامية ولا يريدون الهداية والانصياع للحق.

وتناولت الفقرة الثالثة من الآية الكريمة حقيقة بشريته صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، أي ينفي عن نفسه صفة كونه ملكاً، بل هو بشر نبيّ يحمل رسالة إلهية، إذ اعترضوا عليه بأنّه مثلهم يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويمشي في الأسواق، فهم كانوا يقولون له إذا كنت نبياً حقاً فنريدك أن تكون ملكاً أو يمشي معك ملك من الملائكة!، والله تعالى يعلّمه بأن يقول لهم: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وفي آية أُخرى يأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٢٣]، وهذه من عظمة الخالق سبحانه وحكمته بأن يرسل للإنسان إنساناً مثله يحمل الرسالة الإلهية، فالله تعالى حينما يقدم لنا القدوة من أنفسنا، ومن شخص يحمل نفس صفاتنا البشرية فإنّ هذا معناه إمكان الاقتداء به، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢٤].

وتناولت الفقرة الرابعة من الآية الشريفة أنّه لا يقول شيئاً أو يفعل أمراً

٢٢. الجن: ٢٦- ٢٧.

٢٣. الكهف: ١١٠.

٢٤. الأحزاب: ٢١.

من تلقاء نفسه، بل يتبع ما ينزل به الوحي إليه من عند الله تبارك وتعالى، فأمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، أي أنا عبد مأمور، وأنا عبد مرسل يوحى إليّ وأنا أنقله لكم من دون زيادة أو نقيصة، فلا تطلبوا مني أكثر من ذلك، كما أخبر بذلك القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [٢٥]، فالمسألة ترتبط بالله تعالى وبإرادته في ما أقول وأفعل ليس إلا.

والشاهد الذي نريد أن نستفيد منه هنا ونستشهد به على أهمية البصيرة، هو قوله تعالى بعد كل ذلك، وبعد أن جاءت الآية لتناقش المنكرين الكافرين المشركين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، فالذي عنده بصيرة، وعنده رؤية ثاقبة، وعنده فطنة وفهم صحيح، يتلقى الرسالة ويتمسك بها، وبمجرد أن يطلع على الحق يتشبث به.

ولكن الذي لا يمتلك البصيرة يعيش حالة الفوضى والارتباك والتردد وحالة التخبط، لا يدري ماذا يعمل، ولا يعرف كيف يعالج أموره، وكيف يتغلب على مشاكله، فلو كانت لديهم القدرة على التفكر والتأمل لوصلوا إلى الرؤية الصحيحة، ولوصلوا إلى البصيرة، ولكانوا يلتزمون بالحق من دون هذه الاشتراطات التعجيزية، ومن دون هذه الحجج التي كان يحتج بها بنو إسرائيل من قبلهم.

وهي حجج وذرائع لو حققها لهم النبيﷺ لقالوا إنه ساحر، فلو غيّر هذا البيت وجعله من ذهب، أو أخبر الناس بحقائقهم لما انتهت القضية ولم يؤمنوا؛ لأنّ في قلوبهم مرضاً فزادهم الله مرضاً، فالمسألة ليست ذات صلة بتلبية هذه المطالب التعجيزية، إذ لو كانت هناك بصيرة في القلب تنفتح على الحق وتتمسك به لآمنت بالرسالات الإلهية من دون هذه الاشتراطات التعجيزية، فمن كان أعمى القلب، فإنّ كل هذه الأشياء لو تحققت فلن يؤمن، كما لاحظنا ذلك في أبي سفيان بعد أن رأى كل الحجج والبينات، نجده يلتفت ويقول للعباس: إنّ ملك ابن أخيك صار عظيما، فلم يؤمن بالرسالة ولا يستطيع، لأنّ حالة النفاق قد استحكمت في قلبه.

---

٢٥. النجم: ٣-٤.

فلا علاج لأزماتنا إلا بالبصيرة، وإذا لم تكن هناك بصيرة فستبقى المشاكل قائمة، ولو تدخلت السماء وأنزلت معاجز بمستوى معاجز سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله فإنّ الناس لا يستجيبون لها ويطلبون أشياء أُخرى، إذن يكمن الحل الأساسي في البصيرة.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٢٦].

تتناول الفقرة الأُولى من الآية الكريمة الحديث عن ثلاث سمات يترتب بعضها على البعض الآخر، هي:

الأُولى: الإيمان، وتتمثل هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، فالإيمان هو العقيدة الراسخة، والعقيدة الأكثر وضوحاً.

الثانية: العمل الصالح، وتتجسد هذه السمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، وهناك نوع من الارتباط الراسخ بين الإيمان والعمل الصالح، وكلما كانت مرتبة الإيمان أعلى، كان تجسيد هذا الإيمان عبر العمل الصالح أوضح، وكلما كان الإيمان أقوى كان العمل أكبر والهمم أكبر.

الثالثة: الإخبات، وتتضح هذه الصفة في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾، وقد أشارت آية أُخرى في القرآن الكريم إلى هذه الصفة، وهي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢٧]، والإخبات حالة التسليم لله تعالى، وهي متفرعة على الإيمان والعمل الصالح، فحينما يكون الإنسان مؤمناً ومعتقداً ومن أصحاب العمل الصالح يصل إلى مرحلة الإخبات والتسليم لله جل وعلا، ويصل إلى مرحلة الخضوع والخشوع بين يدي الله جل وعلا.

وتتناول الفقرة الثانية من الآية الكريمة العاقبة التي يؤول إليها أصحاب هذه السمات الثلاث وهي الجنة: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

٢٦. هود: ٢٣-٢٤.

٢٧. الحج: ٣٤-٣٥.

خَالِـدُونَ﴾، والجنـة والسـعادة الأبديـة بانتظـار مـن تتوفـر فيـه هـذه السـمات الثـلاث.

ثـم يضـرب الله تبـارك وتعالـى فـي الآيـة الثانيـة مثـل المؤمنيـن وغيـر المؤمنيـن بقولـه: ﴿مَثَـلُ الْفَرِيقَيْـنِ﴾، أي المؤمـن، وغيـر المؤمـن، ﴿كَالأَعْمَـى وَالأَصَـمِّ وَالْبَصِيـرِ وَالسَّـمِيعِ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَـلاً﴾، والأصـم هـو الـذي يفقـد القـدرة علـى السـمع، فهـل حـال الأعمـى كحـال البصيـر؟ وهـل حـال مـن لا يسـمع كحـال مـن يسـمع؟ طبعـاً لا يمكـن أن يتسـاويا.

والمقصـود مـن البصيـر فـي هـذه الآيـة الشـريفة ليـس هـو بصـر العيـن، إذ المؤمـن وغيـر المؤمـن كلهـم يبصـرون، ولكـن الفـرق الكبيـر بيـن المؤمـن وغيـره أنّ المؤمـن لديـه بصيـرة، أي بصيـرة القلـب وليـس بصـر العيـن فقـط، فهـو يـرى بعيـن الله، وهـذه البصيـرة إنمـا يرزقهـا الله سـبحانه وتعالـى للمؤمنيـن والمؤمنـات.

وليس المقصـود مـن السـميع أنّ غيـر المؤمـن ليـس لـه سـمع، فـلا يـراد منـه سـمع الأذن، بـل يـراد منـه الوعـي، وهـو أن يعـي الإنسـان الحقائـق، ومـن لديـه البصيـرة يكـون قـادراً علـى أن يعـي الأمـور بشـكل صحيـح، ولكـن غيـر المؤمـن، كالأصـم ليـس لـه وعـي، ، ولا يسـتطيع أن يـرى وان يعـي الحقائـق.

ثـم تشـير الفقـرة الأخيـرة مـن الآيـة الثانيـة، وهـي قولـه تعالـى: ﴿أَفَـلاَ تَذَكَّـرُونَ﴾، إلـى أنّ فـي ذلـك تذكـرة وانتباهـا والتفاتـا لمـن لديـه بصيـرة، فهـو ليـس كالـذي يفتقـد البصيـرة.

وفـي مقابـل البصيـر، الـذي يمتلـك البصيـرة، هنـاك «الغفلـة»، فالإنسـان الغافـل هـو الـذي لا يسـتطيع أن يعـي ويفقـه ويتعاطـى مـع حقائـق الكـون.

الآيـة الثالثـة: قولـه تعالـى: ﴿قُـلْ مَـن رَّبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُـلِ اللّهُ قُـلْ أَفَاتَّخَذْتُـم مِّـن دُونِـهِ أَوْلِيَـاء لاَ يَمْلِكُـونَ لأَنفُسِـهِمْ نَفْعـاً وَلاَ ضَـرّاً قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الأَعْمَـى وَالْبَصِيـرُ أَمْ هَـلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّـورُ أَمْ جَعَلُـواْ للّهِ شُـرَكَاء خَلَقُـواْ كَخَلْقِـهِ فَتَشَـابَهَ الْخَلْـقُ عَلَيْهِـمْ قُـلِ اللّهُ خَالِـقُ كُلِّ شَـيْءٍ وَهُـوَ الْوَاحِـدُ الْقَهَّـارُ﴾[٢٨].

٢٨. الرعد: ١٦.

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم في الفقرة الأُولى من الآية الشريفة أن يسأل الذين لا يؤمنون بوحدانية الله والذين يعبدون الأوثان من رب السماوات والأرض؟ أي من ينظم شؤون السماوات وشؤون الأرض؟ فإن لم يعرفوا فقل لهم هو الله، وعرّفهم بنفسك هذه الحقيقة، وهي أنّ الله تبارك وتعالى هو رب السماوات والأرض.

ثم يأمره في الفقرة الثانية من الآية الكريمة أن يطرح عليهم السؤال الثاني، وهو إذا كان الله تعالى هو رب السموات والأرض فلم اتخذتم من دونه أولياء، وتركتم مدبر السماء والأرض وتمسكتم بغير رب العالمين من هذه الأوثان والأصنام، وتركتم عبادة الله سبحانه؟ فلقد عبدتم الأوثان وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، وكيف يمكن لمن لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضر أو تجلب لها المنفعة والخير أن تنفعكم أو تدفع الضرر عنكم؟، فهل هي قادرة على أن تحل مشكلتها لكي تحل مشكلتكم؟.

وقد كانت الأوثان والأصنام عند الجاهلية كاللات والعزى وهبل مصنوعة من الحجر، يضعونها أمامهم ويعبدونها، وقد تكون هذه الأوثان أي شيء آخر في الحياة يُبعد الإنسان عن الله تعالى ويصرفه عن عبادته وطاعته، ومثال ذلك الشخص يرى فتاة فتعجبه ولكن لا تصبح من قسمته ونصيبه، فيظل باله وفكره وحياته ووجوده، وكل شيء عندها، فهذه صارت وثنا له، وكذلك شخص لديه قضية معينة أو تجارة معينة، فتصبح كل وجوده، لا البيت له حصة، ولا الدين له حصة، ولا الحياة لها حصة، ولا المجتمع له حصة، ووقته كله عمل في التجارة يريد أن يجمع نقوداً أكثر، لمن تجمع هذه الأموال؟ أليس الهدف أن ترتاح بها، فأين هي راحتك؟، وأين راحة أهلك؟ وأين فائدة المجتمع منك؟، ومن يستطيع أن يراك؟ إذن فأي شيء يتخذه الإنسان شغلاً شاغلاً له ويستحوذ على وجوده وعلى اهتمامه من دون الله بعيداً عن الطريق الصحيح يصبح إلهاً له من دون الله تعالى.

إنّ هناك من يجاهد في سبيل الله ويصرف كل حياته ووجوده لكي يحقق سيره التكاملي إلى الله تعالى، ويسلك طريق العبودية ليصل إلى الله تعالى، ولكن اليوم هناك أُناس من خدمة سيد الشهداء عليه السلام، يصرفون

الوقت والجهد في هذه الخدمة، التي منها الحضور في هذه المجالس والخدمة الحسينية بكل أنماطها في سبيل القرب من خلال ذلك إلى ساحة القدس الإلهي، فمن هو الإمام الحسين عليه السلام؟ ولماذا نخدمه ونقف له؟ ولماذا نواسيه؟ ولماذا نستذكره؟ ولماذا نعتلي المنابر من أجله؟ إنّنا نفعل كل ذلك لأنّه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأنّه حامل مشروع الرسالة ومشروع الله سبحانه وتعالى، كما عبّر عن ذلك بقوله: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[٢٩]، فقيمة الإمام الحسين عليه السلام هي بما يمثله من امتداد للرسالات الإلهية، لأنّه وريث الأنبياء، كما ورد ذلك صريحاً في زيارة وارث: «. . . . . السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله»[٣٠].

ولذلك فإنّ الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام ارتباط بالله سبحانه وتعالى، ولكن من يركز اهتمامه على قضية ما سوى الله فإنّها تستحوذ عليه حتى تصير إلهاً له من دون الله، وهذا الاله لا يملك لنفسه شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[٣١]، أي لا يستطيعون أن يدفعوا الضرر عن أنفسهم، ولا يستطيعون أن يجلبوا المنفعة لأنفسهم، فكيف يستطيعون دفع الضرر عن غيرهم؟! وهنا يطلب الله تعالى من رسوله الكريم صلى الله عليه وآله أن يقول هذا الكلام للوثنيين.

ثم يأمره أن يقول لهم أيضاً، وهنا الشاهد: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، فالذي يعبد الله هو البصير، ويمتلك البصيرة، ويمتلك الرؤية الواضحة، ويسير في الاتجاه الصحيح، ولكن الذي يعبد الأوثان ويوجّه اهتمامه لما سوى الله سبحانه فهو كالأعمى، وقلبه ليس فيه بصيرة.

---

٢٩. بحار الانوار ٤٤: ٣٢٩.

٣٠. بحار الأنوار ٩٨: ١٦٣، ح٨.

٣١. الرعد: ١٦

ثم يضرب الله سبحانه مثلاً آخر للمؤمن وغير المؤمن، فيشبّه الأول بالنور والثاني بالظلمة، فيقول: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾، أي أنّ من يسير في طريق العبودية لله، وقلبه منوّر بذكر الله تعالى وكل التفاته واهتمامه وتركيزه نحو الكمال، هل يتساوى مع الذي يسير بطريق الظلمات، وهي سكون وجمود، يراوح في مكانه، في حالة اليأس والانكسار، والتوقف عن كل شيء؟.. إن الأفضل هو الإنسان المؤمن قطعاً، ، الإنسان المتوجه نحو الله، ،الإنسان صاحب المشروع، ،الإنسان الطموح، ، الإنسان الذي يتحمل المسؤولية تجاه المجتمع، فهذا الإنسان مليء بالطاقة والحيوية والحماسة والنور، وانطلاقه نحو الأهداف الصحيحة.

ثم ينتقل الحوار مع المشركين إلى طرح السؤال التالي عليهم: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، أي قل لهم يا رسول الله أتركتم رب العالمين وتمسكتم بأوثان صنعتموها من حجر، فهل خلقوا خلقاً كما خلق الله سبحانه فتشابه الخلق عليكم ولم تميزوا بين ما خلق الله وما خلقت هذه الأوثان؟! مع أنّكم تعلمون أنّ هذه الأوثان لم تخلق شيئاً، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل شيء؛ ﴿قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، فالخالق هو الله سبحانه وتعالى لا غير، فإذا كانت المخلوقات كلها من خلق الله سبحانه وتعالى فلم وقعتم في العمى والظلمة والتشبث بالأوثان وترك الله سبحانه وتعالى وتجاهل وحدانيته؟!، فانظروا إلى البصيرة وتأثيرها، وآثارها العظيمة في حياة الإنسان وحياة الأمة وحياة الجماعة.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[٣٢].

تكفلت الآية الأولى ببيان حقيقة أنّ المؤمن هو البصير والكافر هو الأعمى، فكيف يمكن أن يتساوى من يسير في طريق الكمال وطريق الله سبحانه وتعالى وهو البصير مع من هو أعمى؟!.

٣٢. فاطر: ١٩ـ٢٢.

وتناولت الآية الثانية بيان حقيقة عدم تساوي النور مع الظلمة: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾، فحاشا أن يتساوى النور والظلمة، بل هما وجودان مختلفان يحتاج الخروج من أحدهما والدخول إلى الآخر إلى عامل خارجي، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣٣]، وقد ورد النور هنا بصيغة المفرد والظلمات بصيغة المتعدد، فلم يقل يخرجونهم إلى الظلمة بل إلى الظلمات؛ لأنّ النور يتجسد بالهدف الواحد، بالله سبحانه وتعالى، وهو ليس فيه تعدد، ولكن الظلمات وهي كل ما سوى الله كثيرة، لذلك جاءت الظلمات بصيغة الجمع، فالظلام منشؤه السكون والركود، واليأس والإحباط، والظلمة منشأ الأخطار، فنرى الإنسان يتعثر فيها وقد يقع في بئر أو حفرة، ويتأذى من ذلك، وكما أنّ الظلمة المادية منشأ أخطار مادية، فكذلك ظلمة القلب منشأ الأخطار المعنوية الجسيمة والعظيمة، ولكن النور منشأ الحياة والحركة والحيوية والنشاط والتكامل.

ثم تطرقت الآية الثالثة إلى بيان حقيقة عدم تساوي الظل والحرور: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾، الظل أو الفيء بعيد عن الشمس، ويأتي منه هواء لطيف بارد، والحرور هو الشمس المحرقة والهواء الحار السموم ذو اللهيب الحار، فهل هما متساويان؟ الناس تهرب من الشمس المحرقة وتلوذ بمكان تحت الظل، فالظل ليس مثل الحرور، وكذا الإنسان الكافر، والإنسان المنحرف، والإنسان المذنب، والإنسان العاصي، والإنسان الذي يبتعد عن جادة الصواب في بعده الديني والدنيوي، والإنسان الذي يتخبط، ، والإنسان الذي ليس لديه رؤية واضحة، والإنسان الذي لا يعرف ماذا يفعل، والإنسان الذي يعيش حالة ارتجالية، مثل هذا الإنسان مكشوف تحت النار المحرقة وتحت الشمس اللاهبة، ومعرض للاستهداف من كل حدب وصوب.

وتحدثت الآية الرابعة عن حالة عدم التساوي بين الأحياء والأموات:

٣٣. البقرة: ٢٥٧.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾، فالحياة الحقيقية، هي حياة الإنسان المؤمن، حياة الإنسان المتجه نحو المشروع، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣٤]، الحياة المادية لها مؤشرات، فالمريض الذي في حالة خطرة ينقل إلى المستشفى فيمسك الطبيب فوراً يده ليتحسس نبضه ليعلم حياته أو موته، وهناك مؤشرات أُخرى للحياة يعرف من خلالها حياة الإنسان، وإذا ما عُدمت هذه المؤشرات فمعناه أنّه مات، وكما أنّ للحياة المادية مؤشرات فهناك مؤشرات أيضاً للحياة المعنوية، لحياة القلب وحركة الإنسان التكاملية نحو الله سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٣٥]، فالله تعالى هو الذي يمنح البصيرة للإنسان، ومن هُدي إلى صراط مستقيم، فبفضل من الله تبارك وتعالى، ولقد كنا أمواتاً لا نعلم أين الحق، والله سبحانه وتعالى أحيانا حينما أرانا الطريق وأرسل إلينا الأنبياء والأوصياء والأولياء، وجاءتنا الحياة الطيبة، وصارت عندنا بصيرة ورؤية واضحة، وعرفنا أين الحق والباطل، وعرفنا أين نضع أيدينا وبيد من، وعرفنا مع من نصطف وضد من نقف، وهذه كلها بصيرة،

ونقف اليوم بعد ٢٠٤١ سنة ونقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيماً، أي ليتنا كنا في يوم عاشوراء معك فنذب عنك ونضحي بأرواحنا لئلا يصل إليك وإلى أهل بيتك مكروه، وقد وصلنا إلى هذه الدرجة من الوضوح بسبب ما نملكه من بصيرة، وهي مصداق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، فالإنسان الذي أحياه الله تعالى وأخرجه من الظلمات إلى النور، هل مثله كمن هو في الظلمات ليس بخارج منها؟ كلا طبعاً، فالإنسان الذي يسير بنور الله ويعرف الطريق ويعرف واجباته ومسؤولياته، ويتحرك

٣٤. النحل: ٩٧.

٣٥. الأنعام: ١٢٢

ضمن إطار صحيح، وعنده بوصله واضحة يتحرك على هداها، ليس مثل الذي يسير في الظلمات التي يدخل فيها ولا يعرف الخروج منها.

وأشارت الآية السابقة الى توهم الكافرين أنّهم على جادة الصواب والهداية: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، والله سبحانه وتعالى جعل هذه الخصوصية «البصيرة» سمة مهمة للمؤمنين، وأما الكافرون فقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فهم فرحون بالظلمة، ويعتقدون بأنّ فيها كل شيء، فيندفع نحو الدنيا والشهوات إلى أن تضعف قواه ويخرج من الدنيا صفر اليدين، ويخسر الآخرة.

ثم بيّنت الفقرة الأخيرة من الآية موضع البحث حقيقة أنّ الله تعالى هو واهب البصيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، فالله يُسمع ويُحيي ويهب البصيرة لمن يشاء من عباده، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، فمن ليس لديه بصيرة ولا إيمان ولا مشروع ولا رؤيّة، لا ينفع معه النصح مهما تكلمت معه، وسبب ذلك أنّ الله تعالى قد طبع على قلوبهم، وأنّ في قلوبهم مرضا فزادهم الله مرضاً، ومهما تقل له فهو لا يسمع، مع أنّ القضية واضحة فلماذا لا يعرفها ولا يقبلها ولا يتفاعل معها، وهذا الإمام الحسين عليه السلام بعظمته، كيف لا يعرفه ويتنكر له؟ وهل يعقل مع كل هذا الوعي وبعد مرور أربعة عشر قرناً، هناك من يكره الإمام الحسين عليه السلام؟.

المحور الثالث

أدوات البصيرة

ما الأدوات التي يمكن من خلالها أن نحصل على البصيرة؟ . . لقد حدّد القرآن الكريم ثلاث أدوات لتحقيق البصيرة وإيجادها في الإنسان :

الأداة الأُولى : القلب

ويعني الفكر والتأمل والنظرة الثاقبة في الأُمور، فالإنسان البصير ليس إنساناً ساذجاً، وليس إنساناً انفعاليا يأخذ قراراته على خلفيات انفعالية وانطباعات سريعة، بل يفكر ويتأمل وينظر ويدقق ويحلل، هذه خصيصة مهمة وأحد المداخل المهمة لتحقيق البصيرة.

الأداة الثانية : السمع

ولا نعني بها الأُذن التي يسمع بها، بل نقصد بها البصيرة والوعي، أي تكون له القدرة على أن يصغي لنداء الحقيقة، ويعي الحقائق حوله، ويعرف أين هو، وما الذي يجري حوله، حتى يصل إلى معرفة الموقف المطلوب منه تجاه ما يجري حوله.

الأداة الثالثة : البصر

ولا يراد بها العين، فما أكثر من يبصر بعينه ولكنه أعمى القلب، بل نقصد البصر الذي يأخذنا إلى رؤية ما وراء الحدث وما بين السطور، وإلى اكتشاف الحقائق كما هي.

أدوات البصيرة في القرآن الكريم

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأدوات الثلاث للبصيرة في عدة آيات:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ

وَالْإِنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٣٦].

وذرأنا يعني نشرنا، ولعل المقصود منها لقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، فإنّ مصيرهم ومسارهم نحو الضلال والانحراف وبالتالي نحو السعير، وقد يقول قائل كيف ينسجم هذا مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣٧]، أي ليعرفوا الله ويعبدوه ويسيروا في طريق العبودية والطاعة له، وإذا كان الهدف من الخلق طاعة الله وعبادته فكيف تقول هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؟.

والجواب أنّه لا تعارض بينهما، فالله تعالى بكرمه ولطفه حينما خلق الناس للكمال والطاعة وفّر لهم أدوات البصيرة وأعطاهم السريرة الطيبة، فكل مولود يولد على الفطرة، وأعطاهم القدرة على الوعي واكتشاف الحقائق والسير في طريق عبودية الله تعالى، ووفّر لهم سبل السعادة والصلاح والانطلاق نحو الله تعالى ونحو كمالهم.

وهذه قضية تجتمع عليها جميع المخلوقات، من الجن والإنس، فقد أودع الله فيهم هذه السمة، ولكن البعض منهم يستفيد من هذه العطية الإلهية والنعمة العظيمة، والبعض الآخر لا يريد أن يعي ويبصر ويفكر، ويأخذ القرارات الانفعالية المرتجلة السريعة في شؤونه الشخصية وفي حياته الاجتماعية وفي كل شيء، فهو رجل انفعالي لا يريد أن يقف ويصل إلى رؤية وبصيرة من أمره، في حين أنّه يجب على الإنسان أن يخطط ويفكر وينظر، ويضع المعايير الصحيحة، ويمضي في الاتجاهات الصحيحة، ويرفع يديه في الدعاء ويطلب من الله تعالى أن يجعل رؤيته ومواقفه صحيحة، ويطلب منه التسديد في القول والعمل والرؤية وما إلى ذلك.

وعليه ألا يهمل هذه الأدوات ويطلب من الله التوفيق والتوكل؛ لأنّ الله هو الذي جعل هذه الأدوات وطلب من الإنسان أن يستخدمها، وأودع في

٣٦. الأعراف: ١٧٩.

٣٧. الذاريات: ٥٦

الجن والإنسان مكامن الصلاح والهداية، ولكن البعض يأخذ بها والبعض لا يأخذ، والله تعالى بعلمه الواسع يعلم سلفاً أنّ هذه الطائفة من الجن والإنس سوف لن يأخذوا بهذه الأدوات ولن يستفيدوا منها، ولذلك حدد موقفه سلفاً وقال، ذرأنا هؤلاء لجهنم بعد أن أعطيناهم الفرصة ولم يستفيدوا منها.

وهذه الطائفة من الجن والإنس مصيرهم إلى جهنم؛ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي لهم قلوب لا يريدون أن يستفيدوا منها، ولا يريدون أن يحققوا سعادتهم من خلالها، فقد جمدوا قلوبهم وهي ذات طاقة كبيرة.

وكذلك، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، فقد أعطاهم الله تعالى القدرة على القراءة الصحيحة للأمور، وأن ينظروا نظرة ثاقبة، ولكنهم لا يريدون أن يوظفوا هذه النعمة.

﴿**وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾، فقد أعطاهم الله تعالى القدرة على الوعي أيضاً، ولكنهم لا يريدون أن يعوا ويفكروا، فمثلاً بعض الشباب حينما يسير في الطريق يضع سماعات في أذنيه وأنت تسمع الصوت من بعيد، لأنّه لا يريد أن يفكر، ويبحث عن اللهو وإشغال نفسه.

ثم يصفهم الله سبحانه وتعالى بالوصف الذي يستحقونه، فيقول: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾، فإنّ ما يميز الإنسان عن الحيوانات هو البصيرة بأبعادها الثلاثة، والجنَ والإنس لهم قلوب ولهم أعين ولهم آذان، أي لديهم قدرة الإدراك والبصيرة، ولكن الحيوان ليس له هذه القدرة؛ لأنّ الإنسان الذي لا يوظف أدواته الإدراكية ولا يستخدم الطاقات التي اودعها الله فيه حتى يبصر يكون حاله حال الحيوان، فإنسانية الإنسان بالقلب والسمع والبصر، أي بالبصيرة، فإذا جمدها ولم يستفد منها كان كالانعام.

ثم يصعّد القرآن من درجة المقارنة فيقول: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، أي أنّ هؤلاء أسوأ من الحيوانات؛ لأنّ الحيوان مجبول على الغريزة لا يستطيع أن يفكر ويتأمل، وهو يفتقد القدرة على ذلك، وأما الإنسان فإنّ لديه القدرة على التفكير وبالتالي على أن يكون بصيراً، وإذا كان الحيوان معذوراً فإن الإنسان ليس معذورا.

ثم يتمم القرآن وصفه لهؤلاء فيقول: ﴿أولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، فيا أيها الإنسان إذا كانت لديك بصيرة ولم تستخدم أدواتك الإدراكية ولم تعمل على تحقيق البصيرة في نفسك، فإنك غافل؛ لأنّ الغفلة في مقابل البصيرة.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٣٨].

تضمنت الفقرة الأُولى من الآية الكريمة الحديث عن المقارنة بين الذين اجترحوا السيئات والمؤمنين: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، واجترحوا من الجرح، والجرح يخلّف أضراراً في البدن والجسم، والاجتراح هو جرح معنوي يخلّف أضراراً في روح الإنسان، ويعني بها المعصية، فهؤلاء صدرت منهم المعصية والذنب، فهم مذنبون مجرمون عصاة.

وفي المقابل هنالك المؤمن الذي حوّل إيمانه إلى موقف وسلوك، وإلى بناء وخدمة، وإلى وقفة مع النفس، فيقف الإنسان مع نفسه ومع الآخرين ويدفع الجميع لتحقيق الازدهار والكمال الإنساني في بعده المادي وبعده المعنوي.

وتطرقت الفقرة الثانية من الآية الكريمة: ﴿سَوَاء مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ إلى بيان الفرق بين حياة وممات الذين ارتكبوا السيئات والمؤمنين، والسؤال المطروح في الآية هو سؤال استنكاري في اللغة العربية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٩]، يعني لا يستوون، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا

٣٨. الجاثية: ٢١-٢٣.

٣٩. الزمر: ٩.

يَسْتَوُونَ﴾[٤٠]، فلا يجوز المساواة بين المذنب والمؤمن؛ لأنّهما مختلفان في حياتهما ومماتهما، وهيهات أن يكون العالم والجاهل على حد سواء، وهيهات أن يكون النور والظلمة على حد سواء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٤١]، هيهات أن يكونوا كذلك، وحاشا لله أن يساوي بينهما.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٤٢]، فما هذه الرؤية الخاطئة! وكيف يمكن أن تساووا بين المسلمين والمجرمين؟!، فالمؤمن الذي يعمل الصالحات بحكم إيمانه ويعيش حالة الاستقرار النفسي يشعر بالأمن والراحة والطمأنينة، إن أصابه خير شكر الله عليه فلا يصاب بالغرور، وإن أصابته مصيبة أو ألمّ به مكروه لا ينهار ولا يضيع ويتدارك ويتحدى ويقف ويواجه، فهذا الإنسان المؤمن يعيش حالة الاستقرار.

وأما الآخر الخارج عن الإيمان فيعيش حالة الاضطراب والقلق دائماً، ويفقد حالة الشعور بالطمأنينة والاستقرار، وينهزم بسهولة ولا يقف ليتحدى ويحقق إنجازاً، وإذا ما أصابه الخير أُصيب بالغرور فلا يشكر الله تعالى على ذلك، ولا يوظف هذه النعمة لخدمة العباد والبلاد، على عكس الإنسان المؤمن، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٤٤]، فالمؤمن الذي لم يخلط إيمانه بظلمٍ وإساءة ومعصية يجازيه الله تعالى بالهداية والأمن والطمأنينة، وقد وعد الله تعالى

٤٠. السجدة: ١٨.

٤١. ص: ٢٨.

٤٢. القلم: ٣٥-٣٦.

٤٣. إبراهيم: ٧.

٤٤. الأنعام: ٨٢.

الإنسان المؤمن بالنصر، وحاشا الله أن يخلف وعده، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[٤٥].

فالأنبياء والذين آمنوا قد وعدهم الله بالنصر والعزة والكرامة والرفعة في الحياة الدنيا والدار الآخرة، والإنسان المؤمن يملأ قلبه نور الإيمان، وأما الإنسان الكافر فيعيش حالة الإحباط والخوف والتردد، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فيعيشون حالة النورانية، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٤٦]، أي أنّ الله تعالى قد جبل الإنسان على الفطرة، والفطرة فيها أدوات البصيرة، ولكن الطاغوت واتباعهم للمنكر، هو الأمر الذي أخذهم إلى الظلمات.

ثم يقول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية موضع الشاهد: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، فالله تعالى خلق كل شيء بالحق، والحق لا يمكن أن يجمع المؤمن والمذنب والعاصي والمجرم في بودقة واحدة وحكم واحد، بل يتعامل بالحق، ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ويعطي كل ذي حق حقه، ويعطي كل واحد نتيجة أعماله.

يقول البعض نحن نريد أن نشيع العدل والمساواة، ودائماً ما نستعمل العدل والمساواة معاً، ولكن في الرؤية القرآنية، العدل لا يعني المساواة، فالمساواة فيها ظلم أحياناً، فإنّ من درس وتعب وحصل على درجات عالية في الامتحان، هل من العدل أن يتساوى مع من لم يدرس ولم يحصل على درجات عالية؟ ولذلك يقول تعالى: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، فكل واحد منا يأخذ نتيجة أعماله.

إذن العدل لا يعني المساواة، والعدل يعني إعطاء كل ذي حق حقه، والمساواة تؤدي إلى الظلم والتعسف في كثير من الأحيان.

ثم تتحدث الآية الكريمة عن جماعة من الناس قد اتخذت أهواءها إلهاً لها من دون الله تدين له بالطاعة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ

٤٥. غافر: ٥١.

٤٦. البقرة: ٢٥٧.

اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾، يضله الله لأنّه لا يمكن أن يكون في طريق الهداية وهو يعتمد على هَواه.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى الأدوات الثلاث للبصيرة، وهي السمع والقلب والبصر: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾، وحينئذ تستحيل الهداية لمثل هؤلاء الناس: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، كما جاء تأكيد ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤٧]، فالله تعالى يضله بعدما علم بسوء سريرته، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي ألا تشعرون بالتفاوت؟ وهذا هو دور البصيرة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤٨]، فالناس الذين لديهم الطيبة والطهارة والسمو تسلّم عليهم الملائكة عند وفاتهم، ويطمئنونهم بأنّهم مقبلون على رب غفور رحيم، ويطلبون منهم دخول الجنة اليوم جزاء أعمالهم الصالحة.

وفي مقابل هؤلاء، هناك المذنبون العصاة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤٩]، فهؤلاء الناس ما إن تتوفاهم الملائكة، حتى تنفتح أبصارهم على النشأة الأخرى ويصبحوا أمام الأمر الواقع، وأنّ كل ما يقال هو حقيقة، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾، فيحاولون أن يتماشوا ويحاولون أن يستسلموا ولكن بعد فوات الأوان وبعد ذهاب الفرصة.

لقد كانت لديهم فرصة في الدنيا ولكنهم لم يستفيدوا منها ولم يستسلموا لأمر الله حتى باغتهم الموت، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٥٠]،

٤٧. الأعراف: ١٨٦.

٤٨. النحل: ٣٢.

٤٩. النحل: ٢٨ – ٢٩.

٥٠. لقمان: ٣٤.

وعندما يرتكب الإنسان المعصية يكون قلبه قاسياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥١]، فهؤلاء لم ينصاعوا لأمر الله ولم يتداركوا ما هم فيه عندما كانوا شباباً فكانت جهنم عاقبة أمرهم.

أيها الأحبة، أنتم الشباب، كلما أرى هذا العدد الكبير من الشباب في مجالس الحسين عليه السلام التي هي مجالس الصلاح والإصلاح تدمع عيني وأشكر الله تعالى أن أعطى هذه البصيرة لشعبنا وشبابنا نحو التقوى والعلم والفضيلة، فهنيئاً لكم، فالشاب عنده فرصة لا تقدر بثمن، وعليه أن يحاول السير في الطريق الصحيح، فإنّ من يُنهي حياته في المكر والخداع والكذب والدجل فإنّه في الآخرة يحاول أن يمارس التضليل والخداع أيضاً، كما أخبر عنهم الباري عز وجل: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، فقد أنهى هؤلاء العصاة حياتهم كلها بالدجل والتضليل والكذب ثم جاؤوا يوم القيامة ليكذبوا ويقولوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾.

ولكن يأتيهم الرد الإلهي كالصاعقة: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالله تعالى يعرف كل شيء، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، هذه خطيئة أُخرى يرتكبونها في النشأة الأُخرى وهي الكذب والتحايل والخداع، وتكون جهنم هي النتيجة الحتمية لأعمالهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وقد ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنّ الله عز وجل يقول وعزتي وجلالي وعظمتي وقدرتي وبهائي وعلوي في مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا جعلت غناه في نفسه، وهمّه في آخرته، وكففت عنه ضيعته، وضمنت له السماوات والأرض رزقاً»[٥٢].

يقسم الله تبارك وتعالى بأيمان مغلّظة أن يجعل همّ من يؤثر طاعة الله سبحانه على هواه في أربعة أُمور، هي:

الأول: أن يجعل غناه في نفسه، أي يجعله يلتفت إلى نفسه ويبصّره

٥١. الأنعام: ٤٣.

٥٢. بحار الأنوار ٦٧: ٧٥، ح٢.

بها، فيجعل عينه على عيوبه ومشاكله، فيحاسب نفسه كيف ارتكبت هذا الخطأ، وكيف تكلمت بهذا الكلام، وكيف ذهبت إلى المكان الفلاني وسمعت كذا ونطقت بكذا، فهمّه وعناؤه في نفسه، كيف يبني نفسه ويربيها، ومن أعظم النعم على الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى يوجّه طاقته إلى بناء نفسه، فيصير قوياً ويسير ضمن المسارات التي أرادها الله سبحانه وتعالى.

والثاني: أن يجعل همّه في آخرته، فيكون كل همّه كيف يرضى الله عنه، وكيف يضمن آخرته، فإنّ الإنسان إذا ما انقضى من عمره خمسون أو ستون سنة، فمهما كان نوع الطعام الذي تناوله من لذائذه أو كان خبزاً يابساً يسد به رمقه فلم يمت من الجوع، فقد تكفل الله تعالى برزق العباد، والخالق هو الرازق، وحاشا لوجهه الكريم أن ينسى أحدا من خلقه.

ومن كانت همّه الدنيا فستأتيه ولكن عليه أن يعمل بالأسباب الطبيعية ولا يقصّر بأداء واجباته والبحث عن عمل والباقي على الله، فهو سبحانه ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٥٣]، وعلى الإنسان أن يجعل همّه الآخرة، فإنّ سنوات العمر سرعان ما تمضي كلمح البصر؛ فقد ذهبت أربعون أو خمسون أو ستون عاماً من أعمارنا في رمشة عين، فبالأمس كنّا في المدرسة الابتدائية نلهو ونلعب، وبالأمس القريب سقط الطاغية صدام، ولكن مرت عشر سنوات منذ ذلك اليوم، وهكذا تمضي الحياة الدنيا، ولكن ماذا قدمنا لحياتنا الأبدية مع أنّها الأهم؟.

وهذا الذي يصبح همّه رضا الله تعالى، وأن يبني للدار الآخرة، فهو في توفيق عظيم منه سبحانه وتعالى، وما دار الدنيا إلا دار مؤقتة نمر من خلالها إلى الدار الخالدة، فالبعض منا حينما يبني بيتاً، يحتاج إلى بيت للإيجار يسكن فيه إلى أن ينتهي العمل في البيت الذي يملكه، وهكذا هو مثل الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الأخرى.

ومثال آخر قاعات الترانزيت في المطارات، حيث توفر فيها خدمات بسيطة لساعات فقط لأولئك الذين ينزلون لساعات في انتظار طائرة أخرى

٥٣. الذاريات: ٨٥.

تقلّهم إلى حيث يستقر بهم المقام، فعلى الإنسان ألا يستعد لدار المجاز كما يستعد لدار القرار والآخرة التي تحتاج إلى كل الجهود .

الثالث : أن يكف عنه ضيعته، أي أن يتكفل ما يغيب عنه، وكل ما يخسره ويفقده يعوضه الله سبحانه وتعالى، فهو الضامن، وهل هناك ما هو أعظم من التأمين الذي يمنحه الله لعبده؟ .

إنّ أكثر الشركات ربحاً في العالم اليوم هي شركات التأمين، وهي تشمل أنواعاً كثيرة من التأمين، كالتأمين على الحياة والبيوت والسيارات والطائرات والبواخر وغيرها، وهكذا يطمئن الناس على أموالهم، سواء احترقت أو انهدمت بالفيضان أو الزلزال وما شابه ذلك، فالشركة تدفع لأصحابها تعويضات كاملة، فكيف إذا كان الأمين هو الله سبحانه وتعالى الذي يتكفل بالتأمين للإنسان في كل شؤونه، وهو بالنسبة لأصحاب الإيمان أهم من شركات التأمين .

الرابع : أن يضمن السماوات والأرض رزقاً له، فالله تبارك وتعالى هو الضامن لرزق الإنسان في السماوات والأرض، وليراجع كل شخص منّا نفسه، فهناك أعمال نتعب بها ونعتقد بأنّ فيها ربحاً ثم يتبين أنّه لا يوجد فيها ربح، بل يوجد فيها خسارة، وهناك عمل ليس في الحسبان وفجأة تأتي فرصة فيها ربح، سواء في مال أو قضية في شأن من شؤون الحياة، وهناك مشاريع نخطط لها كثيراً ولا تأتي بنتيجة، وهناك مشاريع لا نخطط لها وفجأة تصبح على أرض الواقع، وهناك من يسجل اسمه للحج، وينتظر سنوات إلى أن يخرج اسمه مع قائمة الحجاج لهذا العام، وفي ليلة السفر يقع وتنكسر رجله ولا يستطيع أن يذهب، وهناك من ليس في خاطره الذهاب إلى الحج وفي الصباح يتصلون به ويقولون له جاءت فرصة، فهل تذهب إلى الحج، وهو لا يتعقل، يخبرونه في الصباح، ويركب الطائرة ظهراً، ويرى نفسه في المسجد النبوي أو المسجد الحرام مساءً .

فمن يؤثر هوى الله على هواه ضمن له السماوات والأرض رزقاً، ومن قدّم إرادة الله على إرادته، وغلّب إرادة الله ورضا الله على نزواته، فسيرى كيف تحل له الأمور، وكيف تترتب حياته تلقائياً .

الفرق بين الطموح والغرق في الأمل

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل ، أما الهوى فانّه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»[٥٤] .

إنّ أخطر الفايروسات على الحالة المعنوية للإنسان هما الهوى وطول الأمل ، فقد يغرق الإنسان في بحر الأمل ، وإذا سئل ماذا تريد أن تصبح؟ يقول أريد أن أكون طبيباً وافتح مستشفى وأعمل كذا وكذا ، وإذا قيل له أين الموت؟ ، سيقول أحتاج إلى ٥٠٠ سنة حتى أُفكر بالموت ، بسبب ما لديه من آمال طويلة ، وهناك فرق بين طول الأمل والطموح العالي ، وعلو الطموح وعلو الهمة أمر جيد ، والآمال والتمنيات التي تجعل الإنسان متشبثاً بالدنيا هي التي يخشى منها رسول الله صلى الله عليه وآله على المسلمين .

ثم يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله نتيجة طول الأمل فيقول : «وأما طول الأمل فينسي الآخرة» ، ونعوذ بالله تعالى من طول الأمل ؛ لأنّ الإنسان إذا نسي الآخرة لم يقدّم لها شيئاً ويكون أكبر همّه الدنيا ، وحينئذ سيخسر النعيم في حياته الأبدية ، بل يجلب لها الجحيم والتعاسة في عالم الآخرة ، وعندما تكون للإنسان مشاريع يستغرق تنفيذها عشرات السنين كيف يتسنّى له أن يفكّر في آخرته ويعمل لأجلها شيئاً ، وهو قد استنفد طاقاته يركض يميناً وشمالاً يجمع الأموال ويكنزها ولا ينفقها في سبيل الله تعالى ، وقد نسي حياته وعائلته وأوقات صلاته وعبادته ، ولا وقت لديه للتفكير في ما يؤول إليه مصيره .

طريق نجاة الأُمة

عن الإمام الصادق عليه السلام : «إني لأرجو النجاة لمن عرف حقنا من هذه الأُمة ، إلاّ لأحد ثلاثة ؛ صاحب سلطان جائر ، وصاحب الهوى ، والفاسق المعلن»[٥٥] .

---

٥٤ . بحار الأنوار ٦٧ : ٧٥ ، ح٣ .

٥٥ . الكافي ٨ : ١٢٨ ، ح٩٨

يبشّر الإمام الصادق عليه السلام هذه الأُمة بالنجاة، ممّن عرف حقّ أهل البيت عليهم السلام، ولكن يستثني منهم ثلاثة أصناف:

الأول: صاحب السلطان الجائر، وهم المقربون من السلطان الظالم، وإن كانوا غير راضين عنه، وإنّما اتّبعوه طلباً للعافية، ومن أجل الراتب الجيد والإمكانات والوجاهات، ولكن الظالم يظلم بأدواته، ومن كان معه يصبح من أدواته ووسائله التي يستعين بها على الظلم والبطش، وقدّم مصلحته الشخصية على مصلحة الأُمة، كما أنّ الشعور بالخوف والرعب عند الأثرياء والوجهاء من الظلمة على مر التاريخ كان سبباً في التقرب إليهم والسير في ركابهم وتنفيذ أوامرهم، معتذراً بأني أخاف أن يقتلوني أو يهدموا داري أو يأسروني أو يسجنوني أو يعذبوني، وهذا يدفعه ليصبح مطية وأداة للظالم؛ حباً لنفسه وخشية أن يتعرض إلى مكروه.

الثاني: صاحب الهوى، أي من كان متّبعاً لهواه، فاتخذ إلهه هواه من دون الله سبحانه وتعالى، فكان مطيعاً لشهواته، مقبلاً على ارتكاب الموبقات، قد ضعفت إرادته أمام ميوله ورغباته غير المشروعة، وصار عبداً لشهوته تقوده في طريق المهالك والمحرمات.

الثالث: الفاسق المعلن، أي الفاسق المتجاهر بالفسق والعناد مع الله سبحانه وتعالى، وقد تضعف نفس الإنسان أحياناً، والله يجيرنا وإياكم، فيرتكب معصية معينة، وهو نادم عليها، فيتوب ويذرف الدموع ويسأل الله التوبة، وهذا غير من يصر على ارتكاب الذنوب ولا يندم عليها ولا يتوب منها، كمن يخرج على الشاشات والفضائيات ويتبجح أمام الناس ويقول لم أُصل أي صلاة في عمري، ومكتوب في جنسيته مسلم، وهو لا يعرف شكل الصلاة، فهل هذه قضية يُتبجح بها وتسمي نفسك مسلماً؟ ففي الأقل أخف ذلك، لأنّ التبجح بترك الصلاة عناد مع الله سبحانه، وذنبه أعظم من ترك الصلاة.

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»[٥٦].

---

٥٦. الكافي ٢: ٣٣٥، ح١.

أُخاطب أحبتي الشباب بالدرجة الأساسية لأنّهم يمتلكون الحماسة والعنفوان والنزوات والرغبات، وتوجد اليوم مشاكل اقتصادية عويصة، وفرص عمل قليلة ولا تتوفر للجميع، فيتولد شعور بالإحباط واليأس، وتولد لديه هذه الحالة أحياناً ردود أفعال غير منضبطة ويندم عليها؛ لأنّ قلبه طاهر، ولذلك هذا خطاب للشباب أولاً احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فإنّه إذا صاحوا هناك مفخخة فسيحتاط الناس لأنفسهم إذا عرفوا أنّ هناك خطراً يتهددها؛ لأنّ طبيعة الإنسان هكذا، فتجنّبوا الهوى كما تتجنبون العدو؛ لإنّه ليس شيء أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم، فإنّ اطلاق اللسان دون رادع وحاجز وكيفما أعجبه، له عواقب وخيمة، فعلى الإنسان أن ينتبه لكلامه، فالكلمة ستسجل عليه حينما ينطق بها ثم تعرض عليه يوم القيامة، فيقال له أنت قلت كذا وكذا، أنت شهرت بالآخرين وأسأت لهم، أنت ذكرت أشياء غير صحيحة وعبرت عن تحليلك للأُمور وأعطيتها صفة الخبر، وهذه الكلمات هو مسؤول عنها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٥٧]، فيجب أن نكون حذرين، فإنّ الهوى خطر عظيم يوقع بالإنسان.

٥٧. الاسراء: ٣٦.

المحور الرابع

روافد البصيرة

كيف نحقق البصيرة في أنفسنا ، وما العناصر والعوامل التي توجد البصيرة في وجود الإنسان ليكون من أهل البصائر؟ .

إنّ الآيات القرآنية والنصوص الشريفة مليئة بالتركيز على هذه العوامل والعناصر ، ولكن أهم هذه العوامل هي الكتب السماوية (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والزبور)

الرافد الأول

الكتب السماوية

وهي منأ هم المصادر والروافد لمنح البصيرة للإنسان ، فكلما تمعن في هذه الكتب السماوية ازداد بصيرة ، وهذه قضية طبيعية ؛ لأنّ الله أرسل الأنبياء وأنزل الكتب السماوية لهداية الإنسان ، وليمنحه القدرة على الوعي تجاه محيطه وفهم وإدراك ما يجري حوله ، لذلك يمثل القرآن الكريم والكتب السماوية الأُخرى رافداً أساسياً من روافد البصيرة .

أولاً :القران الكريم

الشاهد الأول : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٥٨) .

يا رسول الله ، إذا جئت بآية من السماء وقلت لهم الله تعالى أوحى إليّ ، ثم تتلو عليهم الآية فإنّهم يكذبونها ولا يقبلون بالآيات إذا حصلت فاصلة زمنية في الوحي وتعطل الوحي لفترة من الزمن ، وإذا لم تأت بآية يقولون أين الآيات؟ ومعنى ﴿لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾ يعني اخترتها ، أي أنت اجمع كلمات واختر لنا شيئاً منها ، أو أنت اختر آيات واقرأها لنا ، فهل هي كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله لكي يلملم عبارات ويعمل آيات ويعطيها لكم ؟ وهم عندما يقولون اختر لنا آيات وقل هذه جاءت من السماء ، فهو دليل آخر على إنكار الرسالة الإلهية ، وكأنّهم يقولون إنّ السماء لا علاقة لها بالموضوع ، والمسألة بيدك ، فاجلب لنا آيات من عندك ، فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إن جئت لكم بآيات من السماء كذبتموها ، وإن تأخرت السماء ولم تنزل آية قلتم أين آياتك؟!.

---

٥٨ . الأعراف : ٢٠٣ .

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله الكريم ويأمره أن يقول لهم حين يكلمونه بمثل هذا الكلام : ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾، أي أنّ الأمر ليس بيدي، وليس كما اشتهي، وليست القضية رغبات وتمنيات، بل هي قضية وحي، والأمر بيد الله سبحانه وتعالى، فإن شاء أن يرسل بالآيات فما على الرسول إلا البلاغ المبين، وإذا لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن ينزل الآيات لكم فالقضية ليست بيدي، ولا أستطيع أن أجتبي لكم الآيات وأنقلها لكم من تلقاء نفسي.

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى لكم كتاباً من عنده ووصفه بأنّ فيه بصيرة لكم فقال: ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، فهذا القرآن هو بصائر من ربكم ليمنحكم البصيرة ويوعيّكم ويعطيكم الرؤية الواضحة ويدلّكم إلى الطريق المستقيم، ويرشدكم إلى المسار الصحيح، لتعرفوا طريقكم، وماذا تريدون أن تعملوا، ثم يصف هذا القرآن بأوصاف أُخرى فيقول : ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وهنا ثلاث صفات للقرآن الكريم هي ﴿بَصَآئِرُ﴾ وَ﴿هُدًى﴾ وَ﴿رَحْمَةٌ﴾.

وهنا تسلسل منطقي بين هذه المفردات الثلاث، فإنّ الإنسان إذا تسلح بالبصيرة وأصبح من أهل البصائر، رأى الطريق بوضوح، ثم تأتي الهداية؛ لأنّ من يمتلك البصيرة يمتلك الهداية، فيهتدي، وإذا اهتدى الإنسان وسار في الطريق الصحيح يأتي الدور للمقام الثالث وهو مقام الرحمة، فتنزل الرحمة الإلهية على القوم المهتدين، فالبصيرة تأتي بالهداية، والهداية تستنزل الرحمة الإلهية.

ولاحظوا هذه الإشارة الطريفة والمهمة والعميقة في هذه الآية الكريمة: ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أي أنّ البصيرة للناس جميعاً، فقد أودع الله قدرة الالتقاط والإدراك، وإمكانية الوصول إلى البصيرة في الجميع دون استثناء، ولكن الهدى والرحمة ليسا للجميع، إذ قال سبحانه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالهداية والرحمة تخصان المؤمنين فقط.

وهناك من يستثمر قوة البصيرة فيصبح بصيراً، وهناك من أعطاه الله تعالى القلب والسمع والبصر ولكن لم يستفد منها، كما أخبر عنهم

عز وجل بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٥٩]، وقد مر شرح الآية في أدوات البصيرة، ولا يقصد بالقلب والبصر والسمع هنا الجوارح، وإنما يقصد الإدراك القلبي، فإن عندك هذه القوة، فإذا استخدمتها صرت من المؤمنين وجاءتك الهداية والرحمة، وإن لم تستخدمها ضيعت على نفسك الهداية والرحمة.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦٠].

وهنا تشير هذه الآية المباركة إلى حقيقة جديدة، وهي أنّ البصيرة للجميع، والقرآن الكريم فيه بصيرة والبصيرة للجميع، ولكن هذه البصيرة إذا تحولت إلى هداية ورحمة، فهي تكون عند من يصل إلى مرتبة اليقين؛ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقد مر في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، إذنَ الإيمان يجلب الهداية والرحمة واليقين والوضوح الكامَل.

الشاهد الثالث: ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في دور القرآن الكريم وكيف يمنح البصيرة قوله: «فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفع، وماحل مصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار، وهو الدليل إلى خير سبيل، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة ودالّ على الحجة»[٦١].

يا شباب، إنّ القرآن مهجور بيننا، وفي شهر رمضان نتذكر ونخرج المصحف، وكثير منا هكذا مع الأسف الشديد، صحيح «إنّ لكل شيء ربيعا، وربيع القرآن شهر رمضان»[٦٢]، وربيع يعني نقرأ فيه أكثر، ولكن لا يعني هذا أن نهمل القرآن في سائر أشهر السنة، القرآن عندنا مهجور،

٥٩. الأعراف: ١٧٩.

٦٠. الجاثية: ٢٠

٦١. الكافي ٢: ٥٩٩، ح٢.

٦٢. الكافي ٦٣٠: ٢، ح١٠

سيشكونا في يوم القيامة ويقول: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٦٣].

ومن هنا يوصي أمير المؤمنين عليه السلام أن نواظب على قراءة القرآن الكريم كثيراً، فيقول: «فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفع»، فإذا كان عندك أُنس مع القرآن والتصاق به وبحقائقه فإنّه «شافع مشفع»، يشفع لك يوم القيامة، ويقف معك، وهذه هي الصفة الأولى للقرآن الكريم.

والصفة الثانية له أنّه «ماحل مصدق»، والماحل يعني الساعي، أرأيتم شخصاً رأى قضية ورواها للآخرين، فهكذا القرآن فإنّه يسعى ويشكو أمره لله سبحانه وتعالى، وهو مُصدّق؛ لأنّه لا يقول إلا الحق، إذا هجرنا القرآن، فإنّه يشكو أمرنا إلى الله ويقول له إلهي هجروني وما قرؤوني، ولم يتدبروا في آياتي، وما عملوا بحقائقي، وتركوني وابتعدوا عني، إنّ جلّ مصائبنا في ابتعادنا عن القرآن الكريم، والكثير من المحن التي تمر بنا في مجتمعاتنا الإسلامية في العراق وغيره بسبب ابتعادنا عن قيم القرآن ومفاهيمه وحقيقته وتلاوته، فأصبنا بما أُصبنا به من إشكاليات كبيرة.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عليه السلام لبيان حقيقة أُخرى عن القرآن الكريم فيقول «من جعله أمامه»، أي من يسير على مفاهيمه، «قاده إلى الجنة»، أي أنّه يأخذ بيده إلى الجنة، «ومن جعله خلفه قاده إلى النار»، ومن أعطى ظهره للقرآن وحقائقه وقيمه وسار في طريق آخر، فهذا المنهج يقوده إلى النار.

ثم يتطرق أمير المؤمنين عليه السلام إلى حقيقة كون القرآن الكريم هادياً فيقول: «وهو الدليل إلى خير سبيل»، أي أنّه الهادي والمرشد إلى أفضل الطرق التي تحقق الكمال للإنسان.

وأما الشاهد على موضوع البحث البصيرة فيتمثل في قوله عليه السلام: «فيه مصابيح الهدى»، هل تريد المصباح الذي يضيء لك ويصل بك إلى البصيرة لتحقيق الهداية؟ إنّ القرآن الكريم هو مصباح الهدى، ونتذكر هنا ما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله في معراجه مكتوباً على يمين العرش: «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[٦٤].

---

٦٣. الفرقان: ٣٠.

٦٤. مدينة المعاجز ٤: ٥٢، ح١٣٣. معالي السبطين ٢: ٢٨٧.

وهنا يصف أمير المؤمنين عليه السلام القرآن بأنّه مصابيح الهدى، فالقرآن مصباح الهدى، والإمام الحسين عليه السلام مصباح الهدى أيضاً، فكيف نجمع بينهما؟ إن الجمع بينهما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا وانّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»[٦٥]، فأحدهما يكمل الآخر، ومن هو الإمام الحسين عليه السلام؟ ولماذا نحترمه ونؤبنه ونجلس في عزائه للبكاء عليه بعد ألف وأربعمئة سنة؟.. نفعل ذلك لأنّه كان القرآن الناطق والمجسّد لقيم القرآن، وثورته عليه السلام هي امتداد وتطبيق لحقائق القرآن الكريم؛ لأنّ الإمام الحسين عليه السلام مشروع إلهي كما أراده الله سبحانه وتعالى، وكما أنزله على قلب رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله عبر القرآن الكريم، فالقرآن مصباح والحسين عليه السلام مصباح أيضاً.

ثم يصف أمير المؤمنين عليه السلام القرآن الكريم بصفات أُخرى فيقول: «ومنار الحكمة، ودالّ على الحجة»، أتريد الحجة البالغة والطريق المستقيم الذي يوصلك إلى السعادة الأبدية؟، أتريد أن تعرف بمن تتمسك، وكيف تصل، وكيف تسعد، وكيف تفوز؟، إنّ كل ذلك ممكن من خلال القرآن الكريم، فالقرآن هو الطريق.

الشاهد الرابع: عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «إنّ هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور»[٦٦].

القران الكريم ينوّر قلب الإنسان ويجعل عنده بصيرة، والقرآن فيه شفاء الصدور أيضاً، فمن يريد لقلبه أن يطمئن ويشفى من كل مرض أخلاقي فعليه أن يتمسك بالقرآن الكريم، فكما تعتري القلب الجارحي عوارض وأمراض، فكذلك القلب المعنوي وفكر الإنسان وروحه ونفسه الإنسانية تمرض أيضاً.

نصاب بأمراض بدنية ونذهب للطبيب فيكتب لنا وصفة لنشفى بإذن الله، وقد نصاب بأمراض أخلاقية وروحية ونفسية ووصفة الشفاء هي التمسك بالقرآن الكريم، إنّ ما يصيبنا هو بما كسبت أيدينا، والله سبحانه

٦٥. بحار الأنوار ٢: ١٠٠، ٢٢٦. مسند أحمد ٣: ١٤، ١٧، ٢٦.

٦٦. بحار الأنوار ٧٥: ١١٢، ح٦.

وتعالى يتعامل معنا بما نقوم به وبما نتعامل من خلاله، فإذا تعاملنا بشكل صحيح فإنّ الله يعطينا الرفعة والشرف والكرامة في الدنيا والآخرة، وإذا تجاوزنا وأخطأنا واعتدينا وأسرفنا، فإنّ الله سبحانه يعطينا ما يلائمنا ويناسبنا لحالة الإسراف والذنب والمعصية.

الشاهد الخامس: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض»[٦٧].

القرآن يعطينا البصيرة، فبالقرآن نبصر، ونرى الطريق، وبالقرآن نسمع ونتعرف على الحقائق فنصبح من أهل البصائر، والقرآن ينطق بعضه ببعض، فالقرآن حقيقة واحدة فيه آيات متشابهة، وهناك آيات أُخرى محكمة تفّسر وتوضّح الآيات المتشابهة، وقد اعتمد العلامة الطباطبائي في تفسيره الشريف «الميزان» على منهج تفسير القرآن بالقرآن؛ وهو أن يعرض الآية التي يريد تفسيرها على الآيات الأُخرى التي تتحدّث عن نفس الموضوع، لأنّ القرآن ينطق بعضه ببعض، ويصدّق بعضه بعضاً.

فالقرآن يشهد بعضه على بعض من غير أن تجد تناقضا واختلافا بين آياته، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٦٨]، ومع أنّ القرآن قد نزل متفرقاً خلال ثلاث وعشرين سنة، وتحدى من يجد فيه اختلافا، فهل وجد، بعد تطور العقل البشري والعلوم التجريبية، تناقض بين هذه الآية وتلك؟.. أبداً، لا يوجد أي تناقض، بل القرآن يكمل بعضه بعضاً، ويفسّر بعضه بعضاً، ويشهد بعضه على بعض.

الشاهد السادس: وفي أدعية عيد الأضحى: «اللهم إنّي أسألك بحقك على خلقك، وبكل حق هو لك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، وأن تقضي لي كل حاجة من حوائج الدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين»[٦٩].

---

٦٧. نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣.

٦٨. النساء: ٨٢.

٦٩. الإقبال ٢: ٢١٨. بحار الأنوار ٨٨: ٧٥.

يسأل الإمام عليه السلام في دعائه هذا بحق الله تعالى على خلقه وبكل حق له أن يجعل القرآن ربيع قلبه، أي أن يجعل أُنسه بالقرآن، وراحته بالقرآن، ونور بصره بالقرآن، وأن يعطيه البصيرة بالقرآن، وينوّر بصيرته بالقرآن الكريم؛ لأنّ القرآن مصدر مهم من مصادر البصيرة.

ثم يطلب منه سبحانه وتعالى أن يجعل القرآن جلاء حزنه، أي انتهاء حزنه وزواله، وذلك بأن يداوي جروح قلبه بالقرآن ويحل مشاكله، ويطلب منه سبحانه أن يذهب همّه وغمّه، ونحن نطلب من الله تعالى أيضاً أن يذهب عن هذا الشعب كل هم وغم وكل مشكلة أمنية واقتصادية وخدمية ومشكلة اجتماعية، ونسأله بحق القرآن الكريم أن يشفي جراحنا بالقرآن.

اليوم هطلت الأمطار بكثافة، وهي رحمة ونعمة، ولكن هل نرفع أيدينا إلى السماء ونطلب استمرار المطر؟، طبعاً لا، لأنّ هذه النعمة تحولت إلى مشكلة وأزمة للناس، وغرقت أحياء في مدننا، ثم ذهب المطر وجاء الجفاف، وهي مشكلة أيضاً، لقد أرسل الله تعالى إلينا المطر، وجاء المطر وحدثت مشكلة ولم نعرف كيف نستثمر ونوظف هذه النعم الإلهية بشكل صحيح، وشكري وتقديري إلى كل العاملين المخلصين في بلديات العراق وفي كل المؤسسات الخدمية، الذين يقفون تحت الأمطار ويسعون لتخفيف المشاكل والأعباء التي تصيب المواطنين.

ثم يطلب الإمام عليه السلام من الله تبارك وتعالى أن يقضي له جميع حوائج الدنيا والآخرة برحمته، فقضاء الحوائج بالقرآن، ومعالجة الهموم والغموم والجراحات بالقرآن، كما أنّ الحصول على البصيرة والرؤية الثاقبة والإدراك القلبي إنّما يكون بالقرآن.

الشاهد السابع: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ جبرائيل عليه السلام قال له: «والذي بعثك بالحق نبياً من يقرأ هذه الآيات ملأ الله تعالى قلبه نوراً وضياءً، ويلقي الإلهام في قلبه، ويجري الحكمة على لسانه، ويحشو قلبه من الفهم والتبصرة، ما لم يعط مثله أحد من العالمين»[٧٠].

٧٠. بحار الأنوار ٩٥: ٤٢١.

يقسم جبرائيل عليه السلام بالإيمان المغلظة أنّ من يقرأ القرآن يحصل على أربع عطايا مهمة :

الأُولى : يملأ الله تعالى قلبه نوراً وضياءً ، فينظر بعين الله وتصبح له بصيرة وقدرة على إدراك الحقائق .

الثانية : يلقي الإلهام في قلبه ، ومثاله أن يجلس الإنسان في مكان ما ، ويخطر بباله أن يذهب للمكان الفلاني ، وبعد دقيقتين تنفجر مفخخة ، ويقول الحمد لله لو بقيت في مكاني الأول لحدث كذا وكذا ، وكل واحد منّا لو يراجع ذاكرته فإنّه سيجد الكثير من هذه الاتفاقات قد حدثت معه ، كأن يخطر بباله أن يذهب من الطريق الفلاني فيلتقي بصديق مثلاً ييسر له قضاء حاجة أو القيام بعمل خير .

وإلهام الله عز وجل يعطي البصيرة ، فلا يعرف الإنسان لماذا في لحظة يقرر أن يذهب إلى المكان الفلاني وأن يتخذ الموقف الفلاني ويقول الكلمة الفلانية ، ثم يتبيّن أنّ هذا الموقف والكلمة والخطوة والاتصال دفعت بلاء عظيماً وأوجدت تأثيرات كبيرة جداً ، وأحيانا نذهب إلى عمل معين بسيط فنرى له آثاراً كبيرة ، ومن إلهام الله تعالى أن يلهم الإنسان أن يتخذ قراراً صحيحاً في اللحظة المناسبة .

الثالثة : يجري الحكمة على لسانه ، أي ببصيرة القرآن الكريم يجري الله تعالى الحكمة على لسانه ويتكلم بما هو أمر حكيم ويتكلم بكلام سديد ، وفي مقابل ذلك قد يتكلم شخص بكلمة ويبقى العمر كله أسيراً لتلك الكلمة والناس يلومونه عليها ، وهناك من يتكلم بكلمة فتتلاقفها الناس وتتمسك بها وتتكلم بها وتستفيد منها كحكمة ، والله سبحانه وتعالى يلقي الحكمة على لسان من يشاء من عباده ، فالبصيرة القرآنية تؤدي الى أن يتحدث الإنسان بالكلام الحكيم .

الرابعة : يحشو قلبه من الفهم والتبصرة ، أي أنّ آيات الذكر الحكيم تملأ قلب الإنسان بصيرة وفهماً وإدراكاً .

ويعطي الله سبحانه وتعالى لمن يتلو كتابه الكريم ما لم يعط مثله أحداً من العالمين ، فيرى الدنيا بشكل آخر ، كما هو الحال في الأشعة التي

تُري الأشياء بطريقة مختلفة، لأنّه يُريه أشياء لا ترى بالعين وبالتحليل العادي، فصاحب البصيرة يرى الحقيقة بطريقة لا يراها الآخرون.

الشاهد الثامن قالت السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها عن القرآن الكريم: «بيّنة واضحة بصائره، وآي منكشفة سرائره، وبرهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، وقائد إلى الرضوان اتباعه، ومؤد إلى النجاة أشياعه»[٧١].

تبيّن السيّدة الزهراء في خطبتها هذه ستاً من خصال القرآن الكريم هي:

الأُولى: «**يمنحكم البصيرة**»، إنّ كل فكرة منحرفة وكل موقف ضال، وكل خطوة ظالمة واعتداء على حق، ناتجة من الابتعاد عن القرآن ومضامينه ومفاهيمه الصحيحة.

الثانية «**وآي منكشفة سرائره**»، إنّ آيات الذكر الحكيم تكشف أسرار الكون وأسرار الحياة، وأسرار العلاقات الاجتماعية، وأسرار علاقة الإنسان بالله، وأسرار علاقته مع الآخرين، إنّ هذه الحقائق والسرائر تنكشف وتتضح بالتمسك بالقرآن والأنس به والانفتاح عليه.

الثالثة «**وبرهان متجلية ظواهره**»، إنّ في ظواهر القرآن وآياته براهين وحججا تتجلى لمن يقرأ هذه الأدلة والبراهين والحجج، فيصبح على بينة ومعرفة ووضوح من أمره.

الرابعة «**مديم للبرية استماعه**»، أي أنّ من يريد أن يطول عمره ويستفيد ويبقى صحيح البدن فعليه أن يواصل ويداوم استماع القرآن الكريم وتلاوته وتعاطيه.

الخامسة «**وقائد إلى الرضوان اتّباعه**»، إنّ اتّباع القرآن والأخذ بحقائقه والالتزام بالمنظومة الأخلاقية والقيمية التي يقدمها القرآن الكريم تقود إلى الجنة.

السادسة «**ومؤد إلى النجاة أشياعه**»، أي من يتبعه يأخذ به إلى النجاة، فهنيئاً لمن يتمسك بالقرآن الكريم، وما أكثر الآيات التي تشير إلى أنّ القرآن رافد من روافد البصيرة.

---

٧١. بحار الأنوار ٦: ١٠٧، ح١.

ثانياً التوراة

وكذلك فإنّ الكتب السماوية الأُخرى غير المحرفة تعتبر رافداً من روافد البصيرة، لأنّ تلك الكتب المرسلة على قلوب أنبياء الله من التوراة والإنجيل والزبور شأنها شأن القرآن في إيجاد البصيرة عند الإنسان؛ لأنّ المرسل واحد والهدف واحد والحقيقة واحدة والمخاطب هو الإنسان وبالتالي فإنّ النتائج تكون واحدة.

الشاهد الأول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٧٢].

بعدما جاء الأنبياء السابقون وحملوا رسالات الله إلى الناس انتفض الظالمون وقتلوا أُولئك الأنبياء وأهملوا تلك الرسالات، وحل الهلاك بتلك الأُمم كقوم نوح وعاد وثمود، جاءت التوراة لتكون بلسماً ولتقدم بصائر إلى الناس، وآتى الله عز وجل موسى عليه السلام الكتاب؛ ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وهو نفس التعبير الوارد في القرآن في **الشاهد الأول**، مع فارق واحد وهو أنّه ورد هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وورد هنا: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي عندما أعطاك البصيرة يريد منك أن تكون من الذاكرين ممن يبتعدون عن الغفلة، فإنّ مقابل يتذكرون يغفلون، والبصيرة هي حالة الذكر والالتفات، فالتوراة تمنح البصيرة لأنّها كتاب الله.

الشاهد الثاني: ورد في مناجاة الله تعالى لموسى عليه السلام: «يا موسى ما آمرك به فاسمع، ومهما أراه فاصنع، خذ حقائق التوراة إلى صدرك، وتيقظ بها في ساعات الليل والنهار واجعل قلبك عامراً بها، ولا تمكّن أبناء الدنيا من صدرك، فيجعلونه وكراً كوكر الطير»[٧٣].

يأمر الله تبارك وتعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسمع ويطيع ما يأمره به، وأن يصنع ويعمل بما يراه له سبحانه مهما كان، وأن يأخذ حقائق التوراة إلى صدره؛ لأنّها تمنحه البصيرة، وأن يتيقظ بالتوراة في جميع لحظات عمره من ساعات الليل والنهار، وأن يجعل قلبه عامراً ومتبصراً بها،

٧٢. القصص: ٤٣.

٧٣. الكافي ٨: ٤٧، ح٨.

وألا يمكّن أبناء الدنيا من قلبه؛ لأنّهم عبيد الدنيا وليسوا أبناء الآخرة، ويحذر الله جل جلاله كليمه موسى عليه السلام من إعطائهم هذه الأسرار؛ لأنّهم لا يتحملونها ولا يستوعبونها، فيجعلونها وكراً كوكر الطير، ويستغلونها أبشع استغلال ولا يستفيدون منها في طريق الهداية .

الشاهد الثالث: وفي رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «في التوراة مكتوب يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى، ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسدّ فاقتك، وأملأ قلبك خوفاً مني، وإن لا تفرغ لعبادتي، أملأ قلبك شغلاً بالدنيا، وأن لا أسدّ فاقتك، وأكلك إلى طلبك»[٧٤].

إنّ ما يرويه الإمام المعصوم عليه السلام من هذه النصوص هي من آيات التوراة الحقيقية غير المحرفة، ونحن لا ننقل عن كتاب موجود اليوم فيه الكثير من التحريف؛ لأنّ الله تبارك وتعالى أخبرنا أنّ الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يتعرض إلى التحريف هو القرآن الكريم فقط، وبإرادة إلهية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٧٥]، فقد أخذ الله تعالى على نفسه أَلا يُحرّف القرآن، وبعد مرور ألف وأربعمئة سنة لم يحرف حرف واحد منه.

يخاطب الله سبحانه وتعالى في هذا النص بني آدم ويطلب منهم أن يتفرغوا لعبادته، ويركزوا عليها، ولا يشغلوا أنفسهم بمشاغل أُخرى تلهيهم عنها، ويتوجهوا نحو الله سبحانه وتعالى، فإن فعلوا ذلك أعطاهم أربع عطايا:

الأُولى: أن يملأ قلوبهم غنى، فالمهم أن يمتلئ قلب الإنسان غنى لا أن يمتلئ جيبه مالاً، فقد يملك إنسان المليارات ولكن قلبه أجوف ويعيش حالة الغربة والوحشة والحاجة، وحينما يكون القلب غنياً وإن كان صاحبه لا يملك فلساً يكون ذا كرامة وعزة ورفعة وسمو، ولا يبالي ولو وقف العالم ضده، كما حكى ذلك عنهم ربّ العزة والجلالة: ﴿الَّذِينَ

٧٤. الكافي ٢: ٨٣، ح١.

٧٥. الحجر: ٩.

قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٧٦]، إنّ الله تعالى معهم فمن يستطيع أن يؤثر فيهم؟! وهذه هي البصيرة، وهذا هو الوضوح.

الثانية: ألا يكلهم إلى طلبهم، بل يغنيهم الله تعالى من فضله الواسع، والأمثال تضرب ولا تقاس، لو سئل الطفل الصغير ماذا تريد؟ يقول أُريد حلوى، ولو قيل له: إنّ هذه الدنيا أمامك فاطلب، يقول) حلوى، كيك، بسكويت، نستلة)، وأمثال هذه الأشياء التي يطلبها الأطفال، وهذا سقف مطالبه، ولو سئل شاب عما يريد، لقال أُريد عملا وامرأة صالحة ودارا، وهذه مطالب جيدة، ولكن هذا سقف مطالبه، وكذلك الأمر في عالم الحياة المعنوية، وإذا تركنا الله تعالى إلى أنفسنا سيكون سقف مطالبنا محدوداً، ولذلك يقول الله تعالى للإنسان إذا توجهت إلى عبادتي فسأعطيك ولا أكلك لما تطلب، والله الجواد الكريم المعطي حينما يعطي يجزل في العطاء أكثر من المطالب البسيطة التي يتخيلها الإنسان أنها السقف الأعلى الممكن.

الثالثة: تكفّل بسدّ فاقتهم، فالله عز وجل وعد عباده الذين يتمسكون بالقرآن الكريم ويتلونه حق تلاوته ألا يخافوا الفقر والفاقة والعوز، ولا يسمح لهم أن يذلّوا أنفسهم بالوقوف على أبواب الناس ويمدوا أيديهم، وما على الإنسان إلا أن يصلح علاقته مع الله سبحانه ويتمسك بعبادته، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بألا يصاب بفقر وعوز، فيسدّ فاقتهم واحتياجاتهم.

الرابعة: يملأ قلبه خوفاً منه سبحانه، فمن يقبل نحو الله تعالى وعبادته يملأ قلبه خشية ومخافة منه سبحانه، ومن كان قلبه مملوءا بمخافة الله سبحانه لا يرتكب خطأ أو معصية أو يصاب بغفلة أو يذهب بالاتجاه الخاطئ؛ لأنّ الله تعالى أمامه ونصب عينيه، وهذه حقيقة كبيرة، ينبغي الالتفات إليها.

ثم يحذّر الباري عز وجل بني آدم إن هم تركوا عبادته ولم يتفرغوا لها، واتخذوا أهواءهم آلهة لهم، أن يبتليهم بثلاث خصال:

---

٧٦. آل عمران: ١٧٣.

الأُولى : أن يملأ قلوبهم شغلاً بالدنيا ، يركضون وراءها ويحملون همّها ، كهموم العمل والبيت والزوجة والأولاد وعشرات المشاكل غيرها ، ولهذا نرى مثل هؤلاء الناس متحيرين وكل شغلهم الدنيا ، قد ملأت الدنيا قلوبهم لا يرون غيرها .

ولهذا نرى من هو في ساحة المعركة ، والأعداء تحيط به من كل حدب وصوب ، وتتفجر القنابل أمامه وخلفه ولو سئل كيف أنت ، يقول أنا مرتاح لأنّي قد أديت تكليفي الشرعي ، فإذا قتلت فأنا شهيد في سبيل الله ، وإن خرجت سالماً فالحمد لله لأنّ تكليفي قد أتيت به .

وهناك من يسكن في قصور ويملك المليارات وتحيط به الخدم والحشم ، لو سئل كيف أنت ، لقال : أنا غير مرتاح ، ولو قيل له : لماذا وأنت تتقلب في كل هذا النعيم؟ يقول : تجارتي في المكان الفلاني خسرت ، وبضاعتي في المكان الفلاني صودرت ، وسفينتي تقف بالميناء الفلاني ، ، وهكذا هو مهموم ومرتبك ومشغول البال ، لأنّه لم يفرغ قلبه لعبادة خالقه فابتلاه الله سبحانه بهم الدنيا ، فالله سبحانه وتعالى يشغل بالدنيا قلب كل من تجاوز عبادته وانشغل بعبادة هواه ، وأما من انشغل بالله تعالى فإنّه يكفيه هذه الأُمور ويسهّل أمره .

الثانية : ألا يسدّ فاقته ، أي عندما يأتيه فقر ، أو تحل به مصيبة ومشكلة ، فما دام قد ترك الله سبحانه فإنّه يتركه فريسة لمشكلته ، ثم لا يسدّ فاقته .

الثالثة : أن يكله إلى طلبه ، أي يتركه إلى عقله ، وماذا يطلب عقل الإنسان المنغمس بالدنيا والشهوات؟ إنّه يتركه بهمّه مع نفسه ، ولذا نرى لأهل البصائر وأهل الهمم طموحات وأهدافا وغايات نبيلة ، بينما ذلك الآخر الذي لا يملك بصيرة طموحه على قدر حاله ، ، مثل الأطفال على ضفة بحر أو نهر والشجار بينهم ، وهذا بيده فأس وذاك بيده فأس ، ويتشاجرون على الماء ، مع أنّه نهر كبير وبحر كبير ، يكفي الجميع ويزيد .

ثالثاً: الزبور

وكذلك يعتبر الزبور غير المحرف من روافد إيجاد البصيرة عند الإنسان ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا

فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٧٧]، ويراد بالذكر هنا التوراة، فإنّ الذكر جاء في القرآن الكريم بمعنيين:

المعنى الأول: استعمل الذكر وقصد به التوراة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٧٨]، وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن التوراة هنا بالذكر: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، إذن التوراة ذكر.

المعنى الثاني: استعمل الذكر وقصد به القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٧٩].

فالذكر يمكن أن يراد به التوراة، ويمكن أن يراد به القرآن، ولكن في هذه الآية الشريفة: ﴿لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، يتحدث عن الذكر الذي كان قبل الزبور، وهو التوراة وليس القرآن الكريم.

لقد كتب الله تعالى في الزبور: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، ويعني الميراث بمعناه اللغوي المعروف أن يحصل الإنسان على شيء من غير اكتساب أو معاملة، فتارة يعمل الإنسان تاجراً مثلاً فيبيع ويشتري، ويسمى ما يحصل عليه ربحاً، وتارة يحصل على شيء دون مقابل، ويسمى ميراثاً، كالأموال التي يحصل عليها الوريث حينما يموت مورثه، ويرث في الآية الكريمة بمعنى يكتسب شيئا بدون معاملة.

ولكن قد لا يكون هذا المقصود في هذه الآية الشريفة؛ لأنّ القرآن الكريم يستعمل الوراثة حينما ينتصر الصالحون على الظالمين ويتغلب المؤمنون المخلصون على المنحرفين، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[٨٠]، والمستضعفون هم المظلومون والمضطهدون، وأورثناهم يعني حققنا لهم الانتصار، وجعلنا لهم السطوة والحضور والقدرة والقوة في مشارق الأرض ومغاربها.

---

٧٧. الأنبياء: ١٠٥.

٧٨. الأنبياء: ٤٨.

٧٩. التكوير: ٢٧.

٨٠. الأعراف: ١٣٧.

إذن، معنى يرث في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ أي يتغلب عليها ويسيطر عليها ويهيمن عليها ويتصدى لإدارتها وقيادتها، ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فالصالحون هم من سيديرون هذه الأرض وهذا المخاض العسير والصراع الدائم والمستمر بين الحق والباطل، الذي تكون المحصلة والنتيجة فيه دائماً لصالح المؤمنين ولصالح المخلصين.

إنّ الإشارة إلى هذا المبدأ القرآني وإلى هذه السنّة الإلهية وهذا القانون الذي يتحكم بمجرى التأريخ، تطمئن الإنسان بأنّه مادام على صلاح فالنتيجة لصالحه، إن قتل في طريق الانتصار للمشروع الرسالي فهو شهيد في سبيل الله، وقد تحققت السعادة الأبدية، وإن تحقق النصر في هذه الدنيا فقد كسب الوعد الإلهي وانتصر المشروع بانتصاره، وهذه تعطي قوة وعزيمة وبصيرة ورؤية كبيرة للإنسان المؤمن حينما يسير في مشروع، بأنّ هذا المشروع سينتج بكل تأكيد وسينتصر على كل التقديرات.

وهذه هي الوقائع التي وجدناها في شهادة الإمام الحسين عليه السلام، فقد كان النظام الأموي يظن أن القضية انتهت بسقوط الإمام الحسين عليه السلام شهيداً هو وأهل بيته وأصحابه في يوم عاشوراء، فدقّوا طبول الفرح والانتصار، وأخذوا ذراري رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا إلى الكوفة ومنها إلى الشام، ولكن بعد أيام من دخول السبايا إلى الشام ارتد الرأي العام عليهم، وانكشفت الحقيقة، وتعرت الأمور بتلك الخطب البليغة التي خطبها الإمام زين العابدين عليه السلام وزينب عليها السلام، وانقلب السحر على الساحر، وظهر الإمام الحسين عليه السلام منتصراً في تلك المعركة.

ولذلك ما دمنا متمسكين بالحق، وما دمنا نسير في طريق الحق، وما دمنا نسير في طريق الصلاح، فنحن على ثقة عالية بالوعد الإلهي وبالسنة الإلهية، أنّ النصر سيكون حليفنا لا محالة.

وهذه العقيدة تعطي قوة، وتهب النصر التكتيكي المرحلي، وهذا ما نجده في مقاطع التأريخ الطويلة، فهناك صراع وهناك نصر لأهل الحق على المستوى الاستراتيجي في رؤيتنا لحركة التأريخ، التي تختم هذه الحركة والاختلاف، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٨١].

وهذا الاختلاف الذي بدأ بين هابيل وقابيل وإلى يومنا الحاضر وسيستمر، سيتوج في نهاياته بظهور المصلح الأكبر إمام زماننا عجل الله فرجه ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.

إذن، على المستوى التكتيكي، فإنّ الإنسان مادام على صلاح فهو منتصر، وهذه العقيدة تعطيه قوة وعزيمة ووضوحا واندفاعا، وعلى المستوى الاستراتيجي أيضاً، هناك مشروع نهايته إلى الخير والصلاح وسيطرة المؤمنين على إدارة شؤون هذه الأرض وهذه المعمورة، كما وعد بذلك ربّ العزة والجلالة بقوله: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وهذه بشارة دنيوية.

وقد سبقت هذه الآية آيات تحدثت عن البشارة الأُخروية للإنسان الصالح، وماذا سيجد في الآخرة، وهذه الآية تتحدث عن بشارة دنيوية، فهنا في الدنيا ينتصر المؤمنون الصالحون، ويتقدمون ويتغلبون على كل التحديات، ولذلك هي بمثابة البشارة في طبيعة الاستحقاق المادي الدنيوي للصالحين، ولكن يأتي الكلام من هو الصالح؟ هل هو الإنسان الخير؟ أو الصالح هو الذي يصلي صلاة الليل؟.

الصلاح في المنطق القرآني يجب أن يكون صلاحاً عملياً، فيتجسد العمل الصالح في سيرته وعمله وأدائه وسلوكه، وصلاحاً نظرياً وعلمياً يحمل مشروعا صحيحا ويتحرك ضمن مقاسات ومعايير صحيحة، الصلاح باستنفار الإمكانات المادية المتاحة؛ لأنّ العالم مبني على نظام السببية التي أودعها الله تعالى فيه، فمثلاً إذا جلست في بيتي وأقول اللهم أرزقني، فإنّ الله لا يرزقني، يجب أن أعمل وأقول اللهم ارزقني، وكذا من كان مريضاً وقعد في بيته ورفع يديه بالدعاء وقال اللهم أسألك الشفاء، فإنّ الله لا يشفيه، بل عليه أن يذهب إلى الطبيب ويأخذ العلاج، ثم يقول اللهم اشفني، ليجعل الله تعالى له الشفاء من خلال العلاج، ويجعل العلاج مؤثراً.

---

٨١. البقرة: ٢١٣.

وكذلك لا ينفعنا أن نقول اللهم انصرنا على أعدائنا ونحن جالسون في بيوتنا، فإنّ الله لا ينصرنا، وهذه سنّة إلهية، بل نحتاج إلى توظيف مقومات الصلاح بكل إبعادها، كما أمرنا الباري تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٨٢]، فنوفر الصلاح المعنوي والنظري، والصلاح العملي والسلوكي، والصلاح في تقديرات الموقف والمشروع، والصلاح في استجماع أدوات النصر وتوفير الأدوات المطلوبة المادية لتحقيق النصر، والصلاح في الاستنفار والجهوزية والتهيؤ للمعارك التي قد نتعرض لها، فإذا حضرنا جميع هذه المقدمات فإنّ الله تعالى ينصرنا على كل تقدير؛ لأنّ هذه سنّة الحياة، وهذا هو القانون الذي يتحكم بمجرى التأريخ، وهذه قضية أساسية.

إذن، الكتب السماوية هي الرافد الأول والعامل الأول الذي يحقق البصيرة، ويوضح لنا الطريق، فنرى ونسير على بركة الله، ونحقق الكمال والبصيرة لأنفسنا عبر الكتب السماوية.

٨٢. الأنفال: ٦٠.

الرافد الثاني

آيات الله في الأنفس والآفاق

إنّ آيات الله في أنفسنا وفي الكون الذي يحيط بنا كلها طرق لتحقيق البصيرة عندنا ، فالإنسان يجب أن يكون له حضور واع في الحياة ، ماذا تعني المقولة التي تلوكها ألسنة البعض : «أذهب بدربي وأرجع بدربي»؟ ، تعني أنّه لا شيء في الدنيا ، فأنا لا أعرف عن أحوال الدنيا شيئاً ، وما يحدث لا يهمني ، ولا أتابع ما يجري ، والمهم أني بخير وبيتي محفوظ وعملي جيد وأولادي بخير ، فهذا ما يهمني وغيره لا يهمني ، ونتساءل ؛ هل هذا منهج صحيح في الحياة؟ ، ، القرآن الكريم يدين هذه الطريقة الأنانية والمصلحية في الحياة ، وكذلك السنّة النبوية ، كقول رسول الله ﷺ : «من أصبح لا يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم»[٨٣] ، يجب على الإنسان أن يفتح عينيه على أُمور الناس وأُمور المجتمع وأُمور الطبيعة ، وأن يلتفت إلى الظواهر الطبيعية كالشجر والنبات والمطر ، وعالم البحار وأسراره .

وتوجد في زماننا والحمد لله قنوات تلفزيونية وثائقية تعرض أفلاماً ومعلومات عظيمة عن أسرار هذا الكون ، وما يجري في الطبيعة والبحار وعالم الحيوان ، ففي كل هذه العوالم التي نعيشها حولنا أسرار ومعارف ، وكلما دققنا فيها وجدنا فيها مدخلاً ومعرفة وبصيرة توصلنا إلى الله سبحانه وتعالى .

ومن الأسرار العجيبة في عالم الحيوان ، أنّني كنت في يوم من الأيام ذاهباً مع عدد من العلماء إلى ماليزيا ، وذهبنا وبعض الزملاء في السفرة بدعوة من المضيفين في ماليزيا إلى متحف لطيف جداً ، فقال بعض الزملاء : لنر ذلك ، فنحن قد وصلنا والدعوة من الإخوان من ماليزيا ، فركبنا وذهبنا إلى ذلك المكان لنرى ما هو ، وعندما ذهب الزملاء ليدفعوا

٨٣ . الكافي ٢ : ١٦٢ ، ح١ .

الفاتورة وجدوا السعر مرتفعاً بعملتهم، فترددوا في الدخول، ثم قالوا لقد أتينا والناس قد دعونا ومن المعيب أن نعود.

وعلى كل حال دخلنا أول قاعة، نظرنا فوجدنا مجموعة من العينات من خضار معيّن، تصفحناه ووضعناه وقلنا: إنّ هذا نراه في الشارع، فما قيمة عرضه في متحف؟! وخرجنا منزعجين من القاعة، فلاحظنا مسؤول القاعة، فبادر إلى السؤال عن عدم ارتياحنا، فقلنا له: ليس في المتحف شيء يستحق أن ندفع من أجله مبالغ من المال لنرى خضارا وغصنا نراها في الشارع في كل مكان، وماليزيا من البلاد ذات الطبيعة الخضراء الجميلة، فقال: إذن أنتم لم تروا شيئاً، قلنا: بل رأينا، فقال: كلا لم تروا، تعالوا لأريكم.

فرجعنا على مضض وحياء من هذا الرجل، وجاء بنا إلى أول محطة، وضعوا هذه الخضار في زجاج مثل حوض السمك، فسألنا: ماذا ترون؟ قلنا: نرى غصنا، فقال: انظروا بدقة، أنا أقول لكم: هذه حشرة بلون الغصن وبشكل الغصن، انظروا هذه التي تتحرك، فنظرنا إلى غصن وحشرة بلون هذا الغصن وحتى بهيئة هذا الغصن، ما هذه الحشرة الغريبة؟! وجئنا للحوض الثاني وغصن آخر وحشرة بلون ذلك الغصن وبهيئة ذلك الغصن أيضاً، وهكذا في كل صندوق زجاجي أنواع غريبة من الحشرات، فوقفنا وقلنا: سبحان الله، كل واحدة منها تساوي ما دفعنا من مبلغ لنرى هذه العجائب في الكون والخلق، وهكذا مئات الآلاف من الحشرات، وكل حشرة لها شكل وحياة خاصة بها، ولها تركيبتها الفسيولوجية الخاصة، ولها أهداف وأدوار مشخصة في هذه الحياة، ونحن لا نعرفها.

ويبحث علماء الطبيعة والأحياء وعلماء البحار منذ مئات السنين عن هذه الكائنات، ومع ذلك لم يكتشفوا واحدا بالألف من أسرار هذه الدنيا، وكلما تعمق الإنسان اكتشف أشياء جديدة في هذا الكون، فهذا الغلاف الذي جعله الله تعالى سقفاً لهذه الأرض، والذي نعبّر عنه بـ «الجو»، عندما نعبره نصير في عالم آخر، فمثلاً هنا جاذبية ولكن عندما نعبر الغلاف لا توجد جاذبية، وهنا اوكسجين نتنفس منه وهناك لا يوجد اوكسجين، وهنا مستوى الحرارة نستطيع أن نعيش فيه مع غيرنا من الكائنات، وهناك درجة

الحرارة أكثر أو أقل بنحو لا يستطيع أي كائن حي أن يعيش فيها، وهذا ما نطلق عليه النظام الأحسن، حيث كل شيء يسير ضمن أهدافه الخاصة ويحقق النتائج المرجوة منه، وهو ما ورد في القرآن الكريم بعنوان السير في الآفاق والسير في الأنفس، والسير في الآفاق هو أن نتحرك في هذه المعمورة والكون وننظر إلى الحقائق ونزداد بصيرة وعمقاً ورؤية، والسير في الأنفس هو دخول الإنسان في وجوده ونفسه العجيبة والغريبة الأطوار.

وقد ورد في القرآن الكريم في الحث على السير في الآفاق آيات كثيرة، نذكر بعضا منها:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٨٤]، ففي الأرض آيات لمن كان بمستوى اليقين، ومن كان ببصيرة أهل اليقين، أي عندما يلتفت يميناً أو شمالاً سيجد ما يبرهن على وجود الله تعالى، وما يدله على الله تعالى، وما يأخذ بيده إلى الكمال في كل شيء.

ثم يقول تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ففي أنفسنا أيضاً آيات تدل على وجود الباري عز وجل وعلى حكمته، سواء في أبعادها المادية أو أبعادها المعنوية، فالعين والأذن والقلب والكلى والكبد، ، وأي واحد من أعضاء الإنسان عند تعطلها يركّب له جهاز ليعوضه عن هذا العضو، ولكن هناك فروق واسعة بينهما، ففي البدن يكون العضو بسيطاً وصغيراً، بينما الجهاز الذي يعوض عن القلب مثلاً يكون حجمه بحجم نصف غرفة، وكذا الجهاز الذي يعوض عن الكلى، وهذا حجمه أضعاف حجم الإنسان، فمع كل هذا التطور التكنولوجي والبشري لم يستطع أن يحقق كل ما يحققه الجهاز والعضو البشري الطبيعي.

إنّ القلب والكبد وكل هذه الأجزاء في البدن شيء غريب وعالم غريب، فمثلاً توجد في العين تركيبات معقدة لكي نستطيع أن نرى بها، وكذا الأمر في الإذن لكي نستطيع أن نسمع بها، ، وهكذا توجد في كل خلية من خلايا هذا البدن أسرار وعجائب، حتى تحيرت العقول في

٨٤. الذاريات: ٢٠-٢١.

فهم هذا الإنسان، سواء في أبعاده المادية أو في قدراته وهممه وعزيمته.

هناك موسوعة باسم موسوعة غينس جمع فيها أسماء الأوائل في العالم من البشر في كل المجالات، خيرها وشرها، صالحها وطالحها، سلوك العقلاء وسلوك المجانين، وكل شيء في الدنيا، ولو تصفحنا هذه الموسوعة لرأينا عظم القدرات المودعة في هذا الإنسان الصغير في جرمه وحجمه، فهو كما قال الشاعر:

كلما أقـــــدم فكـــري فـــيك شـــــبراً فـرّ ميـلا

ناكصاً يخـــبط في عمياء لا يهـــــد ي الســـبيلا[٨٥]

أي كلما أتقدم شبراً في معرفة هذا الإنسان انفتحت آفاق جديدة، فأجد نفسي بعيداً عن اكتشاف أسراره بمسافة ميل، وكلما اقتربت أكثر أرى أنّ القضية أعمق وأوسع من أن أدركها، ومهما أعمل فكري فإنّي لا أستطيع أن أدرك عمق هذا الإنسان.

فالتدبر في آيات الله والنظر إلى الظواهر والآيات والوقوف عندها، كل ذلك يمنح الإنسان بصيرة عظيمة، لذلك نجد مقولة رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه عرف ربه»[٨٦]، أي من يدقق بنفسه ويتأمل إمكاناته وقدراته ونعم الله عليه سيعرف ربه، ومن عرف الكون عرف ربه، ومن عرف الشجر عرف ربه، ومن عرف البحار عرف ربه، ومن عرف هذه الظواهر الكونية عرف ربه؛ لأنّها تمنحه البصيرة، قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٨٧]، هل استطعتم أن تحصلوا على البصيرة وتفتحوا عين القلب لتدركوا كل هذه الحقائق وتتمسكوا بها وتكونوا على قدر المسؤولية؟ إنّ هذا التدبر يوصلنا إلى ذلك.

وحينما نلاحظ الآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه الظواهر الكونية ثم نجعل كل آية في عنوان يختلف عن الأول ونتدبر فيها، فإنّه يمكن

٨٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١٣: ٥١.

٨٦. بحار الأنوار ٢: ٣٢، ح٢٢.

٨٧. الذاريات: ٢١.

أن نحصل على المعطيات، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٨٨]، يعني أنّ التدبر في هذه الظواهر الكونية يجعل المتدبر من أهل اليقين.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[٨٩]، وهنا التدبر في هذه الظواهر الكونية يعطي المتدبر السمع والوعي والإدراك الحقيقي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٩٠]، أي أنّ النظر والتفكر في هذه الظواهر والوقوف عندها تجعلنا من أصحاب الفكر والتدبر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، فأيام الله اُعتبرت من آيات الله، واُعتبرت محطة نستذكر فيها عمق هذا الكون وأهمية معطياته والقوانين التي تتحكم به، ثم يقول عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٩١]، وقد استعمل هنا صيغة المبالغة في الصبر والشكر، فلم يقل صبورٍ ولا صابر، بل قال صبّار.

أي أنّ التدبر في آيات الله يمنح المتدبر المزيد من الصبر، إذ عندما نرى أحوال الأمم السابقة ونرى أيام الله، وعندما نرى الانتقال من الظلمات إلى النور وما جرى على الأقوام السابقة، لا تخيفنا أربع مفخخات، ولا يخيفنا الإرهاب، ولا يعوقنا عن مواصلة طريقنا، ولا تعجزنا المشاكل أبداً، ماذا يريد الارهابيون أن يصبحوا؟، هل يريدون أن يكونوا مثل الفراعنة، يقتلون الأطفال الذكور ويتركون الإناث؟ فلقد زادوا عليهم حينما لم يفرّقوا بين الأطفال والنساء والرجال والعجائز والشيوخ، وعندما نقرأ التأريخ نرى أنّ

٨٨. الذاريات: ٢١.

٨٩. يونس: ٦٧.

٩٠. الرعد: ٣

٩١. إبراهيم: ٥.

أُمماً أُبيدت عن بكرة أبيها من قبل طواغيت وفراعنة في زمانهم، ولكن الحياة استمرت، والبشرية تطورت.

واليوم هل يمكن أن يؤثر فينا الإرهاب؟ كلا والله، والحمد لله الذي زادنا فيهم بصيرة، إنّهم يقفون اليوم ويقولون: يزيد قائدنا والحسين عدونا!.. الإمام الحسين عليه السلام ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله عدوكم، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحب الله من أحب حسيناً»[٩٢]؟! ولكن هذه نعمة أن يتعروا وينكشفوا حتى يبتعد عنهم ويتبرأ منهم الجميع من أصحاب العقل والدين، وهذا نصر ما بعده نصر، ليتميز الحق من الباطل، وتتكشف الحقائق، وتُعرف مظلومية هذا الشعب الذي يتعرض إلى الحملات الإرهابية منذ عشر سنوات.

فهل تظنون أن تضيع دماء النساء والأطفال المظلومين وأشلاؤهم المقطعة سدى عند الله سبحانه وتعالى؟ حاشا لله أن يكون كذلك، ولكن اصبروا لتروا النتائج قريباً بأعينكم وليس الأجيال القادمة، وسترون ما يجري عليهم، والنصر لكم والعزة لكم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٩٣]، أيخيفوننا؟.. لا والله، فشهداؤنا في الجنان ونحن سنزداد رفعة وشأناً، وستتضح الأمور.

وفي سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٩٤]، هذا الطير آية من آيات الله، والنظر في آيات الله يعطي الإنسان الإيمان.

الآية الثانية: ومما جاء في القرآن الكريم في الحث على التدبر في ما حولنا من الآيات قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[٩٥]، فالأنعام والدواب آية من آيات الله سبحانه لأصحاب العقول، فيفكرون في عجائب خلقتها بما يتناسب مع وظيفتها

٩٢. بحار الأنوار ٤٣: ٢٩٦، ح٥٦.

٩٣. المنافقون: ٨.

٩٤. النحل: ٧٩.

٩٥. طه: ٥٤.

في الحياة، فخلق الجمل مثلاً بنحو يستطيع أن يتحمل العطش، وجعل له سناماً على ظهره يخزن فيه ما يحتاج اليه من طعام في رحلاته الطويلة الشاقة، وجعل له خفين يستطيع المشي بهما على رمال الصحراء من غير أن تغطس رجله فيها رغم ثقل وزنه، ،وهكذا، وقد أعطانا الله العقل لنتدبر في آياته ونصل إلى معرفته سبحانه ومعرفة عظمته وحكمته وعلمه ودقة تدبيره التي لا حدود لها.

الآية الثالثة: ومن الآيات الأُخرى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[٩٦]، المتوسمون: هم الذين نسميهم اليوم في مصطلحاتنا الدارجة (الموهوبين(، وهم أكثر من الأذكياء، وهؤلاء هم الذين يرون العبر ويتعظون بها، كملاحظة الأقوام السابقة وكيف أنّ من كانت لديه العزة والقوة والإمبراطوريات والمنعة والفراعنة قد اندثرت حضاراتهم وزال ملكهم برمشة عين، حينما تفجرت الأوضاع وتغيرت الأُمور.

الآية الرابعة: ومن الآيات التي تحث على التدبر في الآفاق والأنفس قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٩٧]، فمن عظيم آياته سبحانه خلق السموات وما فيها من المجرات والكواكب التي لم يستطع العلم إلى اليوم الاحاطة بعددها وبأسرارها، ومن العجيب أيضاً اختلاف ألوان البشر ولغاتهم هذا الاختلاف الكبير، وهي كلها آيات عظيمة من آيات الله سبحانه التي تعطي العلم للإنسان لو تدبر فيها، فيحصل على اليقين والسمع والعلم والفطنة والفكر والصبر والشكر وكل شيء من خلال سير الآفاق والأنفس والنظر في آيات الله سبحانه وتعالى.

إنّ هذه الآيات تعطينا البصيرة، وتعطينا الرؤية الواضحة، ونرى كم أن الله سبحانه وتعالى عظيم، الذي خلق لنا النظام الأحسن، وجعل كل هذه الكائنات تتفاعل بعضها مع بعض، فكل حشرة وحيوان ونبات إذا غابت عن الكون تترك آثاراً سلبية، حتى النبات السام والحيوان الضار الذي فيه

٩٦. الحجر: ٧٤- ٧٥

٩٧. الروم: ٢٢.

فوائد عظيمة في ظل النظام الأحسن والتوازن الكوني المطلوب وتوزيع الأدوار الدقيقة.

الآية الخامسة: ومن الآيات الأُخرى التي تدلنا على دور التأمل في الآفاق والأنفس في إيجاد البصيرة هي قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[٩٨]، أي لا ينبغي للإنسان أن يعتقد بأنّه بجهده وشطارته يحصل على رزقه، فهو بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الرزاق ذو القوة المتين، وهو يقول لنا اطلبوا الرزق، ولا تجلسوا في البيت وتنتظروا أن يأتيكم الرزق، صحيح أن الله تعالى هو الرزاق ولكن يجب أن تسلكوا المسالك المادية والطبيعية للحصول على الرزق.

ثم يقسم الله تبارك وتعالى قسماً غليظاً بنفسه وبصفة الربوبية للسماوات والأرض أن الرزق منه سبحانه، فلا ينبغي الشك في ذلك كما أنّكم لا تشكون بأنّكم تنطقون، فليس هناك من يشك في أنّه متكلم، وإن كان معنى النطق هو العقل؛ فهذه السمة هي التي تميز الإنسان عن غيره، فكما أنّكم لا تشكون بنطقكم كذلك لا ينبغي أن تشكوا برزقكم، فمن هو متأكد من قدرته على التفكير لا يجوز له أن يشك أبداً في مسألة الرزق ويخاف على نفسه من الفقر، وتبقى توسوس له نفسه؛ إذا لم أحصل على التعيين في الوظيفة الفلانية فأين أذهب، أو إذا أخرجوني من العمل فأين أذهب؟، كلا، فالله تعالى هو الرزاق، يسد باباً ويفتح لك أبوابا.

وأسوق لكم مثلاً عن رئيس شركة مايكروسوفت، وهي من الشركات العالمية العملاقة التي يصل رأسمالها إلى مليارات الدولارات، قرأت أنّه في حياته كان يعمل موظف برمجة في شركة، وكان مخلصاً، والشركة التي يعمل فيها انهارت، يقول: فعملت ليل نهار حتى استطيع أن أوجد نقلة في الشركة وانطلقت في مواصلة عملها مرة أُخرى، وعندما جاءت الأرباح وزاد رأسمال الشركة خاف منه رئيس الشركة أو بسبب آخر طرده من العمل وقال له استغنينا عن خدماتك، وأُصيب بنكسة وصدمة؛ كيف

٩٨. الذاريات: ٢٠– ٢٣.

قدمتُ كل ذلك العطاء والعمل الجاد وتعاملت بإخلاص من أجل إنقاذ الشركة ثم يتخلون عني بهذه السهولة؟! . . وكان هذا القرار ليس فيه رجعة .

خرج محبطاً وحزيناً، ورجع إلى البيت لا يعرف كيف سيعيش بعد ذلك، ففكر أن يفتح شركة، وفي غضون سنوات من العمل حصل على مليارات، وأصبحت شركته من كبريات شركات العالم، ويقول: كنت أُفكر عندما كنت عائداً إلى البيت بعد إخراجي من العمل لو سألوني من أبغض شخص في العالم؟ فسأقول: رئيس الشركة، ولكن اليوم أقول: لا أحب إنسانا أكثر من رئيس الشركة، وذهبت وحاولت أن أصل إليه لأشكره لأنّه خدمني، فقد كنت موظفاً بسيطاً أتقاضى بضع عشرات من الدولارات، وصرت الآن من أصحاب المليارات، فالله تعالى هو الذي وهبه هذه القدرة على التفكير وفتح له أبواب الرزق .

ويجب أن نؤمن أنّ الرزق بيد الله تعالى، ونعتمد الأسباب الطبيعية في طلبه، ولكن يجب أن نعلم أنّ الله تعالى هو الرازق، وليس ما نحصل عليه من المال هو بشطارتنا وجهودنا؛ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الرزق لا يجره حرص الحريص، ولا يصرفه كره كاره»[٩٩]، فليس بالحرص والمكر والخداع والسرقة تكسب الأموال وتجنى الأرباح، فقد يسرق شخص مليون دولار من أموال الشعب ولكن فجأة يصاب ابنه بالسرطان، أو تصاب امرأته بالمرض الفلاني، أو يبتلى بالقضية الفلانية ويعطي المليون الذي سرقه ثم هو يوم القيامة مسؤول عنه، فلم ينتفع منه وأنفقه في العلاج .

أما إذا وضع الإنسان كوابح له، فيمكن أن يجنبه الله كل هذه الأمراض، صحيح أنّه لم يقبض المليون ولكن الصحة والعافية والتوفيق والسلامة قد أتت كلها، فلا تعتقدوا بأنّ المال الحرام يسعد إنساناً أبداً، وخذوها حقيقة من الحقائق الكونية .

وكما أنّ الرزق لا يأتي من خلال الحرص، فكذلك لا يصرفه كره

٩٩. بحار الأنوار ٧٤: ٦١، ح٤ .

كاره، ولا تخف ممن يريد النيل منك؛ لأنّ الرزق ليس بيده، وقد يخرج ربّ العمل من المعمل عاملاً ويظلمه بقضية، ولكنه قد يفتح له بذلك أبوابا من الرزق لم تخطر على باله، فلا ينبغي أن نعتقد بأن الرزق يزول بكره كاره أو يجمع بحرص حريص، ويجب أن يكون لدى الإنسان إيمان بالله سبحانه وتعالى وأنّه بيده وحده رزق العباد، وأنّه جعل اُموراً تزيد من الرزق، واُموراً تنقص منه، كآثار وضعية لأفعال الإنسان.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «والذي بعث جدي بالحق نبياً إنّ الله تبارك وتعالى يرزق العبد على مقدار المروءة، وانّ المعونة تنزل على قدر شدة البلاء»[١٠٠]، فالله تعالى يعطي الرزق على قدر مروءة الإنسان، وعلى قدر التزامه بمنظومته الأخلاقية ومعاييره الإنسانية الصحيحة، كما أنّ المعونة تنزل على قدر شدة البلاء، فكلما ازداد البلاء ازداد الصبر وازدادت العناية الإلهية والتوفيق والثبات، فحال الإنسان كالمسمار؛ كلما طرقت عليه أكثر ازداد ثباتاً في الجدار.

ويعتقد البعض بأنّ المفخخات ستجعلنا ننهار ونستسلم، وكم هم واهمون، فعلى العكس لقد زاد ذلك من درجة الوضوح لدينا ومن حقانية المنهج والتماسك والاندفاع، فهذه الاُمور ما كانت لتصير لولا هذه التحديات.

وفي ذروة الازمة الطائفية عام ٢٠٠٦ و٢٠٠٧وقطع الرؤوس في مثلث الموت، تشرفت بزيارة أحد المراجع العظام، وقلت له: مولانا أشكو إليكم مظلومية الشعب، فالناس تذبح على الهوية، فمن رأوا أنّ اسمه علي أو حسين أو عباس ذبحوه، فقال: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١٠١]، إنّ هذا يزيد من تمسك الناس بالدين وبالشعائر، فلو لم تكن هناك ضغوط وتأثيرات لحزب البعث لما كنّا نعلم أين نحن ذاهبون والى أين ستصير الاُمور.

إنّ النعمة والترف لهما ثمن وعوارض، وليسا بلا استحقاقات، وهذا

١٠٠. وسائل الشيعة ١١: ٤٣٣، ب٤٩ من أبواب المواقيت، ح١.

١٠١. النساء: ١٩.

ليس معناه أنّنا لا نريد النعمة للناس، بل يجب علينا أن نهيئ أنفسنا، ونبني البلد بناء صحيحاً، لنحقق لأهله الخدمة الصحيحة ويعيشوا الرفاه، ولكن يجب أن نبني أنفسنا أولاً، وبناء الأنفس كبناء البلدان قضية أساسية لا ينبغي الغفلة عنها، وعلى قدر شدة البلاء تأتي المعونة من الله تبارك وتعالى، فهناك شعوب وأُمم، كثافتها السكانية مئات الملايين، يمكن أن يهزها تفجير واحد، وسيصاب الناس بالرعب وتسقط حكومات.

لكن الشعب العراقي ومنذ زمن الدكتاتورية يعيش المعاناة والإرهاب، ويعيش الهجمة الإرهابية الشرسة على مدى عشر سنوات ماضية، وهو صامد وثابت ومستقيم ومعتز بمشروعه ووطنيته وهويته وقيمه وبدينه، وهذه هي النعمة التي نعيش فيها ولا نراها، وينظر إليها من هو خارجها، وينظر العالم اليوم إلى الشعب العراقي نظرة انبهار وإعجاب ودهشة لقدرته على تحمل المعاناة والآلام، صحيح أنّه يتعب منها، ولكن التعب فيه ثمار وله آثار، إنّه يبني شعبا ويمهد لظهور المصلح الأكبر؛ سيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كف الأذى وقلة الصخب يزيدان في الرزق»[١٠٢]، يبيّن الإمام الصادق عليه السلام بعض طرق زيادة الرزق، وهما:

الأول: كف الأذى، فمن أراد أن يزداد رزقه فعليه ألا يؤذي أهله ولا يؤذي الآخرين، ولكن ما هي العلاقة بين كف الأذى وبين زيادة الرزق؟، لا يوجد تفسير مادي، ولكن في هذا العالم الذي تترابط به الحقائق الكونية له تفسير واضح، فكلما كان الإنسان رجل سلام ورجل محبة وخدمة ومنفتحا على الآخرين ويساعدهم، انفتحت أمامه أبواب الرزق، فخذوا يا شباب يا أحبة هذا درساً، فالنخوة والشيمة ومساعدة الناس والوقوف مع الآخرين في قضاياهم ومشاكلهم تزيد في الرزق.

الثاني: قلة الصخب، وهذه ظاهرة من الظواهر المنتشرة في مجتمعنا العراقي وبعض مجتمعات الشرق الأوسط، وربما تعاني منها مجتمعات أُخرى أيضاً، فالصخب والصوت المرتفع والسماعات العالية مما يؤذي

١٠٢. التوحيد: ٤٦٠، ح٢٨.

النـاس، ولاسـيما أنّ هنـاك أُناسـا مرضـى ينزعجـون مـن الأصـوات المرتفعـة ولا يسـتطيعون توفيـر الأجـواء الهادئـة لأنفسـهم.

وحتى إذا كانـت هـذه الأصـوات العاليـة قرآنـاً أو ذكـراً للإمـام الحسـين عليه السلام أو دعـاء، فـلا ينبغـي أن نضـع سـماعات ونزعـج النـاس، فنكـون سـبباً فـي ابتعادهـم عـن الديـن، ومشـكلتنا نحـن المتدينيـن أنّنـا نحتـرم الأرض كثيـراً، ونتحـرى هـل هـذه الأرض مغصوبـة أو غيـر مغصوبـة لتصـح صلاتنـا فيهـا، ولكننـا نعتبـر الهـواء ملكنـا، فنضـع موسـيقى علـى أعلـى صـوت، ونشـحن الجـو بالضجيـج، ونحسـب أنّنـا نحسـن صنعـاً!. ألا ينبغـي أن نحاسـب أنفسـنا أنّ البعـض قـد لا يعجبـه سـماعها؟ ألا يمكـن أن نضـع مؤشـر الصـوت علـى قـدر مـا نسـمع؟. إنّ كل إنسـان يعـرف تكليفـه، وهـذا شـأنه، وهـو يتحمـل تبعـات أعمالـه، ولكـن ينبغـي لـه أن يلاحـظ الآخريـن، وأن يسـتعمل السـماعات بمقـدار لا يزيـد علـى الحاجـة إليهـا، ولا يـؤذي الآخريـن بالصخـب والصـوت العالـي، وليعلـم الجميـع أنّ الهـواء والفضـاء ليسـا ملـكا لأحـد، بـل ملـك الجميـع، ولا يجـوز التجـاوز علـى حقـوق الآخريـن.

الآيـة السادسـة: ومـن الآيـات الأُخـرى التـي تدلنـا علـى دور التأمـل فـي الآفـاق والأنفـس فـي إيجـاد البصيـرة هـي قولـه تعالـى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[١٠٣].

ليـس المقصـود بالنظـر هنـا نظـر العيـن، بـل يـراد بـه البصيـرة، فعلـى الإنسـان أن يفتـح عينيـه ويقـرأ مـا بيـن السـطور، ويحلـل مـا وراء الحـدث، ويدقـق فـي الظواهـر، ولا ينبغـي الأخـذ بـكل مـا نسـمعه أو نقـرأه، بـل يجـب التحقيـق فـي كل معلومـة نحصـل عليهـا، ولا ينبغـي الإسـراع في نشـر أي معلومـة قبـل معرفـة دقتهـا، فقـد نسـيء بهـا إلـى إنسـان أو نعتـدي علـى حريتـه أو نهتـك حرمتـه لا قـدّر الله، فهـذه تحتـاج إلـى بصيـرة ودقـة.

ومـا دامـت البصيـرة مفقـودة فـي مجتمعنـا بالمسـتوى الـذي نتمنـاه فسـيبقى

١٠٣. ق: ٦-٨.

تتقاذفه الأمواج من جهة إلى أُخرى، وتبقى الناس تتلقف ما يقوله المصدر المطّلع، ولا أحد يعرف من هو المصدر المطّلع!، ألا يوجد له اسم؟!، وتتلقف الناس الخبر، ويذهب المسكين صاحب الموضوع ويحلف بأنّه لم يقل ذلك أو لم يفعله، ولكن لا أحد يسمعه، ونحن نعلم بأنّ الناس تسمع الكلام غير الجيد وتصدق به، ولا أحد يعتني بالتوضيح، ولا أحد يأخذ به، ويبقى المجتمع في حالة من التخبط، لا يعرف الحق من الباطل، ولا الصدق من الكذب؛ لعدم وجود البصيرة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، فلا يكفي أن يرفع الإنسان رأسه ليقول ليس هناك مطر، بل عليه أن ينظر إلى السماء ليرى العظمة الإلهية، والآيات العظيمة لله عز وجل، ويفكر كيف بناها فوق رأسه، فلا يمكن أن يوجد سقف لدار بلا جدران أو أعمدة يستند إليها، فكيف استقرت هذه السماء بدون أعمدة تستند إليها، وكيف بناها الله سبحانه وتعالى وكيف زيّنها، فتضيء بالنهار بضياء الشمس، وبالليل بنور النجوم والقمر؟ وعندما ينظر الإنسان إلى السماء ليلاً يرى جمالاً وزينة تأخذ بالألباب، ولولا هذا الانتشار للكواكب لم يكن للسماء وحدها زينة.

ثم ليفكر كيف أنّ هذه السماء على عظمتها لا يوجد فيها فروج وشقوق، وهي متوازنة وقوية ومنيعة وحافظة لنا، كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[١٠٤]، فهي حافظة للحياة في الدنيا بهذا القشر الذي يعبر عنه بالسماء مجازاً، ولولاها لما كانت في الأرض حياة.

ثم ينتقل سبحانه ليتحدث عن موضوع الأرض، فيقول: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾، أي بسطناها، وها هو الإنسان يجوب فيها من مكان إلى آخر، إذ تتنوع تضاريسها، بين صحراء ووديان وجبال وغابات وانهار وعيون، وهذه الأرض كلها آيات لله عز وجل.

ثم يتحدث عن الجبال فيقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي جبالا ثابتة كالأعمدة في الأرض.

---

١٠٤. الأنبياء: ٣٢.

ثم يتحدث عن النبات، فيقول: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، ولعل النبات هنا يشمل ما ينبت في الأرض حتى الأشجار، ويشير الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة إلى ظاهرة الزوجية في النباتات، ولم تكن الناس تعرف بذلك يوم نزل القرآن، وبعد مئات السنين من نزول القرآن أثبت العلم ظاهرة الزوجية في النبات كما هي في الإنسان والحيوان، إذ خلقها الله تعالى من ذكر وأنثى لكي تتلاقح بينها، ثم يصف هذه النباتات بالبهجة وهي التي تروق للإنسان أشكالها وألوانها، فتدخل السرور إلى نفسه عندما ينظر إليها.

وجميع ما في الكون من السماء والأرض والجبال والنبات ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، فهي تبصرة لنا لكي تعطينا البصيرة، فينبغي أن نفتح عيوننا جيداً ونفكر حتى نحصل على البصيرة، وكلما ازداد الإنسان بصيرة اقترب من الله سبحانه وتعالى، فهناك من لا يملك عقيدة ولا دينا، وعندما يرى النسق العظيم في الكائنات الحية والظواهر الكونية يزداد انبهاراً حتى يصل إلى الإيمان بالله سبحانه.

الآية السابعة: ومن الآيات الأُخرى التي تدلنا على دور التأمل في الآفاق والأنفس في إيجاد البصيرة هي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[١٠٥].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن المطر كيف ينزل فينبت الله تعالى به بساتين تنمو بمياه المطر، وينبت به أيضاً حب الزرع الذي يحصد، وتحصل عملية النمو الزراعي والزراعة من خلال ماء المطر، وهي آية من آيات الله تعالى، ثم تتحدث الآية الكريمة عن النخلة، فيقول: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيها: «استوصوا بعمتكم النخلة خيراً»[١٠٦]، هل وضعنا أعيننا عليها وفكرنا بها؟.

ومن نعم الله علينا أن جعل بلدنا العراق بلد النخيل، وقد خصها سبحانه بالذكر لأنّها تستهوي الإنسان في تركيبتها وخصوصياتها،

١٠٥. ق: ٩- ١١.

١٠٦. بحار الأنوار ٦٣: ١٢٩، ح١٣.

وباسقات: أي طويلة، ومن خصائص هذه النخلة أنّها ﴿لهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، والطلع هو ثمر النخلة في بدايته، ونضيد: متراكم، فعذق النخل وهو الطلع متداخل بشكل كبير.

ثم يبيّن الفائدة من هذه النباتات التي أوجدها المطر بأنّها رزق للعباد، لكي توفر لهم ما يحتاجون اليه من طعام.

ثم تتطرق الآية إلى بيان الفائدة الثانية للمطر في قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، فكم من أرض خراب جرداء وصحراء يابسة، يأتي ماء المطر فيحييها وتتحول إلى أرض طيبة ذات خضرة وثمار.

وأخيراً تمثّل الآية الكريمة خروج الناس من الأجداث في يوم القيامة بخروج النبات من الأرض بعد نزول المطر، فقالت: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، فهو مثال حي يراه الإنسان في كل حين على مسألة البعث والنشور في يوم القيامة، وهو جواب لسؤال: كيف يحيي الله تعالى الأموات؟ فكما أنّه سبحانه يحيي الأرض الميتة بالماء، فكذلك يحيي الأموات ويخرجهم من الأجداث للحساب يوم القيامة.

الآية الثامنة: ومن آيات الآفاق والأنفس التي أشار لها القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[١٠٧].

أليس كافياً لهدايتهم ملاحظة السنّة الإلهية في هلاك الأُمم السابقة من أهل القرون الماضية التي جحدت رسالات الله تبارك وتعالى، بعد أن كانت لهم صولات وجولات وقوة وأموال، وبعد أن كانوا مؤثرين في مجتمعاتهم، فظنوا أنّهم يملكون الأرض، وأنّهم قد بلغوا الغاية من القوة والجبروت، وليس هناك من يستطيع أن يزلزل ملكهم وسلطانهم، بل وصل الغرور والطغيان بأحد فراعنتهم أن يقول لوزيره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ

١٠٧. السجدة: ٢٦-٢٧.

عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[١٠٨]، يطلب الملك من وزيره أن يبني له برجاً عالياً لكي يصعد إلى السماء وينظر إلى إله موسى عليه السلام، حيث يزعم أصحابه أنّه في السماء، ولم يكن هذا الحديث حديثاً تعجيزياً، وما كان حديثاً عابراً، وما كان لقلقة لسان.

وعندما يذهب المرء اليوم إلى الأهرامات في مصر يصاب بالإعجاب والدهشة، كيف استطاعوا أن ينقلوا هذه الصخور الضخمة إلى أعلى الأهرامات مع أن التطور التكنولوجي آنذاك كان بدائياً، وكانت الآلات التي ترفع الصخور وتنقلها من مكان إلى مكان بسيطة، ولكنها مع ذلك كانت تحملها وتضع بعضها على بعض بطريقة هندسية فريدة!، مما يُنبئ بوجود قدرات وإمكانات ضخمة وإمبراطوريات مخيفة بُنيت على مر التاريخ، وما زلنا إلى اليوم نجهلها، ألم تر كيف أهلكناهم؟!.

وفي كل زمان هناك من يعتقد بأنّ أحداً لا يستطيع التصدي له، ولكن النظر إلى الأقوام السابقة والإمكانات الهائلة المتوفرة لديهم وكيف أنّها زالت وذهبت أدراج الرياح، ولم تنفعهم إمكاناتهم ولم تدفع عنهم أذى، هذه كلها تعطينا فرصة للاعتبار والاتعاظ، وألا نقلق ولا نخشى من المستكبرين والطغاة مهما كانت قوتهم وبطشهم، فإنّ الأمم والشعوب تبقى والطغاة يذهبون إلى مزبلة التاريخ.

لقد أهلك الله حضارات وأمماً وإمبراطوريات وشعوباً ذات إمكانات هائلة، وأصبحت نسياً منسياً، ألا يرون إلى ذلك، أوليس هذا كافيا للهداية؟!، وهذه السنّة الإلهية تتجدد في كل زمان.

ففي هذه الأيام نسمع أخبار العواصف التي عصفت بالفلبين، وهي دولة تقع في طريق العواصف، وقد ألفت ذلك، كما أنّ اليابان تقع في طريق الزلازل، ولهذا كيفوا أنفسهم ورتّبوا أوضاعهم على احتواء هذه الصدمات، ولكن شعب الفلبين مع كل هذا التهيؤ والإمكانات، وكانوا قد عرفوا أنّ العاصفة التي ستأتي إليهم أشدّ وأعتى من سابقاتها،

١٠٨. القصص: ٣٨

فاستعدوا لها وأجلوا مئات الآلاف من مناطق العاصفة، ومع ذلك وفي ساعات قليلة تغيرت ملامح هذا البلد، وكان الحديث عن عشرة آلاف قتيل، وهذا معناه أنّ هناك عشرات الآلاف من الجرحى، فقد دمرت قرى بأكملها، وتعرضت مدن لخراب هائل وكبير بطرفة عين.

وهذه كلها عبر ودروس ورسائل للإنسان لكي يراجع حساباته مع خالقه، ومثال آخر على تحقق هذه السنّة الإلهية في أيامنا هذه هو الزلزال الذي عصف بأكبر بلد صناعي في العالم خلال دقائق، حتى المحطة النووية تعرضت فيه إلى اهتزاز، بالرغم من كل الإجراءات الاحترازية التي اتخذت لحمايتها من الزلازل.

فلا يظن الإنسان أنّه إذا استغنى وصارت لديه قدرات معينة وأحاط به أربعة أو خمسة أشخاص، أنّه يستطيع أن يقف أمام الكون ويتحدى الخالق! لقد جاء أقوام أقوى منك وذهبوا، وصاروا اليوم عبرة للتأريخ، ونحن أيضاً كما أتينا نذهب، ولكن علينا أن نتعلم كيف نستثمر ونعتبر ونهتدي بهذه العبر والدروس.

﴿**يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**﴾: لقد هلكت تلك الإمبراطوريات وتحولت إلى متاحف، والناس تقطع تذكرة وتذهب لترى الأهرامات، وتذهب لترى المكان الفلاني، وهنا كان مكان القوم الفلانيين، بقيت منها خرائب وآثار من آلاف السنين، يراها الناس ويستذكرون أولئك الأقوام الذين لم يكن أحد يستطيع أن يقترب من قلاعهم أو يرفع رأسه إليهم، وأصبحت اليوم قصورهم خاوية على عروشها، يذهب إليها الناس ويمشون في مساكنهم، وينظرون إلى ما كان لديهم من قوة وبطش وقدرة وإمكانات.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ**﴾: وهذه كلها آيات لله تبارك وتعالى، فتلك الأقوام والحضارات وتلك الإمكانات كلها آيات لنا، فيا أيها الإنسان ألا تسمع؟ ألا تعي؟ ألا ترى؟ ألا تعتبر؟.. يجب على الإنسان أن يستفيد ويعتبر من هذه الآيات.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ**﴾: يريد الله

تعالى أن يقول: إنّ آياتي ليست منحصرة في هلاك الأقوام واندثار الحضارات، بل هي في البناء والإعمار وبث الحياة أيضاً، فبعد أن مثّل تبارك وتعالى بهلاك القرون الأولى مثّل بالاتجاه المعاكس أيضاً.

﴿**الْجُرُزِ**﴾: الأرض اليابسة الجرداء القاحلة، كيف يأتيها الماء ويأتيها المطر، فتحيا بإذن الله، وتدبّ فيها الحياة، وينبت فيها الزرع فتتحول إلى أرض حية بعد أن كانت ميتة.

﴿**نَسُوقُ الْمَاءَ**﴾: نحركه من مكان إلى مكان، لأنّ الماء ثقيل، وبحكم ثقله يركد في الأرض ويخترقها ويسكن في أعماقها، وتتحول إلى مياه جوفية، ولكن الله تعالى ببركته يسوق الماء إلى أراض أُخرى، وينقله من مكان إلى آخر ليعم الانتفاع منه وتحيا به مساحات أوسع من الأرض.

وأما مياه البحار المالحة، فهي غير قابلة للشرب ولا للزرع، ولكن الله سبحانه وتعالى يجعل الماء يتبخر ويتشكل منه السحاب فتأخذه الرياح إلى أرض أُخرى ثم تمطر فيها، ويتحول إلى ماء سائغ شرابه وصالح للزرع، فيحيي به الأرض بعد موتها، ولولا المطر لكانت مساحات شاسعة من الأرض ميتة كأعالي الجبال والتلال المرتفعة والمناطق البعيدة عن الأنهار، ولهذا نرى أنّ مناطق طبيعية كبيرة روافدها من ماء المطر فقط، وهناك مناطق كبيرة في العالم تعتمد على مطر السماء فقط، وهذا مثال للعظمة الإلهية.

﴿**فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً**﴾: فماء المطر يسوقه الله تعالى من البحار والمحيطات مئات وآلاف الكيلومترات ليصل إلى المكان الفلاني وينزل فيه، وهكذا يتوزع الماء على كل المناطق فتحيا به الأرض.

﴿**فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ**﴾: وبسبب هذا المطر يخرج الزرع الذي يعيش عليه الإنسان والأنعام ويأكلون منه، وقد يسأل سائل: لماذا قدّم الأنعام على الإنسان بالذكر في الآية الكريمة؟ أليس من حق الإنسان أن يقدّم لأنّه أشرف منها؟ والجواب أنّ الأنعام تعتاش على الزرع فقط، بينما يتغذى الإنسان على الزرع

ولحوم الأنعام، أو أنّ الحيوان يأكل الزرع كيفما يكون من الأعشاب والدغل ويتقوت عليه، بينما الإنسان لا يستطيع ذلك، إذ ينتظر إلى أن يتحول الزرع إلى ثمر وينضج ليستطيع أن يأكله.

﴿**أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾: ألا يفتحون عيونهم ويزدادون بصيرة بالتفكير في هذه الحقائق والآيات؛ من هلاك الأقوام السابقة والعقوبات الإلهية، والمطر وإحياء الأرض، ونمو الزرع؟.

وهاتان الآيتان فيهما مداليل لطيفة، فحينما تتحدث الآية الأولى عن الأقوام السابقة وهلاكهم تقول: ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾، وحينما تتحدث الآية الثانية عن الحياة والأمطار تقول: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، ولعل ذكر السمع هناك والبصر هنا لأنّ إحياء الأرض وزراعة الزرع نراهما بأعيننا، وهذه الأرض جرز ثم جاء المطر فنبت الزرع والأشجار وتحولت إلى بساتين نراها بأعيننا، أما الأقوام السابقة فلم نعش معهم، بل قرأنا وسمعنا عنهم، فاستعمل السمع للأقوام السابقة والبصر لحقائق نراها اليوم في حياتنا.

وتشير هذه الآيات أيضاً إلى مفارقة مهمة في آية أخرى من آيات الله تعالى، وهي أنّ هذا الهواء يتحول تارة إلى إعصار يصبح سبباً للهلاك والخراب والدمار الكبير، وتارة يتحول نفس هذا الهواء إلى سبب لتسير هذه الغيوم آلاف الكيلومترات وتنزل المطر وتحيي الأرض بعد موتها، فهذه الرياح تكون سببا في العقوبة تارة، وسبباً في الحياة والنمو والزرع وما إلى ذلك تارة أخرى، فهي بيد الله سبحانه وتعالى يتحكم بها كيفما شاء.

الآية التاسعة: ومن آيات الآفاق والأنفس التي أشار لها القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي

الْأَبْصَارِ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠٩].

يسوق الله تبارك وتعالى برفق، قطرات الماء من البحار، فتتحول إلى بخار، ثم يسوق الله سبحانه هذا البخار وهذه القطرات الصغيرة بعضها مع البعض الآخر حتى يتكون السحاب، ثم يؤلف بينه، فيجمع هذا البخار والسحاب، بعضه إلى بعض، ثم يجعله ركاماً، أي أنّ هذه الغيمة التي نراها بأعيننا تتألف من ماء متبخر، وهي مجموعة من القطرات وتكون مرتفعة لا ترى بالعين، ولكن عندما تتجمع وتتراكم تشكل ظاهرة السحاب وظاهرة الغيوم، وعندما يتراكم ويتعرض لهذا الضغط والتراكم تنزل قطرات المطر.

﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾: أي بعد أن يتكون الغيم ويتراكم تنزل قطرات المطر فتسقي الأرض الجرز فتحييها، وينمو الزرع والنباتات، وتروي الإنسان والحيوان، ، إلى غير ذلك من الفوائد.

﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ**﴾: عندما تتراكم الغيوم وتشكل جبالا في السماء، ويراها من يركب الطّائرة، فإنّه إذا كانت هناك حالة من تراكم الغيوم فإنّ الإنسان يراها جبالا من الغيم، أي أنّ شكل هذه الغيوم المتراكمة مثل الجبال، وهناك تنخفض الحرارة إلى حد كبير، فيتحول الماء إلى ثلج، ولذلك تأتي ظاهرة البَرَد «الحالوب».

﴿**فِيهَا مِن بَرَدٍ**﴾: البَرَد هو «الحالوب»، فهذه الجبال من الغيوم المتراكمة إذا صادفت درجات حرارة منخفضة يتحول الماء إلى برد «حالوب».

﴿**فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ**﴾: أي أنّ الله سبحانه يحوّل هذا الحالوب إلى عذاب وإلى سبب للاختبار والابتلاء، فيضرب المزارع ويخرب الزرع، وتصل شدة الحالوب أحياناً إلى مستوى يؤثر في العمران ويقتل الناس والحيوانات.

---

١٠٩. النور: ٤٣ ٤٤- ٤٥

﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾: فهذه الغيوم بيد الله سبحانه يحولها كيف شاء، إلى مصدر حياة أو إلى مصدر عذاب وابتلاء واختبار، ونفعنا وضرنا بيد الله سبحانه وتعالى وليس بيد موجود آخر.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾: السنا هو الضوء، الوهج، أما البرق فهو الشعلة الكهربائية الصاعقة، وتتكون نتيجة الاحتكاك بين الغيوم، فتولد طاقة كهربائية وتحدث ظاهرة الرعد وصوته المخيف.

﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: حينما تكون الغيوم متقاربة يظهر صوت يثير الرعب لدى الإنسان، وكأنّه عملية انفجار كبير، مع نور شعلة وصعقة كهربائية كبيرة، وهو من شدة ضوئه لا تستطيع الأبصار أن تتحمله.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: تعاقب الليل والنهار آية أُخرى من آيات الله تعالى، فالليل يدفع بالنهار، والنهار يدفع بالليل، وتستمر عملية التعاقب بلا توقف وانقطاع، وإن طال النهار وقصر الليل، فعندما يجيء الشتاء يقصر النهار ويطول الليل، وعندما يجيء الصيف يطول النهار ويقصر الليل، وحينما يتدافعان بامتداد الزمن تتكون الفصول الأربعة في السنة بهذه الطريقة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾: وكل هذه الظواهر الإلهية من الرعد والبرق والأمطار والأرض والسماء والنبات والحياة والليل والنهار، كلها آيات وعبر لأولي الأبصار، لكي نعتبر ونحقق البصيرة في نفوسنا.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾: فكل الدواب، سواء دواب الأرض أو دواب الأنهار والبحار، مصدرها من نطفة، والنطفة ماء، ونفس النطفة تنتج حيوانات ودواب متنوعة ومختلفة، فهذه القطرة من الماء تنتج آلاف الأنواع المختلفة من الدواب والأنعام، فالمنشأ واحد وهو هذه القطرة «النطفة».

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾: وهي الحيات وأمثالها من الزواحف التي لا تملك أرجلاً.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: الخلق بيد الله سبحانه وتعالى، هو يقدّر وهو يخلق،

وليس غير الله، ومع كل هذا التطور العلمي لم يستطع البشر توليد الحياة من كائن ميت حتى هذه اللحظة، ولم يستطيعوا أن يمنحوا الحياة لكائن ميت، ولن يستطيعوا، فالحياة خلق الله، والخلق شأن الله.

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾: والقدير صيغة مبالغة من القادر، يعني أن الله تعالى قادر على كل شيء بيسر وسهولة ومن دون أي عناء أو تعب أو صعوبة.

الرافد الثالث

التسديد الإلهي

الرافد الثالث من روافد تحقيق البصيرة هو التسديد والتوفيق الإلهي والرعاية الربانية ، ونتطرق إلى التسديد الإلهي في القرآن الكريم ، ثم نتحدّث عن هذا العامل ودوره في تكوين البصيرة في الروايات الشريفة الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام .

التسديد الإلهي في القرآن الكريم

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع نقتصر على الإشارة إلى بعضها بما يوضح المقصود من البحث :

الآية الأُولى : قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١١٠] ، ويقيناً أن الذي يخرجه الله من الظلمات إلى النور يكون من أهل البصائر ، لأن من كان في النور فهو يرى كل شيء بوضوح ، وليس كمن هو في الظلمات لا يستطيع أن يرى شيئاً .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[١١١] ، إنّ صلاة الله تبارك وتعالى وملائكته على المؤمنين هي التي تخرجهم من ظلمات الغفلة إلى نور البصيرة ، وهي من نفحات الرحمة الإلهية التي يفيض بها على عباده الذين آمنوا به وبرسوله ، وأخلصوا في هذا الإيمان له وحده سبحانه وتعالى .

التسديد الإلهي في الروايات

الرواية الأُولى : عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال : «إنّ

١١٠ . البقرة : ٢٥٧ .

١١١ . الأحزاب : ٤٣ .

رسول اللهﷺ لما تفل في عيني وأنا أرمد»، ولعلها إشارة إلى حرب الخندق حينما أصاب الرمد عينيه الكريمتين، وكان عليه أن يخرج لقتال عمرو بن عبد ود، فأخذ رسول اللهﷺ شيئاً من ريقه الشريف وبلّل به عين عليعليه السلام فشفيت بإذن الله تعالى من ذلك الرمد، وينقل لنا أمير المؤمنينعليه السلام هذا المشهد فيقول: «وحينما كان رسول اللهﷺ يبلّل ريقه ويضعه على عيني كان يدعو لي بهذا الدعاء: اللهمّ أذهب عنه الحر والبرد، وبصّره صديقه من عدوه»، فلم يدعُ بأن لا يؤذيه برد ولا حر فقط، بل دعا له أيضاً أن يؤتيه بصيرة يستطيع من خلالها تمييز عدوه من صديقه، لأنّ المؤمن مبتلى لحسن ظنّه بالناس بعدم القدرة على التمييز بين العدو والصديق، إلا أن يكون من أهل البصيرة، ثم يقول أمير المؤمنينعليه السلام: «فلم يصبني رمد بعد، ولا حر ولا برد، وإنّي لأعرف صديقي من عدوي»[١١٢]، واستجاب الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريمﷺ دعاءه في حق عليعليه السلام.

فانظروا إلى تأثير البصيرة في القدرة على التشخيص وتمييز الناس؛ الصالح من الطالح، الصديق من العدو، فكم من شخصٍ يزعم أنّه صديق ولكنه ممن يطعن في الظهر وهو أخطر الأعداء، وكم من اُناس نتوهم أنّهم أعداء ولكنهم في الواقع أصدقاء، فنظلمهم ونبعدهم ونقصيهم ونعاديهم ونخاصمهم؛ لعدم قدرتنا على التمييز، بسبب ما يبتلى به المؤمن عادة من حسن الظن المفرط بالناس، ولكن المؤمن عندما يكون من أهل الفراسة والبصيرة يصبح ذا قدرة على تشخيص وتمييز الصديق من العدو، وتقدير الموقف الصحيح في الاصطفاف، من معنا ومن ضدنا، وحينئذ يتخلص من منطق (كل من ينتقدني فهو ضدي، وكل من يمدحني فهو معي)، فلعل ناقدا مشفقا يكون أقرب الناس إلينا، ولعل متملقا متزلفا يسمعنا الكثير من الإطراء ولكنه يطعننا من الخلف.

ومن هذه الرواية الشريفة تتضح أهمية أن يكون المؤمن من أهل البصائر؛ لأنّ هذه البصيرة والقدرة على التمييز هي ما دعا به رسول اللهﷺ لأخيه أمير المؤمنينعليه السلام في تلك اللحظات الخطرة في ميدان

١١٢. بحار الأنوار ٢٩: ١٣، ح٢.

الحرب، وهو يستعد لمنازلة أعظم بطل عرفته العرب في تأريخها.

الرواية الثانية: في الأدعية المروية عن الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه في نافلة الليل، وهي من أهم الأوقات التي يتفرغ فيها الإنسان لمناجاة ربه في آناء الليل وعبادته، ويطلب منه أهم ما يريد، ويعلمنا الإمام الصادق عليه السلام ماذا نطلب، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«اللهمّ أعطني بصراً في دينك»، أي يا إلهي أُريد أن ترزقني عبادة واعية، أُريد طاعة واعية، أُريد أن أفهم ديني بشكل صحيح، لا أُريد قراءة سطحية وشكلية عن الدين، لا أُريد رؤية انغلاقية وتشددية عن الدين، لا أُريد رؤية انفلاتية متساهلة تضيّع عليّ الدين، أُريد الرؤية الوسطية الواقعية التسامحية للدين التي أمرتنا بها بقولك: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[١١٣]، أُريد الوسطية والقراءة الصحيحة للدين.

فالإسلام دين السلام والمحبة والتعايش، دين الانفتاح على الآخر، دين التعامل مع الآخر، وليس دين الذبح والقتل لكل من يختلف معك في رأي، هذه المدارس والمناهج المتشددة والمتطرفة التي أصبحت تحمل لواء الإسلام، والإسلام منها براء، ومن سلوكها ومنهجها براء، هذه حالة بعيدة جداً عن الإسلام، بل على النقيض منه، نطلب من الله السميع العليم البصيرة في الدين.

إنّ ديننا ليس فيه «نفذ ثم ناقش»، بل ديننا فيه ملاكات الأحكام، وفيه فلسفة التشريع، والروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعج ببيان فلسفة التشريع؛ لماذا هذا واجب؟ ولماذا ذاك حرام؟ ولماذا يرى الإسلام كذا ولا يرى كذا؟ إنّ في ذلك فلسفة وحكمة قد نعرفها وقد نجهلها، فإن عرفناها عرفنا لماذا هذا واجب وذاك حرام، وهذا راجح ومرغوب فيه وذاك مرجوح ومرغوب عنه، وإن جهلناها علينا أن نتعرف عليها وأن نسأل عنها.

هذه هي النظرة الواعية للدين، وهي أن يعرف الإنسان لماذا يصلي، ولماذا يصوم، ولماذا يحج، ولماذا يزكّي، ولماذا يجاهد في سبيل الله،

١١٣. البقرة: ١٣٤.

ولماذا يحضر في مجالس الإمام الحسين عليه السلام ، ولماذا ولماذا ، ، فالإجابة عن هذه الأسئلة تعطي للإنسان بصيرة في دينه ، ليعرف أنّ هذا الدين ليس مجموعة تعليمات وأوامر ونواهٍ جوفاء بعيدة عن المنطق والمصلحة الحقيقية لهذا الإنسان في حياته الدنيوية والاخروية .

«وفقهاً في عبادتك» ، ويا إلهي اُريد أن تكون عبادتي عن تفقه ، إذ العبادة تحتاج إلى معرفة بالأحكام ، فهناك من يصلي وصلاته باطلة ، ويتوضأ ويتطهر ووضوؤه باطل ، ويحج وحجه باطل ، ويصوم وصومه باطل ، ثم يطّلع بعد عشرين أو ثلاثين سنة على الأحكام الشرعية فيرى أنّ صلاته وصومه وحجه وعبادته الاخرى كانت غير صحيحة ، ومثل هذا الإنسان المقصّر لا يُعذر ، لأنّه لم يسأل ويتعلّم ويتأكد ، ولذا علينا أن نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يكون لنا فهم فقهي للعبادة ، لنأتي بها بشكل صحيح كما أمر عز وجل ، وحينئذ يمكن أن تكون مورداً ومحلاً للقبول منه سبحانه ؛ إذ من شروط قبول العبادات أن يكون أداؤها صحيحاً كما أراد الله سبحانه وتعالى .

«وفهماً في حكمك» ، وأسألك يا إلهي أن ترزقني فهماً وإدراكاً لما حكمت به على عبادك ، «وكفلين من رحمتك» أي رحمة مضاعفة ، «وبيّض وجهي بنورك» ، هناك من الأشخاص من ترى وجهه نيّراً بنور الله ، وترى شخصاً آخر قد غابت روح الإيمان عن وجهه ، وهذا أمر من الله سبحانه والله يختص به من يشاء من أهل طاعته وعبادته ، فهو الذي يبيّض الوجوه بنوره ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يبيّض وجوهنا جميعاً في الدنيا والآخرة .

«واجعل رغبتي في ما عندك» ، إلهي اُريد أن تكون رغبتي في ما هو عندك ويقرّبني منك ، ولا اُريد أن أرغب في شيء يبعدني عنك ، ولا تجعل رغبتي في ما هو عند غيرك ، وهذه مهمة التكامل ، وهي أن يتحرك الإنسان في طول طاعته لله سبحانه وتعالى ؛ فيرغب بما أحل الله ، وهي المساحة الكبيرة ، ويحجم عما حرم الله وعما يغضب الله ، وهي المساحة الضيقة ، إذ أنّ مساحة الحلال ومساحة المباحات مساحة واسعة جداً ، فلماذا نتركها ونذهب للحرام .

«وتوفني في سبيلك»[١١٤]، أي على ملتك وملة رسولك، فحينما يغادر الإنسان الحياة وهو على الطريق الصحيح، وهو نهج الله ونهج رسوله، وقد عمل لله وأطاع الله والتزم بنهج رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، فستكون موتته انتقالة إلى الجنّة والسعادة الأبدية، وهنيئاً لمن يحظى بذلك.

الرواية الثالثة: ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «إلهي إنّ القضاء والقدر يمنيني، وإنّ الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي تنصرني وتبصّرني»[١١٥]، إلهي النصر من عندك، والبصيرة من عندك، فانصرني وبصّرني بتسديدك ورعايتك ولطفك ومحبتك، فالنصر من الله تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١١٦]، و في قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾[١١٧]، ومن أرادَ النصر يجب عليه أن يبحث عنه عند الله سبحانه وتعالى، لا في قوّته، فمهما كان الإنسان قوياً فهي مجرد قوة شكلية و(كارتونية)، والقوي الحقيقي والمطلق هو الله عز وجل، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء، ويضع من يشاء، فلا ينبغي لنا أن نخطئ ونطلب النصر من غير الله سبحانه، فنكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[١١٨].

الرواية الرابعة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً»، أي إذا أراد الله تعالى أن يضع الإنسان على السكة الصحيحة وأراد به خيراً، وإذا أراد أن يرفعه، فماذا يفعل به؟.. يوفقه للأُمور التالية:

أولاً: الزهد في الدنيا

«زهّده في الدنيا»، أي يخرج حب الدنيا من قلبه فيصبح زاهداً فيها،

١١٤. بحار الأنوار ٨٤: ٢٧١، ح٦٨.
١١٥. بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٦.
١١٦. آل عمران: ١٢٦.
١١٧. آل عمران: ١٦٠
١١٨. يس: ٧٤-٧٥.

ولكن ماذا يعني الزهد في الدنيا؟ هل هو أن لا يملك الإنسان شيئا؟ كلا طبعاً، فليس الزهد أن لا يملك الإنسان شيئاً، بل الزهد هو أن لا يملكه شيء، فهناك مثلاً من لديه سيارة قديمة، ولكن قلبه متعلق بها، فيخاف أن تسرق أو تتعطل، فباله معها يلحظها دائماً ويحافظ عليها ويحرسها، وهناك من لديه سيارة حديثة ولكنه لا يهتم بها، ويقول إذا حصل شيء فالله يريد ذلك، إذن فالزهد ليس له علاقة بحجم الممتلكات، فهناك فقير ليس لديه زهد وهناك غني زاهد، فليس معنى الزهد أن لا يملك الإنسان مالاً، بل الزهد أن لا يملكه المال ويتحول إلى خادم له، وأن لا يتعلق بأُمور الدنيا فتسلب عقله، فيصبح عقله منشغلاً بهذه الأشياء وفكره منصبّا عليها، وتصبح هذه الأشياء هي التي تملكه، وهذا خلاف الزهد، وأما الزاهد فهو يملك كما يملك سائر الناس ويرعى ويحفظ ما يملك، ولكن إذا حلّت به نازلة وذهب ذلك المال استسلم للقضاء والقدر وقال إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا يجزع لما أصابه، ولكن غير الزاهد إذا نزل بساحته البلاء وفقد ما يملك، كمن سرقت داره أو احترقت، فإنّه يصاب بسكتة قلبية، بينما الزاهد من لا يتأثر بما حلّ بأمواله، فهناك فرق بين هذا وذاك، وشتان بينهما، فالتحلي بالزهد قضية أساسية للإنسان، وحينئذ ستتغير نظرته إلى الحياة وتتغير مواقفه إزاء الكثير من الأحداث والأشياء.

ثانياً: الفقه في الدين

«وفقهه في الدين»، أي تكون لدى الإنسان رؤية صحيحه عن الدين، فيعرف الواجبات فيأتي بها، والمستحبات فيثاب إن جاء بها ولا يُعاقب على تركها، والمكروهات فيثاب على تركها ولا يُعاقب إن أتى بها، والمحرمات فيمتنع عنها. سُئل أحد مراجعنا كيف ندخل الجنة؟ فرفع الرسالة العملية التي تتضمن الأحكام الشرعية وقال: هذا حرام لا تعمل به، وهذا واجب التزم به، وذاك مباح يجوز لك أن تعمل به، وهذا مستحب حاول أن تعمله، إذن فالالتزام بالرسالة العملية هو الذي يدخل الجنة.

ثالثاً: البصيرة بعيوب الدنيا

«وبصّره عيوبها»، وهنا الشاهد، أي منحه الله تعالى البصيرة ليكتشف عيوب الدنيا، والذي يكتشف عيوب الدنيا هو الإنسان الذي أراد الله تعالى

به خيراً، ومن كان بصيراً بعيوب الدنيا لا تستطيع أن تأخذه لذاتها ونزواتها إلى ما يوقعه في الحرام.

«ومن أوتيهنّ فقد أوتي خير الدنيا والآخرة»[١١٩]، أي من أعطاه الله هذه الثلاثة: الزهد في الدنيا، والفقه في الدين، والبصيرة بعيوب الدنيا، فقد جمع الله تعالى له خير الدنيا والآخرة.

الرواية الخامسة: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام الدعاء التالي في الصلوات المستحبة في يوم الجمعة قبل الزوال ويوم العيد، ولاحظ ماذا ينبغي أن يطلب الإنسان في يوم العيد ويوم الجمعة:

«يا من هداني إليه»، أول ما نستفيده من هذه الجملة المباركة من الدعاء هو أنّ الهداية من الله تبارك وتعالى، والهداية تعني أن يتوجه الإنسان بقلبه نحو الله تبارك وتعالى، ومن النعم العظيمة علينا اليوم هي جلوسنا في مجلس الإمام الحسين عليه السلام، فهو مجلس يُذكر فيه الله تعالى كثيراً، ويُشجع فيه على طاعة الله تعالى، بينما هنالك في هذه اللحظة إنسان في مكان آخر حيث معصية الله سبحانه، فالهداية إذن هي توفيق وتسديد من الله تبارك وتعالى.

«ودلّني حقيقة الوجود عليه»، فعندما يطمئن قلب الإنسان، وينشدّ إلى الله سبحانه وتعالى، فهو أيضاً تسديد وعطاء إلهي.

«وساقني من الحيرة إلى معرفته»، وهو سبحانه الذي وفّقني لكي أعرفه وأرى عظمته وكبرياءه، لكي أتعلق وأتمسك به، لتوجد فيّ حالة العرفان والوضوح، وحالة البصيرة، وتتعزز عندي العبودية الخالصة له وحده سبحانه.

«وبصّرني رشدي برأفته»، وهو الذي منّ عليّ برأفته ولطفه فأعطاني البصيرة لأعرف صلاحي، ولولا هذا التسديد الإلهي في ما يمنحه الله تعالى للإنسان من بصيرة في تشخيص صلاحه، لما أفلح في معرفة رشده.

---

١١٩. الكافي ٢: ١٣٠، ح١٠.

«صلّ على محمد وآل محمد واقبلني عبداً»، كم هو أمر عظيم أن يكون الإنسان عبداً لله سبحانه وتعالى، فإنّ من تمحضت فيه صفة العبودية لله عز وجل كان أمام الناس حراً، وبين يدي الله عبداً، وهنا تكمن العظمة حينما يكون الإنسان عبداً يحسن العبودية لله سبحانه وتعالى.

«ولا تذرني فردا»، أي لا تتركني وحدي يا الله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، فإنّك إن تركتني وحدي أضل وانحرف، إلهي أريدك إلى جانبي، وأريدك معي، وأريدك هاديا لي.

«أنت أحب إليّ مولاي»[١٢٠]، ينبغي أن يكون أحب شيء إلى الإنسان هو الله سبحانه وتعالى، وإذا كان عندنا شيء أحب إلى أنفسنا من الله سبحانه فيجب أن نشكك بأنفسنا، ويجب أن نراجع أنفسنا ونعيد تقييماتنا ونصحح مواقفنا حتى يكون الله سبحانه وتعالى هو الأحب إلى نفوسنا وقلوبنا.

هكذا كان الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد كان الله تبارك وتعالى ماثلاً أمامه، لأنّه أحب شيء عنده، وكذلك كان أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وهذا الارتباط الذي كان لأهل البيت وللحسين عليه السلام بالله سبحانه وتعالى هو الذي خلّد ذكرهم، وإلاّ فما هو التفسير الطبيعي والمنطقي لشهيد قتل قبل نحو ١٤٠٠ سنة، واليوم يؤبّن بهذا الحجم، فيبكيه مئات الملايين من الناس ويندبونه، ويقيمون المجالس له، ويحيون شعائره، والتفسير الوحيد لهذه العواطف والمشاعر والمحبة للحسين عليه السلام هو عمق علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالله سبحانه وتعالى، ومدى تجسيده للمشروع الرسالي والإلهي، فكان الإمام الحسين عليه السلام بذلك مفردة أساسية في هذا المشروع وفي هذا التصميم الرسالي.

١٢٠. مصباح المتهجد: ٣١٢، ح٤٢٩.

الرافد الرابع

الإيمان

الرافد الرابع من روافد تحقيق البصيرة هو الإيمان بالله تبارك وتعالى، وسنتطرق إلى دور هذا العامل وتأثيره في تكوين البصيرة من خلال القرآن الكريم وأقوال المعصومين عليهم السلام.

دور الإيمان في تحقيق البصيرة في القرآن الكريم

أشار القرآن الكريم في العديد من الآيات الكريمات إلى دور الإيمان في تحقيق البصيرة، نقتصر على ذكر بعضها كمثال على هذا الدور:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٢١].

يشير الله تبارك وتعالى في الآية المباركة إلى قوم لوط، هذه الجماعة المنحرفة التي كانت تعاني من الانحراف الأخلاقي كظاهرة عامة والعياذ بالله، وقد بلغ بهم الانحراف إلى مستوى أصبحوا معه يتجاهرون به، بل تخطى التجاهر إلى مستوى الاعتداء في وضح النهار على المارة والناس، وهنا يحدّثنا القرآن الكريم عن الملائكة الذين جاؤوا كضيوف إلى لوط عليه السلام بصفة رجال حسان يتمتعون بأعلى مستويات الجمال، وكان لوط عليه السلام يعيش معاناة كبيرة مع هؤلاء القوم، وقد حذرهم من نزول العذاب الإلهي عليهم مرات ومرات، وأصبح في قلق شديد على ضيوفه، وخشي أن يخزى أمامهم إذا ما تعرضوا إلى اعتداء من أُولئك القوم الذين يعيشون حالة الشذوذ الجنسي، فكان في حالة من الاضطراب، وكان يتمنى أن لا يزوره أحد، وكما نعرف فإنّ قوم لوط كانوا في منطقة تقع

١٢١. الحجر: ٧٤- ٧٧.

بين يثرب والشام، فكانت تمر بين هاتين الحاضرتين جميع القوافل المتجهة من يثرب إلى الشام وبالعكس في ذلك الوقت، وكانت طريقاً وشرياناً اقتصادياً كبيراً، وكان أصحاب القوافل إذا ما حطوا رحالهم في تلك المنطقة يتعرضون إلى الاعتداء، وقيل إنّ نبي الله لوط عليه السلام حينما كان يجد البعض يكاد يعتدى عليه أو يتعرض إلى ضغوط يأخذهم إلى بيته ليبعدهم عن الاعتداء، وبعد فترة اكتشف قوم لوط أنّ لوطاً عليه السلام يفوت عليهم فرصاً مهمة لانحرافهم، فمنعوه من استضافة أحد في بيته لكي تبقى الساحة مفتوحة لانحرافهم.

وكان لوط عليه السلام مغلوباً على أمره مادياً في ذلك المجتمع، ولذا عندما جاءه هؤلاء الضيوف الحسان في مظهرهم كان خائفاً وقلقاً عليهم، ولم يكن يعرف أنّ هؤلاء الضيوف ملائكة أرسلهم الله تعالى لإنزال العقوبة الإلهية بحق هؤلاء القوم، فصار الضيوف يطمئنونه ويهدئونه، وكان بعض الأفراد من قومه قد شاهدوا هؤلاء الضيوف عندما دخلوا بيت لوط عليه السلام، وأخبروا الآخرين بأنّ هناك ضيوفاً على مستوى عال من الجمال دخلوا بيت لوط عليه السلام، وجاء عدد كبير من هؤلاء يطرقون بابه لينتزعوا هؤلاء الضيوف منه ويعتدوا عليهم والعياذ بالله، لاحظوا إلى أي مستوى وصلت وقاحة هؤلاء! فهم يحاولون الاعتداء على الآخرين والتجاوز عليهم علناً وفي وضح النهار.

ولكن حينما تخطوا الحدود، أخبرنا القرآن الكريم في آيات أُخرى عن حوار دار بين لوط عليه السلام وهؤلاء، طالباً منهم الزواج وترك هذه المعصية العظيمة، وأنّه على استعداد لمن يتوب منهم ويعود إلى رشده أن يزوجه من بناته، لكي يبني أُسرة وعلاقات جنسية صحيحة قائمة على أُسس شرعية، فلماذا هذا الانحراف الأخلاقي مع أنّ البديل الصحيح النظيف موجود؟ ولكن لم ينفع المنطق السليم، كيف وقد استحكمت فيهم هذه العادة الشاذة، وهنا تجاوزوا جميع الخطوط الحمر، وبلغت لحظة الحقيقة ولحظة العذاب الإلهي، فالله سبحانه يمهل ولا يهمل، فهناك ذنوب ومعاص وانحرافات لا تتحمل تأخير العذاب الإلهي، وقد بلغ الانحراف بهؤلاء إلى مستوى لا يتحمل التأجيل، فعجّل الله سبحانه

لهم العذاب، وهنا صارح الضيوف لوطاً عليه السلام قائلين له: لا تخف علينا فنحن ملائكة أرسلنا الله جل جلاله لننزل العذاب بهؤلاء، فخذ أهلك والمؤمنين من المنطقة واترك زوجتك وانطلق ولا تنظر خلفك، وقيل إنّه في تلك اللحظة أخذ أحد هؤلاء الملائكة حفنة من التراب ورماها في وجوه القوم، فعميت عيونهم جميعاً وهربوا من ذلك المكان، ثم طلب هؤلاء الملائكة من لوط أن يخرج هو والمؤمنون معه لكي ينزل العذاب في فجر ذلك اليوم، ونزل العذاب الإلهي عند حلول الصباح، وهذه الآيات تتحدث عن هذا العذاب الإلهي، وأول ما سمعوا صيحة عظيمة، وهذه الصيحة كما تشير إلى ذلك آيات أُخرى كانت إنذاراً بحلول العذاب، فلم يبق أحد منهم سالماً، فهم بين مغمى عليه أو مقتول، ثم جاءهم العذاب الثاني؛ زلزال جعل عالي مدينتهم سافلها، فما كان عالياً أصبح سافلاً وبالعكس، وهذا ما يحصل في الزلازل والهزات العنيفة وما شابه ذلك.

وفي هذا درس عظيم كيف أنّ الجماعة والأُمة إذا تعدّت في انحرافها حدود المعقول، وتجاوزت الخطوط الحمر، عجّل الله سبحانه لها العذاب، وفيها درس عظيم آخر في أنّ الانحراف لا يقف عند حدّ معيّن، فالإنسان في البداية يرتكب معصية خفية، ثم بعد ذلك يتجاهر بها، فيقف مثلاً ويقول متبجحاً: أنا أشرب الخمر منذ عشرين عاماً، أو يتجاهر بترك الواجب فيقول متباهياً: إني منذ عشرين سنة لم أُصلّ أبداً، أو يقول متحدياً: أنا لم أصم يوماً واحداً في حياتي، ويتفاخر بذلك وكأنّه قد أتى بأمر حسن! ثم بعد ذلك تتجاوز القضية هذه الحدود لتصل إلى حالة الاعتداء على الآخرين من دون وجل أو خجل، وهكذا هو الإنسان حينما يترك مشاعره وأحاسيسه وشهواته تندفع إلى المجهول فتوصله إلى ما لا تحمد عقباه.

﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾: النوع الثالث من العذاب الذي نزل على قوم لوط بعد الصيحة والزلزال هو أنّ الله عز وجل قد أمطرهم حجارة من سجيل، والسجيل هو الطين المتحجر، وأصبح كل من يأتي يرى أكوام الحجر والطين وليس من أثر لهذه المدينة، فقد تلاشت بالكامل، إذ قلبها الزلزال، فأتى المطر من الحجارة فأخفى أثرها

ومحاها من الوجود، لكي تكون عبرة لمن اعتبر، وهكذا هو العذاب الإلهي الشديد.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾: أي في هذه القصة التأريخية وما جرى فيها على قوم لوط إشارات ودروس للمتوسمين، والمتوسمون هم المتفهمون المعتبرون، فالتوسم يعني الاعتبار.

﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ**﴾: كانت هذه المنطقة التي يسكن فيها قوم لوط على طَريق يسير فيه النَاس، وهو الطريق بين الجزيرة العربية والشام.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾: فالمؤمن هو الذي تحصل عنده البصيرة فيعتبر من آيات الله تعالى، والمؤمن هو الذي حينما يرى ما جرى على الأمم السابقة يلتقط الدروس والإشارات ويعتبر مما جرى على الماضين.

وعلينا أن نعتبر، فإنّ من لا يستفيد من عبر التأريخ يكون عبرة من عبر التأريخ، ومشكلتنا أنّنا لا نقرأ التأريخ، ولا نقف عند السنن الإلهية، وهي سنن متجددة كما أخبر بذلك الخبير البصير بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[١٢٢]، فالمكان والزمان يتغيران، ولكن السنّة الإلهية ثابتة، ولذا كانَ كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء؛ لأنّه في كل مكان وزمان هناك حق وهناك باطل، وهناك صراع بين الحق والباطل.

ونرفع أصواتنا ونقول: يا أبا عبدالله يا ليتنا كنّا معك فنفوز فوزاً عظيماً، لأنّ صحبة الإمام الحسين عليه السلام ونصرته في يوم عاشوراء لا يقاس بهما شيء، ولكن من لم يدرك ذلك فبإمكانه نصرته في كل مكان وزمان؛ لأنّ الحسين لا يمثل شخصاً وإنما يمثل نهجاً وفكراً وثقافة وسلوكاً، فبإمكاننا في كل زمان أن نكون حسينيين، وأن نكون مع الإمام الحسين عليه السلام، والمؤمن هو الذي تحصل عنده هذه البصيرة.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ

١٢٢. فاطر: ٤٣.

أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[١٢٣]، تتحدّث هذه الآية الشريفة عن شيخ الموحدين نبي الله إبراهيم عليه السلام، فهذا النبي الموحد العظيم الذي يتحدث عنه القرآن الكريم على أنّه أُمة، جاء إلى قومه وألقى عليهم الحجة والدليل على وحدانية الله تبارك وتعالى، وشرح لهم معالم العقيدة والدين من التوحيد والنبوة والمعاد ووضّحها لهم، وأسقط ما في أيديهم من الشبهات والاعتراضات وبيّن لهم الحقائق، ولكنهم ما كانوا يريدون أن يلتزموا ويقبلوا بهذا الحق، وكان جوابهم على البرهان البيّن للعقيدة الحقة أن قالوا) اقتلوه أو حرّقوه)، ولم يكن عندهم جواب منطقي، لذا أسرعوا إلى المنطق السلطوي المنحرف والقوة السلبية التي تقف بوجه المنطق، وهو القتل أو الحرق، ولم يكن جوابهم: آمنوا به واستجيبوا له ما دام الحق والدليل معه، وصارت القضية قضية تحدٍ، وهذه هي العلاقة الجدلية بين القوة السلبية والمنطق، فكلما نمت هذه القوة السلبية السلطوية تضاءل المنطق، وساد القتل والذبح.

وفي زماننا هناك من يمارس هذا المنهج، فمنهجهم هو أنّ كل من يختلف معنا يجب قتله حتى لو كان من ديننا أو من مذهبنا أو من جماعتنا، وهذا هو أيضاً منطق الإرهاب الداعشي اليوم، الذين ما إن يختلف معهم أحد من جماعتهم أو من مذهبهم أو من عقيدتهم في قضية أو على غنيمة أو أي شيء آخر حتى يُعد عندهم كافرا ويقتل فوراً! فإما أنْ تكون عبداً ذليلاً أو تتهم بالكفر! وأين هذا المنطق من منطقِ الإسلام الذي يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقول للمشرك والكافر: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١٢٤]، فبالرغم من كون النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله معصوماً ومنزهاً عن الخطأ، ولكن الله تبارك وتعالى يأمره أن يخاطب المشركين بهذا المستوى من الإنصاف والاحترام، فلا يجوّز له أن يتهمهم بالضلال وأنّه على الهدى في موقع الحوار معهم، بل أمره أن يقول لهم: ربما كنت على ضلال وأنتم على هدى، أو أنتم على ضلال وأنا على الهدى، مع أنّ النبي المعصوم لا يمكن أن يكون على ضلال، كما أنّه لا يوجد

١٢٣. العنكبوت: ٢٤.

١٢٤. سبأ: ٢٤.

أدنى احتمال أن يكون المشرك أو الكافر على هدى، ولكن لو كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لهم من أول الكلام إنّي على هدى وأنتم على ضلال، فكيف يمكن له أن يتفاهم ويتحاور معهم؟ فمن أجل أن يفتح الحوار معهم ويوصل الحجة والبرهان إليهم ويقنعهم بالحق الذي يحمله، أمره الله تبارك وتعالى أن يحتمل الصواب في منطقهم وإن كان في الواقع لا يراه مصيباً، وكذلك يحتمل الخطأ في منطقه وإن كان يرى نفسه مصيباً، فهذا المنطق الإسلامي، ولاحظوا الفرق بين هذا المنطق والمنطق المتشدد الذي يدّعي الإسلام والإسلام منه براء، ومنطق التشدد هو منطق فرض الرأي بالقوة، ومنطق الظلام، ومنطق قتل الناس والاستهانة بالدم والتساهل في إزهاق الأرواح البريئة وقتل النفس المحترمة، وهذا بعينه هو المنطق الأموي اليزيدي، الذي خيّر الإمام الحسين عليه السلام بين مبايعة يزيد والدخول تحت طاعته، أو القتل وإن كان ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقتل من معه من أهل بيته وأصحابه وسبي نسائه، وفي المقابل خيّرهم الإمام الحسين عليه السلام بين عدم البيعة ليزيد أو تركه يذهب في أرض الله العريضة ويخرج من تحت سلطانهم، فالقضية إذن لم تكن قضية سياسية فقط، بل كانت قضية استعباد للأُمة لا غير، وإلا لقبلوا ما عرضه عليهم الإمام الحسين عليه السلام.

وهذا هو عين المنطق الذي تحدث به أُولئك الظلمة مع إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وأصبحت القضية أنّ السلطة قد استنفرت جميع قواها من أجل الدفاع عن باطلهم، ولم يكن لديهم منطق يواجهون به إبراهيم عليه السلام، وهم خائفون من منطقه ومن توحيده، ولذلك حاولوا وضع الحواجز بينه وبين الناس، فحرضوهم عليه بأنّه يستهدف الأوثان التي عبدها آباؤكم وأجدادكم ويجب أن نجعله عبرة لغيره، فقد ورد في النصوص التأريخية[١٢٥] أنّ قومه كانوا يجمعون الحطب حتى إنّ الرجل ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله فيُشترى به حطب، وحتى إنّ المرأة لتغزل فتشتري به حطباً، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا، وأضرموا فيه النار، فوصل لهيبها وحرارتها إلى درجة لم تستطع الطيور أن تطير فوقها، وهذا ما يبرر إلقاءهم إبراهيم عليه السلام في النار من

١٢٥. بحار الأنوار ١٢: ٢٣.

خلال المنجنيق؛ لأنّهم لا يستطيعون الاقتراب من هذه النار العظيمة التي أوقدوها.

فالقضية فيها استعراض، وهذا الاستعراض أصبح تجسيداً للصراع بين الحق والباطل، بين التوحيد والشرك، وحينما تأخذ المعركة هذا الجانب ينتصر الله تعالى للحق، فقد قُتل الكثير من الأنبياء من مجموع مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان هذا القتل السبب في إنزال العذاب الإلهي، لقد كان الاستنفار عاماً، فالنار ملتهبة والقوم مجتمعون، وإنّه لتحدٍ كبير.

وذكرت بعض الروايات أنّه في اللحظة التي أوثقوا فيها يدي إبراهيم عليه السلام ورجليه لكي يرموه في النار جاءه جبرائيل عليه السلام وسأله: «ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا»، أي أنا غير محتاج إليك ولكنّي محتاج إلى الله تعالى، وذهل جبرائيل عليه السلام من هذا الجواب، فالنار تستعر وقد وصل لهيبها إلى عنان السماء، وإبراهيم مقيّد اليدين والرجلين، وقد وضع على المنجنيق ليقذف به داخل النار، «فقال له جبرائيل عليه السلام: فاسأل ربك؟ فقال إبراهيم عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي»[١٢٦]، أي يكفيني من السؤال أنّ الله تعالى يعلم بحالي، فالله سبحانه يعلم، فإذا كانت هناك مصلحة في نجاتي فعل ذلك، وهنا لاحظوا التوحيد والإيمان المطلق، فهذه حالة مهمة ينبغي أن يكون الإنسان عليها، وهي حالة التسليم لله تعالى، فحينما يكون الإنسان سائراً في طريق الطاعة لله تعالى لا تأخذه في الله لومة لائم، أي يكون رضاه برضا الله تعالى.

وحينما نجح إبراهيم عليه السلام في هذا الاختبار و جسّد التوحيد الحقيقي، جاءه النداء الإلهي في آخر لحظة قبل أن يقذف في النار الملتهبة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[١٢٧]، وقد ورد في رواية عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُوقدت له النار أتاه جبرئيل بثوب من ثياب الجنة وألبسه إياه، فلم يضره معه ريح ولا برد ولا حر»[١٢٨]، ولما خمدت النار وهم مجتمعون حولها رأوا إبراهيم عليه السلام سالماً وهو جالس على

١٢٦. بحار الأنوار ٦٨: ١٥٦، ح٧٠.

١٢٧. الأنبياء: ٦٩.

١٢٨. بحار الأنوار ١٢: ٢٤٨، ح١٤.

رماد هذه النار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٢٩]، أي أنّ الله يجعل للمؤمن بصيرة فيعتبر من هذه الدروس؛ نار محرقة ولكنها لا تحرق إبراهيم عليه السلام، فقد اجتمع قوم بأجمعهم على قتل إبراهيم عليه السلام وهو رجل واحد ولا سلاح لديه، ولكنهم لم يقدروا على أن يفعلوا ذلك بأمر الله، وهذه نتيجة حالة الثقة بالله سبحانه والشعور بالقوة للانتماء إلى مدرسة التوحيد.

وحينما نراجع واقعة الطف وننظر إلى أحوال الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، نلحظ استبسالهم في المعركة، فمثلاً حينما نرى القاسم عليه السلام حينما انقطع شسع نعله وهو وسط الأعداء انحنى لإصلاحه غير آبه بالقوم وكأنّ شيئاً لم يكن، فما هو تفسير هذه الظاهرة؟ إنّها حالة الثقة والشعور بالقوة والعزة المستمدة من قوة الله سبحانه وعزته، فحينما يكون الإنسان على حق لا يبالي ما سينزل به، كما حدث لعلي الأكبر عليه السلام حين قال لأبيه الحسين عليه السلام عندما سمعه قد استرجع: يا أبه أولسنا على الحق؟ قال: بلى يا بني والذي إليه مرجع العباد، فقال: إذن لا نبالي بالموت»[١٣٠]، فما مصدر هذا المنطق؟ وكيف يتحول الموت وهو أخطر شيء على الإنسان إلى مطمح يطمح إليه المؤمن، ليقتل في سبيل الله ويحظى بالشهادة؟.

سبب عدم الإذعان للمعجزة الإلهية

مع أنّ قوم إبراهيم عليه السلام قد عاينوا هذه المعجزة الواضحة، وهي خروج إبراهيم عليه السلام من النار الملتهبة التي ألقوه فيها، وكانت عليه برداً وسلاماً، وهل هناك أكثر من هذه الحجة وهذا الدليل؟ ولكنهم لم يتغيروا ولم يؤمنوا؛ لأنّ الله عز وجل قد طبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون.

وفي هذا درس كبير لنا، فهناك من وصل إلى مستوى من الانحراف لو جئت به للشمس في واضحة النهار وقلت له هذه هي الشمس لم يقبل ولم يؤمن، وفي هؤلاء نزل الخطاب الإلهي لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ

١٢٩. الأنعام: ٩٩.

١٣٠. بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧.

١٣١. التوبة: ٨٠.

عَـنِ الْجَاهِلِيـنَ﴾[١٣٢]، فمـن الأفضـل الإعـراض عـن مثـل هـؤلاء وصـرف الوقـت والجهـد مـع مـن يبحـث عـن الحقيقـة.

وفـي هـذا الصـدد هنـاك آيـات أُخـرى كثيـرة جـاءت لتؤكـد أنّ الإيمـان رافـد ومصـدر حقيقـي وعامـل أسـاس مـن عوامـل تحقيـق البصيـرة، منهـا الآيـة ٤٤ مـن سـورة العنكبـوت، والآيـة ٩٧ مـن سـورة النحـل، والآيـة ٦٨ مـن سـورة النمـل، والآيـة ٧٣ مـن سـورة الـروم، والآيـة ٢٥ مـن سـورة الزمـر، والآيـة ٣٠٢ مـن سـورة الأعـراف وغيرهـا كثيـر.

وهنـا نؤكـد علـى دور الإيمـان فـي تحقيـق البصيـرة، ونسـأل الله تعالـى أن يجعلنـا مـن أهـل البصائـر علـى نهـج الإمـام الحسـين عليه السلام.

دور الإيمان في تحقيق البصيرة في الروايات

نسـتعرض عـدداً مـن الروايـات الشـريفة الـواردة عـن أهـل بيـت العصمـة والطهـارة التـي تشـير إلـى دور الإيمـان فـي تحقيـق البصيـرة:

الروايـة الأُولـى: عـن الحسـن بـن الجهـم عـن الرضـا عليه السلام، إذ سـأله عـن وجـه إخبارهـم عليهم السلام بمـا فـي قلـوب النـاس.. كيـف تخبرهـم عمـا فـي نفوسـهم وقلوبهـم؟، فقـال عليه السلام: «أمـا بلغـك قـول الرسـول صلى الله عليه وآله: اتقـوا فراسـة المؤمـن فإنـه ينظـر بنـور الله»، إذن فالإيمـان يـؤدي الـى فراسـة، وهـذه الفراسـة تجعـل المؤمـن ينظـر بنـور الله فيتعـرف علـى مـا لا يتعـرف عليـه الآخـرون، وتكـون لـه بصيـرة، «قـال بلـى، قـال عليه السلام: فمـا مـن مؤمـن إلا ولـه فراسـة ينظـر بنـور الله علـى قـدر إيمانـه ومبلـغ اسـتبصاره»[١٣٣]، المؤمـن لـه هـذه الفراسـة وينظـر بعيـن الله، ولكـن المؤمنيـن لهـم مراتـب ودرجـات، وبقـدر مـا يشـتد الإيمـان ويـزداد، تشـتد هـذه الفراسـة والبصيـرة وتتعمـق أكثـر فأكثـر.

«وقـد جمـع الله للأئمـة مـا فرّقـه فـي جميـع المؤمنيـن»، كل مؤمـن لـه فراسـة بقـدر إيمانـه، والفراسـة التـي منحهـا الله للمؤمنيـن جميعـا باختـلاف مراتبهـم جمعهـا فـي الإمـام المعصـوم، فهـو ينظـر بنـور الله ولـه بصيـرة وفراسـة عظيمـة،

---

١٣٢. الأعراف: ١٩٩.

١٣٣. بحار الأنوار ٢٤: ١٢٨، ح١٣.

فيكتشف ما في قلوب الناس ويتعرف عليه، «وقال عز وجل في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[١٣٤]»، والتوسم هو الإبصار، أتوسم في فلان أن يكون كذا، وهذه فراسة وبصيرة ورؤية استشراف للمستقبل، هكذا يفسر الإمام الرضا هذه الآية الشريفة، «فأول المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم علي بن أبي طالب من بعده ثم الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام الى يوم القيامة»، هذا دور الإيمان في تحقيق البصيرة.

الرواية الثانية: سأل ابن الكواء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في رواية طويلة عن (بصير بالليل بصير بالنهار)، والبصير هنا لا يعني به الذي يرى بعينيه، وإنما يقصد به من عنده عمق نظر ورؤية ثاقبة، فقال عليه السلام: «هو رجل آمن بالرسل والأوصياء الذين مضوا وبالكتب وبالنبيين»، أي الإيمان بالرسل والأوصياء هو الذي يسهم في تحقيق البصيرة، ومن هذا التعبير المبارك نستفيد أنّ الرسل هم من يكون لهم أوصياء، وأما الأنبياء فلا يكون لهم أوصياء؛ لأنّ بعضهم هم أوصياء الرسل وبعضهم ليسوا بأوصياء.

«وآمن بالله ونبيه محمد صلى الله عليه وآله، وأقرّ لي بالولاية، فأبصر في ليله ونهاره»[١٣٥]، ففي هذا التفسير يربط أمير المؤمنين عليه السلام البصيرة بالرؤية الثاقبة، وهي أن يكون الإنسان على بينة من أمره، فالإيمان هو الذي يحقق ويوجد هذه البصيرة.

الرواية الثالثة: في الكافي الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما أخلص عبد الإيمان بالله عز وجل أربعين يوماً»، أي من كان عمله خالصاً لله تعالى أربعين يوماً لا يشوبه شرك أو شائبة رياء، إلا آتاه الله تبارك وتعالى ما يلي مكافأة له:

«إلا زهّده الله عز وجل في الدنيا»، يمنحه الله عز وجل أولاً الزهد في الدنيا، فالزهد في الدنيا هبة من الله تعالى للمخلصين، ومعنى ذلك أنّ غير المخلص لا يمكن أن يكون زاهداً في الدنيا.

---

١٣٤. الحجر: ٧٥.

١٣٥. بحار الأنوار ١٠: ٨٣، ح١.

«وبصّره داءها ودواءها»، ويمنحه الله تبارك وتعالى البصيرة في اكتشاف داء هذه الدنيا، ففي الدنيا منزلقات ومنعطفات يمكن أن تجر الإنسان إلى الهاوية، وعلى الإنسان أن يكتشف مكامن الخطر في هذه الدنيا؛ لأنّه إذا اكتشف الخطر في شيء ما لا يقدم نحوه، والوقاية خير من العلاج، وإذا ما اكتشفنا داء هذه الدنيا ومضارها وأخطارها سوف نتقي ونتورع عن الولوج في هذه الأخطار، أما إذا ارتكب الإنسان الذي أخلص لله الإيمان الخطأ ووقع في المعصية فإنّ الله عز وجل يهديه إلى الدواء والعلاج، بالرجوع عن الخطأ والتوبة والإنابة، ومما لا ريب فيه أنّ معرفة داء الدنيا ودوائها لا يملكها إلا أصحاب البصيرة بتوفيق من الله تبارك وتعالى، وإلا فإنّ الراغبين في الدنيا غافلون عن أخطارها، بل غارقون في آثامها فلا يدعون ذنبا إلا ارتكبوه من أجلها.

«فأثبت الحكمة في قلبه»[١٣٦]، والأمر الثالث الذي يمنحه الله تعالى لمن أخلص الإيمان أربعين يوماً في جميع حركاته وسكناته هو أن يكون حكيماً، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه المناسب له، فيكون حكيماً في أفكاره وأقواله ومواقفه وسلوكه وأدائه، ويبتعد عن الإفراط والتفريط والتهور والتطرف.

«وأنطق بها لسانه»، والهدية الرابعة التي يتحفه الله سبحانه بها هو أن يجري الحكمة من قلبه على لسانه، فيتحدث بالحديث الحكيم، وهذا كله من نتاج الإيمان بالله تبارك وتعالى.

الرواية الرابعة: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما أنتم والبراءة، يبرأ بعضكم من بعض!»، أيها المؤمنون لماذا هذا التخاصم بينكم؟ ولماذا يتكلم أحدكم بسوءٍ تجاه الآخر؟ ولماذا لا تتعايشون ولا تتحابون؟ ولماذا كل جماعة تلعن الأخرى؟ ولماذا هذه النزاعات والصراعات والشجارات؟.

«إنّ المؤمنين بعضهم أفضل من بعض»، فالمؤمنون على درجات متفاوتة، إذ هناك مؤمن بمستوى معيّن وهناك مؤمن بمستوى أعلى، بحسب درجة إيمانه وعلمه وعمله.

---

١٣٦. الكافي ٢: ١٦، ح٦.

«وبعضهم أكثر صلاة من بعض»، فهناك من يكتفي في صلاته بالفرائض اليومية، وهناك من يضيف إليها بعض النوافل اليومية، وهناك من يأتي بجميع نوافل الليل والنهار، ولذا هم على درجات متفاوتة في صلاتهم.

«وبعضهم أنفذ بصراً من بعض»، وكما يتفاوت المؤمنون في إيمانهم وصلاتهم فكذلك يتفاوتون في درجات بصائرهم، فهناك مؤمن أكثر بصيرة من مؤمن آخر، بحسب اختلافهم بمراتب الإيمان، وهذه البصيرة تتسع وتتعمق بعمق الإيمان.

«وهي الدرجات»[١٣٧]، فمن كان أفضل من أخيه المؤمن في درجة إيمانه فلا يعني هذا أن يسيء إلى الآخرين ممن هم دون درجته في الإيمان، ولا يعني أن يقلّل من قيمة الآخرين أو يستهين بهم، بل عليه أن يتعايش معهم ويحاول أن يساعد ويرفع من يستطيع منهم إلى درجته، ولهذا على المؤمنين جميعاً على تفاوت مراتبهم في الإيمان أن يتحابوا ويتحمل بعضهم بعضاً، هكذا يعلّمنا الإمام الصادق عليه السلام، فينبغي أن لا يؤدي اختلافهم في مراتب الإيمان إلى أن يتصاغر البعض في عيون الآخر ويتكبر البعض على الآخر.

وكم نحن بحاجة إلى مثل هذه التوصيات والتعليمات الدينية النابعة من عمق الرؤية الإسلامية الصحيحة في حل مشاكلنا، وفي إذابة الجليد بين أبناء الوطن الواحد وبين أبناء الدين الواحد، وبين أبناء العقيدة الواحدة في دائرة المؤمنين، وكيف نتعايش ونتحابب ونعمّق أواصر العلاقة بيننا، وهذه مسؤولية كبيرة في أعناقنا كما يشير إليها الإمام الصادق عليه السلام.

١٣٧. الكافي ٢: ٤٥، ح٤.

الرافد الخامس

التقوى

التقوى من عوامل وأسباب تحقيق البصيرة عند الإنسان، والتقوى هي الورع عن محارم الله، والإنسان التقي هو الذي يتجنب الوقوع في المعصية والذنب والرذيلة، والتقوى هي التي توفر للإنسان الحصانة وتحقّق له البصيرة وبُعد النظر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في آيات عديدة نكتفي بذكر بعضها:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١٣٨]، أي إذا أصابك الشيطان ببعض وساوسه أو حرّك فيك النفس الأمارة بالسوء ودفعك نحو المعصية والإثم والرذيلة، أو أغراك بحب الدنيا والشهوات والنزوات المنفلتة وغير المنضبطة، أو دفعك نحو حبّ المال والسلطة والوجاهات غير المشروعة، أو شجعك على اعتماد الوسائل غير المشروعة لتحقيق الأهداف والغايات المشروعة وحاول أن يبرر لك ويقنعك بأنّ الغاية تبرر الوسيلة وأنّ الوسائل ليس بالضرورة أن تكون من جنس الغايات، فإذا أصابك نزغ من الشيطان، أي إذا وسوس لك الشيطان، فاستعذ بالله تعالى، وعليك أن تستجير به، وأن تلوذ به، وتسلم أمرك إليه، و تعود إليه وتطلب النجدة منه في أن ينقذك من هذه الوساوس، وهذا الخطاب موجّه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إذن حتى الأنبياء يتعرضون إلى الوساوس الشيطانية وعليهم أن يكونوا حذرين، ولا يوجد أحد بمأمن ومنأى عن وساوس الشيطان الرجيم، وهذا لا يتنافى مع العصمة، لأنّ النبي عندما يتعرض للوساوس الشيطانية يلوذ بالله تعالى ويتعوذ به فيعيذه منه، كما نلاحظ ذلك في قصة نبي الله يوسف عليه السلام وزليخا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى

---

١٣٨. الأعراف: ٢٠٠-٢٠١

بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[١٣٩]، يعني لولا أنّ الله تعالى أعاذه وأجاره وأسعفه في اللحظة الحرجة لهمّ يوسف عليه السلام بالمعصية، ولكن الله تعالى قدّم له البرهان ونبّهه فلم يقدم على المعصية.

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي أن الله تعالى سميع يسمع استجارتنا واستنجادنا به من وساوس الشيطان، وهو عليم بأسرارنا وعليم بمكائد الشيطان وطرق نفوذه وأساليبه للنفوذ إلى أنفسنا لتحقيق هدفه وغايته في حرفنا عن مسار طاعة الله تبارك وتعالى.

ثم يتناول في الآية التي تليها، وهي موضع الشاهد، تأثير التقوى في إيجاد البصيرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الكلام مع المتقين الذين لم يندفعوا نحو المعصية، وكانت التقوى حاجزاً لهم عن ارتكاب الذنوب، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١٤٠]، فالمتقي عنده مناعة وحصانة من وساوس الشيطان؛ لأنّه حينما يمسه طائف من الشيطان يذكر الله تعالى ويتذكر النعم الإلهية التي أنعمها عليه، ويتذكر العذاب الإلهي الذي يتعرض له لو ارتكب ما يوسوس به الشيطان له ووقع في المعصية، ويحصل عنده بفضل التقوى هذا التذكر والالتفات الذي يجعل للإنسان مناعة وحصانة ويحفظه من الوقوع في المعصية والحرام.

لاحظوا التعبير القرآني: «إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ»، من الطواف، فالوساوس الشيطانية يعبر عنها القرآن بالطائف، أي تحيط بالانسان؛ تحيط بفكره وتبحث عن منفذ لكي تنفذ منه وتحرفه عن مساره.. تحاصر الإنسان ولا مجال للتخلص منها والحفاظ على الثبات والاستقامة والطاعة ألا بذكر الله، فإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا؛ أي تذكروا الله ونعمه ونقمته وعقابه للمنحرفين.

إن وساوس الشيطان لا تنحصر بفئة عمرية معينة، بل في جميع المراحل، فقد يكون العنفوان والشهوة الهائجة عند الشباب سبباً لجعلهم بمرمى سهام الشيطان بشكل اكبر، ولكن التحدي للجميع، ولا تنحصر

١٣٩. يوسف: ٢٤.

١٤٠. الأعراف: ٢٠١

الوساوس الشيطانية بمستوى إيماني دون آخر، فالكل يتعرض لهذه الوساوس حتى الأنبياء كما أسلفنا، وهذا يعني أن الإنسان مهما وصل في كماله فهو يتعرض الى وساوس الشيطان وكيده، ونسأل الله أن يجيرنا جميعا من وساوس الشيطان.

هذا يؤكد أننا يجب أن نتجنب البيئة الملوثة، فالذنب معدٍ مثل الفايروس، والبيئة الملوثة ينتشر فيها المرض بشكل سريع، واليوم في العالم هناك أمراض خطيرة، بعضها مؤخرا في افريقيا، وأي شخص يأتي من هذه البلدان ويدخل الى أي بلد يجب أن يفحص قبل أن يدخل، فقد يكون حاملا للفايروس، وكذلك في الجانب المعنوي والروحي؛ فالبيئة الملوثة، بيئة المعصية والتحلل، بيئة رفاق السوء الذين يدفعون الانسان الى الرذيلة ويشجعونه على المعصية، يجب تجنبها، وكلما كان إيمان الانسان أكبر كانت مقاومته لفايروس المعصية أكبر، والذي تكون بنيته الإيمانية قوية يتحمل، والذي تكون بنيته ضعيفة ينساق نحو المعصية، فلذلك يجب أن نوجد في أنفسنا المناعة من الوقوع في الحرام، ويجب أن نتجنب هذه البيئة الملوثة، ويجب تجنب الكتب المثيرة والمضللة، وحذف الفضائيات غير المنضبطة التي تبث أفلاما لا تنسجم مع قيمنا الأخلاقية، وكلما ابتعدنا عن البيئة الملوثة حافظنا على أنفسنا وديننا.

إذن فالتقوى ثم المراقبة ثم ذكر الله تعالى توجد الحصانة والمناعة، والتقوى لها دور كبير في تحقيق البصيرة، إذ يكتشف الإنسان حقيقة الذنب والمعصية ومآلاتها وما يتعرض له الانسان نتيجة سلوكه طرق الانحراف والضلال، وهذه البصيرة توجد للانسان مناعة من الوقوع في الانحراف والحرام، «فإذا هم مبصرون»، التقوى تحقق هذه البصيرة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل البصائر، وان يوفقنا للعمل الصالح، وأن يرزقنا المزيد من الثبات والإصرار والعزيمة على أن نمضي في طريق الحق وندافع عنه ونتمسك به، وهذا ما فعله سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام الذي لخص أهدافه بقوله: «لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر

بالمعروف وأنهى عن المنكر»[١٤١]، الهدف إصلاحي، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق الإنجاز الحقيقي في بناء دولة عادلة وبناء مجتمع على أساس القيم والمبادئ، وتحقيق الحرية الحقيقية لأولئك الناس، هذا هو المشروع الحسيني، ويجب أن يبقى خالدا ورمزا، ويجب أن نسير في طريق تحقيق هذا المشروع. نسأل الله أن يجعلنا حسينيين حقا، فكرا وقولا وسلوكا وأداء، وأن يحقق العدل الإلهي بعودة إمامنا المنتظر الذي يأخذ بالثأر لإمامنا الحسين ولكل المظلومين، نسأل الله أن يحقق ذلك.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[١٤٢]، تشير هذه الآية الشريفة إلى دور التقوى في تكوين البصيرة عند الإنسان، وهي تشير إلى أربعة آثار من آثار التقوى، أي لمن يتجنب الذنوب والمعاصي ويحقق لنفسه الطهارة المعنوية، وهي:

الأثر الأول: القدرة على التمييز

أشارت إلى هذا المعنى الجملة الأُولى من الآية الكريمة: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، والفرقان هو أن يصل الإنسان إلى مستوى يميز فيه الحق من الباطل، فالفرقان هو ذلك الهدى والنور الذي يمكّن الإنسان من تمييز الحق من الباطل، والإنسان المتقي، يجعل الله له فرقانا، فتكون عنده قدرة على التشخيص والتمييز وتحديد الخطأ من الصواب، في تحديد المضر من النافع، في تحديد الجيد من السيئ والرديء، وفي تمييز الصديق من العدو، وهذه في غاية الأهمية للإنسان في مسيرته في الحياة، من أجل أن يحقق طموحاته ويصل إلى أهدافه وغاياته، إذ تعتريه وتقف في طريقه مصدات ومطبات وعواصف ومنزلقات، وتلتبس عليه الأمور، ولا يعرف أي طريق يتخذ، هل يقدم أو يحجم، يتقدم أو يتأخر، يصادق أو يعادي، يحب أو يبغض، ينفعل أو يهدأ ويستقر، يتعامل بحزم أو بلين؟.. وهكذا تلتبس الأمور على الانسان في منعطفات الحياة ولا يعرف أي موقف عليه أن

١٤١. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

١٤٢. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

يتخذ، والمتقي هو الذي تكون له القدرة والبصيرة والفرقان، فيميز ويختار الطريق الصحيح، فإذا اختار الطريق الصحيح ضمن الوصول إلى الأهداف والغايات النبيلة والمشروعة .

مشكلتنا في الحياة مشكلة قرار، فالقرار الصحيح ينتج نتائج صحيحة، فإن الحر بن يزيد الرياحي كان تاريخه أموياً، وكان من قادة الجيش في حزب السلطة الجائرة، وحينما جاء إلى كربلاء، جاء ليقطع الطريق على الحسين عليه السلام وهذا كان الهدف من العملية العسكرية التي أرسل اليها، ولكن الحر أصبحت لديه بصيرة في لحظة، فجعلته قادرا على التمييز، وعلى اتخاذ القرار الصحيح، وكان قرارا صحيحا نابعا من تشخيص صحيح، وتبعت القرار الصحيح إرادة في تطبيق القرار، إذ قال: «أخير نفسي بين الجنة والنار»[١٤٣]، فاختار الجنة على النار بأن وقف في صف الإمام الحسين عليه السلام .

وفي الجانب الآخر كان هناك الشمر بن ذي الجوشن صاحب التأريخ المليء بالمواقف والإنجازات، فقد قاتل مع أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، وكان محسوباً على معسكر أهل البيت عليهم السلام في تأريخه، ولكن كانت نهايته أن اختار الموقف الخاطئ، واتخذ القرار غير الصحيح، وكذلك عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد المعركة، الذي قال له الإمام الحسين عليه السلام في أحد حواراته معه: «ويلك يا ابن سعد أما تتقي الله الذي إليه معادك، أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي، فإنّه أقرب لك إلى الله تعالى»، وطبعاً كان لابن سعد مصالح وطموحات، وكان دافعه الحقيقي هو ملك الري، ولكنه لم يبدأ ببيان الحقيقة، بل أخفى طموحه الحقيقي، «فقال: أخاف أن يهدم داري، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: أنا أبنيها لك، فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز، فقال: لي عيال وأخاف عليهم، ثم سكت ولم يجبه إلى شيء، فانصرف عنه الحسين عليه السلام وهو يقول: ما لك ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك»[١٤٤]، وهكذا سدّ

١٤٣. بحار الأنوار ٤٥: ١١.

١٤٤. بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٨-٣٨٩.

عليه الطرق وألقى عليه الحجة كاملة، وبعد ظهيرة يوم عاشوراء عندما بقي الإمام الحسين عليه السلام وحيداً وقد أحاطوا به قال: «أين عمر بن سعد؟ ادعوا لي عمر، فدُعي له، وكان كارهاً لا يحب أن يأتيه، فقال: يا عمر أنت تقتلني! تزعم أنّه يولّيك الدّعي ابن الدّعي بلاد الري وجرجان، والله لا تتهنّأ بذلك أبداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، ولكأنّي برأسك على قصبة قد نصب بالكوفة يتراماه الصبيان ويتخذونه غرضاً بينهم»[١٤٥]، أي يقطع رأسك ويرمى، فيأخذه الأطفال ليلعبوا به، وهذا ما حصل بالفعل.

إن من يستطيع أن يشخص الموقف الصحيح يكون قد أنجز نصف المهمة، فعليه أن يأخذ القرار وتكون له إرادة في حسن التطبيق وهذه بيده، وهذا التشخيص والتمييز، وهو الفرقان، يمنحه الله سبحانه وتعالى للمتقين، وقد يقول قائل ما علاقة التمييز والتشخيص بالتقوى، فهذه قضية ترتبط بتشخيصات في الحياة وفي المواقف، وتلك قضية شخصية نفسية وتزكية للروح، فما علاقة هذه بتلك؟.. لماذا يكون لدى الانسان المتقي فرقان، وتكون لديه قدرة على التمييز ويكون ذا بصيرة؟.. والجواب أن الإنسان بعقله قادر على ادراك الحقيقة، والله سبحانه وتعالى جعل في عقل الانسان وفكره، ما يمكنه من الوصول إلى الحقيقة، والله سبحانه وتعالى يفتح الطريق أمامه ليصل إلى الحقيقة؛ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[١٤٦]، الله يقيم الحجة على عباده، فكيف يجازينا ويعاقبنا اذا لم يُلقَ الحجة علينا؟ لذلك فعقل الانسان مصمم بطريقة تجعله، اذا أزيحت العوائق، يستطيع أن يكتشف الحقيقة ويصل اليها، ولكننا بسوء اختيارنا نضع الحجب والستائر أمام هذا العقل.

أزح الستائر لترى الغرفة مضيئة بالشمس، واذا وضعت الستائر فلن تعرف الليل من النهار، وقلوبنا كذلك؛ فإن الهرولة خلف المعاصي والذنوب والشهوات والتعلقات الدنيوية غير المشروعة، واللذات غير المنضبطة، والمال الحرام، والسلطة والوجاهات غير المشروعة، هذه الهرولة تُوجد

١٤٥. بحار الأنوار ٤٥: ١٠.

١٤٦. الأنعام: ١٤٩.

دخاناً يحيط بالإنسان فيعتقد أنه يعيش في حالة طيبة، وفي الواقع، فإن هذه التعلقات الدنيوية غير المشروعة تقف عائقا يمنعه من أن يرى الحقيقة، فلا يستطيع تقييم الأمور تقييماً صحيحاً، ولكن حينما يزاح هذا الدخان وترفع هذه الستائر بطهارة القلب وتزكية النفس، ويصبح القلب سليماً، يكون الإنسان حينئذ قادرا على أن يرى الحقيقة، ويشخص ما يعجز عنه الآخرون، ويصبح عنده تقدير صحيح للمواقف، لأن أدواته أصبحت نظيفة، والأداة النظيفة قادرة على أن توصل صاحبها الى المطلوب، فحين يكون لديك ناظور مشوش فلن ترى به، ولكن حين يكون نظيفاً فسوف ترى بوضوح، وكذلك المتقي؛ فإن طهارة قلبه تجعله ينظر بعين الله ونوره، فيرى الحقيقة، وتصبح عنده قدرة على التشخيص، أما غير المتقي فلا يرى ذلك.

إن الإجابة الصحيحة عن السؤال الذي مفاده: لماذا يتمتع المتقي بالفرقان، وبقدرة التمييز بين الحق والباطل، أن الكمال هو ما يجنح إليه الإنسان، فهو يرغب في أن يكون عالما، أو مالكا لثروة ووجاهة وتأثير، فهو دائما يرغب بالمزيد، والكمال الإنساني هو انعكاس للكمال المطلق لله سبحانه وتعالى، وعلم الانسان ليس إلا اقتباس من علم الله العالم المطلق، فإذا كان العلم لله والكمال لله، ونحن في حركتنا نجنح إلى أن نكون تجسيدا وانعكاساً لكمال الله وعلمه، وكل شيء من الله، فبناء على هذا يكون الإنسان المتقي هو الأقرب إلى الله، وكلما كان الإنسان أقرب كان أقدر على الاقتباس، وتنفتح بوجهه أنوار المعارف الإلهية، فينظر بنور الله، ويتعرف على الحقائق.

القلب كالمرآة، فهذه المرآة قد تتصدع، أو تغطى بالغبار وأشياء كثيرة فلا تعكس، ونفس المرآة، حين نصقلها ونبعد الغبار عنها ستصبح مرآة كاشفة معبرة، والقلب كذلك، فهو أحيانا يتصدع فلا يرى، وإذا ما أزيحت عنه هذه التصدعات فسوف يرى بوضوح وتنكشف له الحقائق، لذلك فالتقوى تؤدي إلى الفرقان والى التمييز بين الحق والباطل، ولذلك نجد على طول الخط التاريخي للإنسانية الكثير من العظماء الذين تميزوا عن غيرهم بموقف صحيح في وقت صحيح، وما يميز الناس بعضهم عن بعض، هو تشخيص مبكر، وقرار صحيح، وخطوات جريئة لتحقيق القرار، فتتراكم الإنجازات والإيجابيات.

أما التشخيص الخاطئ فينتج عنه قرار خاطئ يبعد الانسان عن النجاح وتتراكم السلبيات، وما أكثر القرارات المفصلية التي اتخذت في وقت صحيح في تاريخ الانسانية، والتي غيرت من مسارات شعوب وأمم، لذلك قال سلمان المحمدي: «والله لو وليتموها عليا لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أرجلكم»[١٤٧]، لماذا؟.. لأن عليا عليه السلام قادر على أن يشخص تشخيصا صحيحاً، وأن يتخذ قرارا صحيحا، وأن ينفذ القرار الصحيح، فتحصل السعادة وتتراكم الإيجابيات الكبيرة.

وهذا ما نلاحظه في آية أُخرى ربطت بين التقوى وتعليم الله تعالى، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٤٨]، فالتقوى تعليم؛ «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ»، تنتج بصيرة ومعرفة، وتشخيصا صحيحا ودقيقا للأمور، وقد ورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»[١٤٩]، مصرع العقل تحت بريق المطامع، إذ يطمع فيندفع من غير أن يحسب للأمور حسابها ولا يرى الواقع بتفاصيله، فيخفق ويتلكأ ويفشل ويتراجع وينكسر.

مصرع العقل حينما يأخذه البريق؛ بريق الدنيا، بريق الطمع، بريق الحرص، بريق الشهوة، فيصبح غير قادر على تحليل الأمور بشكل صحيح ومنطقي، فالجشع، الطمع، الحرص، الاحتكار، الاستحواذ، الانانية، كلها أمراض قاتلة، تجعل الانسان يبتعد عن الآخرين وينعزل كدودة القز التي تشتغل ليل نهار وتعتقد أنها تعمل شيئا مهما، ولا تعرف أنها تحيط نفسها بهذا الخيط، حتى يكتمل فتموت، حين يُغلق أي منفذ لدخول الهواء، ويستفيد الآخرون من نتاجها بعد موتها، بينما كانت تظن أنها تعمل شيئا مهما لنفسها.

هذا الأثر الأول، وهو الشاهد في هذه الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا»، إذا اتقيتم فإن الله يعطيكم التمييز بين الحق والباطل ويمنحكم البصيرة.

---

١٤٧. بحار الأنوار ٨٠: ٢٩، ح١.

١٤٨. البقرة – الآية ٢٨٢

١٤٩. نهج البلاغة ٤: ٤٩، ح٢١٩.

الأثر الثاني : محو السيئات

أشارت إلى هذا المعنى الجملة الثانية من الآية الكريمة : ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ، أي أنّ الله سبحانه وتعالى يخفي سيئاتكم ويمحو آثارها ، بشرط أن تتقوه .

الأثر الثالث :غفران الذنوب

أشارت إلى هذا المعنى الجملة الثالثة من الآية الكريمة : ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ، أي أنّ الله تعالى لا يخفي سيئاتكم فقط ، بل يغفرها لكم ، ويشملكم برحمته ، ولا يعرضكم لعقوبته .

وقد يقول قائل ما الفرق بين ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ و (يغفر لكم)؟ . بعض المفسرين قال إن تكفير السيئات هو إخفاؤها في الدنيا والمغفرة في الآخرة ، والبعض الآخر قال إن تكفير السيئات يعني إخفاءها وإلغاء آثارها النفسية والاجتماعية ، فالذنب له آثار وضعية ، وحينما يذنب الإنسان تترتب على ذلك آثار في هذه الدنيا ، ولا يظن البعض منا أنه اذا كذب والعياذ بالله فإن الأمر سيمر ، والناس ستنسى وتذهب القضية ، فالحقيقة أنه لا شيء يذهب ، وكلها لها آثار وتبعات في الدار الدنيا قبل الآخرة ، وعليك أن تتحمل ، أما المغفرة فهي العفو الإلهي والخلاص من العقوبة في الآخرة ، وهذا هو الأثر الثالث .

الأثر الرابع : الثواب الأُخروي

وأشارت إلى هذا المعنى الجملة الرابعة من الآية الكريمة : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ، فالمتقي يترقب الجزاء العظيم الذي لا يُعد ولا يُحصى ، ولا يعرف قيمَته ومقداره إلاّ الله تبارك وتعالى .

دور التقوى في تكوين البصيرة في الروايات

هناك الكثير من الروايات التي تطرقت إلى بيان دور التقوى في إيجاد البصيرة عند الإنسان ، نتبرك بذكر إحداها :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : «فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى

أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم وأمن فزع جأشكم»[١٥٠].

ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة من خطبته المباركة سبعة آثار مهمة للتقوى، هي:

الأثر الأول: دواء أمراض القلوب

أشارت إلى هذا الأثر الجملة الأُولى من هذه الفقرة المباركة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنّ تقوى الله دواء داء قلوبكم»، والمقصود بأمراض القلوب هنا الأمراض غير البدنية التي تصيب الإنسان، ويطلق عليها الأمراض الروحية، فالروح تمرض كما يمرض البدن، ولكن الإنسان يهتم عادة بالأمراض البدنية دون الروحية، بسبب ما تسببه له من آلام وأعراض أُخرى تعيقه عن مزاولة أعماله التي اعتاد عليها، ولكن عندما يتعرض الإنسان لمرض روحي لا يهتم به ولا يفكر في علاجه، وإن ترك آثاراً في روحه أو نفسه أو أخلاقه، وتقديم أمير المؤمنين عليه السلام لها بالذكر على الأمراض الجسدية دليل على أهميتها وأنّها أولى بالعلاج، وهنا يطرح أمير المؤمنين عليه السلام التقوى كعلاج ناجع لأمراض القلب والنفس والروح التي يصاب بها الإنسان، فإنّ التقوى تطهر القلب وتنظفه وتشفيه، فحينما يكون الإنسان متقياً تكون لديه مناعة أيضاً من الإصابة بالأمراض التي تصيب القلب وتسبب عماه عن إدراك الحقائق وإن كانت واضحة.

الأثر الثاني: إيجاد البصيرة

أشارت إلى هذا الأثر الجملة الثانية من هذه الفقرة المباركة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وبصر عمى أفئدتكم»، أي أنّ التقوى تعطيكم البصيرة فلا تكون قلوبكم عمياً، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١٥١]، فالقلب يعمى كما تعمى العين، إذ يرى الإنسان الأشياء بعينه الباصرة ويميّز بينها، فهو يرى أن هذا نهار وهذا ليل، وذاك قصير وهذا طويل..

١٥٠. نهج البلاغة ٢: ١٧٣، خطبة ١٩٨. بحار الأنوار ٦٧: ٢٨٤، ح٦.

١٥١. الحج: ٤٦.

وهكـذا، ولكـن عيـن البصيـرة قـد تكـون عميـاء فـلا يـرى الحقائـق ولا يذعـن للبراهيـن والعيـاذ بـالله، والتقـوى هـي التـي تزيـل العمـى عـن القلـب المريـض.

الأثر الثالث: شفاء أمراض البدن

أشـارت إلـى هـذا الأثـر الجملـة الثالثـة مـن هـذه الفقـرة المباركـة مـن كلام أميـر المؤمنيـن عليه السلام: «وشـفاء مـرض أجسـادكم»، وهنـا سـر عظيـم يكشـفه أميـر المؤمنيـن عليه السلام؛ إذ مـن يسـتطيع غيـر المعصـوم أن يعلـم أنّ التقـوى شـفاء لمـا يصيـب بـدن الإنسـان مـن أمـراض أيضـاً؟ ولكـن كيـف تكـون التقـوى شـفاء للأمـراض الجسـدية؟ والجـواب: كمـا أنّ للطاعـات والأعمـال الصالحـة آثـارا وضعيـة، فمثـلاً صلـة الرحـم والصدقـة تطيـلان العمـر، وفـي الصـوم صحـة البـدن، فكذلـك للذنـوب آثـار وضعيـة أيضـاً، فبعضهـا يـورث الفقـر، وبعضهـا يحبـس المطـر، وبعضهـا يمـرض البـدن.

ومـن جانـب آخـر فإنّ للجانـب الروحـي للمريـض أثـرا كبيـرا فـي سـرعة العـلاج وبطئـه فـي كل الإمـراض البدنيـة، فهنـاك مريـض يعانـي مـن مـرض شـديد ولكـن معنوياتـه عاليـة، فتكـون مقاومتـه للمـرض قويـة ويسـتطيع أن يصمـد ويتغلـب علـى المـرض، وهنـاك مريـض يعانـي مـن مـرض بسـيط ولكننـا نـراه ينهـار ويفقـد القـدرة علـى مقاومتـه، هـذا بالإضافـة إلـى أنّـه إذا عرفنـا أنّ ذكـر الله تعالـى هـو الـذي يوجـب الثقـة والطمأنينـة والقـوة عنـد الإنسـان الذاكـر، كمـا قـال تعالـى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١٥٢]؛ سـنعرف سـر التقـوى فـي شـفاء الأمـراض.

الأثر الرابع: صلاح النيّات

أشـارت إلـى هـذا الأثـر الجملـة الرابعـة مـن هـذه الفقـرة المباركـة مـن كلام أميـر المؤمنيـن عليه السلام: «وصـلاح فسـاد صدوركـم»، والمقصـود بالصـدور هنـا النيّـات، فالنيّـة تفسـد كمـا يفسـد البـدن، وعندمـا تفسـد النيّـة يفسـد العمـل وإن كان فـي ظاهـره صالحـاً، والتقـوى هـي الضمـان لصـلاح

١٥٢. الرعد: ٢٨.

النيّات وتخليصها من شوائب الرياء والعمل لغير الله سبحانه وتعالى.

الأثر الخامس: تزكية النفس

وقد أشارت إلى هذا الأثر الجملة الخامسة من هذه الفقرة المباركة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وطهور دنس أنفسكم»، فالتقوى هي التي تطهّر النفوس من الأدران والأدناس، لأنّ النفس بطبعها تأمر الإنسان بارتكاب الأعمال السيئة، كما قرّر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[١٥٣]، وبفضل التقوى يستطيع الإنسان أن يسيطر على نفسه.

الأثر السادس: جلاء البصيرة

وقد أشارت إلى هذا الأثر الجملة السادسة من هذه الفقرة المباركة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وجلاء غشاء أبصاركم»، فالبصيرة قد تتعرض إلى الصدأ بما يلوثها من آثار الذنوب، وتصبح عليها غشاوة تمنعها من إدراك الحقائق كما هي، والتقوى جلاء لهذا الصدأ وإزالة لهذه الغشاوة، فيعيد لها نقاوتها وصفاءها فتستطيع حينئذ النظر إلى الواقع كما هو.

الأثر السابع: الأمن من الفزع

وقد أشارت إلى هذا الأثر الجملة السابعة من هذه الفقرة المباركة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وأمن فزع جأشكم»، فالتقوى توجد رباطة الجأش، وقوة في القرار، وثقة بالله وبالنفس، وهذه القوة تجعل الإنسان يقف بوجه الأعداء، وتمنحه القدرة على المواجهة والتحدي، وتجعله بمستوى المسؤولية في المنعطفات الخطيرة التي يمر بها في الحياة، إذن فالتقوى تعطي الإنسان رباطة الجأش والأمن والاستقرار والثقة.

---

١٥٣. يوسف: ٥٣.

الرافد السادس

طاعة الله تعالى

تعتبر طاعة الله عز وجل وطلب رضوانه من العوامل التي تساعد الإنسان على تحقيق البصيرة، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي أشارت إلى دور هذه الطاعة في تكوين البصيرة عند الإنسان، منها:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١٥٤).

﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾، أي أنّ الله تبارك وتعالى أرسل لكم النور، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنزل لكم الكتاب المبين وهو القرآن الكريم.

﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾، الذي يطيع الله تبارك وتعالى ويقتفي رضاه، يهديه ويمنحه البصيرة والرؤية الثاقبة، ويمكّنه من تشخيص الاتجاه الصحيح، ليتخذ القرار الصحيح ويحصل على النجاة في الدنيا والآخرة، فطاعة الله سبحانه تجسيد لما يرضيه جل وعلا، وتطبيق ما يحقق رضاه سبحانه يؤدي الى الهداية الى سبل السلام، وهي جميع الطرق الموصلة الى رضا الله في الدنيا والآخرة، والسلامة من العذاب والعقوبة الإلهية، فالتشخيص الصحيح نصف العلاج، والمشكلة في التشخيص، وما أكثر من يمرض ويجهل الأطباء تشخيصه الصحيح. إذن فطاعة الله تعالى واقتفاء رضوانه، تثمران الهداية الإلهية لسبل السلام، فالله تعالى يعينه في تشخيص الطريق الصحيح الذي ينقذه من العقوبة ويحقق له السعادة.

---

١٥٤. المائدة: ١٥-١٦.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾، الله تعالى يخرج المطيعين من الظلمات ويمنحهم البصيرة، يخرجهم من ظلمات الشرك والجهل والظلم والفرقة والنفاق والتشرذم، والخواء والفراغ الروحي والنفسي، وهو القاتل للأمم والشعوب، فالأمة الجوفاء الخاوية معنويا، التي تفتقد روح العزيمة والإصرار، هذه الأمة تضيع وتذوب، وتتكسر على صخور التحديات التي تواجهها في الحياة، فالعنصر المعنوي هو الأساس في تحقيق الانتصارات، وهو يحتاج الى بصيرة وهداية من الله، ويحتاج الى النور، وأن ينتقل الانسان من ظلمات الشرك والكفر والبغي وكل أخلاق ذميمة الى نور التوحيد، نور العبودية لله، نور العلم والمعرفة، نور الوحدة والألفة، نور التعايش مع الآخر، نور الصلاح والإصلاح، النور الذي يتمثل بكل مكارم الأخلاق، فكل ذميمة أخلاقية ظلمة، وكل مكرمة أخلاقية نور بطاعة الله، فالله يمنح الإنسان البصيرة ويخرجه من ذمائم الأخلاق الى النور، الى مكارم الأخلاق، فيكون إنساناً متخلقا بأخلاق الله، ويسير في سبل السلام، في الطرق الموصلة الى السعادة في الدنيا والآخرة، والبصيرة هي التي تحقق ذلك.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، من آثار طاعة الله الهداية الى الصراط المستقيم، ذلك الصراط الذي ليس فيه انحراف في الفكر والعقيدة، وليس فيه انحراف في العمل والسلوك، وقد يمتلك الانسان عقيدة صحيحة ولكن سلوكه منحرف، وقد تكون عقيدته منحرفة والعياذ بالله، ولكنه يعتقد بأنه على صواب؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٥٥]، أخسر الناس هم أولئك الذين يسيرون في طريق الضلال والانحراف والتشدد والتطرف ويحسبون أنه هو الطريق الى الجنة، فيقطعون رؤوس الناس لكي يدخلوا الجنة! بعقيدة باطلة وتشدد وتطرف، ويحسبون أنهم يصنعون حسنا وأنهم يتقربون الى الله ويحققون لأنفسهم سعادة أخروية، بهذه النظرة الظلامية والعقيدة الفاسدة، وهذا السلوك المشين.

١٥٥. الكهف: ١٠٣- ١٠٤.

إذن، فإن طاعة الله تعالى لها دور كبير في تحقيق البصيرة، هذه البصيرة التي تمنحنا القدرة على التمييز والتشخيص الصحيح.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١٥٦].

يتحدث هذا المقطع من سورة (النور) عن حالة التردد والشك والغموض التي تجعل الإنسان يبتعد عن طاعة الله، في مقابل البصيرة، فكما أن طاعة الله تؤدي الى البصيرة، فإن غياب البصيرة يربك الإنسان ويبعده عن الطاعة، وهذه الآيات الشريفة تتحدث عن ظاهرة النفاق، وهي من الأمراض المتجذرة في المجتمع الإسلامي منذ الصدر الأول في الإسلام، لذلك كرس القرآن الكريم عشر آياته للتصدي لها، أي أكثر من ٦٠٠ آية في القرآن الكريم وردت في النفاق، وهذا يعني أن هذه الظاهرة كانت مستحكمة وتربك صفو المجتمع، وكانت تعرض المجتمع الى هزات عنيفة وخطيرة، حتى استنفر القرآن عشر آياته لمعالجتها.

وقد ورد في هذا المقطع الشريف السمات التالية للمنافقين:

السمة الأُولى: ادّعاء الإيمان بالله ورسوله

وتتضح هذه السمة من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾، فالمنافقون مؤمنون بالله ورسوله الأكرم صلى الله عليه وآله على مستوى الادعاء والكلام الأجوف، وبذلك امتازوا عن المشركين الذين لا يقولون ذلك، وخلطوا أنفسهم مع المؤمنين بالله ورسوله حقاً، ومن هنا كان من الصعب تمييزهم عن المؤمنين الواقعيين، إلا أنّ هذه السمة فيهم تفضحهم وهي أنّهم يتحدّثون للآخرين عن إيمانهم المزعوم.

---

١٥٦. النور: ٤٧- ٥٠.

السمة الثانية : ادّعاء الطاعة لله ورسوله

وتتبيّن هذه السمة من سماتهم من قوله تعالى : ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ، فهم يزعمون أنّهم ليسوا ممن آمن بالله ورسوله فقط ، بل هم ممن بادر إلى طاعة الله ورسوله أيضاً ، ولذا فهم على مستوى الادّعاء من الصف الأول من المؤمنين العاملين بطاعة الله ورسوله ، ولكن نفس هذا الادّعاء يجعلهم في دائرة الشك في كونهم صادقين .

السمة الثالثة :التولي عن طاعة الله ورسوله

ويكشف هذه السمة من سمات المنافقين قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ، فبعد أن قالوا آمنا وأطعنا يعرض فريق منهم عن هذا الإيمان والطَاعة ، أي أنّ حبل ادّعائهم هذا قصير يتبيّن زيفه بعد مرور الأيام ، فتنكشف هويتهم الحقيقية ، ولكن هذه سمة بعض منهم فقط ، أما البعض الآخر فيستمر في هذا الادّعاء حتى نهاية المطاف ، ولا يتولى عن زعم الإيمان والطاعة ، وهنا يخبر الله جل جلاله بقوله : ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ، بعدم صدقهم في دعواهم لتراجعهم عنها ، ولو كانوا مؤمنين حقاً لبقيت هذه السمة ملازمة لهم إلى منتهى حياتهم ، بل تزداد وتترسخ مع مرور الأيام ، وشتان بين من يدّعي الإيمان والطاعة ، ومن هو مؤمن ومطيع حقاً ، فالمنافقون يدّعون الإيمان ولكنهم في الواقع ليسوا كذلك .

تعريف النفاق وجذوره

ماذا تعني ظاهرة النفاق هذه؟ ، النفاق حالة الازدواجية والتلون والوجوه المتعددة ، فيظهر أمامك بشكل ووراءك بشكل آخر ، والإنسان السوي غير المريض وغير المعقد ، هناك تكاملية بين جسمه وروحه ؛ أما مؤمن فيكون سلوكه سلوك المؤمنين ، وأما منحرف فيكون سلوكه سلوك المنحرفين ، أما أن يكون ظاهره الإيمان وباطنه الانحراف ، فهذا تلون وازدواجية يعبر عنها بالنفاق ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٥٧] ، فهذه ازدواجية يعيشها المنافق .

١٥٧ . البقرة: ٨ .

والنفاق من أخطر الأمراض في المجتمع الإسلامي، والمنافقون أخطر الأعداء في داخل المجتمع، والسبب واضح؛ لأنهم في الواقع ليسوا أصدقاء وفي الظاهر ليسوا أعداء، لأنهم منافقون ويكنون العداء والحقد والكراهية والمكر والخديعة، في الظاهر يستغلون امتيازات المؤمنين وثقة الناس بهم، وفي الباطن يكيدون ويتحايلون ويتآمرون على الأمة وعلى المجتمع، ولكنهم محصنون من العقاب، لان العدو معروف أنه عدو فتقاتله، أما هذا فيأتي بشكل صديق، ولكنه ليس صديقا إنما يخفي نفسه بين الناس، وهذا خطره عظيم، فلا يمتلك الإخلاص حتى يؤمن بالله إيمانا حقيقيا، ولا يمتلك الجرأة والشجاعة حتى يعلن عن نفسه بأنه غير مؤمن، فلا هذه ولا تلك، فيخلط بين الأمرين ويتظاهر بشيء ولكنه يبطن شيئا آخر.

وتبدأ جذور النفاق من تقاطع المصالح، فهناك مصالح وهناك مستفيدون من البيئة المنحرفة، ويأتي المشروع الإصلاحي فيقطع خيوط الفساد والانحراف، لأنه مشروع إصلاح، فيصطدم بمصالح هؤلاء الانتهازيين والمنحرفين، وفي البداية يقولون إنها سحابة صيف، والأمور بأيدينا، فيكون موقفهم موقف السخرية، هكذا يعبر القرآن الكريم، يسخرون من المشاريع الإصلاحية، ولكن بعد فترة يرون أن المشروع الإصلاحي بدأ يتسع ويتمدد في الأمة ويكسب أصدقاء وحلفاء، فيشعرون بالقلق ويخافون على مصالحهم فيبدؤون بحرب شعواء على مشروع الإصلاح، حرب سياسية واقتصادية وعسكرية وإعلامية ونفسية، تحريض وتهييج المشاعر والرأي العام بالضد من المشروع الإصلاحي، إذ يضغطون لكسر المشروع وتعطيله وقلب النظام لكسر هيبة الدولة وما شابه، وإما أن ينجحوا ويحققوا غرضهم، أو يصمد المشروع الإصلاحي أمام هؤلاء ويتجذر ويقوى وتتحقق انتصارات للمشروع، فيبدؤون بالتظاهر بالانسجام مع المشروع والتسليم له، ولكن في واقعهم يكيدون ويتآمرون ويمكرون، وهذا هو النفاق.

لقد تجلى هذا واضحاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، في مكة عندما كان الإسلام فتيا؛ إذ سخروا منه واستهزؤوا، ولكن بعد ثلاثة عشر عاما، انتقل الرسول الى المدينة وأسس الدولة الإسلامية الفتية، فبدؤوا

بالتحريض والتجييش ضدها، وبدؤوا يتحركون ويضغطون عليها سياسيا وعسكريا، بالحروب والمشاكل والفتن والحرب النفسية والرأي العام ومحاولة التنكيل برسول الله لإضعاف المسلمين، حتى جاءت غزوة بدر، هذه الغزوة العظيمة التي أرست دعائم الإسلام، وأصبح يملك دولة قوية لا يمكن أن تهزم، وهنا جاؤوا ليدعوا الانسجام مع رسول الله ومع الإسلام، لكي تتهيأ لهم بيئة التحرك في داخل المجتمع الإسلامي للنيل من المسلمين.

لقد اشتق مصطلح النفاق من النفق، والنفق هو القناة التي تمتد داخل الأرض وتستخدم للتستر والهروب، وتستخدم للتنقل من مكان الى آخر دون أن يشعر الآخرون، والمنافق يتظاهر بالإيمان والصلاح ويتعاطى على أن قلبه يحترق من أجل المشروع والوطن ويظهر نفسه على انه وطني ولكن في واقع الأمر هو غير ذلك، ففي النهار شيء وفي الليل شيء آخر وبسلوك آخر، هذه هي حالة النفاق، ولذلك هو غير مشخص وغير واضح، كما بيّنت سورة «المنافقون» ذلك في معرض بيان بعض من سماتهم؛ إذ قال الله تبارك وتعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، أقسموا أنهم مؤمنون واتخذوا هذا القسم والتظاهر بالإيمان جُنّة ومصدا وسترا وقاية لأنفسهم، لكي يقولوا إنهم من الوطنيين، ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١٥٨]، ولكن عملهم في السر تعطيل المشروع وتخريبه.

السمة الرابعة: الإعراض

أشار إلى هذه السمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١٥٩]، فظاهر المنافقين غير واقعهم، فهم لا يطيعون ولا يلتزمون بما يحكم به الله ورسوله، وهم أصحاب كلام وادّعاء فقط، وواقعهم ليس واقعا إيمانيا، وقد ورد في شأن نزول هذه الآية أن أحد المسلمين في الظاهر (منافق) اختلف مع يهودي في قضية وتنازعا، فاليهودي قال للمسلم في الظاهر، فلنذهب إلى نبيكم صلى الله عليه وآله ونترافع عنده،

١٥٨. المنافقون: ٢.

١٥٩. النور – الآية ٤٨

وما يقوله النبي فأنا أقبل به، لكن هذا المسلم بدلا من أن يفرح بقبول اليهودي برسول الله حكما، قال له أنا أرفض أن نذهب إلى رسول الله، ولنذهب إلى كعب بن أشرف الذي هو من زعماء اليهود ونترافع عنده، فنزلت هذه الآية بحق هذه الظاهرة النفاقية، إذ يترافع عند اليهودي ولا يقبل بالترافع عند رسول الله ويدعي الإيمان.

﴿ **وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ**﴾، ولكن اذا كان الحق معه، والحكم يعطى له الحق ولا يأخذ منه، فإنه يركض ويهرول ويقبل، إذن هذا غير مؤمن برسول الله بل بنفسه فقط، وهذا متمسك بمصالحه ولا يتمسك بالرسالة، وهذا يدافع عن إسلام يكون هو (حجة الإسلام) فيه، أما الإسلام الذي فيه (حجة الإسلام) شخص آخر فلا يريده، فهو لا يدافع عن الإسلام بل عن نفسه، فالبعض يندفع في مشروع اذا كان هو سيد المشروع، أما اذا كان من رفع الراية غيره فلا يندفع اتجاهه، وهذه مشكلة، فيما أن الإيمان الحقيقي في قبال النفاق هو حالة التسليم، التسليم للحجة الشرعية، والتسليم لرسول الله سواء كان الحكم له أو عليه، فمهما كان الحكم يقبل به، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١٦٠]، أي حالة التسليم المطلق مهما كانت النتائج.

ثم يتعرض القرآن إلى ثلاثة أسباب محتملة لعدم قبولهم الاحتكام الى رسول الله: أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١٦١]:

الاحتمال الأول: ﴿**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾، أي أن يكونوا مرضى القلوب، فالنفاق مرض عضال، والمنافق قلبه مريض فلا يقبل بالحق.

الاحتمال الثاني: ﴿**أَمِ ارْتَابُوا**﴾، أي أنهم غير منافقين ولكنهم في حالة من الشك والحيرة ولَيست عندهم بصيرة، فلا يطيعون، لأن غياب البصيرة والشك والتردد والحيرة تدفع الإنسان إلى عدم الطاعة.

---

١٦٠. النساء – الآية ٦٥.

١٦١. النور – الآية ٥٠.

الاحتمال الثالث: ﴿**أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ**﴾، أي هم غير منافقين ولا متحيرين، بل هم مؤمنون، ولكنه مؤمن قلق يخاف أن يظلمه رسول الله ولا يعطيه حقه، وهذا الأمر فيه تناقض كبير؛ فكيف تؤمن برسول الله الذي وصفه الله تعالى بقوله: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، وبأنه الحجة الشرعية، ثم لا تقبل ولا تستقر ولا تطمئن للحكم الذي يصدره رسول الله، وتظن أنه قد يظلمك؟. كيف يظلم رسول الله، والظلم نابع من الجهل أو الحاجة أو الأنانية، وكلها منزه عنها رسول الله ﷺ؟.

﴿**بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾، يا من تتهم رسول الله اعرف أنك أنت الظالم، ولو كنت تقنع بحقك وتقبل به ما كنت لتقلق، لكنك تريد أن تتمدد على حقوق الآخرين وتعرف أن رسول الله لا يعطيك إلا حقك، وهذا القلق ناتج من أنك تريد كسب المعركة ظالما أو مظلوما، محقا أو مبطلا، وهذا هو الظلم بعينه.

وقد تعرض القرآن الكريم في كثير من آياته الشريفة إلى ظاهرة النفاق، منها المقطع القرآني الآتي من سورة البقرة: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١٦٢]، تتحدث هذه الآيات الكريمة عن بعض سمات وصفات المنافقين، نتعرض لها بشكل ومضات سريعة:

أولا: المكر والخديعة

أشار إلى هذه السمة من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ

١٦٢. البقرة: ١٥.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، المنافق إنسان مخادع؛ يخادع المؤمنين بأن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويخادع الله سبحانه أيضاً بأن يأتي بما فُرض عليه من العبادات وإن كان يؤديها رياء، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾، وأما مخادعتهم للمؤمنين فإنّ لديهم تكتيكات، ويقومون بخطوات معينة، ويحسبون أنها شطارة وأن الناس لا تفهم ذلك، ويتوهمون أن الحقيقة لن تنكشف، فيخططون ويتلونون ويغيرون مواقفهم ويركبون الموجات، هكذا يقول عنهم القران الكريم، يحسنون التمثيل، وفي كل عزاء تجدهم هم أصحاب العزاء، وفي كل قضية هم محور هذا الموضوع، ويظهرون أنفسهم بحماسة واندفاع في كل قضية، ويكرسون كل إمكاناتهم ووجودهم في الخديعة، في الطريق الخاطئ، في مسار ليس فيه مصداقية وليس فيه واقعية، ونتيجتهم الفشل وانكشاف أمرهم وافتضاحه، ولذلك تشير الآية: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ)، يعتقدون أنهم شطار وفجأة يكتشفون أنهم قد كشفوا على حقيقتهم.

ثانيا: الكذب

أشار إلى هذه السمة من المقطع القرآني أعلاه قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وأشارت آيات قرآنية أخرى إلى هذه الحقيقة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، فالمنافق كذاب، ولا ترى منافقا غير كذاب؛ لأنّ النفاق ازدواجية، فهو يتضمن إبطان أمر وإظهار أمر آخر، ولابدّ له من التغطية على هذا التناقض الكبير والتستر عليه، وليس من سبيل أمامه غير الكذب والتبرير.

ثالثاً: رفع شعارات الإصلاح

أشار إلى هذه السمة في المقطع القرآني المذكور أعلاه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، يظهرون أنفسهم على أنهم مصلحون، ويحملون شعارات براقة

يخدعون الناس من خلالها، ويدعون أنهم أصحاب الإصلاح وحملة مشروع الإصلاح، فقد عميت عيونهم وقلوبهم من كثرة الذنوب وفقدوا البصيرة، والإنسان الذي ليس له بصيرة لا يرى الحقيقة، بل أحيانا يرى ما ليس حقيقة على أنه الحقيقة، كما وصفهم الله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، فهو المفسد ولكنه لا يعرف ذلك، بل يحسب أنه مصلح ويصدق نفسه، وأخطر شيء عندما يصل الإنسان الى درجة من الانحراف يبدأ معها عملية التغيير في القيم والأعراف، فتصبح مكارم الأخلاق رذائلها، ورذائل الأخلاق مكارمها، واليوم أصبح الفساد شطارة وحقاً وأمراً طبيعياً، والنزاهة سذاجة، فالموظف البسيط الذي لا يأخذ رشوة، يُنظر اليه على أنه بسيط وساذج!.

رابعاً: الإعجاب بالنفس وتسفيه الآخرين

أشار إلى هذه السمة في المقطع القرآني المذكور أعلاه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، فالمنافق لا يرى إلا نفسه، ولا يقبل الآخر ولا يعترف به، ولا يقبل الانسياق مع الأجواء العامة للإيمان، فإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس عندما رأوا معاجز السماء، قالوا لا نؤمن كما آمن هؤلاء السفهاء، فهم يرون الناس سفهاء ولا يفهمون شيئاً، وهم وحدهم من يحتكر العلم والمعرفة والثقافة، بل ترى المنافق يسفّه الآخرين ويسخّفهم ويرى نفسه عاقلاً وذكياً، ولا يعرف أن الأمر على عكس ذلك كما قرّر القرآن الكريم في ذيل الآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، فهل هناك سفاهة أكبر من أن يعيش الإنسان هذه الازدواجية الكبيرة، فيظهر شيئا ويبطن شيئا آخر؟، فإذا كنت تظهر شيئا صحيحا فلماذا لا تؤمن به؟، وإذا كنت تبطن شيئا صحيحا فلماذا لا تؤمن به؟.. النفاق جبن وضعف وعدم جرأة في بيان الرأي المخالف، فإذا كنت تعتقد بصواب رأيك فلماذا لا تعلنه؟. القضية ليست إلا تقاطع مصالح وليست بيان رأي، هذه جذور النفاق كما أسلفت، تسفيه وتقليل قيمة الآخرين، ومرض يصاب به الإنسان.

تسفيه الشعائر الحسينية

في زماننا هناك من يسفه الشعائر الحسينية ويعيب علينا إقامة العزاء على سيد الشهداء وإحياء شعائر الحسين (عليه السلام)، أو يعيب علينا أنماط وأساليب هذه الشعائر ، ويقولون بعد ألف وأربعمئة سنة وأنتم على حالكم، وقد وصل الإنسان الى القمر، وانتم لا تزالون هكذا على حالكم ، عجبا!، لا علاقة لهذه بتلك، حياتنا بهذه الشعائر ، وفخرنا بهذه الشعائر وبناءاتنا الأخلاقية والقيمية بهذه الشعائر، والمبدئية والإصرار على الثوابت تتعمق فينا بهذه الشعائر، والحماسة والمشاعر الملتهبة تجاه الحق إنما نحصل عليها من خلال الشعائر، وهذه الحيوية وهذا العنفوان وهذا الحضور الفاعل في قضايا الأمة، إنما نحصل عليها من خلال إحيائنا لهذه الشعائر، ففيها الأبعاد الفكرية والمعرفية والأخلاقية والروحية والثقافية والاجتماعية، فالشعائر مدرسة، ومسلك ومسار ومنهاج نعتمده في حياتنا، فلا يمكن أن نقلل من قيمتها .

خامساً : التلون

أشار إلى هذه السمة في المقطع القرآني المذكور أعلاه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، إنّ هؤلاء كالحرباء، يسمعون كل طرف ما يناسبه وما يرضيه وما يقنعه، هذه طريقتهم، فإذا لقوا المؤمنين قالوا لهم نحن مؤمنون مثلكم، وإذا لقوا شياطينهم من الإنس الذين يدينون لهم بالولاء ويعملون لمصلحتهم، قالوا لهم إننا نضحك على المؤمنين، والكلام الصحيح هو أننا معكم أيها الكفار، فنحن نتظاهر ونتلون ونسخر ونستهزئ بهؤلاء المؤمنين السذج، لكي نستطيع أن نخترقهم ونعمل من داخل صفوفهم، وهذه سمة النفاق.

لكن الله تعالى للمنافقين بالمرصاد، فهو الذي يدافع عن المؤمنين ويرصد للمنافقين الحرب، كما قال عزّ من قائل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فالله سبحانه وتعالى هو من يسخر منهم، وهو من يمنعهم ويحرمهم من البصيرة، فيبقون في فساد فكرهم وعقيدتهم ومنهجهم، وهم من يخسر وليس المؤمن.

وهناك سمات تعرضت لها آيات قرآنية أُخرى، منها ما ورد في سورة «المنافقون»، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١٦٣]، والسمات الواردة هنا هي:

الظاهر اللطيف للمنافق

أشار إلى هذه السمة من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، فالمنافق ذو مظهر مغرٍ، وشكل مرتّب ولطيف، والخطاب موجه لرسول الله ﷺ، أي يا رسول الله، لو رأيت المنافق لأعجبك مظهره اللطيف وظاهره الأنيق، فهو يحرص جداً على الظواهر الإيمانية التي يظهر بها المؤمنون عادة، من لحية ومسبحة وخاتم، ومع أن هذا هو مظهر الإيمان الحقيقي، فالمؤمن هو من تذكّر رؤيته بالله تبارك وتعالى، ولكن لا يمكن من خلال المظاهر فقط أن نحكم على إنسان بأنّه مؤمن، فليس كل من لبس خاتما وحمل مسبحة وأطلق لحية معناها أنه مؤمن، وإن كانت هذه الأشياء من المستحبات التي حثت عليها الشريعة المقدسة، فيلتزم بها المؤمن غالباً، ولكن ليس كل من وضعها هو مؤمن، ولذا نحتاج إلى دقة في تمييز المؤمن من غيره، ولا نكتفي في التقييم بالمظاهر فقط، لكي لا نُستغل ونؤخذ على حين غرة، كما أنّه لا يمكن اختزال التدين والإيمان بالظواهر الشكلية فقط، بل يجب أن نرى سلوكه؛ هل هو منسجم مع ظاهره أو لا؟.

الحديث المنمق

أشار إلى هذه السمة قوله تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، حديث المنافقين مؤثر ومقنع، وهم يصورون الأمور بطريقة تبدو مقنعة، فعندما يتحدثون تنصت لقولهم، لما في حديثهم من اللباقة واللياقة والمنطقية الظاهرية وترتيب الكلمات بطريقة تجلب النظر، ولذا يجب الحذر، فليس كل من يتكلم كلاما جميلا هو على حق، ويجب أن نفكك ونحذر، فما أكثر من يظهر على الشاشات ويتحدث بأحاديث ويظهر حماسة في الدفاع عن قضايا، ويكون حديثه مليئا بالتناقضات، ويجب أن نحذر من مثل هذا الصنف من الناس.

---

١٦٣. المنافقون: ٤.

الخواء الروحي

أشار إلى هذه السمة قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، واقع المنافقين خلاف ظاهرهم، فظاهرهم الإيمان ولكن باطنهم أجوف خال من الإيمان، فهم أجسام بلا روح، وهياكل فارغة، كالخشب المسندة على الجدار.

حالة الخوف من افتضاح أمرهم

أشار إلى هذه السمة قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، يعيش المنافقون حالة الهلع والقلق والخوف من افتضاح أمرهم، ويحسبون كل كلمة تقال أنها تمسهم، فالمنافق يعيش حالة الازدواجية ويعتمد التضليل والخداع، لذلك تراه يعيش هاجس أن يفتضح أمره ويحسب أي كلام عليه، وفي الرواية: «الخائن خائف»، فحالة الخوف والهلع من صفات المنافق.

طبع الله على قلوبهم

وقد بيّن القرآن الكريم السبب الذي جعلهم من المنافقين، في الآية السابقة لهذه الآية من سورة (المنافقون)، إذ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[١٦٤]، فهم بسبب كفرهم بعد الإيمان عاقبهم الله سبحانه وتعالى بالطبع على قلوبهم، ولذا فهم لا يفهمون، يتسترون ويتحايلون ويتقمصون الشخصية الإيمانية والوطنية ويظهرون على أنهم حريصون، ويتغلغلون في مواقع الدولة الحساسة ويصلون الى المواقع الخطيرة تحت هذه اليافطة، ويناصر بعضهم بعضا ويشكلون مافيات في مواقع النفوذ والسلطة، لهدم المشروع وإفساده، بل يزايدون على الآخرين في دعوى الإيمان والوطنية ويحرجون الآخر، فالمنافق يتهم المؤمن والوطني الحقيقي، وكل هذه الاتهامات للآخر لكي يبرئ نفسه ويكون فوق الشبهات، وبهذا يجد لنفسه موطئ قدم ويرسخ هذا الموقع ليعطل المشروع ويلغيه ويفككه، ولذلك فهم مكمن الخطر الأكبر، كما أنبأ عنهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١٦٥].

١٦٤. المنافقون: ٣.

١٦٥. المنافقون: ٤.

دور طاعة الله بتحقيق البصيرة في الروايات

قال أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: «فطوبى لمن له قلب سليم»، هنيئا لمن له قلب طاهر، «أطاع من يهديه»، أطاع الله تعالى والتزم بالأوامر الإلهية، «وانتهى عن نواهيه وتجنب ما يرديه»، ابتعد عن الضلالة والانحراف ولم يضر نفسه بمعصية الله تعالى، بل أطاع الله، والنتيجة المتحققة من هذه الطاعة هي: « فيدخل مدخل الكرامة »، كرامة الإنسان ورفعته وسموه وقدره في طاعة الله تعالى، والعز كل العز في الوقفة الذليلة بين يدي الله تعالى، فالله تعالى يمنح الإنسان الكرامة الحقيقية من خلال هذه الطاعة، والذل والهوان لمن يعصي ويتمرد على أمر الله.

«فأصاب سبيل السلامة »، بهذه الطاعة يصل الى طريق السلامة، وهذا اقتباس من قول الله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[١٦٦]، فإن طريق الخلاص والأمان والسلام وسعادة الدنيا والآخرة، بطَاعة الله تعالى.

«سيبصر ببصره»، طاعة الله تمنح الانسان بصيرة ورؤية ثاقبة، وقدرة على تشخيص الأهداف والمسارات، وتحديد الطريق الصحيح الذي عليه أن يسير فيه، «وأطاع هادي أمره »، حينما يحظى بالبصيرة تتعمق عنده الطاعة لله تعالى.

« دلّ أفضل الدلالة »، الى حيث السعادة في الدارين، فإن أفضل الدلالة وأفضل الطرق من خلال طاعة الله التي تحقق البصيرة، والبصيرة تجعل الإنسان يتمسك أكثر بالطاعة فيحقق المزيد من سبل السلام ومن فرص السعادة في الدنيا والآخرة، «وكشف غطاء الجهالة المضلة الملهية»[١٦٧]، البصيرة تكشف غطاء الجهل والانحراف والضلالة والخروج عن الطريق القويم، فالطاعة لله تعالى تحقق هذه البصيرة، والبصيرة تمنح الإنسان السعادة في الدنيا والآخرة.

---

١٦٦. المائدة: ١٦.

١٦٧. بحار الأنوار ٥٣: ٨٠، ح٨٦.

الرافد السابع

طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام

إن الرافد السابع في تحقيق البصيرة هو طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام ، وهذا ما نعبر عنه بالحجة الشرعية ، وطاعة رسول الله وأهل بيته ليست بمعزل عن طاعة الله ، فكلام رسول الله صلى الله عليه وآله هو كلام الله كما قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(١٦٨) ، فأمره أمر الله ، وكذلك أمر أهل البيت عليهم السلام ، فإن أمرهم أمر الرسول الذي هو أمر الله تعالى ، فطاعة الرسول وطاعة أهل بيت الرسول كطاعة الله في آثارها ، وفي أنها تمنح البصيرة للانسان .

دور طاعة الرسول صلى الله عليه وآله بتحقيق البصيرة في القرآن

قال الله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(١٦٩) ، لأن ما يقوله الرسول هو قول الله ، وما ينهى عنه الرسول هو ما ينهى عنه الله تعالى ، كما ورد صريحاً في قوله تعالى : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ، طاعة الرسول هي طاعة لله تعالى ، ﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١٧٠) ، أي : يا رسول الله إذا أعرضوا وعصوك ولم يلتزموا بتوجيهاتك وتعليماتك ، فلا نحملك مسؤولية محاسبتهم ، فأنت غير مسؤول عن محاسبة هؤلاء ؛ لأن حسابهم علينا .

وقال الله تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١٧١) ، (إنما) أداة حصر ، أي لا سبيل أمام المؤمنين إلا طاعة الرسول صلى الله عليه وآله ، فالواجب

---

١٦٨ . النجم : ٣- ٤ .

١٦٩ . الحشر : ٧ .

١٧٠ . النساء : ٨٠ .

١٧١ . النور : ٥١ .

تجاه النبي هو السمع والطاعة، فالاستماع لأوامره والطاعة لهذه الأوامر سمة المؤمنين، وكل ما يقوله الرسول يجب أن يقول المؤمن إزاءه سمعا وطاعة، وهي كلمة واحدة ولكنها ذات مدلول كبير؛ فإنهم إن قالوا ذلك كانوا من المفلحين، كما قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فالفلاح والنجاح والفوز في هذه الطاعة، في قولهم سمعنا وأطعنا، وهنيئا لمن يسمع من رسول الله، وهنيئا لمن يطيع أمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم جاء قوله تعالى بعد آيتين من الآية السابقة وهي في السياق نفسه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، فرسول الله يتحمل تبليغ الرسالة ولا يتحمل أكثر من ذلك، «وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ»، وأنتم تتحملون مسؤوليتكم في الطاعة لرسول الله، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، إذا أطعتم رسول الله صلى الله عليه وآله فان الله يعطيكم البصيرة، لتبصروا الطريق وتصلوا الى الهداية، فالطاعة لرسول الله تحقق البصيرة كما هي الطاعة لله جل وعلا، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[١٧٢]، إذن، فطاعة الرسول هي طاعة الله تعالى.

وورد هذا المعنى أيضاً في قول الله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[١٧٣]، فالمؤمن يوفقه الله تعالى للعمل الصالح الطيب؛ كما قال تعالى: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ»[١٧٤]، والله تعالى يتقبل ذلك العمل الصالح ويغفر ذنوب عباده، فالفوز العظيم بطاعة الله، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله كما ذكرنا في طول طاعة الله وليست في عرضها.

طاعة أهل البيت من طاعة الرسول

ثم تأتي آيات أخرى تلحق أهل البيت برسول الله، فطاعة أهل البيت كطاعة رسول الله، وطاعة رسول الله كطاعة الله تعالى، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

١٧٢. النور: ٥٤.

١٧٣. الأحزاب: ٧١.

١٧٤. هود: ٨٨.

مِنكُمْ﴾، الأئمة العدول المعصومون عليكم أن تطيعوهم كما تطيعون رسول الله، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١٧٥]، الطاعة لأهل بيت الرسول كالطاعة لرسول الله، ولها نفس الأثر في منح البصيرة للإنسان.

دور طاعة الرسول صلى الله عليه وآله بتحقيق البصيرة في الروايات

وكذلك ورد في بعض الروايات أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله تزيد في البصيرة:

الرواية الأولى: جاء في الدعاء المروي عن الإمام الصادق عليه السلام بحق رسول الله، إذ يقول بعد أن يذكر عددا من الأوصاف لرسول الله ويدعو له بالرفعة في كل هذه الأوصاف: «وأن تزيده بعد ذلك»، إلهي بعد كل ما طلبته لرسول الله أسألك أن تزيده «مما أنت أعلم به وأوسع له»، أي منزلة رفيعة وأي مكانة عظيمة أنت أعلم بها، فأعطها لرسول الله صلى الله عليه وآله، «وتريني ذلك حتى أزداد في الإيمان به بصيرة»، هنا الشاهد، فالإمام الصادق يدعو الله أن يريه مقامات رسول الله حتى يشتد إيمانا به، وكلما زاد إيمانه به وطاعته له زادت بصيرته، فالطاعة لرسول الله تزيد في البصيرة.

«حتى أزداد في الإيمان به بصيرة وفي محبته ثباتا وحجة»[١٧٦]، المحبة يجب ألا تكون محبة مشاعر فحسب، بل يجب أن تتحول هذه المحبة الى إيمان ودليل وحجة ووعي، أي الطاعة الواعية، والمعرفة الواعية العميقة برسول الله وأهل بيته.

الرواية الثانية: ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عمن يستحق الزكاة، فقال: «المستضعفون من شيعة محمد وآله الذين لم تقوَ بصائرهم»، شيعة رسول الله وأهل بيته هم من يجب أن تدفع لهم الزكاة، ولكن أولئك الذين ليست لديهم بصائر قوية، وإيمانهم ليس قوياً، «فأما من قويت بصيرته»، أهل البصائر وذوو الرؤية العميقة منهم، «وحسنت بالولاية لأوليائه والبراءة من أعدائه معرفته»، لديهم معرفة حقيقية بالولاء لأهل البيت والبراءة من

١٧٥. النساء: ٥٩.

١٧٦. بحار الأنوار ٨٣: ٣١٧، ح٦٧.

أعدائهم، ولديهم التزام وطاعة لأهل البيت، فهؤلاء من أصحاب البصائر العميقة، «فذلك أخوكم في الدين فلا تعطوه زكاة ولا صدقة»، إذا وصل الإنسان الى مستوى البصيرة نتيجة الطاعة لرسول الله ولأهل بيته، فهو أخوكم وكالجسد منكم، فلا تعطوه الزكاة.

«فإن موالينا وشيعتنا منا كالجسد الواحد»، يحرم على جماعتنا الزكاة والصدقة، «وليكن ما تعطونه إخوانكم المستبصرين البر»[١٧٧]، أكرموهم وأحسنوا اليهم بعنوان الإحسان والإكرام، وليس بعنوان الزكاة والصدقة، فكما هو معروف في فلسفة الزكاة والصدقة أنها تطهر المال، ويعبر عنها بالروايات بوسخ المال[١٧٨]، والإنسان يُطهّر ماله بالزكاة، والشاهد أن البصيرة تأتي من التولي والتبري والطاعة لرسول الله وأهل بيته.

الرواية الثالثة: ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حق نفسه: «إنه لا يبلغ أحد من شيعتنا حد الاستبصار حتى يعرفني بالنورانية»، حتى يعرف حقيقة أمير المؤمنين النورانية، «فإذا عرفني بها كان مستبصرا»[١٧٩]، حينذاك يحصل على البصيرة، فمعرفة أهل البيت عليهم السلام حق معرفتهم تحقق البصيرة، «كان مستبصرا بالغا كاملا قد خاض بحرا من العلم وارتقى درجة من الفضل واطلع على سر من أسرار الله ومكنون خزائنه»، حينما يتعرف الإنسان على حقيقة أهل البيت يكون قد اكتشف سرا من أسرار الله، فتحصل له البصيرة، فيتمسك بهم ويطيعهم ويلتزم بأوامرهم فيزداد بصيرة وتمسكا بهم.

الرواية الرابعة: جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: «علي ديان هذه الأمة»، لفظ (ديان) صيغة مبالغة، فهو راهب هذه الأمة، «والشاهد عليها»، علي عليه السلام يشهد على هذه الأمة، «والمتولي لحسابها، وهو صاحب السنام الأعظم»، صاحب الدرجة الرفيعة العالية، «وطريق الحق الأبهج، والسبيل وصراط الله المستقيم، به يهدي بعدي من الضلالة»، يا من تريد أن تهتدي من الضلالة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله إن الله يهدي بعلي عليه السلام من الضلالة، وهنا

١٧٧. بحار الأنوار ٩٣: ٦٨، ح٤٠.

١٧٨. بحار الأنوار ٤١: ١١١.

١٧٩. بحار الأنوار ٢٦: ٧.

الشاهد، «ويبصر به من العمى»، بطاعة علي. . بالالتزام والطاعة لأهل البيت عليهم السلام، يبصر من العمى، فيحصل الإنسان على البصيرة والرؤية الثاقبة العميقة.

«به ينجو الناجون»[١٨٠]، النجاة والهداية والبصيرة بعلي، والسعادة بنهج رسول الله وأهل بيته، علي والأئمة الأطهار عليهم السلام.

الرواية الخامسة: جاء في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «أتيتك يا حبيب رسول الله وابن رسوله وإني لك عارف»، هناك مدارس تمنع الإنسان من المعرفة؛ فهي تحظر عليه السؤال والتفحص، فأيّ كلام شرك وأي سؤال كفر، وليس للمنتمي اليها حق في أن يسأل ويستفسر ويستوضح، ولكن مدرسة الإسلام الأصيل، مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، توجب عليك السؤال والاستفسار والاستيضاح، لكي لا تبقى الشبهة في قلبك، فيجب أن تعرف وتتعمق وتغور وتعي وتفكر، وقيمة الولاء لأهل البيت أن يكون هذا الولاء عن معرفة وبيّنة ودليل وحجة لكي تتمسك به، لذلك فالولاء لأهل البيت يؤدي الى البصيرة لأنه معرفة، لذلك قال هنا: «وإني لك عارف».

«وبحقك مقر»، متمسك بالحق الذي أنت عليه، «وبفضلك مستبصر»، هنا الشاهد؛ يا حسين، بفضلك ومحبتك وطاعتك والالتزام بنهجك أنا مستبصر، فالبصيرة بطاعة الحسين والالتزام بنهجه.

«وبضلالة من خالفك موقن»، هناك منطق آخر يقول: ما لنا والدخول بين هؤلاء؛ فسيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين! فالقاتل سيدنا والمقتول سيدنا! فكيف يصح مثل هذا المنطق؟. . إن المنطق الصحيح هو أن الحسين حق ومن يقف معه فهو على حق، ومن يقف بوجهه فهو على باطل، وهذا التعويم والتبسيط غير مقبول ويجب أن نضع النقاط على الحروف، وأن نعرف أين هو الحق ونتمسك به، وأين هو الباطل ونتخذ موقفا منه، ونتجنب المواقف المهلهلة والمساحات الرمادية، فإذا كنت مبدئيا فابحث عن الحق وكن معه، وقف بوجه الباطل دفاعا عن الحق، هكذا يجب أن تكون.

---

١٨٠. بحار الأنوار ٤٠: ٩٧، ح١٦.

إن منطق سيدنا يزيد وسيدنا الحسين غير صحيح، فلدينا سيد واحد هو الحسين عليه السلام، لأنه الحق، إذن فإن منهج الحسين منهج الموقف وليس منهج اللا موقف، بأن تشخص الحق وتقف الى جانبه، هذه هي ثقافة الحسين.

« عارف بالهدى الذي أنت عليه »، أعرف يقيناً أنك على هدى وعلى حق، وانك دافعت عن الإسلام والقيم وعن المظلومين، وانك حملت شعار الإصلاح ولم تطلب شيئا لنفسك ولعائلتك، «بأبي أنت وأمي ونفسي»[١٨١]، بعد أن تصبح على بصيرة من هو الحسين، وتعرف أنه الحق والمبدئية والعقيدة والصراط المستقيم الذي نسير فيه، حينذاك تقدم نفسك رخيصة من اجل القيم والمبادئ، فالفداء يأتي نتيجة للبصيرة، والبصيرة نتيجة الطاعة والالتزام بنهج الحسين عليه السلام.

الرواية السادسة: وجّه أبو حنيفة النعمان سؤالا للإمام الصادق عليه السلام قال فيه: « جعلت فداك أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١٨٢] »[١٨٣]، ما المقصود بالنعيم؟ « فقال عليه السلام: النعيم نحن أهل البيت »، يعني أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن أهل البيت، «نحن الذين أنقذ الناس بنا من الضلالة »، وهنا الشاهد، « وبصّرهم بنا من العمى»، بأهل البيت وبطاعتهم والالتزام بنهجهم منح الله تعالى الناس البصيرة من أمرهم، فالبصيرة بطاعة أهل البيت، «وعلمهم بنا من الجهل»، نأخذ علمنا من أهل البيت وهم أخذوه من رسول الله، ورسول الله هو الطريق الواضح القويم الذي لا لبس فيه.

الرواية السابعة: عن علي بن سويد السائي قال: كتب إلي أبو الحسن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو في الحبس: «فإنك امرؤ نزّلك الله من آل محمد بمنزلة خاصة»، هنيئا له هذه البشارة، «بما ألهمك من رشدك »، لأن الله أعطاك الرشد والوعي والفهم العميق، «وبصّرك من أمر دينك بتفضيلهم »، منحك البصيرة بتفضيلهم، « لما تعتقد به من أفضليتهم

١٨١. كامل الزيارات: ٣٧٣.

١٨٢. التكاثر – الآية ٨.

١٨٣. بحار الأنوار ١٠: ٢٠٩، ح ١٠.

ورد الامور اليهم والرضا بما قالوا»[١٨٤]، لأنك تطيع أهل البيت أصبحت لديك بصيرة، وهذه البصيرة أخذتك الى المنزلة الخاصة، إذ أصبحت ذا منزلة رفيعة عند الله تعالى .

الرواية الثامنة: عن الإمام العسكري: «الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا»، البعض يعيب علينا ويقول إنكم تدفعون ضريبة لانتمائكم لأهل البيت؛ من مفخخات وقتل، فتخلوا عن هذه القضية، لا والله لن نتخلى عن أهل البيت مهما كانت الضريبة قاسية، وسنبقى متمسكين بولائنا لعلي وآل علي، لأننا أصحاب العقيدة الحقة وأصحاب البصيرة، ولأننا تربينا في مدرسة علي عليه السلام الذي كان يقول لأتباعه وشيعته حين كان خليفة للمسلمين: «من أحبنا أهل البيت فليتخذ للفقر جلبابا، من أحبنا أهل البيت دعّه البلاء دعّا»[١٨٥].

من أراد أن يكون على الطريق المستقيم ويتبنى الحق فعليه أن يوطن نفسه، فسوف يصقل ويمتحن ويختبر ويجرب، وعليه أن يكون بمستوى عال من الاداء، كل هذا البلاء الذي يتعرض له أتباع مدرسة علي عليه السلام، هو بناء وتربية وإعداد للمسؤوليات العظيمة الملقاة على عواتقهم تجاه الأمة .

«ونحن كهف لمن التجأ إلينا»، نحن في العراق أمام شعب منكوب، والذين بقوا في ديارهم تحت اسر الارهاب الداعشي منكوبون أيضا، والمناطق التي آوت النازحين وتتحمل أعباء كبيرة وضغوطا على بنيتها التحتية ومواردها وإمكانياتها تتحمل مشاكل كبيرة أيضا، فالشعب العراقي اليوم كله شعب منكوب، والارهاب يسعى الى أن يفتك ويبطش، والعدد الأكبر من ابناء شعبنا في ظروف غير اعتيادية، وعلينا أن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته ونتوسل الى الله تعالى أن يفرج عنا هذه الكربات، وليعلم أبناء شعبنا أن كل هذه المحن والآلام ستتحول الى رافد حقيقي في عزتهم وكرامتهم وقوتهم، وفي نصر الله لهم، فلا يمكن للعراق وللشعب العراقي أخذ الأدوار الكبيرة في حركة التاريخ ما لم يتحمل هذا الشعب

١٨٤. بحار الأنوار ٢: ٢٠٩، ح١٠٤

١٨٥. نهج البلاغة ٤: ٢٦، ح١١٢.

هـذه الأعبـاء ومـا لـم يمحـص بالبـلاء، لنسـتعد للمنازلـة الكبـرى وتحمـل مسـؤولياتنا العظمـى.

« ونـور لمـن اسـتبصر بنـا »، هـذا الشـاهد؛ مـن يسـتبصر بنـا، بـأن يحصـل علـى البصيـرة مـن خلالنـا، فنحـن نـور لـه وندلـه علـى الطريـق القويـم، « وعصمـة لمـن اعتصـم بنـا، مـن أحبنـا كان معنـا فـي السـنام الأعلـى»[١٨٦]، فـي الدرجـات العاليـة الرفيعـة، «ومـن انحـرف عنـا فإلـى النـار»، اللهـم ارزقنـا محبـة محمـد وآل محمـد واجعلنـا علـى نهجهـم وفكرهـم ومدرسـتهم.

١٨٦. بحار الأنوار ٥: ٢٩٩، ح٧٢.

الرافد الثامن

التفكر

الرافد الثامن الذي يساعد على تحقيق البصيرة هو التفكر، إذ يعطي الإنسان قدرة على تشخيص الأمور وفرزها؛ لإحظوا هذه الآية الشريفة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾، أفرادا وجماعات، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١٨٧]، هذه الآية الشريفة تشير إلى أهمية التفكر والتدبر، وأن هذا التفكر يحقق البصيرة، وبذلك يقي الإنسان من الوقوع في العذاب الأخروي، فإذا أردت أن تتخلص من العذاب فيجب أن تكون لديك بصيرة، والبصيرة تتحقق من خلال التفكر.

لنقف عند مفردات هذه الاية الشريفة القصيرة، ولكن ذات المغزى والمدلول الكبير:

﴿**قُلْ**﴾: يا رسول الله، أخبر أمتك، ﴿**إِنَّمَا أَعِظُكُم**﴾، الموعظة تكون في أمور تخص مصالح الناس، وليست للواعظ مصلحة فيها، أي ما أريد أن أخبركم به قضية تعنيكم وتصب في مصلحتكم وليست لي مصلحة فيها، بل كلها لكم؛ فهذا سر من أسرار النجاح أريد أن أعطيكم إياه.

﴿**بِوَاحِدَةٍ**﴾: أريد أن أحرص على مصالحكم في شيء واحد يمثل الجذر الأساس لكل إصلاح، على المستوى الفردي والجماعي، وهذا الشيء الواحد تمسكوا به فهو مفتاح لكل شيء، ألا وهو التفكّر، فالتفكير مدخل لكل إصلاح، ولكل خطوة صحيحة، ولكل سعادة، والأمة التي تعيش حالة الغفلة والسهو، وحالة التفكك والغموض والضبابية، الأمة التي لا تفكر، تقع ضحية لمن يغزوها، فقد تُغزى عسكريا فتختل السيادة

١٨٧. سبأ: ٤٦.

وتنخرم، إذ يأتي العدو ويحتل الأرض، وقد تغزى فكريا فتفقد هويتها الفكرية، وقد تغزى ثقافيا فتتبعثر العادات والأعراف والتقاليد الطيبة التي تجمع هذه الأمة، فهناك الغزو الثقافي والغزو الفكري والغزو العسكري والغزو الاقتصادي، إذ تنهب ثرواتها وهي لا تعلم، وقد تغزى عقائديا ويضيع دينها وهي لا تعرف، كل ذلك نتيجة الغفلة وعدم التفكير، ولكن الأمة الواعية، الأمة المفكرة، الأمة التي تدقق وتفكر وتمحص، الأمة التي تقف بعمق عند كل ظاهرة وقضية، هذه الأمة لا تضيع ولا تهزم مهما كان العدو متمكنا ومسلحا بأسلحة متطورة، فالأمة المفكرة تقف بوعيها في وجه جميع التحديات.

يا رسول الله، قل لأمتك: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾: هي القضية الأساسية، القضية المركزية، القضية المحورية، التي إن تمسكتم بها فلن تهزموا، ولن تكسروا، ولن تغلبوا، فيكون النصر والظفر لكم دائما، ألا وهي التفكير.

﴿**أَن تَقُومُوا**﴾: يعني أن تنهضوا بتحمل واجباتكم ومسؤولياتكم، وهذا يعني أن التفكير يحتاج إلى تحضيرات واستعداد، وإلى توفير الدافع الذي يدفع نحو الفكر، فمن أجل أن تفكر يجب أن يكون لديك دافع يدفعك نحو التفكير ويشجعك عليه، فتحصل الإرادة ويحصل العزم على أن تفكر، فإذا لم نهيئ الأرضية المناسبة للتفكير فلن نستطيع أن نفكر تفكيرا صائبا، إذ نحتاج إلى بيئة تساعد على دوران الفكر وعلى العصف الفكري، والى أن نفتح المجالات ونسمح بالحوار لننمي القدرة على التفكير في شعوبنا وأممنا.

لكي تكون هناك أمة واعية لا بد من أن تكون الأرضية مناسبة، لا بد من أن تكون هناك ثقافة التفكير والنظرة العميقة والمعرفية للأمور.

﴿**أَن تَقُومُوا لِلَّهِ**﴾، فكركم يجب أن يكون فكراً إلهياً، فحينما يفكر الإنسان من منطلقات إلهية ومبدئية، وحينما يتعمق ويتأمل في الأمور بدوافع إلهية وقيمية، تكون عملية التفكير عملية ناجحة ومؤثرة ومنتجة، وعموما، فإن الإخلاص في التفكير والقول والعمل، وفي كل شيء، يكون منتجاً؛ لأن ما كان لله ينمو، والله يجعل الخير والبركة والتوفيق فيه،

إذن « قوموا لله» أي تهيؤوا للتفكير بدوافع إلهية، بدوافع رسالية، بمنطلقات مبدئية وقيمية.

﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾: فكروا كأفراد، وكل فرد عليه أن يفكر ويتأمل ويدقق وينظر ويتفحص، أي تكون لديه قدرة تحليلية، و «مثنى»، أي بشكل جماعي، أن يفكر الاثنان معا، والجميع يفكرون معا.

ماذا يعني التفكير الفردي والتفكير الجماعي؟.. التفكير الفردي أن تكون لك شخصية مستقلة، وقدرة ذاتية على التحليل والغور في الأمور واستنباط الأحداث والخروج بنتيجة، أي لديك القدرة على أن تحلل وتفكر وتخطط كفرد، والتفكير الجماعي ينمي فينا عدم الاحتكار وعدم الاستبداد بالرأي وإشراك الآخرين والتشاور معهم والاستفادة من خبراتهم، ومن منا يعلم كل شيء؟ ومن منا يتميز ويتألق في كل شيء؟.. لا يوجد، فكل واحد منا ينظر للأمور من زاويته وله معطيات وخبرات وتجارب، فحينما تستشير الآخر تصل إلى أفضل النتائج، ولا تستبد برأيك.

فكروا فرادى أو مع عدد آخر من الناس، أي فكروا بعيدا عن الضوضاء، والصخب المجتمعي، وعن تأثيرات الرأي العام والأجندة التي تدخل وتفرض شيئا عليكم وتدفعكم باتجاهات محددة، أي عليك أن تنتهج الموضوعية والشفافية والصدقية في التفكير، أي فكر بالمصلحة كما هي، وليس بتأثير الاجواء التي تصنع حتى تشوش عليك وتدفعك لاتخاذ قرار ما بعيدا عن مصالحك.

فكروا مثنى وفرادى، بعيدا عن هذا الصخب، وعن الشائعات، وإثارة الرأي العام في اتجاهات عامة قد تكون على خلاف المصلحة، فلا تتأثر بذلك وأنت تفكر، بل انظر ما هي المصلحة وخذ قرارك على أساس المصلحة، وليس على أساس الضغوط، بعيدا عن التصلب والتعنت والعزة بالرأي، لأن الإنسان حينما يطرح رأيا على عدد كبير من الناس، فمن الصعب أن يتراجع ويبدو منكسرا أمام الآخرين، ومن الصعب على الكثير أن يقول: أرجو المعذرة فقد توهمت.

يقول فكروا فرادى ومثنى مع عدد محدود، لكي تستطيع تصور

الفكـرة حسـب معطيـات الحـوار والعصـف الفكـري، وإذا رأيـت نفسـك مخطئـا، وقـد فتـح لـك أفـق جيـد مـن خـلال الحـوار، فسـتطور فكرتـك، فإنـك إن طرحتهـا علـى الـرأي العـام وتبيـن أن هنـاك خلـلا، فمـن الصعـب أن تتراجـع، وقـد تتعلـق بالفكـرة وأنـت تعلـم أنهـا خاطئـة.

إن ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾، فيهـا جميـع المداليـل؛ فالتفكيـر يجـب أن يبـدأ مـن الفـرد وينتهـي بالمستشـارين والخبـراء الذيـن يتشـاور الإنسـان معهـم، ويجـب أن يبقـى فـي دوائـر مغلقـة بعيـدا عـن التأثيـر والتأثـر بالـرأي العـام الذي يعاكسـه.

﴿**ثُـمَّ تَتَفَكَّـرُوا**﴾: إذا وفـرت المنـاخ المناسـب والبيئـة المناسـبة وتهيـأت للتفكيـر، فعليـك أن تجلـس وتفكـر، وفـي هـذه الآيـة إطـلاق؛ فـلا يقـول ﴿ثُـمَّ تَتَفَكَّـرُوا﴾ فـي الله، أو فـي الآخـرة أو فـي سـعادتكم، بـل يقول: ﴿ثُـمَّ تَتَفَكَّـرُوا﴾، وهـذا الإطـلاق دليـل علـى أن التفكيـر يجـب أن يشـمل جميـع المجـالات، فـي الدنيـا والآخـرة؛ أي نفكـر فـي شـؤونا الحياتيـة، وفـي شـؤوننا الدينيـة.. نفكـر فـي مصالحنـا العامـة، وفـي مصالحنـا الخاصـة.. نفكـر فـي الأسـرة، وفـي شـؤون المجتمـع، ففـي كل شـيء يجـب أن نفكـر، إذ يجـب أن يكـون الإنسـان مفكـرا، لا تحركـه العواطـف والانفعالات، ولا يتحـرك بمشـاعر سـرعان مـا يتبيـن انـه مخطـئ فيهـا، بـل ينظـر ويتفحـص ويتعمـق ويتحمـل ثـم يقـرر ثـم يُقـدم، هـذا منهـج الإسـلام ومنهـج القـران.

وفّـر أجـواء التفكيـر الصحيـح ثـم فكـر مع نفسـك ومـع الآخريـن، وأشـركهم لكـي تصـل إلـى أفضـل النتائـج، وتحصـل علـى البصيـرة والرؤيـة الصحيحـة نتيجـة هـذا التفكيـر، ومـا أحوجنـا إلـى الرؤيـة، فالكثيـر مـن الإشـكالات والتخبـط فـي مجـالات الحيـاة التـي نعيشـها ناتجـة مـن غيـاب الرؤيـة؛ أي مـاذا نريـد، ومـن أيـن نبـدأ وإلـى أيـن ننتهـي، ومـا هـي أهدافنـا المرحليـة، ومـا هـي أهدافنـا الإسـتراتيجية، وكيـف نحقـق هـذه الأهـداف، ومـا هـي خططنـا، ومـا هـي خارطـة الطريـق، ومـا هـي الأسـقف الزمنيـة المطلوبـة، ومـن هـم الرجـال الذيـن نعتمدهـم فـي تحقيـق هـذه الأهـداف؟.. اذا فقدنـا الرؤيـة يصبح الإنسـان بـلا بوصلـة، تتلقفـه الريـاح ويذهـب يمينـا وشـمالا؛ يعمـل ويعمـل ولكـن بـلا نتيجـة، لأن هـذا العمـل باتجاهـات مختلفـة، فهـو غيـر منتـج، انظـروا الـى المثقـب (الدريـل) الـذي يثقـب الأشـياء الصلبـة حتـى الصخـر، إذ يكـون مركـزا

على نقطة محددة، ثم يأتي الضغط على هذه النقطة، وحينما تضغط على نقطة مهما كانت صلبة، فسيكون المثقب قادرا على أن يحفرها ويثقبها، ولكن اذا فقد التركيز على نقطة محددة فلن يستطيع أن يثقب، والإنسان كذلك يجب أن يكون لديه تركيز؛ ماذا يريد، وكيف يحقق ما يريد؟ وما هي الخطوات المطلوبة لتحقيق ما يريد؟ هذه هي البصيرة والرؤية العميقة، الرؤية الإستراتيجية لتحقيق الأهداف والغايات.

﴿**مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾: الآية تقول صاحبكم، ولا تقول رسول الله، فهذا الذي عاش معكم مدة طويلة، والذي عرفتم منه الأمانة والصدق، فهو الصادق الأمين، هذا الذي عرفتم منه الدراية والحكمة، كيف تتهمونه بالجنون، وهو صاحبكم الذي تعرفونه منذ سنين، وكيف لمجنون أن يلخص رسالته ويقولك ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾، ويعتبر محور رسالته ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، أي فكروا وتأملوا، فرادى أو استشيروا وناقشوا وتعمقوا، وتعرفوا على مبادئ الرسالة لكي تعرفوا قيمتها، فالنبي الذي يختزل رسالته في التفكير وفي العلم والمعرفة والمشورة والصدقية، كيف يكون مجنونا؟ بل هذا أكبر دليل على عقله، وأنه لا يقبل أن يتبعه أحد إلا بالعقل والدراية.

﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم**﴾: هذه الآية تختزل الرسالة الإسلامية بأنها رسالة إنذار، وورد في آيات أخرى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٨٨]، أي هي بشارة وإنذار، ولكن في هذه الآية تختزل الرسالة بالإنذار، لان الإنذار يحقق دافعا أقوى من البشارة؛ فالبشارة مصلحة يحققها الإنسان، أما الإنذار فهو خطر يدفعه، ودفع الضرر يُقدّم دائما على جلب المصلحة والمنفعة، لذلك فالرسالة الإسلامية رسالة إنذار.

وقد ورد التأكيد على ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١٨٩]، أي أنذركم من الوقوع في العذاب الإلهي، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[١٩٠]، فالإنذار

١٨٨. الأعراف: ١٨٨.

١٨٩. الأحقاف: ٩.

١٩٠. ص: ٦٥.

يمثل ركيزة أساسية في الرسالة الإسلامية، ثم تتوج هذه الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، والمقصود من قوله سبحانه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾، أن العذاب الإلهي في الآخرة قريب، فلا تظن أيها الإنسان أن يوم القيامة بعيد، فهذه بحساباتنا الدنيوية، أما عند الله فحساب الزمن مختلف، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١٩١]، فيوم واحد من أيام الآخرة يعادل خمسين ألف سنة من أيام الحياة الدنيا، واليوم الواحد عند الله تعالى يعادل ألف سنة من الحياة الدنيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[١٩٢]، ولذا فهو قريب بحساب الزمن عند الله عز وجل، بل حتى في الدنيا يمر الوقت سريعا، فالبعض منا يتجاوز عمره الخمسين، وهو يقول: بالأمس كان عمري خمس عشرة سنة، وهكذا يمر الوقت سريعا.

إذن، ينذرنا رسول الله من هذا العذاب الشديد القريب، وقد ورد في الرواية عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «بعثت أنا والساعة» يوم القيامة « كهاتين، وجمع بين سبابتيه»[١٩٣]، كناية عن القرب، فالأصابع متلاصقة، فما بين بعثة الرسول ويوم القيامة وقت قصير وإن رأيناه طويلا، فلا تقل إن الوقت طويل وأنا ما زلت شاباً، لأستمتع بحياتي، وأتخفف من الالتزام بالضوابط الشرعية، والله كريم، وعندما يبلغ عمري ستين أو سبعين عاماً سأتوب، كلا، فالله يقول: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١٩٤]، أي أنّ الإنسان على مشارف الوقوع في أحضان يوم القيامة، كما أخبرنا بذلك العليم الخبير بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[١٩٥]، وما أدرى هذا المغرور الذي ينطق بهذا الكلام أنّ العمر سيمتد به إلى الستين أو السبعين؟ والله تبارك وتعالى يأمرنا بالمبادرة إلى العمل الصالح

١٩١. المعارج: ٤.
١٩٢. الحج: ٤٧.
١٩٣. بحار الأنوار ١٦: ٢٥٦، ح٣٦.
١٩٤. سبأ: ٤٦.
١٩٥. طه: ١٥.

قبل حلول الأجل، إذ يقول: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[١٩٦]، فلا أحد يعلم متى يموت وكيف يموت وفي أي أرض يموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[١٩٧]، ولذلك على الإنسان أن يكون مستقيماً، ويسير على طريق الطاعة لله سبحانه وتعالى، لكي لا يندم في يوم القيامة الذي أسماه المولى الجليل بيوم الحسرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾[١٩٨]، حينما يندم الإنسان على تفريطه وتسويفه للإنابة والتوبة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[١٩٩].

التفكّر جوهر الرسالة الإسلامية

هذه الآية الشريفة دليل قاطع على بطلان ما يدعيه البعض من أن الدين أفيون الشعوب، وأنه يخدر الشعوب ويستغل بساطة الناس ومشاعرهم، أو أن الدين يمثل الرجعية، ويتقاطع مع العصرنة والتطور والتكنولوجيا، فالإسلام يقول: «أعظكم بواحدة...» حتى يقول: «ثم تتفكروا»، فجوهر رسالة الإسلام هو التفكير؛ استعمل عقلك وتأمل ودقق وتعمق في الامور، فهل من يدعو إلى التفكّر والتعمق يخدر الناس ويجهّلهم ويستغل بساطتهم؟ فالله تعالى يأمر الإنسان بأن يفكر، ويقول له لا تفكر وحدك، بل شارك الآخرين المختصين، ولا تفكر في أجواء السخط خشية أن تتأثر، فاذهب إلى الأماكن الهادئة المغلقة وفكر بشكل عميق بعيدا عن المؤثرات لتكتشف الحقيقة، فهل الرسالة التي تكون من صنع البشر، ويكون الهدف منها التغرير بالناس وإضلالهم والضحك على الذقون، تفتح عقول الناس وتقول لهم فكروا؟.. أي منطق هذا؟.

---

١٩٦. المنافقون: ١٠.

١٩٧. لقمان: ٣٤.

١٩٨. مريم: ٣٩.

١٩٩. الأنعام: ٣١.

الإسلام يعتبر رسالته المركزية والمحورية هي التفكر، وإذا أردت أن تكون مسلماً حقيقيا فعليك أن تكون مفكرا متعمقا ومتدبرا متسائلا باحثا عن الحقيقة، وأن لا تقبل الأمور بدون نقاش أو تداول أو تدقيق، هذا هو الإسلام، وهذه حقيقة يركز عليها القرآن الكريم بشكل مكثف؛ لاحظوا مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠٠] الذي ورد مرتين في القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠١] الذي ورد ثلاث مرات في القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠٢] الذي ورد مرتين في القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٠٣] الذي ورد مرتين في القرآن الكريم أيضاً، فانظروا الى التأكيد على التفكّر، وعلى التعمق والتدبر في الأمور.

وكذلك الآيات التي جاءت لتؤكد على التفقه، والتفقه هو الفهم العميق ونمط من أنماط التفكير، والآيات التي أكدت على العقل والتعقل، وما أكثرها في القران الكريم، والآيات التي جاءت لتذم بشدة عدم التدبر والتفكر، وهي ست وأربعون آية، كل هذه الآيات عندما نجمعها نرى عمق هذه الظاهرة وهذه الحقيقة القرآنية، حقيقة التفكير ودورها في تحقيق البصيرة، حتى ان القرآن الكريم يعدّ عدم التفكّر من صفات أصحاب النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾، لو كنا نصغي إلى ما سمعناه، وكان استماعنا حقيقيا، ولو كنا نفكر ونتأمل، ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٢٠٤]، هذه الكلمات عن أهل النار؛ يقولون لو كنا نفكر لما كنا من أهل النار، لأن الدليل كان سيأخذنا إلى حقيقة الطاعة لله سبحانه وتعالى.

وفي آيات أخرى يعدّ من لا يفكر مرشحاً الى أن يكون من أصحاب

٢٠٠. النحل: ١١ و ٦٩.
٢٠١. الرعد: ٣، الزمر: ٤٢، الجاثية: ١٣.
٢٠٢. الحشر: ٢١، الأعراف: ١٧٦.
٢٠٣. البقرة: ٢١٩، ٢٦٦.
٢٠٤. الملك: ١٠.

النار، كما في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، أي أوجدنا، وأعددنا، وهيأنا، ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، هيأنا لجهنم الكثير من الجن والإنس، ثم تذكر الآية ثلاث صفات لهؤلاء، هي: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، لديهم عقول لا يفكرون بها ولا يتأملون، ولا يستفيدون منها، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، لديهم بصر وليس لديهم بصيرة ورؤية عميقة، فهم بدون بصيرة، ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، لا يقف عند المسائل ويعي ويستوعب ويحتوي المعلومات والحقائق التي عرضت عليه، بل يأخذ الأمور ببساطة، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾، كالبهائم، فشكلهم شكل إنسان، إذ يمشون على رجلين، ولكن واقعهم كالأنعام، كمن يمشي على أربع، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، أسوأ من البهيمة، فالبهيمة ليست لها القدرة على التفكير، أما هذا فلديه القدرة على التفكير ومع ذلك لا يفكر، فهو أسوأ من البهيمة، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢٠٥]، يعيشون حالة الغفلة التي تحصل للإنسان اذا لم يفكر، وكأنّهم خُلقوا لكي يأكلوا ويتمتعوا كما تفعل الأنعام؛ فأهملوا استعمال هذه الأدوات، وهي العقول والأبصار والأسماع، التي منحها الله تعالى لهم لكي يصلوا من خلالها الى البصيرة التي تدخلهم الجنة.

دور التفكّر بتحقيق البصيرة في الروايات

التفكّر ينمي ويعمق البصيرة في الإنسان، وبعد استعراضنا عددا من الآيات الشريفة في هذا الشأن، نقف عند بعض النصوص الروائية التي تشير الى دور التفكر في تحقيق البصيرة:

الرواية الأولى: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نبّه بالتفكّر قلبك)، إذا كنت تريد أن ينتبه قلبك لتحصل على البصيرة فعليك بالتفكير، لان التفكير يحرك العقل والشعور وينظم المسار ويوضح الرؤية ويوصلنا الى البصيرة، والإنسان حينما يكون على بصيرة من أمره، وتكون له رؤية واضحة وتشخيص دقيق للموقف، وما ينبغي عليه أن يكون، حينذاك تكون انطلاقته كبيرة ويحقق النجاح

٢٠٥. الأعراف: ١٧٩.

المطلوب، (وجاف عن الليل جنبك)، في الليل يكون الخلود الى النوم والراحة، ولكن أنَ ترفع رأسك عن الوسادة وتخرج من فراشك الدافئ، وتسبغ الوضوء وتتوجه نحو الله تعالى وتقوم في آناء الليل، فإن في ذلك لذة لا يعرفها إلا من يلتزم بهذه السنة النبوية الشريفة؛ وهي قيام الليل، ويعيش التأثيرات العظيمة لذلك، (واتق الله ربك)[٢٠٦]، التقوى والورع عن محارم الله وتجنب المعصية والذنب والرذيلة، هذه توصيات علي عليه السلام.

الرواية الثانية: عن الحسن الصيقل قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عما يروي الناس أن تفكر ساعة (يعني لحظة) خير من قيام ليلة)، أي أن ثواب هذا التفكّر أعظم من قيام ليلة كاملة، (قلت: كيف يتفكّر، قال عليه السلام: يمر بالخربة أو بالدار فيقول أين ساكنوك)، أين من سكن هذه الديار؟.. لقد كانت لديهم طموحات وتطلعات، ولكنهم ذهبوا وخربت ديارهم، (أين بانوك)، أين هذا المقاول الذي بنى هذا البيت وتباهى أمام العالم بأنه بنى هذا الصرح؟ (ما بالك لا تتكلمين)[٢٠٧]، لماذا لا ترديـن على أسئلتي؟.. هذا هو المطلوب من تفكّر ساعة؛ أي النظرة الواعية العميقة، وقراءة ما بين السطور واستنطاق الحدث، والاعتبار من كل قضية، فحين أرى مريضاً أشكر الله على نعمة الصحة التي تفضل عليّ بها، فإن فايروسات لا ترى بالعين يمكن أن تنهي كل هذه الطموحات والرغبات والآمال، هذه هي النظرة الواعية، وعندما أرى عظمة الله أقول من أوجد هذا وأين أنا من هذا؟ وأستغفر من الحالات السلبية والأخطاء.

إن التفكّر يعني النظرة المتفحصة والعميقة التي يبحث صاحبها عما وراء الحدث، ولا يقتنع بما يراه بعينه من الشكليات والظواهر، بل يريد ما وراء الظاهر، هذه النظرة يطلق عليها البصيرة، ولا يحصل عليها الإنسان إلا بالتفكر وأخذ العبر من الحياة.

الرواية الثالثة: ورد عن الرضا عليه السلام أنه قال: (ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل)[٢٠٨]، هذه

٢٠٦. الكافي ٢: ٥٤، ح١.
٢٠٧. الكافي ٢: ٥٤، ح٢.
٢٠٨. الكافي ٢: ٥٥، ح٤.

المقاربة بين الكم والنوع؛ هل أقرأ جزءا من القرآن الكريم وانتباهي في مكان آخر، أو أقرأ صفحتين بتدبر وتأمل؛ فأقرأ آيات الرحمة وأطلبها لنفسي وللمؤمنين، وأقف عند آيات العذاب وأعوذ بالله منها لنفسي وللمؤمنين؟. إن ركعتين ببصيرة وتأمل وتدبر وخشوع وخضوع وتوجه، تعادلان خمسين ركعة كنقر الغراب كما يعبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فالعبادة الواعية هي التي تحقق البصيرة، لذلك تُقدّم على الكم والعدد.

الرواية الرابعة: ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: (التفكّر يدعو الى البر (العمل الصالح) والعمل به)[٢٠٩]، لأن التفكر يوجد البصيرة، والبصيرة تشخص البر، وإذا شخص الإنسان البر اندفع اليه وعمل به، فكل عمل صالح مرهون بالبصيرة، والبصيرة تأتي من التفكر.

الرواية الخامسة: ورد عن الإمام الحسن عليه السلام: (عليكم بالتفكّر فإنه حياة قلب البصير)، التفكر حياة لقلب البصير، لأن البصير لا يحيا قلبه ولا يحصل على البصيرة إلا بالتفكر، (ومفاتيح أبواب الحكمة)[٢١٠]، إذا تفكرت فسوف تنفتح الآفاق أمامك، وتستطيع أن تكتشف الحقائق وتصل الى الحكمة.

٢٠٩. الكافي ٢: ٥٥، ح٥.

٢١٠. بحار الأنوار ٧٥: ١١٥، ح١٢.

الرافد التاسع

العلم

العلم يحقق البصيرة لدى الإنسان أيضاً، ونستعرض في هذا الشأن بعض الشواهد من القرآن الكريم، والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

دور العلم بتحقيق البصيرة في القرآن

لاحظوا هذا المشهد القرآني الرائع من سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٢١١].

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾:
هذه الآيات الكريمة خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهي تقارن بين نوعين من الناس بالنسبة إلى موقفهم من التصديق بما أُنزل إليه من ربه، وهو القرآن الكريم. فالفئة الأولى تعلم أنه الحق، وهي على بصيرة من أمرها، والفئة الثانية على عمى من أمرها، فهي تجهل أنّ القرآن الكريم نازل من الله تبارك وتعالى على رسوله الكريم. إذن من له العلم فهو ذو بصيرة ويعرف أنّ القرآن حق، ومن ليس له علم يفقد البصيرة، فهو كالأعمى لا بصيرة له، ونتيجة عدم العلم هي فقدان البصيرة، فالعلم يُحقق البصيرة، وغياب العلم يُفقد الإنسان البصيرة.

---

٢١١. الرعد: ١٩ ٢٤.

لاحظوا جمال هذا التعبير القرآني؛ فهو لا يقول: أفمن يعلم كمن لا يعلم، وإنما يقول: أفمن يعلم كالأعمى؟. يعني عدم العلم بحقانية القرآن يُساوي العمى؛ لأنّ القرآن الكريم نورٌ مُبين، وهو كالشمس في وضح النهار، فمن لا يُدرك حقانية القرآن فهو أعمى، ومن يُنكر حقانية القرآن وما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله كالأعمى الذي لا يرى الحقائق الخارجية.

﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾: «إنما» أداة حصر، أي أنّ الذي يعتبر ويتعظ هم أُولو الألباب فقط، وهَم ذوو العقول، فمن يحمل عقلاً وفكراً وبصيرةً هو الذي يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الشريفة.

فالآية الكريمة تحث على طلب العلم ونبذ الجهل؛ لأنّ العلم يحقق البصيرة للإنسان، والجهل يجعل القلب أعمى، ويكون صاحبه فاقداً للبصيرة والرؤية الصحيحة.

ثم يستعرض هذا المقطع القرآني ثماني سمات وخصائص لأُولي الألباب، وكم نحن بحاجة إلى استذكار هذه الصفات في تقويم الشخصية الإنسانية، وفي تقويم الشخصية الرسالية، لكي نحققها في وجودنا، وهي كالتالي:

السمة الأُولى: الوفاء بالعهد والميثاق

وهي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾، فأولى هذه السمات في شخصية أُولي الألباب هي الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، والوفاء بالمواثيق التي يقطعونها على أنفسهم مع الآخرين من أفراد النوع الإنساني.

ومعنى الوفاء بالعهود والمواثيق هو الالتزام بما قطعه الإنسان على نفسه مع ربه عز وجلّ ومع الآخرين. ولها معنى واسع وشامل، فهي تشمل مجموعة من العهود والمواثيق هي:

أولاً: العهود الفطرية، فالإنسان بفطرته يُدرك ويلتزم بالعديد من الحقائق، كمبدأ توحيد الله سبحانه وتعالى في العقيدة، ومبدأ العدالة الاجتماعية في السلوك، ومبدأ التزام الحق والوقوف إلى جانب الحق،

فهذه كلها مبادئ مهمة وأساسية يُدركها الإنسان بفطرته السليمة ما لم تُدنس وتُغيّر، لأنه بفطرته يتفاعل ويتعاطف مع هذه الحقائق، وهي عهود فطرية لم يأخذها من أحد، ولكن الإنسان بالفطرة منسجم ومتفاعل معها.

ثانياً: العهود العقلية، فهناك أُمور يتوصل إليها الإنسان بمدركاته العقلية، كالحقائق الكونية التي يدركها عقل الإنسان وتدله على الإيمان بها، وهي تمثل عهوداً والتزامات منه تجاه هذه الحقائق.

ثالثاً: العهود الشرعية، وهي التي تحددها الحجة الشرعية من الله تبارك وتعالى على الناس، وهم الأنبياء والأئمة، الذين يبيّنون الموقف الشرعي فيقولون: هذا حرام، أي هناك التزام بتركه، وهذا واجب، أي هناك التزام بفعله، وهذا مستحب أو مكروه، أي هناك تخيير ولكن فيه ترجيح بفعله أو تركه. فالأحكام الشرعية تمثل عهوداً شرعية على الإنسان.

رابعاً: العهود البينية، وهي العهود التي يقطعها الإنسان مع نظرائه من بني البشر، كمن يَعِدُ أخاه بشيء، فعليه أن يكون ملتزماً ووفياً بهذا الوعد الذي قطعه مع الآخرين. هذه هي السمة الأولى؛ الوفاء والمواثيق.

السمة الثانية: حفظ العلاقات والأواصر

وهي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾، فالإنسان ليس كائناً منزوياً ومنقطعاً عن الآخرين، بل هو كائن يتحرك بحالة مدنية واجتماعية ويحب أن يتواصل مع الآخرين، وتكون له منظومة علاقات معهم. فمن سمات الشخصية الإنسانية المتكاملة من ذوي الألباب، هي أن يكون الإنسان قادراً على أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، أي يحقق حالة متكاملة في بناء منظومة العلاقات، وهذه المنظومة تشمل أيضاً مساحات عدة:

المساحة الأُولى: علاقة الإنسان مع الله سبحانه وتعالى، وفيها بُعدان:

الأول: البُعد التكويني، إذ أنّ وجود الإنسان مرتبط بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه خالقه وموجده من العدم، وكذلك فإنّ بقاء الإنسان مرتبط بإرادة الله عز وجل، وهذه علاقة تكوينية.

الثاني : البُعد التشريعي، فهناك علاقة ترتبط بطاعة الله تبارك وتعالى، تتمثل بوجوب التزام أوامره وتجنب نواهيه، وهذه علاقة تشريعية بين الإنسان وربه.

المساحة الثانية: علاقة الإنسان مع الحجة الشرعية، أي مع الرسول والإمام، وهي ما نسميه اليوم بالعلاقة مع القائد، فرسول الله صلى الله عليه وآله هو قائدنا، وأئمة أهل البيت عليهم السلام هم قادتنا، فمن يقدّم الحجة الشرعية هو قائدنا، والإنسان بدون القائد يفقد البوصلة، ويضيع ويتيه ويتخبط ويُراوح في مكانه، والأُمة التي تُريد أن تتقدّم عليها أن تُحدد موقفاً شرعياً وحجة شرعية ليحدّد لها البوصلة وتمضي نحو أهداف محددة. إذن هذه العلاقة القيادية بين الإنسان والرسول أو الإمام هي نمط ثان من أنماط العلاقة.

المساحة الثالثة: العلاقة مع الناس، مع بني البشر، ولاسيما مع أرحامه، كالوالدين، والزوجة، والاولاد، والأقرباء، وذوي الحقوق كالأساتذة والمربين، ومن قدّم لنا وأسهم في تطويرنا، فكل هؤلاء يندرجون ضمن هذه المساحة من الحقوق.

المساحة الرابعة: علاقة الإنسان مع نفسه، إذ يجب على الإنسان أن يحفظ نفسه، فلا يجوز له الانتحار، ولا يجوز له الإضرار بنفسه؛ لأنّ من حق البدن على صاحبه أن يحفظه، ويحفظ حقوقه، وكذلك من حق نفسه عليه أن ينمّيها ويطوّرها ويصقل مهاراتها في طاعة الله سبحانه وتعالى وخدمة الإنسان وفي الأهداف التي وضعت له. فحق النفس وعلاقة الإنسان مع نفسه هي من مساحات العلاقة أيضاً.

إذن، فالسمة الثانية من سمات الشخصية الرسالية – كما تُشير الآيات القرآنية تتمثل في العلاقة مع الله عز وجل، والعلاقة مع الرسول والإمام، والعلاقة مع البشر، والعلاقة مع النفس.

السمة الثالثة : الخشية من الله

وهي قوله تعالى: ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾، فالإنسان ذو اللب، أي صاحب البصيرة والعقل والحكمة والدراية، يخشى الله سبحانه وتعالى،

والخشية من الله سبحانه وتعالى هي حالة الخوف المقرون بالعلم واليقين والاحترام، فمن الممكن على مستوى البشر أن يهاب شخص شخصاً آخر، كما لو كان عالماً ذا شخصية كريمة، فخشية الهيبة هي نتيجة الشعور بالمسؤولية، وحينما نستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى، ونستحضر المسؤولية العظيمة التي نتحملها في عبودية الله جل وعلا، ينتابنا شعور بالخشية، والخشية تنتاب العالم، كما ورد في قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٢١٢]، أي أنّ العلماء يخشون الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ العالم يُدرك حقيقة العلاقة بينه وبين الله جل وعلا.

السمة الرابعة: الخوف من سوء الحساب

وهي قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، ويُقصد به الحساب الدقيق، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[٢١٣]، فسوء الحساب يعني الحساب الدقيق مع التوبيخ والتقريع وانتزاع الأخطاء والإساءات، وقال بعض المفسرين: سوء الحساب يعني سوء الجزاء، فمن كان عمله خاطئاً، ومن كان سلوكه خاطئاً، وكانت الذنوب والمعاصي - والعياذ بالله- هي السمة العامة في سلوكه، سيُجازى بالجزاء الذي ينسجم مع هذه الذنوب.

السمة الخامسة: الثبات والاستقامة

وهي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾، أي ثبتوا واستقاموا في طريق طاعة ما أمر به الله سبحانه وتعالى، وتجنب ما نهى عنه، كل ذلك في سبيل الله عز وجل ورغبة بما أعدّ من الثواب الجزيل. فيجب أن يكون الإنسان صبوراً على طاعة الله، أي يكون ثابتاً ومستقيماً في أداء واجباته الرسالية، وفي جهاد العدو، وفي مكافحة الفساد، وفي مواجهة الظالمين. فالصبر إذن سمة مهمة في الشخصية الإنسانية، ولكن ينبغي أن يكون هذا الصبر ابتغاء لوجه ربهم، فالصبر وحده لا يكفي، بل

٢١٢. فاطر: ٢٨.

٢١٣. الكهف: ٤٩.

النية في الصبر مهمة، أي يكون الصبر ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته، فهناك من يصبر ويثبت رياءً ويتظاهر أمام الناس ليقال إن بلواه عظيمة. أحياناً تكون عين الإنسان على الناس لا على الله، فيصبر صبراً أسطوريا من أجل أن يتحدث الناس بصبره وثباته واستقامته، والبعض يصبر حتى لا يشمت به العدو، وهناك من يصبر ليظهر بمظهر المظلوم ليستعطف الناس، أي يستدرج مشاعرهم بظهوره بمظهر الصبر، وهو ليس صبوراً حقيقياً. كل هذه الحالات فيها صبر، ولكن ليس فيها ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، فلذلك لا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى.

السمة السادسة: إقامة الصلاة

وهي قوله تعالى: ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾، فإقامة الصلاة معلم وملمح وسمة مهمة من شخصية ذوي الألباب، وقد يقول قائل: إذا كان من سماتهم الالتزام بالعهود والمواثيق، فإنّ الصلاة أحد هذه العهود، وإذا كان الصبر والاستقامة من سماتهم أيضاً، فإنّ الصلاة من مصاديق ذلك، وإذا كان من سماتهم الالتزام بما أمر الله به أن يوصل، فالصلاة هي مما أمر الله به أن يوصل أيضاً، فلماذا أُفردت الصلاة دون غيرها، مع أنها مشمولة بالعناوين السابقة؟ والجواب: أنّ هذا دليل على أهمية الصلاة، وعلى محورية الصلاة، فإنها حتى وإن كانت مشمولة بتلك العناوين، ولكنها بعنوانها الخاص تُمثل سمة مهمة في شخصية الإنسان الرسالي؛ لأنها علاقة متجددة بين الإنسان وربه، فالصلاة مناجاة بين العبد وربه، والصلاة إزالة للأدران، أي أوساخ الذنوب والمعاصي ومخلفاتها، والصلاة تأخذ الإنسان إلى الفضاء النوري، فتشعره بنور الله سبحانه وتعالى حينما يمارس هذه الشعيرة بشكل صحيح، وحينما لا تتحول الصلاة إلى عادة، فمشكلتنا أحياناً هي أننا نتعاطى مع العبادة على أنها عادة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة عمود الدين، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل بني آدم، فإن صحت نُظر في عمله، وإن لم تصح لم يُنظر في بقية عمله»[٢١٤]، وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «الله الله

٢١٤. وسائل الشيعة ٤: ٣٥ باب ٩ من أبواب الصلاة، ح١٣.

في الصلاة، فإنها عمود الدين، فمن تركها فقد هدم الدين»[٢١٥]، فالدين يُهدم بترك الصلاة.

فلذلك نجد في عاشوراء، أن المعركة كان يُفترض وقوعها في الليل، وقد استعد الأعداء للقتال ليلاً تجنباً لذلك الحر اللاهب في النهار، ولكن الحسين عليه السلام طلب من أصحابه أن يطلبوا منهم تأجيل الحرب إلى صباح يوم عاشوراء، وقد بيّن عليه السلام السبب بقوله: «حتى نصلي لربنا»[٢١٦]، فكان له ولأصحابه دويٌّ كدويِّ النحل في ليلة عاشوراء[٢١٧]، وفي ظهر اليوم الثاني طلب الحسين عليه السلام أن يُوقفوا الحرب حتى يصلّي، فلم يسمحوا له بالصلاة، فصلّى هو وأصحابه صلاة الخوف وهو يُقاتل[٢١٨].

أين نحن من ذلك وأحدنا ربما أجل أو أخّر صلاته لأجل أمر تافه، ولكن الحسين عليه السلام أراد أن يُصلي الفريضة في أول وقتها، حتى لو كانت صلاة الخوف، فانظروا إلى الاهتمام بالصلاة.

السمة السابعة: الإنفاق والعطاء

وهي قوله تعالى: ﴿**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**﴾، فمن سمات الشخصية الرسالية الإنفاق والعطاء، وهذه تكاملية غريبة بين الصلاة والزكاة، ونجدها تتكرر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ﴾[٢١٩] و ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، فالصلاة والإنفاق نجدهما في آيات القرآن الكريم بشكل واسع؛ لأنّ الصلاة علاقة بين الإنسان وربه، والزكاة والإنفاق علاقة بين الإنسان وبني البشر، فكما أنّ العلاقة مع الله سبحانه وتعالى مهمة، فإنّ العلاقة مع عباد الله مهمة أيضاً، أي أنّ الشخصية الرسالية تكتمل بالصلاة وبالإنفاق معاً.

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾، أنّ الإنفاق واسع

٢١٥. عوالي اللآلىء ١: ٣٢٢ ح٥٥.
٢١٦. بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٢.
٢١٧. بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٤.
٢١٨. بحار الأنوار ٤٥: ٢١.
٢١٩. البقرة ٢٧٧، التوبة ٥، التوبة ١١، الحج ٤١، فاطر ٢٩.

يشمل كل ما رزق الله تبارك وتعالى به الإنسان من أنواع النعم، فكل ما رزقك الله به عليك أن تنفق منه، فإن كان مالاً فعليك أن تنفق منه، وإن كان علماً فعليك أن تنفق من علمك، كما ورد في الأثر: «زكاة العلم نشره»[٢٢٠]، فالإنفاق لا يخص المال وحده، بل يشمل كل ما يتوفر، من وجاهة، ونفوذ اجتماعي، وسلطة، ومال، وعلم.

ويستفاد أيضاً من قوله تعالى: ﴿ **سِرًّا وَعَلَانِيَةً**﴾، أنّ الله تبارك وتعالى لا يتدخل فقط بطبيعة الموقف أو طبيعة العمل، بل يتدخل حتى في كيفية العمل، فهناك أمور يجب إنفاقها في السر، وهي تقديم المساعدة لإنسان بطريقة لا تحرجه أمام الآخرين، وهي تقي صاحبها من أن يُصاب بالرياء، فيبقى أجرها ثابتاً له، ويجب أن يكون الإنفاق أحياناً بالعلن؛ لكي تُشجع الآخرين على فعل الخير ويأخذوا منك هذه الفكرة ويطبقوها، فينتشر ويشيع الخير، على قاعدة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٢٢١]. فإذا كان الأمر من هذا النوع، فيُحبذ أن يكون في العلَن.

السمة الثامنة: دفع السيئة بالحسنة

وهي قوله تعالى: ﴿**وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾، فالشخصية الرسالية تدفع السيئة بالحسنة، فإذا صدر منها فعل قبيح – والعياذ بالله– لا تكتفي بالندم أو التوبة أو الاستغفار فحسب، بل تعوض هذا الفعل الخاطئ بفعل خير، وكلما كان الخطأ كبيراً والذنب عظيماً، كان فعل الخير الذي يُقدمه للتعويض ولتطهير ومسح ذلك الخطأ أكبر وأعظم، فيتحول فعل الخير إلى منصة حقيقية لتطهير النفس والمجتمع، وقد يُفسر بتفسير آخر؛ هو أنّ الآخر إذا أساء إليك فلا تدفع إساءته بإساءة، ولا تبادله بالإساءة، بل بادله بالإحسان، فهذا المعنى قد يكون مقصوداً أيضاً في هذه الآية الشريفة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢٢٢]، حينما تُحسن للمسيئين لك، فهذا الإحسان يحوّل العداوة إلى صداقة، فمواجهة الإساءة بالإحسان شيء مهم.

---

٢٢٠ . عيون الحكم والمواعظ: ٢٧٦.

٢٢١ . المائدة: ٤٨.

٢٢٢ . فصلت: ٣٤.

قال معاذ بن جبل مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وآله: أوصني، فقال صلى الله عليه وآله: «وإذا عملت السيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية»[٢٢٣]، وهذه تُشير إلى المعنى الأول، فإذا اقترفت السيئة في السر، فافعل الحسنة إزاءها في السر أيضاً، فإن اقترفتها في العلانية، فاعمل الحسنة في العلانية أيضاً.

وورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصار: «عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شرَّه بالإنعام عليه»[٢٢٤]، وهي تُشير إلى المعنى الثاني، وطبعاً هذا في الجانب الأخلاقي للحكم، وهناك الجانب الشرعي، وهو أنّ للذنوب والمعاصي حدوداً، والحكم الأخلاقي لا يرفع الحد الشرعي.

أحياناً يكون الخط البياني للإنسان خطّاً إيجابياً، فهو يقوم بخطوات جيدة ويُشيع الخير، ولكن فجأة يأتي بهفوة تهدم كل الإحسان الذي بناه، وأحيانا بالعكس؛ أن يكون هناك رجل سيئ الصيت - والعياذ بالله- أخلاقه سيئة، وسلوكه سيئ، وحياته مليئة بالشر، وفجأة يكون له موقف يمحو جميع سيئاته، حتى قيل: إنّ الحياة موقف.

لاحظوا هذه المقارنة الغريبة بين الشمر بن ذي الجوشن، وكان من أصحاب الإمام علي عليه السلام، وقاتل معه في صفين، وكانت له سجدات طويلة ودعاء وتضرعٌ، فكانت حياة الشمر حياة فيها نصرة لأهل البيت عليهم السلام، ولكنه ختم هذه الحياة في يوم عاشوراء بأبشع المواقف فصار لعنة للعالمين، فالناس لا يذكرون عبادته وتضرعه إلى الله تعالى، وإنما يذكرون موقفه الأخير، كيف أساء لرسول الله صلى الله عليه وآله بهتك حرمة ذريته، وكيف استهدف الحسين عليه السلام.

وفي مقابل ذلك الحر بن يزيد الرياحي، فقد كان تأريخه في المعسكر المعادي، بعيداً عن أهل البيت عليهم السلام، وفي يوم عاشوراء وقبل أن يُستشهد الإمام الحسين عليه السلام بساعة انكشفت له الحقيقة، فقرر أن ينتقل من خندق

٢٢٣ . ميزان الحكمة ٤: ٣٥٣٧.

٢٢٤ . نهج البلاغة ٤: ٤١ الحكمة ١٥٨.

عبيد الله بن زياد إلى خندق الإمام الحسين عليه السلام ، وما إن انتقل حتى طلب البراز مباشرة ، وقاتل حتى استُشهد تحت راية الحسين عليه السلام ، فأصبح الجميع يذكر موقفه إلى جانب الحسين عليه السلام .

ثم يبشّر الله تبارك وتعالى أُولي الألباب الذين تجسدت بهم السمات الثمان ، بالعاقبة المحمودة ، فقال : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ، أي لهم السعادة الأبدية ، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ، الجنة هي السعادة الأبدية لهؤلاء ، فيدخلونها ويدخل معهم أيضاً ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ؛ لأنّ الإنسان الصالح يُشيع الصلاح حتى تكتمل السعادة في جنان الخلد ، ويحف بهم الملائكة ويتسابقون بإلقاء التحية عليهم ويهنئونهم بالجنة التي نالوها بصبرهم وثباتهم على الطاعة : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

هذه هي السمات التي يحددها القرآن الكريم في الشخصية الرسالية ، شخصية ذوي الألباب .

دور العلم بإيجاد البصيرة في الروايات

نستعرض بعض الروايات التي تشير إلى أنّ العلم يوجد البصيرة ويعمقها لدى الإنسان :

الرواية الأولى : الحديث القدسي المعروف بحديث المعراج ، الذي يخاطب به الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله ، فالخطاب الإلهي الذي يأتي في القرآن الكريم هو آية من الذكر الحكيم ، أما الخطاب الإلهي الذي ليس من القرآن الكريم فيُسمى الحديث القدسي . وهذا الحديث طويل جاء فيه :

(يا أحمد ، إنّ العبد إذا أجاع بطنه ، وحفظ لسانه ، علّمته الحكمة ، وإن كان كافراً ، تكون حكمته حجةٌ عليه ووبالاً ، وإن كان مؤمناً تكون حكمته له نوراً ، وبرهاناً ، وشفاءً ، ورحمةً ، فيعلم ما لم يكن يعلم ، ويبصر ما لم يكن يبصر . فأول ما أبصّره عيوب نفسه حتى يشتغل عن

عيوب غيره، وأبصّره دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان)[٢٢٥].

الرواية الثانية: ورد في خطبة لأمير المؤمنين علي عليه السلام: (أما بعد، فمنصتٌ سامعٌ لواعظ نفعه إنصاته، وصامتٌ ذو لُبٍّ شغل قلبه بالفكر بأمر الله حتى أبصر، فعرف فضل طاعته على معاصيه)[٢٢٦]، فالإنسان عندما تكون لديه بصيرة يعرف قيمة الطاعة لله سبحانه وتعالى، ويعرف الخطر المحدق الذي يصيب الإنسان نتيجة المعصية.

الرواية الثالثة: ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: (تفقهوا في دين الله، فإنّ الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة، والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملاً)[٢٢٧]، التفقه في الدين يجعل الإنسان في موقع القيام بواجباته ومسؤولياته الصحيحة، وأداء التكليف بشكل صحيح، وهو يؤدي إلى قبول الأعمال من الله سبحانه وتعالى.

إذن في جميع هذه الروايات التي استعرضناها، نلاحظ أنّ العلم عامل من عوامل تحقيق البصيرة في وجود الإنسان.

---

٢٢٥. مستدرك الوسائل ١٦: ٢١٨ ح١٣.

٢٢٦. بحار الأنوار ٧٥: ٢ ح٥٠.

٢٢٧. بحار الأنوار ١٠: ٢٤٧ ح١٣.

الرافد العاشر

الزهد بالدنيا والقناعة فيها

حينما يكون الإنسان زاهداً بالدنيا وقانعاً بنصيبه منها، فإنّ هذا الزهد والقناعة يحققان له البصيرة، وقد تحدّث القرآن الكريم والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كثيراً عن دور الزهد والقناعة في إيجاد البصيرة.

الزهد والقناعة في القرآن

لاحظوا هذا المقطع القرآني الرائع، وقد ورد في شأن نزول هذه الآيات أنها نزلت في المؤلَّفة قلوبُهم:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾[٢٢٨].

يستعرض هذا المقطع القرآني المقدس توجيهاً للمؤمنين، من خلال توجيه الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله، من باب (إياك أعني فاسمعي يا جارة)، كعادة القرآن الكريم في خطاب المؤمنين في بعض الأمور التي تتضمن نوعاً من الانتقاد والتوبيخ، وهو يعكس الأدب الإلهي

٢٢٨. الكهف: ٢٨ ٣١.

الرفيع في البناء والتقويم، وهو عُرفٌ متّبع عند بعض العقلاء من ذوي الخلق الرفيع في إيصال النقد إلى من يريدون انتقاده، من خلال توجيه الخطاب إلى أعز شخص فيهم وأقربهم إليه، فيوجه الكلام إليه مباشرة مع أنه يقصد غيره من الحاضرين.

وفي القرآن أمثلة كثيرة من هذا النوع من الخطاب، وهو ما أوقع البعض من ذوي الفهم السطحي والساذج للخطاب الإلهي، في الالتباس وسوء الفهم، وتصور أنّ مثل هذه الخطابات موجهة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهو المقصود بها، مع أنّ القرآن الكريم يصرح في آيات أُخرى بأنه صلى الله عليه وآله على خُلق عظيم، ومن البديهي أن صاحب هذا الخلق العظيم لا يمكن أن يصدر منه فعلٌ يتنافى مع هذه الدرجة من الخُلق. وقد تناول هذا المقطع الكريم ظاهرة مرَضيّة كانت تدب في أوصال مجتمع المسلمين، وكان من شأنها لو تُركتْ بدون علاج أن تهدّد وحدة الجماعة المؤمنة وسلامتها.

إنّ هذه الآيات الشريفة جاءت لتخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وتحذره من الاستجابة لنداء أولئك المشركين، من الأغنياء والوجهاء الذين اشترطوا عليه أن يبعد الفقراء والزهاد من حوله، لكي يأتوا ويجتمعوا معه، فجاء التحذير الإلهي من الاستجابة لذلك؛ لأنّ علاقة هؤلاء المستضعفين بالله عظيمة، ولذا يطلب سبحانه وتعالى منه ألاّ يتخلى عن قواعده الشعبية من الفقراء المخلصين الملتزمين بمشروع الرسالة، وألاّ يطيع هؤلاء الأثرياء من الناس الذين قلوبهم بعيدة عن ذكر الله سبحانه وتعالى، لأنّ القلب لا يجتمع فيه النور والظلمة، وذكر الله جل جلاله نور، والدنيا بلذاتها وشهواتها وميولها الخاطئة ظلمة، والنور والظلمة لا يجتمعان في محل واحد وفي زمان واحد، ولأنّ الإنسان كلما ابتعد عن ذكر الله تبارك وتعالى، وقع في الهوى والشهوات والرذائل والعياذ بالله، ومن يتبع هواه يقع في الإفراط والتفريط، ويوغل في الرذيلة، ويندفع نحو اللذات غير المشروعة والأفعال المنحرفة، ولا يقف عند حدّ ولا يشبع من الدنيا وملذاتها، حينما يكون أنانياً ويعتمد الدنيا في حركته وسلوكه.

قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ**

﴿وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: يا رسول الله، اصبر نفسك والتزم هؤلاء الفقراء وتمسك بهم، ونفهم من هذا الكلام حجم الضغوط التي كانت تمارس على رسول الله صلى الله عليه وآله، لكي يتخلى عن هذه القاعدة الشعبية ويذهب لمجالسة الأكابر، وكذلك نفهم من هذه الآية أنّ المعيار الحقيقي في قيمة الإنسان ليس الثروة ولا المَكَنَة ولا الوجاهة، بل معيار قيمة الإنسان هو قربه إلى الله سبحانه وتعالى وعلاقته به، وتوجهه نحوه، وعلى ضوء ذلك تكون للإنسان الإلهي قيمة كبيرة، بينما ذاك الآخر ليس له قيمة كهذه.

قوله تعالى: **﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾**: تأكيد لما تقدّم، أي يا رسول الله، هؤلاء قاعدة المؤمنين والمخلصين من الزهاد والفقراء، فلا تصرف عينيك عنهم، وتمسك بهم وارعهم.

قوله تعالى: **﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**: إذن فهذه الآية الشريفة ليست ضد كل غني ووجيه، وهي أيضاً لا تمنع من الإرشاد والوعظ والتواصل مع الأغنياء والوجهاء، إذا كانت هناك فرصة لاستمالتهم لطريق الحق.

قوله تعالى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾**: يا رسول الله، هؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا لا تطعهم، ولا تجلس معهم، وابتعد عنهم، لأنّ الغفلة عن ذكر الله عز وجل توجد اتّباع الهوى وترك اتّباع الله تبارك وتعالى وطاعته.

قوله تعالى: **﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾**: أي ما إن ينقطع الإنسان عن ذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه نحوه، حتى يكون عبداً لهواه، وشهواته، ونزواته، وميوله الخاصة.

قوله تعالى: **﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾**: وحين ذاك يتعامل بطريقة مفرطة، أي بإسراف وإيغال في الانحراف. إذن فالذي يغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى يصاب بالهوى، والهوى يؤدي إلى حالة الإفراط والإيغال والإسراف في الدنيا وشؤونها، فتكون النفس الإنسانية على مفترق طرق؛ إما مع الله، أو مع الهوى، ولا يمكن لهذين الطريقين أن يلتقيا، كما ورد ذلك في قوله

تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٢٢٩]، فعلى الإنسان أن يختار أحد هذين الطريقين.

إنّ الهوى والشهوات والميول الذاتية، تدق إسفيناً بين الإنسان ومكارم الأخلاق، فيصبح الإنسان أنانياً لا يفكر إلا في نفسه وماله وشهواته، ويطوّر تلك الوسائل المنحرفة والعياذ بالله، ويطلب المزيد منها حتى يصل الى حد الإفراط، وأما لو تحدثت أمامه عن التضحية والإيثار والعطاء والتعاون مع الآخرين والحرص على المصالح العامة وتحمّل هموم الأُمة، فسيقول لك: هذا كله كلام شعري، ولا يمكن له أن يفهمه أو يعيه، وهذه كلها مسائل لا يستطيع إدراكها مثل هذا الإنسان الذي يذهب في ذلك العالم.

إذن فالآية الكريمة تشير إلى أنّ الغفلة تستتبع الهوى، والهوى يستتبع الإفراط والإسراف والإيغال في الرذيلة وفي الدنيا. وطبعاً فإنّ السر في ذلك واضح؛ فالإنسان توّاق للكمال، وعندما يكون في طريق الخير يجد الكمال في الخير، ويحب الكمال في طاعة الله تبارك وتعالى، وكلما جاء بمصاديق أكثر للطاعة، اشتدّ اشتياقه اليها أكثر، وأما ذاك الذي يريد الهوى ويندفع نحو دنياه، فلا يقف عند حدٍّ أيضاً، ويرى الكمال في الانحراف، فحب الكمال يدفعه لطلب الزيادة في ما يراه كمالاً له في لحظة ما.

ونجد في هذه الآية الشريفة المقارنة اللافتة والرائعة بين المؤمن الفقير الزاهد القانع بالقليل من متاع الدنيا، الذي لديه الإيمان، ولديه البصيرة، ولديه الرؤية الواضحة، ويدافع عن الحق، وبين ذلك الوجيه الثري المتعجرف المتغطرس، البعيد عن الإيمان والتدين، المستكبر على الآخرين، والمستعلي عليهم، الذي يستنكف حتى من الجلوس مع الفقير، ويندفع نحو الهوى والشهوات، ويغالي فيها.

إذن فالزهد والقناعة توجدان البصيرة، وحالة الاستعلاء والرفاهية الكبيرة غير المقننة والمال غير الشرعي، توجد عمى القلب وعدم القدرة على التعاطي والتفاعل مع الحقيقة. فهذه الآية تشير بوضوح إلى أنّ الزهد يوجد البصيرة لدى الإنسان، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب من

٢٢٩. الشمس: ٨٧.

رسوله صلى الله عليه وآله أن يتمسك بهؤلاء الزاهدين الفقراء، ولا يتخلى عنهم.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن الطبقية في الإسلام، عن الغني والفقير، وهل يعترف الإسلام بالطبقية؟ وما رؤية الإسلام عن الطبقية؟.

مفهوم الطبقية في الإسلام

إنّ للإسلام مدخلاً مهماً في تفسير ظاهرة الطبقات الاجتماعية؛ فهو لا يفسرها على أساس اقتصادي، بل يفسرها على أساس مهني، فيقول هؤلاء طبقة المجاهدين، وهؤلاء طبقة رجال الأعمال، وهؤلاء طبقة شيوخ العشائر، وهؤلاء طبقة الأطباء، فالطبقات تكون على أساس المهن والواجبات والمسؤوليات الملقاة على عواتقهم، فهناك طبقة مهندسين، وطبقة أطباء، وطبقة محامين، وطبقة علماء، وطبقة رجال أعمال، وطبقة مجاهدين.. إلى غير ذلك، وهذه الطبقية على أساس المهن تعني حاجة كل طبقة إلى الطبقة الأُخرى، فكل فرد من أي طبقة يحتاج الى الآخر، وأي إنسان مهما كانت درجة أهميته في واجباته ومسؤولياته واختصاصه، يحتاج إلى المهمات الأُخرى، فالطبقية في الإسلام توجد حالة من الترابط والتماسك المجتمعي، وتشدّ المجتمع بعضه إلى البعض الآخر، لأنها ليست طبقية على أساس المال، أي أنها ليست طبقية اقتصادية؛ لأنّ الطبقية الاقتصادية يرى فيها بعض الأشخاص أنهم أفضل من الآخرين، وأعلى منهم، ولديهم مال أكثر منهم، وينتج من هذا أُمور:

أولاً: الحسد، إذ تظهر حالة من الحسد والغيرة والحقد إلى آخره.. توجد هذه الحالة من الفجوة بين الناس.

ثانياً: حالة من التدافع غير المشروع، فكل فرد يسعى للحصول على المزيد من المال كيفما كان، لكي يصبح في طبقة أعلى، وهذه أيضاً قضية خطيرة جداً.

لذلك نجد أنّ الإسلام يقدّم رؤية عميقة في الطبقية، تزيل هذا التدافع والاحتقان والشعور بالغبن عند الفقير، والشعور بالاستعلاء والكبر عند

الغنـي، وتقضـي علـى جميـع تداعياتهـا، وتوجـد حالـة مـن التكامـل بيـن الطبقـات الاجتماعيـة.

وقـد حدّثنـا القـرآن الكريـم عـن هـذه الظاهـرة نفسـها، فـي الآيـة الشـريفة الآتيـة التـي تتحـدّث عـن نـوح عليـه وعلـى نبينـا وآلـه السـلام: ﴿فَقَـالَ الْمَـلأُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا مِـنْ قَوْمِـهِ مَـا نَـرَاكَ إِلَّا بَشَـرًا مِثْلَنَـا وَمَـا نَـرَاكَ اتَّبَعَـكَ إِلَّا الَّذِيـنَ هُـمْ أَرَاذِلُنَـا﴾[٢٣٠]، هكـذا ينظـرون إلـى النـاس علـى أسـس طبقيـة، ولذلـك بنـى رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه مشـروعه العظيـم بهـؤلاء الفقـراء المؤمنيـن المخلصيـن، واعتمـد عليهـم، واسـتطاع أن يحـول ذلـك المجتمـع الجاهلـي إلـى مجتمـع عصـري مدنـي متطـور، حتـى نـزل فيهـم قولـه تعالـى: ﴿كُنْتُـمْ خَيْـرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ بِـاللَّهِ﴾[٢٣١]. وهكـذا اسـتطاع أن يوجـد هـذا التحـول العظيـم بهـذه القاعـدة الشـعبية المؤمنـة الفقيـرة الزاهـدة، إذ لـم يزهـد بهـا، بـل اعتـز بهـا لزهدهـا بالدنيـا وملذاتهـا.

قولـه تعالـى: ﴿**قُـلِ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّكُـمْ فَمَـن شَـاءَ فَلْيُؤْمِـن وَمَـن شَـاءَ فَلْيَكْفُـرْ**﴾: أي مـن يلتـزم بهـذا المشـروع ويقبـل علـى الله سـبحانه وتعالـى ويتوجـه نحـوه، فهـو الأقـرب إليـك، فمـا عليـك إلا أن تطـرح المشـروع الرسـالي، وهـذا المشـروع سـيتقوم بهـؤلاء الفقـراء وبهـذه القاعـدة الشـعبية.

قولـه تعالـى: ﴿**إِنَّـا أَعْتَدْنَـا لِلظَّالِمِيـنَ نَـاراً أَحَـاطَ بِهِـمْ سُـرَادِقُهَا**﴾: مـن يكفـر بهـذا المشـروع فليسـتعد للعـذاب الإلهـي وللنـار، وهـؤلاء الذيـن اسـتنكفوا أن يجلسـوا مـع الفقـراء والزهـاد ليسـتعدوا للنـار وعذابهـا الأليـم. والسـرادق: الخيمـة الكبيـرة، فهـذه النـار تحيـط بهـم كمـا يحيـط السـرادق بمـن فـي داخلـه.

قولـه تعالـى: ﴿**وَإِن يَسْـتَغِيثُوا يُغَاثُـوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْـلِ**﴾: المهـل هـو المعدن حينمـا يـذوب، أي حينمـا يشـتدّ بهـم العطـش يصرخـون ويرجـون ملائكـة العـذاب أن يسـقوهم شـربة مـن مـاء، فيأتونهـم بمـاء يغلـي مـن شـدة حرارتـه.

---

٢٣٠. هود: ٢٧.

٢٣١. آل عمران: ١١٠.

قوله تعالى: ﴿**يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾: أي يحرق وجوههم البخار الذي يتصاعد من ذلك الماء عندما يقربونه إلى أفواههم ليشربوه.

قوله تعالى: ﴿**بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً**﴾: أي بئس المقام والمقر لرفاق السوء. أيها المتعجرفون والانتهازيون، يا من ترون أنفسكم أفضل من الفقراء والمساكين وبسطاء الناس، يا من تترفعون عن الناس، يا من تضعون بينكم وبين الناس فواصل، اعلموا أنّ النتيجة هي: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ﴾.

انظروا لهذا الاقتران والتشبيه بين النشأة الدنيوية والنشأة الأُخروية في هذه الآية الشريفة، ولكن مع اختلاف المضمون والشدة في العذاب، وهذا ما نعبر عنه بـ(تجسيم الأعمال)، ففي الدار الآخرة تتجسم الأعمال للإنسان بما ينسجم مع سلوكه.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**﴾: هنيئاً لهم هذا المقر الطيب، يجالسون الصلحاء والمؤمنين، وأماكنهم فاخرة وعظيمة، هكذا تتجسد أعمالهم، وهكذا يجزون هذا الجزاء العظيم.

إذن، بناءً على هذه الآيات الشريفة، هنا صنفان من الناس؛ صنف الأغنياء المتعجرفين البعيدين عن الدين، وأما الإنسان الذي لديه إمكانات ويدفع ما عليه من الحقوق الشرعية، فإنّ الباقي حلال له، وليس هو مورداً للآية الشريفة، لأنها تتكلم عن أُناس مستكبرين ومتعجرفين يستنكفون أن يخالطوا الفقراء، فهؤلاء هم المذمومون في هذه الآية.

وهنا حينما يجري الحديث عن كل هذه النعم الإلهية، قد يقول قائل: لماذا هذه النعم مذمومة في الدنيا وممدوحة في الآخرة؟ لماذا تتغير الصورة في الآخرة؟ لماذا ليس هناك محذور من القصور والجنان والأنهار ولبس الأساور من الذهب ولبس الحرير؟. الجواب: أنّ كثيراً

من حالات الغنى والثراء في الدنيا يأتي من الاستحواذ على أموال الفقراء وسلب حقوقهم، والقليل من الناس يلتزم بالحكم الشرعي ويحلل الحلال ويحرم الحرام، وهذه الثروات الكبيرة تأتي في الأعم الأغلب بوسائل غير مشروعة، ولذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غني)[٢٣٢]، يعني أنّ هذا الغني سرق أموال الآخرين فأصبح غنياً، وأصبح هؤلاء فقراء، ولو قسمت الثروة بشكل صحيح لكان الجميع أغنياء ولم يكن هناك فقراء، ولقَلَّ التفاوت كثيراً بين الناس، وتشير الإحصاءات العالمية اليوم إلى أنّ نسبة مئوية ضئيلة جداً تستحوذ على نسبة كبيرة من ثروات هذه الدنيا، والأغلبية الساحقة من الناس في العالم يحصلون على النسبة القليلة من الثروة، وهذا التوزيع للثروات تنعدم فيه العدالة، ويقل فيه تكافؤ الفرص. وهذا الثراء الفاحش يأتي في حالات كثيرة بطرق غير مشروعة، فتنتج منها مشكلتان:

الأُولى: تولد احتجاجاً واعتراضاً من الأكثرية المحرومة، وتترك فجوة بين من يمتلك هذه الإمكانات وبين من يفقدها، وتوجد حالة من الحقد والحسد والانتقام.

الثانية: إنّ الرفاه والإمكانات والأموال والقصور – وإنْ كانت الوسائل مشروعة – تبعد الإنسان عن الله سبحانه وتعالى، وتخلق له أجواء بعيدة عن أجواء الطاعة والاندفاع نحو الله سبحانه وتعالى.

وهاتان المشكلتان الناتجتان من هذه النعم المادية في الدنيا، ترتفعان في الآخرة:

أما ارتفاع المشكلة الأُولى فسببه أن الآخرة نشأة واسعة، ولستَ وحدك من تمتلك فيها قصوراً وأنهاراً، بل جميع أهل الجنة لديهم قصور وأنهار وجميع النعم الأُخرى، فيمتنع حصول الحسد والحقد.

وأما ارتفاع المشكلة الثانية فسببه أنّ النشأة الأخروية في الجنان للمؤمن، فهي متوجهة نحو الله سبحانه وتعالى، وهذه اللذات لا تعيق هذا التوجه، فليس فيها تدافع ولا تكون عائقاً أمام سلوك الإنسان وتوجهه

٢٣٢. نهج البلاغة ٤: ٧٨ الحكمة ٣٢٨.

نحـو الله سـبحانه وتعالـى .

لذلـك نجـدِ هـذه النعـم تتوافـر بشـكل واسـع وكبيـر فـي تلـك الـدار وفـي تلـك النشـأة الاخرويـة .

إذن هنـاك الأعمـى البعيـد عـن التوجـه لله سـبحانه وتعالـى ، الـذي ليـس لـه بصيـرة فـي أمـره ، وهنـاك الصنـف الثانـي ، ويمثلـه البصيـر الـذي يزهـد فـي الدنيـا ، ويتقـرب إلـى الله سـبحانه وتعالـى ويتحمـل المسـؤولية تجـاه المشـروع الرسـالي ، وهـو علـى بصيـرة مـن أمـره .

الزهد بالدنيا في الروايات

نقـرأ بعـض الروايـات عـن رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه فـي الزهـد ودور الزهـد فـي تحقيـق البصيـرة :

الروايـة الأُولـى : قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه لأبـي ذر : (يـا أبـا ذر ، مـا زهـد عبـد فـي الدنيـا إلا أنبـت الله لـه الحكمـة فـي قلبـه ، وأنطـق بهـا لسـانه ، وبصّـره عيـوب الدنيـا وداءهـا ودواءهـا ، وأخرجـه منهـا سـالماً إلـى دار السـلام)[٢٣٣] ، أي أنّ الزاهـد فـي الدنيـا يعطيـه الله سـبحانه وتعالـى هـذه البصيـرة ، وتكـون لـه هـذه الآثـار العظيمـة .

الروايـة الثانيـة : عـن رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه أيضـاً قـال : (مـن يرغـب فـي الدنيـا فطـال فيهـا أملـه ، أعمـى الله قلبـه علـى قـدر رغبتـه فيهـا . ومـن زهـد فيهـا فقصـر فيهـا أملـه ، أعطـاه الله علمـاً بغيـر تعلّـم ، وهـدى بغيـر هدايـة ، وأذهـب عنـه العمـى وجعلـه بصيـراً)[٢٣٤] ، أي أنّ الزهـد يوجـد البصيـرة عنـد الإنسـان .

الروايـة الثالثـة : عـن أميـر المؤمنيـن علـي عليه السلام ، أنـه قـال فـي صفـة الزهـاد : (كانـوا قومـاً مـن أهـل الدنيـا وليسـوا مـن أهلهـا ، فكانـوا كمـن ليـس منهـا ، عملـوا فيهـا بمـا يبصـرون ، وبـادروا فيهـا مـا يحـذرون ، تتقلـب أبدانهـم بيـن ظهرانـي أهـل الآخـرة وهـم فـي الدنيـا ، يـرون أهـل الدنيـا

٢٣٣ . بحار الأنوار ٧٤ : ٨٠ ، قطعة من ح٣ .

٢٣٤ . بحار الأنوار ٧٤ : ١٦٣ ، ح١٨٧ .

يعظمون موت أجسادهم وهم أشد إعظاماً لموت قلوب أحبائهم)[٢٣٥].

الرواية الرابعة: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال في حديث له: (فأحسن الظن بالله، فإنّ أبا عبد الله عليه السلام كان يقول: من حَسُن ظنه بالله كان الله عند ظنه به، ومن رضي بالقليل من الرزق قبل منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته، ونعم أهله، وبصّره الله داء الدنيا ودواءها)[٢٣٦]. إذن فالزهد مدخل آخر وعامل آخر من عوامل البصيرة.

٢٣٥ . نهج البلاغة ٢: ٢٢٥ الخطبة ٢٣٠ .

٢٣٦ . وسائل الشيعة ١٥: ٢٢٩ ب١٦ من أبواب جهاد النفس، ح٢ .

الرافد الحادي عشر

كمال الإنسان

العامل الحادي عشر من عوامل البصيرة ، وهي العناصر التي تعزز وتعمق البصيرة في وجود الإنسان ، هو كمال الإنسان وإنسانية الإنسان ، فالإنسان حينما تتكامل ملامح شخصيته الإنسانية في بعدها القيمي ، وفي بعدها الرسالي ، يحصل على البصيرة ، وكلما ابتعد عن إنسانيته وانحرف في اتجاهات أُخرى ، فقد البصيرة ، فالمعيار والعنصر الذي يعزز البصيرة في وجود الإنسان هو حالة الكمال واستكمال ملامح الشخصية ، وتعزيز عناصر الإنسانية في الإنسان ، ففي الإنسان بُعدٌ ماديٌّ ؛ إذ يأكل ويشرب وينام ويتنفس ويمارس أعمالاً إنسانية مادية ، وهو في ذلك يشترك مع غيره من الكائنات الحية كالحيوانات ، فالحيوان أيضاً يأكل ويشرب وينام ويزاول بعض الأعمال والأنشطة الحياتية ، ولكن ما يميز الإنسان عن غيره من الحيوانات هو إنسانيته ، وهذه الملامح المهمة في شخصيته ، وحينما تتعمق هذه الملامح يحصل على البصيرة ويكون من أهل البصائر .

كمال الإنسان في القرآن

هناك شواهد عدة في القرآن الكريم على أثر البصيرة في المسار التكاملي للإنسان نشير إلى بعضها .

منها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢٣٧] .

---

٢٣٧ . غافر: ٥٦ ٥٨ .

يشير هذا المقطع القرآني الكريم إلى اثنين من الأمراض الاجتماعية والمشاكل التي تواجهنا في كل مجتمع: الأول: هو مرض الجدال، والمرض الآخر: حالة التبعية العمياء، أي يطيع – بدون قيد أو شرط – الشخص أو الجهة التي يرتبط بها في كل ما تقول، وهذه التبعية العمياء هي مرض كالتشكيك والمجادلة في كل شيء، والشيء المتزن والصحيح هو حالة الموضوعية والمصداقية، فالإنسان الذي ينتصر للحقيقة يبدي رأياً ويناقشه الآخر، فينظر هل نقاشه صحيح فيتنازل عن رأيه ويعتذر، أو يرى نقاشه خطأ فيتصلب في رأيه، فعليه أن يكون موضوعياً ولا ينتصر لذاته، ولا تكون عنده عقدة وأزمة ثقة بنفسه فينتصر للآخر بكل شيء، بل ينتصر للحقيقة، فيتمسك برأيه تمسكاً بالحقيقة، لا تمسكاً برأيه لأنه رأيه، وإن كان الحق عند غيره يتمسك بالحقيقة ويقف مع الغير ويتنازل عن رأيه الشخصي ويتراجع، وهذه هي الموضوعية والمصداقية والانتصار للحقيقة، وهذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن يكون، ولذلك قالوا: الاعتراف بالخطأ فضيلة، لأنه مهما كانت التبريرات والأدلة غير الواقعية فلن تجعل الباطل حقاً، والخطأ هو صحيحاً، بل سيكون ذلك إيغالا في الخطأ وتضليلا للنفس وللآخرين.

﴿**إِنَّ الَّذِيَن يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ**﴾، هناك طائفة من الناس تنحصر كل خصوماتهم وجدالهم ونقاشهم في آيات الله سبحانه وتعالى، وفي ما أنزله الله على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله، فيجادلون في آيات الله عز وجل ويسخرون منها ويشككون فيها بغير سلطان أتاهم، أي من دون أن يكون لديهم دليل وبرهان وحجة.

﴿**إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾: يحلل القرآن الكريم ظاهرة الجدال والنقاش بالباطل بلا دليل، والاعتراض على كل شيء لا ينسجم مع أهوائهم ورغباتهم، ويعزو ذلك إلى التكبر، الأنانية، النرجسية، الاعتداد بالذات، حب الذات، على حساب كل قيمة وكل حقيقة. فالإنسان حينما يتكبر، ويستعلي، ويتعجرف، لا يقبل أي حقيقة، إذ الأناني لا يحترم أي قناعة تتقاطع مع قناعته، وأي فكر يتعارض مع فكره، وأي رؤية تخالف رؤيته، فلا يقبل ذلك ويعترض عليه.

إن الكبر والأنانية والغرور تولّد الحسد، فلذلك يقول القرآن الكريم: إنّ هؤلاء الذين يجادلون بغير سلطان أتاهم متكبرون، والمتكبر حاسد، فهم حسّاد أيضاً، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ﴾، واستخدام (إنْ) في الآية الشريفة إشارة إلى هذا الدور الحصري والنوعي للتكبر والاستعلاء في الوصول إلى حالة المجادلة والنقاش والرفض لكل حقيقة؛ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، هكذا يؤثر التكبر في صدورهم، والصدر هو: القلب والعقل والنفس. ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾، يا مرضى النفوس والعقول، ويا من تشككون وتعترضون على كل شيء، ويا من لا تتقبلون أي حقيقة، اعلموا أنكم ستفشلون في تحقيق ما تطمحون إليه، ولن تسود شخوصكم، فلا الشخص يصمد ولا الفكرة تصمد، وهكذا يقرر القرآن الكريم هذه النتيجة والسنة الإلهية؛ وهي أنه ينبغي ألاّ يتصور مشكك فرح قد اتهم الآخرين في لحظة ما وأخذت التهمة مدياتها، أن الأمور انتهت وأنّ كل شيء على ما يرام، كلا لم تنته بعد، وإنّ أمامه مشواراً طويلاً وجولات كثيرة عليه أن يتجرع غصص هزيمتها النكراء.

﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾: الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن بوصفه الرسالي، أي من موقعه كرسول، إذن فهي تشمل جميع المتصدين للمهمة الرسالية، وكل من يتصدى للخدمة العامة ضمن المعايير الصحيحة. ﴿اسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ خطاب من الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله، ومن خلال الرسول يخاطب المتصدين ويقول لهم: إنّ الحل هو أن تدافعوا عن أنفسكم وتشرحوا الحقيقة وتوضحوا الأمور، وتبينوا الحق من الباطل، ولكنكم مع ذلك لن تستطيعوا بهذه الإمكانات، مهما بذلتم من جهد، تصحيح هذه الانطباعات بالاعتماد على أنفسكم، إذن ماذا ينبغي أن يفعلوا بالإضافة إلى ذلك؟ الجواب: ﴿اسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، يعني أيها المصلح، أيها المخلص، يا من تقدم جهداً رسالياً، يا من تقوم بواجباتك والناس لا تتفهم: استعذ بالله سبحانه وتعالى، فهو كفيل بأن يصحح الأمور وأن يدافع عنكم، كما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢٣٨].

٢٣٨. الحج: ٣٨.

انظروا إلى إمامكم علي بن أبي طالب عليه السلام كيف كان يُسب على منابر المسلمين عشرات السنين[٢٣٩]، وفي حياته مظلومية تعرفونها بالتفصيل، حتى انّه عليه السلام عندما قُتل في محراب صلاته، وانتشر الخبر في الشام أنّ علياً قُتل في محراب صلاته، قال أهل الشام: وهل كان علي بن أبي طالب يصلي حتى يُقتل في محراب صلاته؟. وظلّوا يسبّون علياً عليه السلام على المنابر عشرات السنين، وكان من تمام صلاة الجمعة وخطبة الجمعة أن يُسب علي عليه السلام.

ومثال آخر، أن الحسين بن علي عليهما السلام قالوا عنه: باغ خرج على إمام زمانه[٢٤٠]، هكذا فسّروا الثورة الحسينية.

﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾، أي أنّ الله تبارك وتعالى ينصرك على جميع هؤلاء.

﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾: فالله سبحانه وتعالى يسمع كلمات المرجفين والمبطلين والمجادلين، وهو بصير بأعمالهم السيئة.

الاستعاذة بالله سبيل المصلحين

وهذه الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى نجدها في القرآن الكريم عندما يحدثنا عن الأنبياء والمرسلين، فكانت سمة لكل المخلصين والمصلحين الذين ساروا على طريق الهداية، فكانوا دائماً يستعيذون بالله سبحانه وتعالى.

كما ورد ذلك في قصة يوسف عليه وعلى نبينا وآله السلام، في قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . . . ﴾[٢٤١].

﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾: أي عرضت زليخا نفسها على يوسف، وطلبت منه الرذيلة واقترحت عليه أن يقوم بالمعصية.

---

٢٣٩. الغارات ٢: ٨٤٣.

٢٤٠. انظر: نيل الأوطار للشوكاني ٧: ٣٦٢.

٢٤١. يوسف: ٢٣ ٢٤.

﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾: أي وفرت له مناخ المعصية.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: أي أقدم على المعصية، فالأبواب مغلقة، والأجواء مهيأة، وهذه المرأة الحسناء هي التي تعرض نفسها عليك، ولكنه (قَالَ مَعَاذَ اللّهِ): أي عندما رأى تحدياً كبيراً وخطيراً تعوّذ بالله جل جلاله.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ...﴾: انظروا إلى آثار التوكل على الله سبحانه وتعالى، وانظروا إلى تأثير الاستعاذة بالله عز وجل. فقد (رأى برهان ربه)، وحصل على المناعة من الوقوع في الحرام، وأصبحت لديه حصانة من الذنب والمعصية.

وكذلك لجأ موسى عليه وعلى نبينا وآله السلام إلى الاستعاذة بالله تبارك وتعالى عندما واجه التهديد على حياته من قبل أعداء الله، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[٢٤٢]، والمتكبر يعني المجادل، وقد استشهد الإمام الحسين عليه السلام بهذه الآية في يوم عاشوراء حينما خاطب جيش يزيد، وهذا يؤكد أنّ هذا هو موقف جميع القادة الرساليين والمصلحين، فاعلم أيها المتصدي من موقع رسالي أنّ هناك من سيقف بوجهك ويشكك فيك وفي مواقفك، واعلم أنّ الطريق الى الدفاع عن نفسك ومشروعك يكمن في الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يشير القرآن الكريم هنا إلى سبب آخر من أسباب الجَدال والنقاش العقيم وهو الجهل، فجهل الإنسان يدفعه إلى النقاش والاعتراض والتشكيك والاستهانة بكل شيء؛ لأنّ الكبر والجهل متلازمان، والجهل هو الذي يسبب حالة الكبر والاستعلاء عند الإنسان.

ثم يأتي الاستنتاج وهو الشاهد في هذا المقطع القرآني لما نريد الوصول إليه وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ

٢٤٢. غافر: ٢٧.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾: انظروا الى هذه المقارنة، فالمصلح الذي لديه بصيرة لا يتساوى مع المسيء، والمتكبر الجاهل المجادل بغير حق هو أعمى، فلا يتساوى مع البصير، إذن من كان إنساناً متكاملَ الشخصية، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيمنحه البصيرة، فإياك أن تكون مجادلاً بغير دليل ولا برهان، فإنك سوف تبتلى بالكبر والغرور والجهل، ويجعلك ذلك أعمى القلب، فاقداً للبصيرة، ولهذا تؤكد هذه الآية أنّ الشخصية الإنسانية المستقيمة هي التي تمنح الإنسان البصيرة.

كمال الإنسان في الروايات

نذكر هنا رواية واحدة في هذا السياق، يرويها العلامة المجلسي في كتاب (بحار الأنوار)، عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، قال: «خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها. وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين. وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله»[٢٤٣].

يستعير رسول الله صلى الله عليه وآله هنا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢٤٤]، وما جاء في قوله تعالى أيضاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢٤٥]، ولهذا نرى أن الإنسان حينما يخرج عن إنسانيته يتحول إلى حيوان، وحينما يعود لإنسانيته يحصل على البصيرة، إذن فالاتصاف بالإنسانية يحقق البصيرة عند الإنسان.

٢٤٣. بحار الأنوار ٦٠: ٢٩٢.

٢٤٤. الأعراف: ١٧٩.

٢٤٥. الفرقان: ٤٤.

الرافد الثاني عشر

إقبال القلب

العامل الأخير من عوامل تحقيق البصيرة وإيجادها عند الإنسان هو إقبال القلب ، وهو يُعمق ويُعزز البصيرة في وجود الإنسان .

إقبال القلب في القرآن

هناك شواهد في القرآن الكريم على أنّ إقبال قلب الإنسان نحو الله تبارك وتعالى ومشروعه الرسالي يوجد عنده البصيرة .

منها : قوله تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾[٢٤٦] .

ذكر المفسرون في شأن نزول هذه الآية ، أنّها نزلت في عمار بن ياسر وأبيه وأمه سمية ، وصهيب وخباب وعدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذين اعتقلهم المشركون وعذبوهم عذاباً شديداً ، فاستشهد ياسر وسمية تحت التعذيب ولم ينطقا بكلمة الكفر ، وأما عمار فقد صدرت منه كلمات في مديح أوثانهم ، فخلوا سبيله ، وجاء باكياً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره بما تفوه به ، فنزلت هذه الآيات الكريمة ، وقد طمأنه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الخطوة التي اتخذها كانت خطوة صحيحة .

قوله تعالى : ﴿**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ : المسلم إذا ارتدَّ عن إسلامه وصدر منه كلام الكفر ، فهذا يمكن أن يكون على نحوين :

---

٢٤٦ . النحل : ١٠٦ ١٠٩ .

النحـو الأول: يصـدر منـه هـذا الـكلام نتيجـة الضغـوط، والتعذيـب، والتنكيـل، والإكـراه، فيتلفـظ بكلمـات ولكنـه لا يقصدهـا، وقلبـه ملـيء بالإيمـان، فهـذا لا شـيء عليه وعملـه صحيح، ولا يعتبر مرتداً عن الإسـلام.

النحـو الثانـي: مـن ينشـرح صـدره للكفـر، ويعـود إلـى معسـكر الكفـر حينمـا تتقاطـع مصالحـه الخاصـة مـع القيمـة الرسـالية، والمبـدأ، والمشـروع الـذي تمسـك بـه، فيعتبـر مرتـداً عـن الإسـلام.

قولـه تعالـى: ﴿**ذَلِـكَ بِأَنَّهُـمُ اسْـتَحَبُّواْ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَـا عَلَـى الآخِـرَةِ**﴾: فيرجـح الحيـاة الدنيـا ومصالحـه الخاصـة علـى الآخـرة، علـى قيمـه الرسـالية، علـى المبـدأ، علـى المشـروع الرسـالي.

قولـه تعالـى: ﴿**أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللّهُ عَلَـى قُلُوبِهِمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُـمُ الْغَافِلُـونَ**﴾: هـؤلاء الذيـن أُصيبـوا بالغفلـة، وتخلـوا عـن ذكـر الله والتوجـه نحـو الله، ولـم تُقبـل قلوبهـم نحـو الله سـبحانه وتعالـى، وإنمـا أُصيبـوا بالاندفـاع، والانغمـاس فـي الدنيـا والأنانيـات والمصالـح الخاصـة، هـؤلاء طبـع الله علـى قلوبهـم وسـمعهم وأبصارهـم، ففقـدوا البصيـرة ووقعـوا فـي الغفلـة.

إذن إقبـال القلـب يوجـد حالـة البصيـرة، وإدبـار القلـب وانغماسـه فـي الدنيـا يوجـدان حالـة الغفلـة وعمـى القلـب، فالإنسـان يسـمع ولكنـه لا يعـي، ويُبصـر ولكنـه يفقـد البصيـرة، فالعيـن تنظـر ولكـن القلـب أعمـى لا ينفتـح علـى الحقيقـة.

قولـه تعالـى: ﴿**لاَ جَـرَمَ أَنَّهُـمْ فِـي الآخِـرَةِ هُـمُ الْخَاسِـرونَ**﴾: هـذه هـي الخسـارة بعينهـا، وهـي أن يكـون الإنسـان أمـام فرصـة للسـعادة، فيفقـد هـذه الفرصـة ويُصـاب بـداء الغفلـة وعمـى القلـب.

التقية منهج قرآني وإنساني

إن قولـه تعالـى: ﴿**إِلاَّ مَـنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِـنٌّ بِالإِيمَـانِ**﴾، مـن الأدلـة التـي يُسـتدل بهـا علـى موضـوع التقيـة، لأنّ التقيـة هـي إخفـاء جـزء مـن العقيدة، جـزء مـن التفاصيـل، جـزء مـن المواقـف الفقهيـة، جـزء مـن الشـعائر، حينمـا

يكـون الإنسـان مسـتهدفاً، بنفسـه أو مالـه أو عرضـه، ويتعـرض للخطـر إذا مـا عُـرف أنـه ينتمـي إلـى مدرسـة أهـل البيـت عليهم السلام، ويتعـرض لـلأذى، فحينـذاك يُخفَـي هـذه الهويـة لكـي يحافـظ علـى نفسـه.

وهـذه الآيـة الشـريفة تـدل علـى منهـج قرآنـي، وهـو منهـجٌ إنسـاني أيضـاً، فـإنّ أي إنسـانٍ مـن أي ديانـةٍ، إذا تعـرض إلـى التعذيـب، وإذا تعـرض إلـى الخطـر والضـرر، فإنـه يخفـي حقيقـة معتقـده ليحافـظ علـى نفسـه، وحتـى أُولئـك الذيـن يعيبـون علينـا، يمارسـون هـذه التقيـة حينمـا يتعرضـون للخطـر، فهـو منهـج قرآنـي ومنهـج إنسـاني.

ومـن اللافـت، ومـما يُثيـر الاسـتغراب، أنّ أُولئـك الذيـن عابـوا علينـا اعتمادنـا مبـدأ التقيـة، هـم أنفسـهم أخـذوا بنصـوص وروايـات تُدلـل علـى ضـرورة مهادنـة الحاكـم الظالـم ومسـايرته، ووجـوب طاعتـه، بـراً كان أو فاجـراً، فجعلـوا التقيـة مبـدأً اعتياديـاً وثابتـاً اعتمـدوه فـي حياتهـم، وليـس للضـرورة فقـط؛ أي عندمـا يتعـرض الإنسـان للخطـر أو الضـرر فيُخفـي جانبـاً مـن الحقيقـة ليحافـظ علـى نفسـه، وعلـى الجماعـة، وعلـى العقيـدة، أمـا أُولئـك فقـد ذهبـوا إلـى التقيـة حتـى مـع عـدم وجـود الضـرر، فيعيبـون علينـا التزامنـا بمبـدأ التقيـة، وهـم يُمارسـونها فـي نطـاقٍ أوسـع ممـا نمارسـه.

والسـؤال الكبيـر الـذي يُطـرح بشـأن التقيـة: لمـاذا نعتمد مبـدأ التقيـة؟ ولماذا نلتـزم نحـن أتبـاع أهـل البيـت سـلام الله عليهـم هـذا المنهـج؟. لكـي نُجيـب عن ذلـك علينـا أن نعـرف خياراتنـا؛ مـا هـي خياراتنـا فـي ظـرف الظلـم، والطغيـان، والاسـتبداد، والإرهـاب، والتطـرف، والقمـع، حينمـا يقتـل الإنسـان لأنـه مـن أتبـاع أهـل البيـت عليهم السلام؟.

الجواب: أنّ أمامنا ثلاثة خيارات، نستعرضها ونناقشها في ما يلي:

الخيـار الأول: خيـار العزلـة عـن المجتمـع الإسـلامي، عـن سـائر المسـلمين، مـا دامـوا لا يسـتهدفوننا، ويقتلوننـا، ويسـفهون عقيدتنـا، ويسـخفون آراءنـا، ففـي هـذه الحالـة يكـون الأفضـل أن ننعـزل، وننكفـئ عـن أنفسـنا فـلا نحتـك بأحـد؛ لأنّ الظالـم يلاحـق النـاس ويقتلهـم علـى الظـن والتهمـة، وكل مـن يتبـع أهـل البيـت عليهم السلام يتعـرض للقتـل، وبعزلتنـا نكـون بمأمـن مـن هـذا السـلطان الظالـم.

وقد عمل بهذا الخيار رهبان المسيحية أيضاً، كما حدّثنا بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢٤٧]، والرهبانية هي اعتزال النساء، فقالوا لا نتزوج، وبالغوا في العبادة. وهم الذين اخترعوها وأوجدوها ولم يفرضها الله تبارك وتعالى عليهم، فهي إذن ليست منهجاً رسالياً، وليست منهجاً ربانياً، ولكن الله سبحانه وتعالى أقرهم عليها، من أجل الحصول على رضوانه تعالى، فلم يرعوها حق رعايتها كما ينبغي، وأخذوا يتنصلون منها ويتسللون لواذاً، إلا القليل منهم كانوا مخلصين وصادقين في ما فرضوه على أنفسهم والتزموا به، فآتاهم أجرهم، ولكن أكثر الباقين كانوا فاسقين، وهم الذين خالفوا رسالة السماء وأُصيبوا بالانحراف، هكذا يُقوّم القرآن الكريم هذا المشهد.

إن خيار العزلة مرفوض من وجهة نظر أهل البيت عليهم السلام، للأسباب التالية:

السبب الأول: عدم إمكانية اعتماد منهج العزلة والانعزال عن المجتمع، لأنه ليس خياراً عملياً أن نترك الناس والمجتمع، ونترك مصالحنا وننعزل بعيداً عن كل ما تتقوم به الحياة، وستتعطل الحياة وتندثر المجتمعات، وهو أمر يعارض الفطرة الإنسانية القاضية باستمرار النوع الإنساني كما يريد الله تبارك وتعالى ذلك.

السبب الثاني: تعرض أتباع أهل البيت عليهم السلام إلى خطر الانحراف والضلال، فالجماعة المنعزلة حينما تبتعد عن مراكز الهدى ومراكز المعرفة، تتفشى فيها ظاهرة الاجتهاد بالرأي والبدع، وهذا ما أصاب المدارس الباطنية عموماً.

فالملاحظ أنّ المدارس الباطنية التي تبتعد وتنعزل، يدب فيها الانحراف شيئاً فشيئاً، وإن بقي الجيل الأول أو الرعيل الأول متمسكاً بالعلم والمعرفة،

٢٤٧. الحديد: ٢٧.

ولكن عندما يأتي الجيل الثاني والجيل الثالث، يكون كل جيل أضعف من سابقه، وهكذا تُرقّق المبادئ والافكار والعقائد وتضيع وتصاب الجماعة بالانحراف. إذن فهذا الخيار يُعرض أتباع أهل البيت إلى خطر الانحراف والضلال والضياع الفكري والعقيدي.

السبب الثالث: لقد اعتمد أئمة أهل البيت عليهم السلام سياسة تقوم بشكل أساس على الانفتاح، والتعايش، والتواصل، والإنسجام مع سائر المسلمين، والاندكاك مع المسلمين من المذاهب الأخرى، فمنهج أهل البيت عليهم السلام هو الانفتاح، ولذلك كانوا يشدّدون على حضور مجالس الآخرين، وجنائزهم، والصلاة في مساجدهم، ويؤكد ذلك وجود كمٍّ كبير من الروايات التي تحث أتباع أهل البيت عليهم السلام، على الحضور بين أبناء المجتمع الإسلامي من المذاهب الأخرى آنذاك، فهناك توصية بالاندماج، والتعايش، والتواصل مع هذه الجماعات الواسعة، وخيار العزلة يُعارض هذه السياسة الإستراتيجية لأئمة أهل البيت سلام الله عليهم.

السبب الرابع: إنّ جماعة أهل البيت عليهم السلام ليس همّها نفسها فقط، لأنّ الأهداف التي وضعت لهم من قبل أئمتهم صلوات الله عليهم، تتضمن تحميلهم المسؤولية تجاه المجتمع الإسلامي، وتجاه الأمة الإسلامية، وأن يكونوا حاضرين ومؤثرين في هذه الأمة، وأن يكونوا قدوةً صالحة، وأنه إذا كان هناك واحد في العشيرة من أتباع أهل البيت، فيجب أن يُشار له بالبنان ويُقال: هذا من شيعة جعفر، رحم الله جعفرا، انظروا إلى سلوكه، إلى أخلاقه، إلى أمانته، إلى صدقه، إلى سعة صدره، إلى تعامله مع الآخرين.

إذن أُريد لجماعة أهل البيت أن يكونوا في موضع القدوة والتأثير وتقديم النموذج الصالح للإنسان المسلم الواعي الملتزم، وأن يُمارسوا الدور التوعوي بين أبناء الأمة الإسلامية، وأن يلتزموا بمواقف مبدئية لكي يُكرسوها ويُقننوها في ذلك المجتمع، وخيار العزلة يتقاطع مع هذا الدور المهم في التأثير في المجتمع الإسلامي.

ولهذه الأسباب الأربعة، فإنّ خيار العزلة ليس خياراً وارداً، وليس خياراً ممكناً، وليس خياراً صحيحاً، وهو مرفوض من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الخيار الثاني: خيار المواجهة، وذلك بأن ننزل بعقيدتنا بكامل تفاصيلها، وشعائرنا، وآرائنا الفقهية، ومتبنياتنا العقيدية، ونطرحها بوضوح من غير تراجع، ونمضي على بركة الله سبحانه وتعالى وليكن ما يكون، هذا هو المنهج.

وقد يقول قائل: من قال إننا سنصطدم بالآخرين بمجرد أن نذكر ونبين عقائدنا وشعائرنا؟.

والجواب: أنّ الذي قال ذلك هو حجم الاحتقان الروحي والسياسي الذي عاشه المجتمع الإسلامي في تأريخه الطويل، مما جعل المسائل لا يُنظر لها على أنها تنوع فكري وعقيدي، فالمسلم من المذاهب الأخرى لا يتحسس من طقوس المسيحي واليهودي والإيزيدي والصابئي، وهو لا يتحسس أيضاً من طقوس المذاهب الإسلامية الاخرى التي تختلف مع ما يمارسه من طقوس، كالزيدية والاسماعيلية والعلوية والصوفية، ويراها شيئاً واحداً في الإطار العام، ولكنه يتحسس من أتباع أهل البيت.

فلماذا يتحمل الاختلافات مع الطوائف والديانات الأُخرى، ولا يتحمل الاختلاف مع أتباع أهل البيت؟ والجواب: لأنّ في هذه القضية تجييشاً وتعبئة نفسية وروحية مضادة، فهناك من ترتبط مصالحهم بهذا الخلاف المذهبي، وإثارة النعرات الطائفية، وإيجاد الوقيعة بين الناس، هكذا الحال بالنسبة للبعض. إذن فإن قضية التجييش الطائفي والتعبئة الروحية والعقائدية المضادة جعلت الآخر لا يتحمل الخلاف، فذكر كل التفاصيل في الأجواء الموتورة المحتقنة يؤدي إلى الصدام والمواجهة بشكل طبيعي، حتى وصل التعصب والتطرف إلى مستوى يُبرر استخدام العنف والممارسات الإرهابية والطائفية بحق أتباع أهل البيت، لمجرد الاختلاف معهم في الرأي، فيُذبحون على الهوية بحجة أنهم روافض، ونرى أنّ هناك تعاطفاً مع هذا المبدأ في ظل هذه الأجواء المتطرفة. إذن فخيار المواجهة مرفوض أيضاً من أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، للأسباب التالية:

أولاً: إنه يتقاطع مع السياسة الإستراتيجية بالتعايش، والانفتاح، والاندكاك، ولعب الأدوار المهمة والحيوية داخل الأُمة الإسلامية وداخل

المجتمع الإسلامي، وهذا الخيار يضر بسياسة التعايش. والجو العام لأتباع أهل البيت، ومرجعياتهم، وعلمائهم، وعلية القوم، ومثقفيهم، وأكابرهم، هو جو وحدوي تقريبي، يُريد الوئام، ويُريد المحبة، ويُريد الانسجام، وينبذ الطائفية، وينبذ التجييش المقيت، ولكن نجد أيضاً أشخاصاً في بعض الفضائيات في اتجاه أتباع أهل البيت، يعبرون عن آراء شخصية وليس عن آراء المذهب، وقد أصدر المراجع بياناً أدانوا فيه هذه الأفكار والآراء وقالوا: هؤلاء لا يمثلوننا.

إذن فمنهج الصدام والخصومة الطائفية والمذهبية يأخذنا إلى المجهول، إذ يُفقد جماعة أهل البيت رسالتهم، وهدفهم، وروحيتهم، وأخلاقيتهم، والإستراتيجيات التي رسمها أئمة أهل البيت لهم.

ثانياً: إنّ الذي يجعل هذا الخيار مرفوضاً من أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، هو أنّ هذا المنهج يُضر بشكل كبير بجماعة أهل البيت، ويُضر بجماعة المسلمين الآخرين أيضاً، فإنّ هذا الخطاب الموتور يجعل جماعة أهل البيت موتورين، وفي مرمى السهام دائماً، ومتهمين في عقيدتهم، ومتهمين في سلوكهم، ومتهمين في متبنياتهم، ومتهمين في شعائرهم، ويُنظر لهم وكأنهم أُناس منحرفون، بينما هم يُمثلون قمة الفهم الإسلامي الناصع. فهذا المنهج إذن يسبب أضراراً كبيرة لجماعة أهل البيت من ناحية، ويسبب إضراراً لجماعة المسلمين من ناحية أخرى.

إن وجود هذا الشد الطائفي داخل الأُمة الإسلامية يُضيع الكثير من الفرص، في حين يجب أن تكون طاقات الأمة الإسلامية الفكرية وإمكاناتها اللوجستية كلها متوجهة نحو العدو، عدو المسلمين وعدو الأُمة، والحيلولة دون تحول هذه الجهود الى نيل بعضهم من البعض الآخر، سواء على مستوى الكتب والمنشورات، أو الفضائيات.

ربما كنا في وقت من الأوقات ننظّر لهذا الكلام، وأما اليوم فلا نحتاج إلى هذا التنظير؛ لأننا نراه في يوميات حياتنا، فانظروا إلى هذا التجييش الطائفي الى أين أخذ العراق والمنطقة؟ وكم مليار دولار تُصرف في السنة الواحدة فقط على السلاح لهذه الجبهة أو تلك؟ مع أنّ هذا مسلم وذاك

مسلم أيضاً، وهذه أموال المسلمين، وتلك أموال المسلمين أيضاً، وكم من الناس يُقتلون من الجبهتين وهم مسلمون؟.

نرى بعض التصريحات لقيادات الكيان الصهيوني تقول: يجب أن نمنع الأسد من الانتصار في هذه المعركة، وفي الوقت نفسه يجب أن نمنعه من الانهيار في هذه المعركة، فهم يُريدون استمرار القتال بيننا، واستنزاف جميع طاقات وإمكانات الأمة الإسلامية، هذا هو منطق الأعداء اليوم، وهذا ما يحصل اليوم مع الأسف الشديد.

إذن فإن خيار المواجهة ليس خياراً مطروحاً، وهو خيار مرفوض من أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، فلم يبقَ أمامنا إلاّ الخيار الثالث.

الخيار الثالث: خيار التقية، أي أن نبقى حاضرين بقوة، ونتواصل، ونتعايش، ونتكامل، وننسجم مع سائر المسلمين، ونتحرك ضمن الخط العام، ونعبر عن هويتنا، ونعبر عن شعائرنا، ونعبر عن عقيدتنا، ولكن بالمقدار الذي لا يؤدي إلى الصدام والمواجهة والاستفزاز الذي يمنع إيصال رسالتنا لهؤلاء المسلمين، وهذا ما نجده اليوم في سلوك مراجعنا العظام، وتوجيههم، وإرشاداتهم، ويجب أن يكون ذلك حاضراً في مسار الشعائر الحسينية، ليكون مساراً يُعزز هذا الانتماء والهوية، ويعزز الانتماء للحسين ولأهل البيت سلام الله عليهم، ولكن من غير أن يوجد قطيعة مع الآخر، ومن غير أن يوجد صداماً ومواجهة مع الآخر، وهذا هو الأمر المطلوب.

إذن فالإنسان عليه، من ناحية، أن يُحافظ على نفسه، وعلى جماعته، وعلى عقيدته، وعلى أبناء مذهبه، وهذا ما يتطلب التقية، ومن ناحية أُخرى، يجب عليه أن ينفتح على الآخرين، وهذه ما يعبر عنها بالتقية المداراتية، أي أن نبقى نداري مشاعر الآخر، ونمدّ الجسور معه لكي نؤثر فيه وندفع به إلى الرؤية الإسلامية الصحيحة والحقة.

إنّ اعتماد خيار التقية من قبل أئمة أهل البيت سلام الله عليهم لم يكن بسبب الضغوط، وليس تعبيراً عن حالة من الجُبن – لا سمح الله – أو الخوف أو الانكسار الروحي والمعنوي لجماعة أهل البيت سلام الله عليهم، فأخلاق جماعة أهل البيت وثقافتهم هي أخلاق وثقافة التضحية

والفداء والعطاء، والوفاء بالعهود والمواثيق، والتزام الحق في جميع الظروف، وهذا الضخ المفاهيمي وهذه الأخلاقية يمثلان منهج أئمة أهل البيت سلام الله عليهم في تربية أتباعهم، بل نجدهم قد ذهبوا إلى أكثر من ذلك، عندما توقعوا ما سيصيب أتباعهم من ألوان المحن والبلاء.

قال الإمام علي عليه السلام لأتباعه عندما كان حاكماً وليس معارضاً: «من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً»[٢٤٨]، «من أحبنا أهل البيت فليستعد عدة للبلاء»[٢٤٩].

إذن لا يوجد خوف أو جبن أو انكسار أو هزيمة، وإنما اعتماد منهج التقية يستند إلى رؤية موضوعية واضحة لطبيعة الحياة السياسية، والواقع المجتمعي. ويستند إلى الصراع الاجتماعي القائم في داخل الأمة الإسلامية، وإلى تقويم موضوعي وواقعي لطبيعة المصالح والمفاسد في الأمة الإسلامية، ويستند إلى تحديد الأولويات وتقديم الأهم على المهم.

إن هذه الرؤية العلمية والموضوعية العميقة لأئمة أهل البيت سلام الله عليهم، دعتهم إلى اعتماد هذا المنهج، ولذلك أصبح اعتماد منهج التقية يُمثل ملمحاً من ملامح التدين.

لاحظوا هذه الروايات عن أئمة أهل البيت سلام الله عليهم، قال الإمام الباقر عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له»[٢٥٠].

وقال الإمام الصادق عليه السلام لحبيب بن بشر: «لا والله ما على وجه الأرض شيء أحبّ إلي من التقية، يا حبيب إنه من كانت له تقية رفعه الله، يا حبيب من لم تكن له تقية وضعه الله»[٢٥١].

كيف يمكن أن نفسر هذه الأُمور وننظر إليها؟ وكيف نفسر إعطاء التقية هذا الموقع الكبير في الفهم الديني؟. إن ذلك يكمن في النظرة إلى طبيعة الحقائق والوقائع في حياة المجتمع الإسلامي، إضافة إلى ذلك، فإنّ مبدأ

٢٤٨. نهج البلاغة ٤: ٢٦ الحكمة ١١٢.
٢٤٩. بحار الأنوار ٣٤: ٣٣٦.
٢٥٠. الكافي ٢: ٢١٩ ح١٢.
٢٥١. الكافي ٢: ٢١٧ ح٤.

التقية يُعبّر بشكل واضح عن مراعاة مبدأ التوازن في الشخصية الرسالية، وكما قلنا فإنّ منهج أهل البيت عليهم السلام فيه ضخ، وعطاء، وفداء، وشهادة في سبيل الله، وتصد، وتحمل للمسؤولية، ووفاء، والتزام، وهذا ضخ كبير يولد سلوكاً في الميدان، وأتباع أهل البيت متمسكون بعقيدتهم، ومستعدون لأن يُقحموا أنفسهم في كل شيء دفاعاً عن العقيدة، كما هتفت حناجرهم في أشد أجواء القمع والتنكيل: (لو قطّعوا أرجلنا واليدين . . نأتيك زحفاً سيدي يا حسين).

هذا الضخ المفاهيمي والمبدئي والروحي والسياسي في الوقوف، وفي الثبات، وفي العطاء، وفي التضحية، وفي التزام العهود، وفي التزام المشروع، وفي تبني منهج أهل البيت عليهم السلام، هذا يؤدي إلى سلوك وإلى اندفاع، ونحن لا نتكلم عن عدد من العلماء أو النخب، وإنما نتكلم عن جماعة أهل البيت، وهم مئات الملايين من البشر، وهذا يولد لديهم اندفاعاً قد يتقاطع مع مبدأ التعايش، وقد يتقاطع مع مبدأ القدوة الصالحة في داخل الأمة الإسلامية.

وفي قِبال هذا الضخ المفاهيمي من هذا النوع، نحتاج إلى ضخ مفاهيمي وعقيدي ومبدئي وسياسي في الاتجاه الآخر، حتى يوازن الشخصية، وهنا يأتي مبدأ التقية ليُعبّر عن هذه التربية، وعن إعداد الشخصية الرسالية لأتباع أهل البيت بما يجعلهم قادرين على تحمل مسؤولياتهم في الأمة، وقادرين على أن يُمثلوا القدوة الصالحة والواعية والمؤثرة في الأمة الإسلامية، وهذا منهج في التوازن. إذن فالتقية فيها بُعد تكتيكي يرتبط بحفظ الجماعة، وهو إذا كان هناك ضرر أو خطر يهدد حياة الإنسان أو الجماعة، فيجب ألاّ يذكر الإنسان الحقيقة كلها، من أجل أن يُحافظ على نفسه، وعقيدته، وعرضه، وماله.

وهناك جانب آخر يرتبط بطبيعة التوازن في الشخصية الرسالية لأتباع أهل البيت، لكي يكونوا قادرين على الوفاء بواجباتهم، وهذا ما يحتم التقية، ولكن التقية ليست مطلقة، ولا نمارسها دائماً، بل لها حدود وقيود، وهي:

أولاً: الاقتصار على حالات الضرورة، كما مرت الإشارة إليه.

ثانياً: إنما شرّعت التقية لحفظ الدماء، فإذا كانت التقية سبباً في إراقة الدماء، فحينذاك لا تقية.

لاحظوا هذه الرواية التي يرويها الحر العاملي في وسائل الشيعة، عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنما جُعلت التقية ليُحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فليس تقية»[٢٥٢]، أي لا معنى للتقية إذا تسببت بإراقة الدماء.

ثالثاً: إذا كان استخدام التقية يؤدي إلى حالة من التهاون في نصرة الإسلام والمسلمين، وإلى تضييع الحقوق، وتضييع الجهاد في سبيل الله في موارده الشرعية، فحينذاك لا تقية في هذه الموارد، لئلا تصبح التقية عكازة للبعض ليتخلى عن الجهاد، ويتخلى عن الدفاع عن قيمه الدينية.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «وأيم الله لو دُعيتم لتنصرونا قلتم لا نفعل، إنما نتقي»[٢٥٣]، كما لو أتى زمان تكون فيه واعية كواعية الحسين عليه السلام: ألا من ناصر ينصرنا؟ ألا من مُغيث يُغيثنا؟ ألا من ذاب عن حُرم رسول الله يذبّ عنا؟ ففي مثل هذه الموارد يجب التصدي والتحدي والمواجهة وبذل الجهد وتقديم الغالي والنفيس، وحينما تكون العقيدة في خطر يجب أن نهبّ هبةً واحدة لدرء الخطر عنها، كما لاحظنا ذلك في فتوى المرجعية التي شخصت هذا بأنه مورد من موارد التصدي، وإذا بمئات الألوف من الشباب يهبون ويتصدون، واليوم نجد العزيمة في شبابنا في الحشد الشعبي، وفي الجيش والشرطة، وفي أبناء العشائر، وفي البيشمركة، نجدها أكثر مما كانت قبل سنة أو قبل ستة أشهر.

قال الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه: «كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: إذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم، وإن نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أنّ الهالك من هلك دينه، والحريب من حرب دينه، ألا وإنه لا فقر بعد الجنة، ألا وإنه لا غنى بعد النار، لا يُفك أسيرها ولا يبرأ ضريرها»[٢٥٤].

---

٢٥٢. وسائل الشيعة ١٦: ٣٣٤ ب٣١ ح١.

٢٥٣. وسائل الشيعة ١٦: ٢٣٥ ب٣٢ ح٣١.

٢٥٤. وسائل الشيعة ١٦: ١٩٢ ب٢٢ ح٢.

«**إذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم**»: يا أبناء العراق، يا شيوخ العشائر في كل محافظاته، قفوا وقفة واحدة ولا تسمحوا بأن يُراق الدم العراقي البريء بسبب خلافات عشائرية هنا وهناك، فهذه المشاكل تحتاج إلى معالجة بالمال، وعلينا بذل الأموال للحيلولة دون إزهاق النفوس.

«**وإن نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم**»: ولكن إذا كان هناك ما يهدد الدين والعقيدة، فيجب أن نقدم النفوس والأرواح حفاظاً على الإسلام والعقيدة.

«**واعلموا أنّ الهالك من هلك دينه**»: لا تقولوا نخشى الموت، فالميت الحقيقي هو من مات دينه، وأما إذا كان الدين حياً، ومات الإنسان في سبيله، فحينذاك يكون شهيداً في سبيل الله، وهنيئاً له الحياة الأبدية.

«**والحريب من حرب دينه**»: حريبة الرجل: ماله الذي يعيش به، فإذا سُلب لم يقم بعده. فالمعدم والفقير الحقيقي ليس من سُلب ماله، بل من سُلب دينه.

«**ألا وإنه لا فقر بعد الجنة**»: أي لا يعدّ فقيراً من كانت عاقبته إلى الجنة، وإن كان قليل المال في الدنيا، بل هو الغنى الحقيقي.

«**ألا وإنه لا غنى بعد النار، لا يُفك أسيرها ولا يبرأ ضريرها**»: وكذلك لا يعدّ غنياً من كانت عاقبة أمره إلى النار، فالفقر الحقيقي هو فقر أهل النار، إذ لا أمل لأصحابها بالغنى، ولا لأسراها بالحرية، ولا لمرضاها بالشفاء.

كان هذا حديثاً عن التقية، وأهميتها، وخلفية التزامنا بمنهجها، وهي في الحقيقة ليست قضية عابرة، وإنما هي رؤية عميقة ومنهجية استراتيجية للحفاظ على الفرد والجماعة المؤمنة من خطر التصفيات الجسدية من قبل الأعداء.

المحور الخامس

آثار البصيرة

هناك مجموعة من الآثار تترتب على وجود البصيرة عند الإنسان ، نذكرها في ما يلي :

الأثر الأول

التمسك بالحجة الشرعية والحق

حينما يكون الإنسان على بصيرة من أمره ، يكون متمسكاً بالحجة الشرعية ، المفروضة عليه طاعته من الله سبحانه وتعالى ، سواءٍ كان نبياً أو وصياً ، كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢٥٥] .

التمسك بالحجة والحق في القرآن

يشير إلى هذا الأثر المهم من آثار البصيرة عدد من الآيات القرآنية نبيّن بعضاً منها :

الشاهد الأول : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾[٢٥٦] .

تُشير هذه الآيات الشريفة إلى واحد من أعظم التحديات التي مرت على المسلمين بعد الهجرة النبوية الشريفة ، ألا وهي معركة الأحزاب ،

---

٢٥٥ . المائدة: ٥٥ .

٢٥٦ . الأحزاب: ٢١ ٢٥ .

التي كانت معركة حاسمة وفاصلة ونوعية بجميع المعايير، حيث اجتمع حلف الشر، واجتمعت قوى الضلال والانحراف من المشركين ويهود بني قريظة، وجمعوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم وقبائلهم ومقاتليهم، في عملية تحشيد وتعبئة واسعة، ليخرجوا بجيشٍ جرار من أجل أن يطفئوا نور الرسالة.

كانت المعركة فاصلة، وفي تعبيرنا اليوم، كانت الورقة الأخيرة التي يضعونها على الطاولة، بعد أن شهد المسلمون مخاضات عسيرة في غزوات سابقة في بدر واُحد، وفي عدد من الغزوات المهمة، فقرر المشركون أن يحسموا الموقف ويُنهوا الرسالة بتعبئة واسعة، ولذلك سُميت هذه المعركة بمعركة الأحزاب؛ لأنّ الأحزاب، أي العشائر والقبائل من مشركي العرب ويهود بني قريظة، قد اجتمعت في هذه المعركة واتفقت على هذا الأمر، وما أشبه اليوم بالبارحة؛ إذ نجد هذا التجمع لقوى الشر، وهي تُقدم آخر أوراقها وأصعبها وأكثرها دموية ووحشية وبربرية، فلا يكاد يُصدّق الإنسان مثل هذا السلوك وهو في القرن الحادي والعشرين.

كنا نقرأ في الكتب أنه قبل آلاف السنين كان منهج البرابرة وأمثالهم هو الذبح والقتل، ولكن أن يُتَبنّى هذا المنهج في القرن الحادي والعشرين، بعد كل هذا التطور الحضاري والتكنولوجي، بأن يأتي اُناس في هذا الزمان ويتّبعوا هذه الطريقة – كما نجده في سلوك الدواعش لعنهم الله أمرٌ لم نكن نتصوره. وقد كانت الحالة آنذاك من هذا النوع، أي كانت حالة استنفار وتعبئة شاملة في مواجهة المسلمين.

لقد كان عدد المشركين في تلك الظروف وفي تلك المساحات الضيقة عشرة آلاف مقاتل، إذ جلبوا أهمَّ مقاتليهم، أي قواتهم الخاصة كما نعبّراليوم، في قِبال ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، وقد وقعت هذه المعركة في السنة الخامسة للهجرة النبوية الشريفة، وكان من التكتيكات العسكرية التي فاجأت العدو، الفكرة التي طرحها سلمان المحمدي في حفر خندقٍ يفصل بين المسلمين والمشركين، لحماية المدينة بهذا الخندق الذي كان طوله ستة كيلو مترات.

وفي ظل تلك الإمكانات البسيطة، مع شح في الغذاء والسلاح، وقعت الحرب في البرد القارص والعواصف الرملية في تلك الصحراء، ولكن كان حفر الخندق تكتيكاً للوقوف أمام هؤلاء المشركين، وقبل وصول المشركين بثلاثة أيام انتهى حفر هذا الخندق الكبير، فكانت هذه واحدة من المفاجآت التي أعدها رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون لمواجهة حلف الشر.

لقد مثّل هذا الاختبار الشديد في معركة الأحزاب فرصة مهمة لكشف الحقائق، وقد كانت المخاضات العسيرة وما زالت هي التي تبيّن معدن الناس، فطبول الحرب تُدق، والمشركون قادمون، وكان هدفهم ألاّ يبقوا لأهل بيت النبي باقية، وهي نفس الشعارات التي سمعناها قبل سنة، حين هتفوا: (قادمون يا بغداد).

كان المسلمون أُمة فتية ضعيفة، وكان الأعداء قد اجتمعوا بكل إمكاناتهم وبهرجتهم ووسائلهم الإعلامية وقدراتهم التضليلية، لينالوا من الرسالة الإسلامية، ومن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن المسلمين جميعاً.

وهنا بدأت تتكشف الحقائق، فقد كان بين المسلمين منافقون يتظاهرون بالإسلام، ولكن كانت قلوبهم ومشاعرهم وجهودهم في مكان آخر، فكانوا يسربون المعلومات والأسرار إلى الأعداء، وحينما علم المنافقون بوصول المشركين ظنوا أنهم سينتصرون على المسلمين حتماً، فكشفوا عن حقيقتهم وعبّروا عن هويتهم المخفية.

وكشفت هذه الحرب أيضاً ضعاف الإيمان، وهم المتزلزلون في شخصيتهم، وبدأت أحوالهم تهتز، وصدرت منهم مواقف لم يكن أحد يتوقع أن يراها، وفي المقابل ظهر أيضاً المخلصون الصادقون (أهل البصائر)، الذين يقوى انتماؤهم في يوم المحنة، ويشتد عودهم، ويُظهرون ولاءهم، هكذا هم المخلصون، الثابتون، أهل البصائر، فنراهم في الأزمات واقفين في الميدان بقوة وبسالة، فهذه المعركة فرزت هذه الأصناف من الناس.

لقد أتى المشركون في هذه المعركة ببعض أبطالهم المعروفين في القتال، يتقدمهم عمرو بن عبد ود العامري، وكان لديهم أيضاً أبطال آخرون معروفون، مثل عكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن

أبي عبد الله، وضرار بن الخطاب، وقد لبسوا لباس القتال، ووضعوا الخوذ الحديدية على الرؤوس، لإيقاع الهلع في قلوب المسلمين.

ووجد هؤلاء الفرسان ثغرة في الخندق يستطيعون عبورها إلى الجانب الآخر من الخندق، فتقدمهم عمرو بن عبد ود، وتذكر التواريخ أنه وقف ينادي: هل من مبارز؟ فوقع الخوف في قلوب المسلمين، حينما شاهدوا هذا الشجاع والقائد العسكري الكبير والمعروف، واقفاً بهذه الصورة المخيفة والخوذة الحديدية على وجهه يطلب البراز.

فقام عليٌّ عليه السلام وقال: يا رسول الله أنا له، فأجلسه رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الرسول يتصفح وجوه المسلمين وينتظر من سيرفع يده ويقول: أنا سأخرج له يا رسول الله، ولكن كان الجميع مطأطئين رؤوسهم خائفين، وعندما لم يرَ عمرو بن عبد ود مجيباً، تجرأ ونادى من جديد: ألا رجل؟ وصار يؤنبهم ويسبهم، فقام علي عليه السلام أيضاً من جديد وقال: أنا له يا رسول الله، فأجلسه رسول الله صلى الله عليه وآله مرة أُخرى، فتجرأ عمرو بن عبد ود أكثر وقال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف البطل المناجز
إنّ السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام علي عليه السلام ثالث مرة، وقال: يا رسول الله أنا له، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله، وألبسه درعه وأعطاه سيفه ذا الفقار، إذ كان ذو الفقار سيف رسول الله صلى الله عليه وآله، أعطاه لعلي عليه السلام في معركة الأحزاب، ولما تحرك عليٌّ عليه السلام نحو عمرو بن عبد ود رفع رسول الله صلى الله عليه وآله يديه بالدعاء قائلاً: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه. ومشى إليه أمير المؤمنين عليه السلام وهو يرتجز ويقول:

لا تعجلنَّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيةٍ وبصيرةٍ والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربةٍ نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز

فقال له عمرو بن عبد ود: من أنت؟ فقال له أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال له عمرو: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أريق دمك، فقال له عليٌّ عليه السلام: لكني والله ما أكره أن أريق دمك، وخيّره بين ثلاثة خيارات لينجو بنفسه، وهي إما أن يُسلم، فقال له: لا يكون ذلك، فقال له عليه السلام: ارجع من حيث أتيت، فقال عمرو: هذا لا يكون، فقال عليه السلام: إذن ترجّل من فرسك لنتقاتل وجهاً لوجه، فنزل عمرو بن عبد ود العامري من فرسه ورفع سيفه وضرب به رأس علي عليه السلام ضربة واحدة، فاتقى عليٌّ عليه السلام هذه الضربة بدرعه، ولكن شدة الضربة تجاوزت الدرع وشجت رأس علي عليه السلام، فسالت الدماء على وجهه عليه السلام، وضرب أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن عبد ود بسيفه على رجليه ضربة أسقطته أرضاً، وثارت بينهما عجاجة، فسُمع صوت علي عليه السلام وهو يُكبّر. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قتله والذي نفسي بيده.

وحينما جلس عليٌّ عليه السلام على صدر عمرو ليحز رأسه، بصق عمرو في وجه علي عليه السلام، فقام علي عليه السلام من على صدره، وتركه هنيهة وعاد من جديد وجلس على صدره وحز رأسه. فسُئل علي عليه السلام عن سبب قيامه من على صدره، فقال: حينما بصق في وجهي غضبت، وما أردت أن أدخل غضبي الشخصي في ذبحه، وإنما أردت أن أقتله خالصاً لوجه الله، فقمت من على صدره حتى هدأ غضبي قليلاً، ثم عدت من جديد لأقتله في سبيل الله. وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ووجهه يتهلل، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أبشر يا علي، فلو وُزِنَ اليوم عملك بعمل أُمة محمد لرجح عملك على عملهم، وذلك لأنه لَم يبق بيتٌ من بيوت المشركين إلاّ وقد دخله وهنٌ بقتل عمرو، ولم يبق بيتٌ من بيوت المسلمين إلاّ وقد دخله عزٌ بقتل عمرو[٢٥٧]. وفي تلك الأجواء حينما برز علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[٢٥٨].

---

٢٥٧ . انظر: بحار الأنوار ٢٠: ٢٠٢.

٢٥٨ . بحار الأنوار ٢٠: ٢١٥ ح٢.

ولنراجع الآيات في هذا المقطع القرآني الرائع :

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)، أيها المسلمون المشاركون في معركة الأحزاب، تأسوا برسول الله صلى الله عليه وآله، وانظروا كيف يتعامل في هذه الحرب، وبالطبع فإن التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله، وإنْ كان قد جاء في سياق معركة الأحزاب، ووجّه الخطاب إلى المسلمين المشاركين في هذه المعركة، ولكنه لا يختص بهذه المعركة دون غيرها، فالتأسي برسول الله صلى الله عليه وآله مبدأ من المبادئ العامة، والتأسي به في هذه المعركة ليس إلا نموذج، لأنه يجب علينا التأسي به صلى الله عليه وآله في كل خطوة وفي كل موقف.

لقد استعرضنا كيف كان الحال في معركة الأحزاب، فهي المعركة المصيرية التي لا يوجد فيها تكافؤ في القوى، إذ كان المشركون ممتدين على نطاق واسع، وقد جاؤوا بقضّهم وقضيضهم، وبشجعانهم وأبطالهم، في حين كان المسلمون يعانون شحاً في السلاح والطعام، فضلا عن ذلك البرد القارص وتلك الظروف الصعبة، ومع ذلك كله، كانت معنويات رسول الله صلى الله عليه وآله عالية، واستطاع أن يبعث هذه المعنويات في نفوس المسلمين، لذلك نتأسى به في ثباته وصبره واستقامته في مواجهة تلك التحديات الخطيرة والكبيرة في الحياة، ونتأسى به في حكمته ودرايته وعدم الانسياق وراء المواقف الانفعالية، وإنما يحسب حساباً لكل خطوة ولكل موقف، واستطاع أن يحول الاختلال في توازن القوى الذي كان لصالح المشركين، إلى عنصر قوة لصالح المسلمين، نتيجة هذه الحكمة والدراية، وقبل هذا وذاك كان قدوةً في الإخلاص والتوكل على الله سبحانه وتعالى وذكره، وتذكير المسلمين بهذا المنبع العظيم الكبير، ومركز الثقل وعنصر القوة الأساسية، الذي يحسم جميع المعارك ويواجه جميع التحديات.

التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله في قدرته العالية على القيادة وإدارة الأزمات، فقد كان صلى الله عليه وآله بارعاً في كيفية التعامل مع تلك الأزمات والشدائد واحتوائها، والتأسي برسول الله في تواضعه، وكيف كان يتعامل مع المسلمين كأحدهم، وفي حفر الخندق كان يمسك المعول ويحفر الأرض، حاله كحال أي فرد من المسلمين، ويحمل

التراب على ظهره وكتفه ويرمي به خارج الخندق، حتى أسهم بشخصه في حفر الخندق. إن حالة المواساة والتواضع والترابية من القائد تجاه أتباعه، مسألة في غاية الأهمية، وهي منهج رسالي تجلى بشكل واضح في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث الهدوء والسكينة والاستقرار النفسي في نفوس عامة المسلمين.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد وعدهم من قبل وقال لهم: استعدوا فسيأتي يوم تجتمع فيه جميع قبائل العرب على قتالكم لكي يقضوا عليكم، ولكن الله سبحانه وتعالى سينصركم في هذه المعركة، فقالوا: إذن صدقت نبوءة الرسول، وسيصدق وعده كذلك في انتصارنا عليهم.

إنّ النجاح في الاختبارات الإلهية أمر لا بد منه لدخول الجنة، كما بيّن القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[٢٥٩]، فلا يكفي أن نقول: نحن مسلمون ومؤمنون ومن أتباع أهل البيت، إذن سندخل الجنة، بل لا بدّ من أن يمر علينا ما مر على من كان قبلنا من أتباع الأنبياء من المحن والشدائد، وما مر على رسول الله صلى الله عليه وآله ومن آمن معه، حتى وصل الضرر بهم والضغط عليهم إلى مستوى قالوا فيه: متى نصر الله؟ وهذا القول ليس قول البسطاء والناس العاديين، بل كان قول الخلص منهم. وفي تلك اللحظة التي يصل فيها الضغط والشدة إلى مستوى الثلة المخلصة الإيمانية، فتضيق صدورهم ويقولون: متى نصر الله؟ في تلك الشدة يصبحون أقرب ما يكونون إلى الفرج.

كنا في العام الماضي نجلس في هذا المجلس ونتحدث، وكانت داعش على أبواب بغداد، واليوم أين هي داعش؟ ففي خلال هذه المدة من ذلك المجلس إلى هذا المجلس مضت سنة كاملة، وقد تحرر أكثر

٢٥٩. البقرة: ٢١٤.

من مائة ألف كيلو متر من الأراضي المحتلة من قبل داعش، وهذا الثبات والإصرار والوضوح في الرؤية والشجاعة والإقدام تترتب على وجود البصيرة، التي تتمخض عن هذه النتائج.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾: جميع هذه الاصطفافات والضغوط تزيدهم وضوحاً وإصراراً وثباتاً على الحق، كما ورد بيان ذلك في قوله تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)، فبعضهم أكرمه الله سبحانه وتعالى بالشهادة، وبعضهم من ينتظر الشهادة، وإذا لم يكن هناك خوف فإنّ الإنسان سيتحول إلى صاحب إرادة حديدية صلبة، ويكون قادراً على تحقيق الانتصارات والانجازات الكبرى في الحياة، والإنسان الرسالي والمؤمن هكذا يكون حاله.

وكم نحن فخورون في هذه الأيام؛ ونحن نزف شهداء سماتهم كسمات أصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وسمات الشهداء الذين قاتلوا تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله. أيها الشعب العراقي، أيها المؤمنون، اعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى سينزل رحمته على هذا الشعب الذي يحمل هذه الروح، وهذه الأخلاق، وهذا الإخلاص، وهذه الدماء الطاهرة النقية التي سالت دفاعاً عن العقيدة والوطن وكرامة هذا الشعب، أيها العراقيون، إنّ رؤوسكم مرفوعة بهؤلاء الشباب الأبطال، وهنيئاً لنا بهم.

لقد كانت هذه الآية: ﴿**فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾، حاضرة على لسان سيد الشهداء عليه السلام حينما كان يودع أصحابه عند خروجهم للقتال، فقد كان كل واحد منهم يقف بين يدي الحسين عليه السلام ويقول له: السلام عليك يا ابن رسول الله، أي يطلب الإذن للبراز، فكان الإمام الحسين عليه السلام يجيبهم قائلاً: وعليك السلام ونحن خلفك، ثم يتلو هذه الآية الشريفة. لقد مشى هؤلاء في طريق الحق، والتزموا طريق الحق، وقاتلوا ببسالة، ودافعوا بشجاعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن المشروع الرسالي، وبقوا ثابتين لم يبدّلوا ولم يتراجعوا.

وكان هناك المنافقون وقد ذكرنا دورهم في معركة الأحزاب الذين كانوا يظهرون التماشي مع المشروع، ولكن قلوبهم لم تكن معه، بل كانت مع غيره، بينما كان هؤلاء الشجعان الأبطال من أصحاب البصائر، كلما زاد الضغط عليهم أكثر، زاد تعلقهم بالمشروع وانتماؤهم له ودفاعهم عنه، واتضحت رؤيتهم أكثر في الانتصار للمشروع.

قوله تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى لن يضيّع لهؤلاء صدقهم ووفاءهم وثباتهم وشجاعتهم وإصرارهم، وسيجازيهم ويكافئهم، فهنيئاً لهم. وفي الاتجاه الآخر، فإنّ من يبدّل رأيه سيعذبه الله سبحانه وتعالى ويعاقبه إن شاء، أو يتوب عليه، فانظروا إلى سعة رحمة رب العالمين. ثم يعقّب ذلك بقوله: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً)، وهذا من شأنه أن يخلق حافزاً ودافعاً حتى عند المنافق والمتردد والضعيف والمتخاذل، وحتى عند الخائن والغادر أيضاً، بأن يترك له طريقاً للرجعة، لعله يتعظ من هذا الموقف الذليل البائس، ويرى أنّ هناك فرصة ليعود إلى طريق الحق، ولهذا نرى أحياناً إنساناً يتعرض إلى هزات، ويضعف أمام التحدي ويرتكب ذنباً أو خطأً، ثم بعد ذلك يؤنبه ضميره، ويوجد هذا الذنب وهذا الخطأ وهذا الخذلان والانكسار في لحظة عنده دافعاً وردّ فعل إيجابياً، فيحسن إيمانه ويعود إلى دائرة الإسلام والتدين والالتزام والتمسك بالمشروع الإلهي. وهنا يريد الله تبارك وتعالى أن يترك فرصة لهؤلاء، وكم من عاصٍ ومذنبٍ تغيّر فجأةً وحسن التزامه.

قوله تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ**﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى كسر وأرجع أولئك المشركين بكل حشودهم وادعاءاتهم الكبيرة، خائبين مكبوتين غاضبين بعد هذا الانكسار الفاضح والكبير الذي تعرضوا له.

قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَنَالُوا خَيْراً**﴾: أي لم يستطيعوا تحقيق أهدافهم، وكان هدفهم هو النيل من الرسالة، وهو ليس خيراً، بل هو شر، ولكن القرآن الكريم يتحدث بمنطقهم هم، إذ كانوا يرون أن المصلحة والخير في القضاء على الرسالة الإسلامية، ولكن خابت كل أهدافهم وكل ظنونهم، وردّ الله سبحانه وتعالى كيدهم إلى نحورهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: هذه المعركة التي كان يتوقع لها أن تكون من أشرس المعارك، ويقع فيها أكبر عدد من الضحايا، قدّر الله سبحانه وتعالى أن تنتهي بلا قتال ولا دماء، وإنما بانتصار معنوي كبير للمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وآله، فقد سلّط الله عليهم الظروف المناخية من البرد القارص والعواصف الشديدة التي كانت تقلب الطعام وتأخذ معها خيامهم، وكذلك لم يكونوا مستعدين لمعركة طويلة، وعندما نظروا إلى الخندق وإلى الاستعدادات فوجئوا من كل هذه التحضيرات التي دبرها لهم رسول الله صلى الله عليه وآله، ودبرها لهم المسلمون، هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى، كانت هناك حالة من الخوف والرهبة والانكسار المعنوي أمام التكتيكات الجديدة؛ حين رأوا خندقاً واسعاً وكبيراً، وحين رأوا طريقة تجحفل جيش المسلمين الذي أشعرهم بأنّ المسلمين مستعدون للقتال وسينقضون عليهم بشكل مفاجئ في أي لحظة، فكان لهذه الحرب النفسية التي مارسها رسول الله صلى الله عليه وآله دور مهم في حسم نتيجة المعركة، وكان العنصر الأساس والمحوري والحاسم في هذه المعركة، هو ضربة علي بن أبي طالب عليه السلام لعمرو بن عبد ود العامري، التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[٢٦٠]، وقوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[٢٦١]، فحسمت المعركة معنوياً بهذه الضربة ومقتل عمرو بن عبد ود.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾: أي أنّ القوة لله سبحانه وتعالى، والعزة لله عز وجل؛ لأنه قد توجد القوة، ولكن لا توجد معها العزة، فيُقهر صاحبها أحياناً ويذل، ولكن الله سبحانه وتعالى هو القوي، وقوته مطلقة، وهو في الوقت نفسه العزيز الذي لا يقهر، فبتسديد من الله سبحانه وتعالى تحقق هذا الإنجاز العظيم.

الشاهد الثاني من القرآن الكريم على دور البصيرة في التمسك بالحجة الشرعية وبالحق، هو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا

٢٦٠. ينابيع المودة ١: ٤١٢.

٢٦١. بحار الأنوار ٢٠: ٢١٥ ح٢.

نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[٢٦٢]. أي أنّ الله سبحانه وتعالى يسدد ويثبت الكلام الحق ورجال الحق، فكل هذا الكلام والتشويش لا يؤثر في الناس، أو يجعل تأثيره قليلاً؛ لأنّ الله تبارك وتعالى هو المسدد، وقد أخذ على نفسه أن يمنع من تأثير الشائعات والشبهات في المصلحين الحقيقيين وأهل الحق، وفي المشاريع الأساسية الصادقة، فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن أنبيائه ورسله، ولا يتخلى عن المصلحين، ولا يتخلى عن المخلصين، مهما تعرضوا للشبهات وسهام الاتهامات، وإن أخذت مأخذها في وقت محدود، ولكنها ستضيع وتتلاشى.

واليوم عندما نستذكر مراجعنا الماضين، الذين كان منهم قيادات مهمة ورموز كبيرة، نرى أنهم قد كانوا في زمنهم مثار جدل وحديث كثير وقيل وقال، ولكن تلاشت كلها، ولا يتذكر أي أحد الآن ما قيل فيهم من الشائعات، وبقيت وجوههم الناصعة، فقد سُمّي الإمام الحسين عليه السلام باغياً، وكان الإمام علي عليه السلام يُسب على منابر المسلمين عشرات السنين، وكانت صلاة الجمعة وخطبة الجمعة لا تتم إلا بسب علي عليه السلام[٢٦٣]. ولكن أين هذه الكلمات الآن؟ لقد أصبحت تاريخاً لا يعبأ بها أحد، وبقي علي عليه السلام شامخاً كلّما ذُكر، وكذلك بقي الإمام الحسين عليه السلام بعد ألف وأربعمائة سنة بهذا الشموخ العظيم، ولكن أين أولئك المتقولون؟ وأين أولئك المرجفون؟ وأين تلك الشبهات؟ وأين تلك الإساءات؟ وأين ذلك التفسير الخاطئ للمواقف؟ لقد ذهبت كلها وبقي هذا الوجه الناصع، وهكذا هو الوعد الإلهي في هذه الآية الشريفة.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ**

٢٦٢. الحج: ٥٢ ٥٣.

٢٦٣. انظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ١٠٩، ٥٤٧. الغارات ٢: ٨٤.

آيَاتِـهِ﴾: التمنّي هـو تقديـر الانسـان وجـود مـا يحبـه، كتمنّـي الفقيـر أن يكـون غنيـاً، وقيـل: ربمـا جـاء بمعنـى القـراءة والتـلاوة، يقـال: تمنيـت الكتـاب أي قرأتـه، والإلقـاء فـي الأُمنيـة: المداخلـة فيهـا بمـا يخرجهـا عـن صرافتهـا ويفسـد أمرهـا.

ومعنـى الآيـة علـى المعنـى الأول، وهـو كـون التمنـي تمنـي القلـب: كل رسـول أو نبـي أرسـلناه قبلـك، كان إذا تمنـى وقـدّر بعـض مـا يتمنـاه مـن توافـق الأسـباب علـى تقـدم دينـه وإقبـال النـاس عليـه وإيمانهـم بـه، ألقـى الشـيطان فـي أُمنيتـه وتدخـل فيهـا بوسوسـة النـاس وتهييـج الظالميـن وإغـراء المفسـدين، فأفسـد الأمـر علـى ذلـك الرسـول أو النبـي وأبطـل سـعيه، فينسـخ الله ويزيـل مـا يلقـي الشـيطان، ثـم يحكـم الله آياتـه بإنجـاح سـعي الرسـول أو النبـي وإظهـار الحـق.

ومعنـى الآيـة علـى المعنـى الثانـي: مـا أرسـلنا قبلـك مـن رسـول ولا نبـي إلا إذا تـلا وقـرأ آيـات الله، ألقـى الشـيطان شـبهاً مضلـة علـى النـاس بالوسوسـة ليجادلـوه بهـا ويفسـدوا علـى المؤمنيـن إيمانهـم، فيبطـل الله مـا يلقـي الشـيطان مـن الشـبهات ويذهـب بهـا بتوفيـق النبـي لردهـا أو بإنـزال مـا يردهـا.

﴿**وَاللَّهُ عَلِيـمٌ حَكِيـمٌ**﴾: أي أنّ الله تبـارك وتعالـى عليـم يعـرف مكائدهـم جيـداً، وحكيـم يعـرف كيـف يبطـل هـذه المكائـد بشـكل طبيعـي وهـادئ، (فَأَمَّـا الزَّبَـدُ فَيَذْهَـبُ جُفَـاء وَأَمَّـا مَـا يَنفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُـثُ فِـي الأَرْضِ)[٢٦٤]، ويبقـى المشـروع الرسـالي والحقيقـي قائمـاً بيـن النـاس.

﴿**لِيَجْعَـلَ مَـا يُلْقِـي الشَّـيْطَانُ**﴾: مـن وسـاوس، ومـن شـبهات، ومـن تشـكيك.

﴿**فِتْنَـةً**﴾: هـذه الدنيـا دار اختبـار ليميـز الخبيـث مـن الطيـب، ولكـي يتبيـن عندمـا تأتـي هـذه الشـائعات مـن يصدّقهـا ويضيـع، ومـن لا يقبلهـا ويبقـى متمسـكاً بالرسـول أو المصلـح، فـالله سـبحانه وتعالـى يريـد أن يعرضنـا للفتنـة، أي للاختبـار والامتحـان، لكـي يـرى مـن يفـوز ومـن ينحـرف والعيـاذ بـالله.

---

٢٦٤. الرعد: ١٧.

﴿لِّلَّذِيـن فِـي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ وَالْقَاسِـيَةِ قُلُوبُهُـمْ﴾: هـؤلاء مرضـى النفوس ومرضـى القلـوب، وهـم الذيـن يعيشـون حالـة النفـاق والازدواجيـة، وحالـة الشـك والتـردد، فالإنسـان الضعيـف يضيـع وينزلـق إلـى الهاويـة، والإنسـان القـوي يتلقـى هـذه الصدمـات ويتأمـل فيهـا ويتحـرى ويتأكـد، ولا يظلـم أحـداً مـن النـاس، ولا يسـيء لأحـد، هكـذا يجـب أن يتعامـل الإنسـان بمسـؤولية مـع الآخريـن، وأمـا الذيـن فـي قلوبهـم مـرض فهـم مهيـؤون لأن يصدقـوا أي شـائعة، أو كذبـة، أو اتهـام.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِيَـن لَفِـي شِـقَاقٍ بَعِيـدٍ﴾: أي خلافاتهـم عميقـة، وهـذا يوجـد بُعـداً بينهـم وبيـن المصلحيـن والمشـروع الرسـالي، وهـو نمـط مـن الاختبـار، والذيـن فـي قلوبهـم مـرض والقاسـية قلوبهـم يفشـلون فـي الاختبـار. وأمـا الجانـب الآخـر الإيجابـي، فهـم الذيـن يفـوزون، وهـم الشـاهد فـي مـورد حديثنـا.

﴿وَلِيَعْلَـمَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْعِلْـمَ﴾: وهـم أهـل العلـم والبصيـرة، فـلا تهتـز قناعاتهـم، ولا يتـرددون فـي التصديـق بالأنبيـاء والرسـل والمصلحيـن نتيجـة الشـبهات والشـكوك، لأنهـم مـن أهـل البصائـر، الذيـن كلمـا ازدادت الشـبهات ازداد تمسـكهم بمشـروعهم ورسـولهم ونبيهـم، ويكـون لهـذه الشـبهات أثـر عكسـي؛ إذ يتكـون لديهـم وضـوح أكثـر، ويـزداد تمسـكهم بهـذا المشـروع وهـذا المصلـح.

﴿أَنَّـهُ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّـكَ﴾: ليعلـم أهـل البصائـر أنهـم هـم الذيـن لديهـم القـدرة علـى الفـرز والتفكيـك بيـن مـا هـو حـق ومـا هـو باطـل، ولديهـم القـدرة علـى أن ينزهـوا المشـروع الرسـالي والمصلحيـن مـن هـذه الشـبهات.

(فَيُؤْمِنُـوا بِـهِ فَتُخْبِـتَ لَـهُ قُلُوبُهُـمْ): أي تخشـع قلوبهـم لهـذا النبـي ولهـذا المشـروع الرسـالي، فيتمسـكون ويلتزمـون بـه.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَـادِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾: فـالله سـبحانه وتعالـى لا يتـرك عبـاده الصالحيـن، بـل يريهـم الحقيقـة، ليتمسـكوا بهـا بشـكل أكثـر وأكثـر.

التمسك بالحجة الشرعية والحق في الروايات

ورد في الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الإنسان لا يمكن أن يكون سائراً في طريق الله سبحانه وتعالى، ومتمسكاً بطريق الحق، إلا إذا كان ذا بصيرة . فالبصيرة هي التي تعطي الإنسان هذا الزخم، وتدفع به للتمسك بالصراط القويم، وهو السبيل إلى الله سبحانه وتعالى.

الرواية الأُولى : ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وسّعوا صدوركم، ولتبصر أعينكم، ولتعِ قلوبكم، فنحن حجة الله تعالى في خلقه »[٢٦٥].

«**وسّعوا صدوركم**»: يأمرنا الإمام الصادق عليه السلام بسعة الصدر، أي بالصبر الكبير لتحمل الآخرين، وتجاوز بعض الاشكاليات التي تسمع من هنا وهناك، وألاّ نقف عندها.

«**ولتبصر أعينكم ، ولتع قلوبكم**»: ونظر العين ووعي القلب هما البصيرة بالمعنى الذي نتحدَث عنه.

«**فنحن حجة الله في خلقه**»: عندما تقول لديّ بصيرة فستكون أنت حجة الله، فالبصيرة مدخل مهم للتمسك بالحجة، لكل مؤمن قوي، فالتمسك بالحجة والإيمان بإمامة أهل البيت عليهم السلام يحتاجان إلى قلب قوي، قوته كقوة جبال تهامة. والتمسك والتشبث بالحجة والالتفاف والتمحور حوله والدفاع عنه، لا تتم إلا من خلال البصيرة والوضوح. فقد ورد في الزيارة الجامعة عن الإمام الهادي عليه السلام : «مستبصر بشأنكم وبضلالة من خالفكم»[٢٦٦]، فالولاء لأهل البيت عليهم السلام والتبري من أعدائهم لا يتمان إلا بالبصيرة.

الرواية الثانية : روى السيد عبد العظيم الحسني عن أبي جعفر الثاني الإمام الهادي عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «قلت أربعة أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه. قلت: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وقلت:

---

٢٦٥ بحار الأنوار ٢٦: ٢٨ ح٢٨.

٢٦٦ . بحار الأنوار ٩٩: ١٣٠ ح٤.

مـن جهـل شـيئاً عـاداه، فأنـزل الله: ﴿بَـلْ كَذَّبُـوا بِمَـا لَـمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ﴾. وقلـت: قـدر أو قيمـة كل امـرئ مـا يحسـن، فأنـزل الله فـي قصـة طالـوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُـمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِـي الْعِلْـمِ وَالْجِسْـمِ﴾. وقلـت: القتـل يقـل القتـل، فأنـزل الله: ﴿وَلَكُـمْ فِـي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ يَـا أُولِـي الْأَلْبَـابِ﴾»[٢٦٧]. ومعنـى مخبـوء تحـت لسـانه، أي أنّ الإنسـان لا يعـرف كمالـه ولا نقصـه، ولا صدقـه ويقينـه، ولا ذنبـه ولا نفاقـه، إلا إذا تكلـم.

الروايـة الثالثـة: قـال الإمـام الصـادق عليه السلام: «يسـتدل بكتـاب الرجـل علـى عقلـه وموضـع بصيرتـه، وبرسـوله علـى فهمـه وفطنتـه»[٢٦٨]، أي يُشـخّص الإنسـان مـن خـلال كتابـه، فيُعـرف مسـتوى عقلـه ومسـتوى بصيرتـه ومسـتوى عمقـه وفهمـه للأُمـور، وقدرتـه علـى تحليـل الأحـداث التـي تحيـط بـه. ويشـخّص كذلـك مـن خـلال الرسـول الـذي يرسـله، وإذا أردت أن تعـرف مقـدار فهـم إنسـان فانظـر مـن يرسـل لينـوب عنـه ومـن ينتدبـه، فمـن خـلال الرسـول والمنـدوب تسـتطيع أن تكتشـف فطنتـه وذكاءه وفهمـه للأُمـور. هـذا إذن الأثـر الأول مـن آثـار البصيـرة وهـو التمسـك بالحجـة الشـرعية والحـق.

٢٦٧. بحار الأنوار ١: ١٦٦ ح٥.

٢٦٨. بحار الأنوار ١: ١٣٠ ح١٥.

الأثر الثاني

الهداية

البصيرة تقود الإنسان إلى الهداية ، بل هي الأثر الطبيعي للبصيرة . وقد وردت لذلك شواهد كثيرة في القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام .

الهداية في القرآن

هناك شواهد كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى أثر البصيرة في هداية الإنسان ، نذكر بعضاً منها في ما يلي :

الشاهد الأول : قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢٦٩] .

﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ : الذين تركوا عبادة الطاغوت .

﴿**وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ**﴾ : رجعوا إليه ، ووحدوه ، وارتبطوا بالله سبحانه وتعالى .

﴿**لَهُمُ الْبُشْرَى**﴾ : البشارة لمن اجتنب عبادة الطاغوت وأناب إلى الله وعاد إليه . والطاغوت من الطغيان ، والطغيان هو التعدي ، وهو تجاوز الحدود ، فهو يشمل كل حالات التجاوز للحدود ، وكل التعديات يعبّر عنها بالطاغوت ، وليس الأوثان وحدها ، وانما كل شيء فيه التعدي والظلم والتعسف والتجاوز على الآخرين هو طاغوت في المنطق القرآني ، فالحاكم الجائر طاغوت ، والشخص الظالم المسيء طاغوت ، وكل هذه من مصاديق الطاغوت ، فكل ما يؤدي إلى التعدي على الحدود يسمى الطاغوت في القران الكريم ، فشياطين الإنس والجن طواغيت ،

---

٢٦٩ . الزمر : ١٧ ١٨ .

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[٢٧٠].

الطاغوت يمتد إلى جميع التعلقات المادية والدنيوية والهوى والشهوات التي تبعد الإنسان عن الله سبحانه وتعالى؛ لأنها أنماط للتجاوز، فالهوى طاغوت، والشهوات غير المنضبطة طاغوت، والسلوك غير المنضبط الذي فيه تجاوز على حدود الله طاغوت، فمفهوم الطاغوت في الفهم القرآني واسع جداً.

﴿**أن يعبدوها**﴾: العبادة ليست فقط كل تعلق وتمسك واتّباع، بل هذا يمثل نمطاً من أنواع العبادة، فالخضوع عبادة، فكل ظالم وكل متجاوز متعسف طاغوت في المنهج القرآني، وحينما ننصاع له ونتماشى معه ونصفق له ونغطي على أفعاله، فهذه عبادة للطاغوت.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كل حاكم يحكم بغير قولنا أهل البيت فهو طاغوت، وقرأ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾[٢٧١]»[٢٧٢].

إنّ الذين رجعوا إلى الله تبارك وتعالى جسدوا روح التقوى والإيمان، وقاموا بالعمل الصالح. إذن فهذه الآية تجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ فقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ عقيدة وإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللّهِ﴾ العمل الصالح، وكأنها تقول: الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَهم البشرى، وهنيئاً لهم، إذ لم تقيد البشرى في هذه الآية، فهي تشمل البشارة بالنعم الإلهية أيضاً، فالذي يجتنب الطاغوت ويصطف بالضد من التعسف، ويعود إلى الله سبحانه وتعالى ويعمل صالحاً، له البشرى، وله الآثار العظيمة، مادياً ومعنوياً، فكل هذه المجالات مشمولة باطلاق البشرى.

﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾: حين يسمعون الكلمة

٢٧٠. النحل: ٣٦.

٢٧١. النساء: من الآية ٦٠.

٢٧٢. مستدرك الوسائل ١٧: ١٤٤ ح٧.

تكون لديهم القدرة على تمييز وتفكيك المعلومة ووزنها ومعرفة الصحيح من الخطأ، ومن له القدرة على التفكيك والتقويم كان من أهل البصائر، وكانت له البشرى. اللطيف في هذه الآية الشريفة أنها لا تقول: الذين يستمعون القول فيتبعون حسنه، بل تقول: ﴿فيتبعون أحسنه﴾، يعني أن هؤلاء يميزون بين الكلام الصائب والكلام الخاطئ، بين الكلام الحسن والكلام غير الحسن، ولديهم قدرة التمييز بين الحسن والأحسن، بين الكلام الحسن والكلام الأحسن، فلديهم إذن قدرة عالية وكبيرة، وهذا يعني أنّ الذين يستمعون القول آذانهم مفتوحة لمن يتحدث، وليسوا منغلقين ومتحجرين ومنطوين على أنفسهم، وليس لديهم خوف داخلي من أن يسمعوا للاخر، وليست لديهم عقدة حقارة، وليست لديهم مشكلة في أن يسمعوا من الآخر حتى لو اختلف معهم.

﴿**يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ**﴾، هذا منهج قرآني عظيم؛ الانفتاح في الاستماع إلى الآخر، فيسمع ويغربل ويأخذ الذي يفيده، وهذا يشبه شبكة الصياد، فالذي يصطاده ليس كله نافعاً، وانما يأخذ الذي يؤكل، وكذلك الإنسان صاحب البصيرة؛ يستمع ويطّلع ويتابع ثم يميّز ويقوّم، ولا يأخذ الأمور اعتباطاً، بل يحلّلها ويقوّمها، فيتبع التي تفيده، والتي لا تنفعه يهملها ويتركها.

إذن فهذه الآية الشريفة تعبّر عن منهج قرآني يمكن أن نسميه سياسة الباب المفتوح، فعلينا أن نسمع، ولا نقلق من الاستماع إلى الآخر حتى لو اختلفنا معه، ولا توجد مشكلة في ذلك، ونترك ٩٠٪ من كلامه غير النافع، ونأخذ الـ ١٠٪ التي من الممكن أن نستفيد منها بشأن ديننا ودنيانا.

فالإنسان صاحب البصيرة ليس منغلقاً، وإنما هو منفتح، يسمع ويأخذ الكلمات ويدقق فيها ويختار ما يراه مناسباً وصحيحاً، ومثل هذا الإنسان إنسان غير متعصب، وأينما يجد الحق يتمسك به، ونحن أصحاب الدليل أينما مال نميل. نحن نبحث عن الحقيقة التي من الممكن أن نجدها عند أحد حين نسمع منه، فنأخذ ما يناسبنا. وذوو البصائر يبحثون عن الحقيقة، وأينما وجدوها أخذوها، فهي ضالتهم المنشودة، وشتان بين من يضع أصابعه في آذانه حذراً من الاستماع، وبين من يستمع ويصغي

إلى ما يقوله الآخرون. وهذا لا يكون إلاّ من خريج مدرسة واثقة من منطقها، وواثقة من منهجها وحقانيتها، فلا تخشى الآخر الخاوي من الداخل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢٧٣]، فالفكرة الخاطئة هشة تنهار وتذوب. فلا تخف من كلام الآخر واستمع له وميّزه، وخذ منه ما يناسب واهمل الكلمات الاخرى غير المناسبة.

﴿**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾، هذا هو المنهج القرآني، منهج أهل البصائر، أهل التدقيق والتحقيق والاستماع إلى الآخرين، الذين يأخذون الكلام المفيد والمناسب ويهملون الكلام غير المناسب.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلماته القصار في نهج البلاغة: «الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»[٢٧٤]، فالمؤمن يبحث عن الحكمة، فيستمع إلى هذا وذاك، ولو كان منافقاً، فإذا تكلم بكلام فيه حكمة أخذها منه.

وورد كذلك عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال»[٢٧٥]، فالمنافق حين يكون كلامه جيداً نستفيد منه، فالعبرة في المضمون والفكرة وليست في الشخوص، فلا يخيفنا أي شخص كائناً من يكون في الاستماع إليه، فالمهم أن تكون الفكرة التي نأخذها منه فكرة صحيحة، طالما كانت لدينا مناعة ضد الفكرة غير الصحيحة من أن تؤثر فينا، وهذا أمر مهم جداً، لذلك نرى القرآن الكريم يدين بشدة الكفار والمشركين الذين لم يكونوا يستمعون إلى كلام الحق، ولو أنهم سمعوه لقبلوا به، وقد وصفهم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[٢٧٦]، تقصّ علينا هذه الآيات الكريمة شكوى نوح عليه السلام إلى

٢٧٣. العنكبوت: ٤١.

٢٧٤. نهج البلاغة ٤: ١٨ الحكمة ٨٠.

٢٧٥. المعيار والموازنة: ١٢.

٢٧٦. نوح: ٥ ٧.

ربه من قومه، بعد أن دعاهم ٩٥٠ سنة ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعاؤه لهم إلا نفوراً وإعراضاً وفراراً، ولم تكن دعوته لهم إلاّ أن يؤمنوا بالله تعالى ليغفر لهم، ولكنهم كانوا يهربون منه ويضعون أصابعهم في آذانهم لكي لا يسمعوه، ويغطون وجوههم بثيابهم كي لا يروه، لأنّ مجرد رؤيتهم له كانت تذكرهم بكلماته التي سمعوها منه سابقاً، وأصروا على عدم الاستماع. ثم يصف نوح عليه السلام فعلهم هذا بأنه استكبار كبير: «واستكبروا استكباراً»، فالقرآن الكريم يدين ظاهرة عدم الاستماع إلى الطرف الآخر.

إنّ سياسة الباب المفتوح والاستماع للرأي الآخر يجب أن تكون لأهل البصيرة، الذين يستطيعون التمييز بين الصحيح والخطأ، وبين الغث والسمين، فيتبعون أحسنه، ولكن إذا لم يكن الإنسان يمتلك هذه القدرة على التمييز في بعض الأحيان وتختلط عليه الأمور، ولا يمتلك الحصانة، ومن الممكن أن يقع فريسة للتضليل، من خلال كلام منمق لكن واقعه باطل، فلا ينبغي له أن يسلّم لما يسمع، وعليه البحث والسؤال والتوقف والتريث، إلى أن يحصل على اليقين الكامل بصحة دعوى الطرف المقابل.

إن الاستماع للآخر يقترن باحتمال وجود حكمة أو كلام مفيد لدى هذا الآخر، وليس كلاماً يقطر سمّاً، أو كلام من لا يعرف إلا الرذيلة والانحراف والضلال، فهنا لا ينبغي أن نستمع له حتى لو كان لدينا القدرة على التمييز، لأنّ الكلام الضال كالسم علينا أن نتجنبه، ولذلك يحرم بيع كتب الضلال وقراءتها، ونكتفي بقراءة أهل البصيرة ووصفهم لها بأنها كتب ضلال، فهذا يعتبر كالسمّ، ولكن إذا كان هناك كتاب فيه الجيد والرديء، وكانت لديك القدرة على التمييز وأخذ النافع منه، فلا ضير في قراءته.

﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾: إنّ أهل البصائر هم الذين يتمتعون بالهداية الإلهية، ومن كان من أهل البصيرة فله البشرى، وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، بسبب ما لديهم من القدرة على التمييز بفضل الهداية الإلهية، وهؤلاء هم أهل العقول.

إذن هناك هداية ظاهرية وهداية باطنية، والهداية الظاهرية هي العقل

والتدبر وعمق النظر، وهؤلاء هم أُولو الألباب. وأما الهداية الباطنية فهي النور والتسديد الإلهي والمدد الغيبي للإنسان حينما يكون من ذوي البصيرة؛ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ﴾، فالهداية إشارة إلى ذلك المدد.

إذن أهل البصائر يوفر لهم الله تبارك وتعالى الهداية الظاهرية، وهم أصحاب العقل والتدبر. والهداية الباطنية، وهم من يشملهم التسديد الإلهي والهداية الإلهية.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢٧٧].

يؤكد هذا المقطع القرآني المبارك أنّ البصائر التي هي البراهين والحجج تفتح أمامنا الآفاق، وتوضح لنا الحقائق، وتقيم علينا الحجة، لكي نعرف الحق وتصبح الحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٢٧٨]، لكي لا يقول أحد: لا أعرف.

قوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**﴾: يعني أنّ هذه البراهين والحجج تمنحكم البصيرة، وتمكنكم من تقويم الأوضاع والاتجاهات بشكل صحيح ودقيق.

قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ**﴾: من استفاد من هذه الحجج والبراهين والإشارات الإلهية، ومن امتثل للمشروع الإلهي والأوامر التي أمر بها الله سبحانه وتعالى، مثل هذا الإنسان يهتدي لنفسه، ويحقق ما يريد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا**﴾: والذي لا يريد أن يأخذ بهذه الحجج والبراهين والإشارات الإلهية، ولا يريد أن يكون مع مشروع السماء الذي حمله الرسل والأنبياء إلينا، والذي لا يتفاعل مع المشاريع الحقة الإصلاحية التي تنطلق وتنير الدرب للناس وتوضح لهم، مثل هذا الإنسان هو أعمى القلب، في قبال البصيرة. فإما أن يكون لدينا بصيرة، فقلوبنا

٢٧٧. الأنعام: ١٠٤ ١٠٥.

٢٧٨. الأنعام: ١٤٩.

تبصر وآذاننا تسمع وأعيننا ترى، وليس المقصود الرؤية العادية، بل المراد تحليل الأمور بشكل عميق ودقيق، وإما أن لا يكون لدينا بصيرة، فيصاب القلب حينئذ بالعمى والعياذ بالله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢٧٩]، أي قلوب لا ترى الحقائق ولا تتفاعل معها، والإنسان هو الذي يتحمل التبعات بشكل كامل، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يستطيع أن يرغمنا على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢٨٠]، فمهمة الرسول تنحصر في التبليغ والتوضيح وتبيين الطريق، والإنسان مخير بأن يذهب إلى البصيرة ومن ثم إلى الهداية، وإذا لم يستجب فهذا شأنه. إذن فالإنسان في حالات كهذه يكون مصاباً بعمى القلب، ولا يستطيع أن يستفيد من الحجج والبراهين الإلهية.

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ**﴾: يقدّم الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه الآيات بصور وأنماط شتى؛ لأنّ الناس أساساً مختلفون؛ فهناك من يمتلك مستوى ثقافياً أعلى، وهناك طبقات وشرائح ذات مستويات أدنى، وهناك مشارب مختلفة ومتنوعة. ومن أجل إيصال هذه الحجج والبراهين التي تمنح الإنسان البصيرة، وبالتالي الهداية التي هي من ثمرات البصيرة، فإنّ الله عز وجل يبيّنها بصور متنوعة، لكي يستطيع كل فرد من موقعه أن يرى الحق ويتمسك به بحجمه ومساحته وثقافته وبيئته إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ**﴾: هناك من ينكر ويعترض ويختلق الذرائع من أجل ألاّ ينسجم مع المشروع الرسالي والقبول بالحق، فقد اتهموا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه قد تعلم ما جاء به من الآيات من اليهود والنصارى، وأنه لم ينزل عليه وحي، وأنّه كاذب والعياذ بالله بما يدّعيه من نزول القرآن الكريم على قلبه. هكذا كانوا يشككون في ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد كانت هناك مجموعة صغيرة من أهل الكتاب في الجزيرة العربية، ولكن لم تكن الجزيرة العربية محطة لتبادل معرفي وعقيدي في خصوص

٢٧٩. محمد: ٢٤.

٢٨٠. النور: ٥٤.

أهـل الكتـاب حتـى يأخـذ منهـم رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه، وكذلـك فـإنّ رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه لـم يسـافر إلـى أماكـن أُخـرى ليتعلـم، فضـلاً عـن كـون العقائـد اليهوديـة والنصرانيـة تختلـف اختلافـاً أساسـياً عـن العقائـد التـي جـاء بهـا رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه ونسـبها إلـى السـماء، فهـذه جميعهـا أدلـة واضحـة علـى أنّ مـا جـاء بـه لـم يكـن عـن طريـق التلقـي مـن آخريـن، وإنمـا هـو وحـي مـن الله سـبحانه وتعالـى نـزل علـى قلـب رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه، ولكـن هنـاك مـن كان ينكـر ويعتـرض ولا يريـد أن يسـتجيب ويتفاعـل مـع المشـروع الرسـالي، فيتكلـم بمثـل هـذا الـكلام مـن بـاب تشـكيك الآخريـن لا أكثـر.

قولـه تعالـى: ﴿**وَلِنُبَيِّنَـهُ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ**﴾: ولكـن الـذي يتفاعـل ويصـل إلـى مقـام العلـم والبصيـرة ويتلقـى مشـروع السـماء، فنحـن نبينـه لـه، أي أنّ الهدايـة الإلهيـة هـي نتيجـة لهـذه البصيـرة.

الشـاهد الثالـث: قولـه تعالـى: ﴿وَمَـن يَعْـشُ عَـن ذِكْـرِ الرَّحْمَـنِ نُقَيِّـضْ لَـهُ شَـيْطَاناً فَهُـوَ لَـهُ قَرِيـنٌ وَإِنَّهُـمْ لَيَصُدُّونَهُـمْ عَـنِ السَّـبِيلِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُـم مُّهْتَـدُونَ حَتَّـى إِذَا جَاءنَـا قَـالَ يَـا لَيْـتَ بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ بُعْـدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْـسَ الْقَرِيـنُ وَلَـن يَنفَعَكُـمُ الْيَـوْمَ إِذ ظَّلَمْتُـمْ أَنَّكُـمْ فِـي الْعَـذَابِ مُشْـتَرِكُونَ أَفَأَنـتَ تُسْـمِعُ الصُّـمَّ أَوْ تَهْـدِي الْعُمْـيَ وَمَـن كَانَ فِـي ضَـلَالٍ مُّبِيـنٍ﴾[٢٨١].

يتحـدث هـذا المقطـع الشـريف عـن الآثـار المدمـرة للتعلـق بالدنيـا، وهـذه الآثـار تتجلـى بالغفلـة عـن ذكـر الله تبـارك وتعالـى والإعـراض عنـه، وهـي مصيبـة كبيـرة يصـاب بهـا الإنسـان.

قولـه تعالـى: ﴿**وَمَـن يَعْـشُ**﴾: أي يعـرض ويبتعـد عـن ذكـر الله تبـارك وتعالـى.

قولـه تعالـى: ﴿**عَـن ذِكْـرِ الرَّحْمَـنِ**﴾: يعنـي الله الـذي هـو الرحمـن، ورحمانيتـه سـبحانه وتعالـى تشـمل العالـم كلـه، والـذي لا يريـد أن يخضـع لرحمـة الله سـبحانه وتعالـى، يكـون معرضـاً عـن ذكـر الرحمـن.

قولـه تعالـى: ﴿**نُقَيِّـضْ لَـهُ شَـيْطَاناً فَهُـوَ لَـهُ قَرِيـنٌ**﴾: يلازمـه الشـيطان

٢٨١. الزخرف: ٣٦ ـ ٤٠.

ويهيمن عليه ولا يفترق عنه. أي أنّ حالة الملازمة والالتصاق التي تكون للشيطان، هي مع الإنسان المبتعد والمعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالى، فالابتعاد عن الله سبحانه وتعالى والإعراض عن ذكره، هو في الحقيقة ابتعاد عن البصيرة وسبب لهيمنة الشياطين عليه. وذهب بعض المفسرين هنا إلى أنّ المقصود بملازمة الشيطان هو الارتباط بالطاغوت، كالحاكم الجائر، وكل ظالم هو طاغوت، والإنسان الضال المضل طاغوت أيضاً، فمجاملة هؤلاء تجعلك من فريقهم، وهم شياطين يبعدونك عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

قد يقول قائل: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾، فيضله ويغويه، ومن يستطيع أن يقف أمام الإرادة الإلهية ويتخلص من هذا القرين؟ فالإنسان مجبور إذن على الضلال الذي هو فيه، بسبب ذلك الشيطان الذي وضعه الله معه.

والجواب: أنّ القضية ليست كذلك، لأنّ الإنسان بسوء فعله واختياره وإعراضه عن ذكر الله عز وجل وعدم تفاعله مع المشروع الرسالي، هو الذي يجعل غشاوة من الغفلة على عينه وسمعه، وحينما توجد هذه الغشاوة فإنها تؤدي إلى قسوة القلب، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٢٨٢]، وعندما يقسو القلب تكون البيئة شيطانية ويهيمن عليه الشيطان.

اذن نسبة الفعل إلى الله سبحانه وتعالى هي من باب أنّه سبب الأسباب، ولكن السبب في هيمنة الشيطان هو فعل الإنسان نفسه، وحاشا لله تبارك وتعالى أن يظلم فيقيّض للإنسان شيطاناً يرغمه على الضلال والانحراف، بل الإنسان بسوء فعله، عندما يعرض عن ذكر الله تعالى ولا يتفاعل مع مشاريع الإصلاح الحقيقية والمشروع الرسالي، يقع في شباك الشيطان فيهيمن عليه، وهذا كله نتاج لفعل الإنسان، ولذلك نجد في آيات قرانية أُخرى نسبة ذلك إلى تزيين الشيطان، وليس إلى الله سبحانه وتعالى. كما في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾[٢٨٣]،

٢٨٢. الزمر: ٢٢.

٢٨٣. النحل: ٦٣.

أي أنّ الشيطان يكون وليّهم، فالله تعالى وليّ الذين آمنوا، وأما الذين يعرضون عن ذكر الله عز وجل فإنّ الشيطان هو وليّهم، ويصبحون تحت ولاية الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾: يصرفونهم ويمنعونهم من العودة إلى الله. تأتي لحظات ينبض فيها قلب الإنسان بذكر الله تعالى، وفي مقطع زمني معين وفي أجواء معينة، ينتبه إلى حجم الانحراف الذي هو فيه، فيأسف وتدمع عينه ويرغب بالعودة إلى طريق طاعة الله سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان يقطع عليه الطريق ويجعل له مصدات ليجره من جديد.

والبعض منا ربما يقع في المعاصي والذنوب، ويألف المعصية، ولكن تأتي لحظات صحوة ضمير، ويريد أن يرجع إلى الله سبحانه وتعالى وينتشل نفسه، ثم يرى نفسه ضعيفاً أمام شهواته، لأنّ الإنسان حينما ينحرف ويهيمن عليه الشيطان، كلما أراد أن يرجع يمنعه الشيطان من الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾: فلا يكتفي بمنعه من الرجوع، بل يجد له مبررات للأفعال المنحرفة ويزيّنها له، كما قال تعالى: (وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)[٢٨٤]: أي كانوا من أهل البصيرة، ولكن نتيجة التماشي مع الشيطان انحرفوا وابتعدوا، فهنا أيضاً نجد الانحراف والابتعاد عن الله سبحانه وتعالى، وعدم العودة إليه.

تستمر عندهم حالة ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى اللحظة التي يعودون فيها إلى الله سبحانه وتعالى، وهي لحظة الموت ومفارقة الحياة، حيث تنكشف الحقائق، وينكشف لهم ما ارتكبوه من موبقات، ويشمون رائحتها النتنة ويرون شكلها المقزز فيصعقون، حين يرون الأمور على حقيقتها.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ

٢٨٤. العنكبوت: ٣٨.

الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[٢٨٥]: ما أسوأك من قرين. هذا الإنسان الضال يخاطب الشيطان ويقول له: كنت أمشي في طريق الطاعة إلى الله سبحانه وتعالى، حتى أتيت وأوقعتني في المعصية والرذيلة، ويبدأ الإنسان يكلم شيطانه الملازم له، وحينئذ يتحول هذا الإنسان إلى شيء نتن ومقزز، ولا يستطيع قرينه تركه، فهو ملازم له، وبعد أن تنكشف الحقائق لا يطيق الإنسان هذا الشيطان، ويتمنى أن يبتعد عنه بعد المشرقين، ويعني البُعد بين المشرق والمغرب، ويسمّى مشرقين لأنّه في اللغة العربية إذا كان لدينا أمران وأردنا تثنيتهما، فإننا نختار أحدهما ونثنّيه، كما في المشرق والمغرب فنقول المشرقين. أو ربما كان ذلك إشارة إلى كروية الأرض، إذ تكون المسافة بين المشرق الأول للشمس ومشرقها في اليوم التالي ضعف المسافة بين المشرق والمغرب.

ومع كل هذا العذاب فإنّ الشيطان الذي أضل هذا الإنسان يبقى ملازماً له ولا ينفك عنه حتى بعد اتضاح الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ**﴾: أي لا يفيدكم الندم في الآخرة، بعد ذلك الظلم الذي ارتكبتموه في الدينا، فالإنسان يتمنى العودة إلى الدنيا بمجرد خروج روحه من بدنه. فعلينا أن نبادر إلى تصحيح مساراتنا ونكون في طريق العبودية لله عز وجل، وذلك باختيار مشاريع الإصلاح الحقيقية والصحيحة.

قوله تعالى: ﴿**أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾: أي أنّ الإنسان شريك لقرينه في العذاب، ولكل منهما ما يستحقه من العذاب.

قوله تعالى: ﴿**أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾: هنا تنتقل الآية الى توجيه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وتقول له: إنّ المنحرف فقد السمع والبصر، بمعنى فقد أُذن قلبه وعينه، فأُذنه الظاهرة تسمع، ولكن أُذن قلبه لا تسمع، وعينه الظاهرة تبصر، ولكن عين قلبه لا تبصر، ومن كان عنده عمى القلب وصمم القلب، فليس لديه القدرة على أن يتلقّى الحقائق ويعيها قلبه، ولا

٢٨٥ . الزخرف: ٣٨.

يستطيع أن يكون معرضاً للهداية الإلهية، وهو في ضلال مبين. إذن من يفقد البصيرة يفقد الهداية، وهذا ما تشير إليه هذه الآية الشريفة.

وعلى غرار هذه الآية هناك آيات أُخرى في هذا السياق، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢٨٦]، أي كيف يمكن لك أن تُسمع من لا يسمع ولا يعقل وليس لديه بصيرة؟.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[٢٨٧]، أي كيف تستطيع أن تسمع الموتى؟ في إشارة إلى أنّ الإنسان الحَي عندما ينحرف يكون حاله كحال الميت، ولا يمكن أن يتأثر بالمشروع الرسالي، حينما يعرض ويبتعد عنه. إذن فهذه الآيات تعتبر الهداية أثراً من آثار البصيرة.

الهداية في الروايات

الرواية الأُولى: عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله قد استخلص الرسل لأمره، ثم استخلصهم مصدّقين لذلك في نُذُره، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، تاه من جهل، واهتدى من أبصر وعقل، إنّ الله عزّ وجل يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وكيف يهتدي من لا يبصر؟ وكيف يبصر من لم يُنذر؟»[٢٨٨]. أي من لَديه بصيرة يحظى بالهداية، إذن فالهداية أثر من آثار البصيرة.

الرواية الثانية: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «قد بُصِّرتُم إنْ أبصرتم، وأُسمعتُم إن استمعتم، وهُدِيتُم إن اهتديتم»[٢٨٩]، نرى الحقيقة ونطّلع عليها ونتقبّلها.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير

---

٢٨٦. يونس: ٤٢.

٢٨٧. النمل: ٨٠.

٢٨٨. الكافي ١: ٤٨ ح٣.

٢٨٩. نهج البلاغة ١: ٥٨ الخطبة ٢٠.

الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بُعداً»[٢٩٠]، الذي لا يمتلك البصيرة يسير في الطريق الخطأ، وكلما سار أسرع ابتعد أكثر، ولا يحصل على الهداية، فالبصيرة هي التي تحقق الهداية .

الرواية الثالثة: «روي أنّ رجلاً قال للحسين بن علي عليهما السلام: اجلس حتى نتناظر في الدين. فقال عليه السلام: يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف علي هداي، فإن كنت جاهلاً بدينك فاذهب واطلبه، ما لي وللمماراة، وإنّ الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين كي لا يظنوا بك العجز والجهل. ثم المراء لا يخلو من أربعة أوجه: إما أن تتمارى أنت وصاحبك في ما تعلمان، أو تجهلانه فأظهرتما جهلاً، أو تعلمه أنت فظلمت صاحبك، أو يعلمه صاحبك فتركت حرمته ولم تنزله منزلته»[٢٩١].

تبيّن هذه الرواية المباركة بوضوح أنّ طريق الهداية مكشوف وواضح لمن يمتلك البصيرة بالدين، أي أنّ البصيرة تحقق الهداية، وهذه البصيرة لا تتحقق بالمناظرات الفكرية العقيمة، التي لا توصل صاحبها إلى الحقيقة، لأنها من وساوس الشيطان الرجيم، ليبقى صاحب العقيدة الفاسدة متمسكاً بها في أجواء عاطفية مشحونة بالبغضاء والكراهية، فتأخذ المدافع عنها العزة بالإثم، ولا يستطيع التنازل عنها أمام الحق وإن كان جلياً وصريحاً، ومثل هذه المناظرات في حقيقتها داخلة في باب المماراة، التي لا تخلو من أحد وجوه أربعة هي: إما أن تتمارى أنت وصاحبك في ما تعلمان، وتتناقشا في قضية من أجل التباهي بعلمكما والظهور بمظهر الغالب أمام الناس، أو أن تتماريا في أمر تجهلانه معاً وليس لديكما علم به، فتكونان قد فضحتما نفسيكما بجهلكما، أو أن تتماريا في أمر تعلمه أنت ويجهله الآخر فتكون قد ظلمته، لأنك تريد إسقاطه أمام الناس، أو أن تتماريا في أمر تجهله أنت ويعلمه صاحبك، فتكون قد تركت حرمته ولم تنزله منزلته، ومعنى ذلك أنه عالم يجب أن تتعلم منه وتشهد له بالفضل والعلم.

---

٢٩٠ . الكافي ١: ٤٣ ح١.

٢٩١ . بحار الأنوار ٢: ١٣٥ ح٣٢.

الأثر الثالث

العبرة والاعتبار

تساعد البصيرة وهي الرؤية الثاقبة والوضوح الإنسان على العبرة والاعتبار، فيستلهم العبر مما يدور حوله ومن تجارب الآخرين في أزمان سابقة وأماكن أُخرى، وتكون له القدرة على اقتناص هذه العبر من الحوادث التي تحصل في حياته وحياة الآخرين.

العبرة في القرآن

هناك مجموعة من الآيات الكريمة فيها إشارة إلى أنّ أخذ العبرة هو أثر من آثار البصيرة، نذكر بعضاً منها:

الشاهد الأول: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[٢٩٢].

تُشير الآية الكريمة بشكل واضح إلى هذا الأثر المهم من آثار البصيرة، وقد سبق هذه الآية عددٌ من الآيات التي يُحذّر الله سبحانه وتعالى فيها الكافرين من الاعتداد بكثرتهم وأموالهم وإمكاناتهم والتعويل عليها، ويبيّن لهم خطأ تصورهم أنّ جميع الأمور تُنجز بالمال والرجال، إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[٢٩٣]، فلا المال ولا الأولاد تغني أولئك الكافرين من أمر الله سبحانه وتعالى، وهم وقود النار، فيا أيها الكافرون، ليكن عندكم ما عندكم من الأموال والإمكانات، وليكن لديكم ما لديكم من الرجال والجيوش والأبناء، فهذا لا ينقذكم من عذاب الآخرة، ولا يحسم

---

٢٩٢. آل عمران: ١٣.

٢٩٣. آل عمران: ١٠.

لكم الانتصار في ساحة المعركة؛ لأنّ عوامل الانتصار ليست كلها مادية، والعنصر المادي هو أحد عناصر الانتصار، ولكن هناك عناصر أُخرى قد تتغلب على عنصر المال والثروات والإمكانات والجيوش.

وبعد أن ذكر القرآن الكريم ذلك وحذّرهم من التعويل على إمكاناتهم وأموالهم ورجالهم، يأتي لهم بشاهد، ويذكر لهم مقطعاً عاشوه وعرفوه ورأوا كيف أنّ العدد والعدة والإمكانات لم تسعفهم في تحقيق الانتصار، ويشير لهم إلى معركة بدر في قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا**﴾: نذكّركم بحدث حصل لكم حينما التقى الفريقان؛ المؤمنون من ناحية تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله، والكافرون بأعدادهم الكبيرة التي جاؤوا بها من الناحية الأخرى.

وتذكر لنا النصوص التاريخية أنّ عدد المسلمين الذين قاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر كان ٣١٣ رجلاً، ٧٧ من المهاجرين و٦٣٢ من الأنصار، وكانت كل إمكاناتهم العسكرية سبعين ناقة، والناقة لا يُقاتل عليها وإنما يُقاتل على الخيول، وكان لديهم فرسان فقط، وست دروع، وثمانية سيوف، ففضلا عن قلة عددهم، تكاد الأسلحة أن تكون معدومة، فكانت الإمكانات المطلوبة للانتصار في هذه المعركة بحكم المعدومة. وأما الكفار فقد جاؤوا بألف مقاتل مدججين بالسلاح والعتاد والإمكانات المطلوبة، وكان لديهم مائة من الخيالة، وكان الجميع مسلحاً، ومع ذلك جاءت النتائج في هذه المعركة على خلاف المتوقع، فقد كان ضحايا المسلمين اثنين وعشرين شهيداً، أربعة عشر من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وكانت خسائر المشركين سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً، وهُزِموا شرَّ هزيمة.

وعندما ننظر من الناحية العسكرية إلى العدة والعدد نرى أنّ المعركة محسومة لصالح الكفار، ولكنها حُسِمت بشكل قاطع وكبير لصالح المسلمين.

ثم يشرح القرآن الكريم لماذا حسم الانتصار لتلك الفئة القليلة:

قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ﴾: فالمسلمون كانوا يُقاتلون عن بصيرة من أمرهم، ولديهم عقيدة، وإيمان، وفهم دقيق وعميق لطبيعة هذه المعركة وخلفياتها، فهم يقاتلون قربة إلى الله تعالى بسلاح العقيدة، أي كانت لديهم عقيدة تجعلهم أصلب من الجبال الرواسي.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾: أما الجماعة الأُخرى فلم تكن لديها بصيرة أو عقيدة صحيحة.

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾: يعني أنّ الله سبحانه وتعالى سدد خطاهم، وألقى الرعب في قلوب أولئك المشركين حتى رأوا الثلاثمائة ستمائة.

ونستطيع أن نفسّر هذا الأمر تفسيرا طبيعيا أيضاً، فالتسديد الإلهي موجود، وطبيعة العقيدة وتأثيراتها تحقق الانتصار أيضاً؛ لأنّ الإنسان حينما يدافع عن عقيدة، فإنه يقف ويقاتل بشراسة ويدافع عن قيمه وأرضه وعرضه ومقدساته ووطنه، دفاعاً مستميتاً.

وقد رأينا ماذا جرى في بلادنا وفي تجربتنا التي عشناها في السنتين الماضيتين؛ فقد هبَّ عدد من الأبطال لتلبية نداء المرجعية وهم غير مدربين، ولم يخوضوا حرباً من قبل، ومع ذلك جاؤوا يقاتلون بعقيدتهم حتى استطاعوا أن يهزموا ذلك الجيش الجرار المدجج بالسلاح، وبالماكنة الإعلامية الضخمة، وبتجارب حروب عديدة تمكنه من القتال بشراسة، ولكنه هُزِم أمام العقيدة الحقة لأبنائنا في الجيش والشرطة والحشد الشعبي وغيرها.

وفي جانب التسديد الإلهي نقرأ قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[٢٩٤]، أي أنّ الله تبارك وتعالى كان يُري عدد الكفار قليلاً في أعين المسلمين حين يشتبكون معهم، فلذلك تكون لديهم عزيمة في إلحاق الهزيمة بالعدو. وفي الوقت نفسه كان الله تبارك وتعالى يُقلل عدد المسلمين في أعين الكفار، حتى لا يتركوا ساحة القتال ويهربوا،

٢٩٤. الأنفال: ٤٤.

وليتشجعوا على خوض المعركة، ليقتلوا ويُؤسروا ويُهزموا وينكسروا، فيتحقق ما يريده الله تبارك وتعالى من انتصار المسلمين على الكافرين، فالله سبحانه وتعالى يؤيد بنصره من يريد، وإن كان عدد المسلمين ثلث عدد المشركين في بدر.

وطبعاً فإنّ المشيئة الإلهية ترتبط بالحكمة، ولا تتعلق مشيئة الله سبحانه وتعالى بشيء غير حكيم، والحكمة ترتبط بالاستحقاق، والمؤمن هو الذي يستحق النصر، ولذلك فإن تعلق المشيئة الإلهية بنصرة المسلمين لم يكن جُزافاً واعتباطاً، وإنما كان ناشئاً من حكمة الله تعالى، وحكمته تتطلب أن يُعطي النصر لمن يستحقه، والإنسان المؤمن صاحب العقيدة هو من يستحق النصر، فتحقق في معركة بدر نصران: نصرٌ عسكري بحسم المعركة لصالح المسلمين، ونصرٌ معنوي هو تحقق الوعد الإلهي، فقبل معركة بدر وعد الله سبحانه وتعالى المسلمين بالنصر، وانتصروا لأنهم كانوا على بصيرة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾: فالذي يمتلك البصيرة، ومن يمتلك الرؤية، يكون قادراً على الاعتبار، فصاحب العقل والبصيرة هو القادر على الاعتبار والاستفادة، فالعبرة إذن أثرٌ من آثار البصيرة.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[٢٩٥].

تُشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ الذي يمتلك البصيرة، والنظرة الفاحصة، ومن لديه القدرة على مراجعة التاريخ، وينظر إلى الأمم السابقة وما جرى عليها من محنٍ وآلامٍ وعذابٍ، تكون لديه القدرة على أن يعتبر.

فالبصيرة في مراجعة سير الأُمم السابقة علينا، وما جرى عليها من الهلاك والعذاب، تجعل الإنسان في موقع الاعتبار من هذا الواقع.

قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ**﴾: أي ألم

٢٩٥. طه: ١٢٨.

يعتبروا من الأُمم السالفة التي أبادها الله سبحانه وتعالى، ولم تبق منهم سوى آثار تدلل على وجودهم في تلك الأماكن في القرون الماضية.

قوله تعالى: ﴿**يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم**﴾: أي عندما يمشون في مساكن الأقوام السابقين، في قصورهم السابقة ومدنهم، عندما يذهبون إلى اليمن ويرون آثار قوم عاد، وعندما يذهبون إلى الشام ويرون آثار قوم ثمود، وعندما يذهبون إلى فلسطين ويرون آثار قوم لوط.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**﴾: في جميع هذه القصص، وفي جميع هذه الأماكن التي يمشون فيها، في جميع هذه الشواهد التي تذكرنا بالأمم السابقة، آيات للعبرة والاعتبار لذوي العقل والبصيرة، أي من لديه بصيرة يجد في ذلك محلاً للاعتبار فيعتبر ويستفيد؛ لأنّ البصيرة تحقق الاعتبار.

ويمكن أن نجد هذا المعنى في آيات أُخرى فيها إشارات إلى أنّ الاعتبار أثرٌ من آثار البصيرة، كقوله تعالى: ﴿يقلّب الله الليل والنهار إنّ في ذلك لعبرة لأُولي الأبصار﴾[٢٩٦]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٢٩٧]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٢٩٨].

العبرة في الروايات

تناول أهل البيت عليهم السلام في أحاديثهم هذا الأثر للبصيرة، نستعرض بعضاً منها:

الرواية الأُولى: عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه

٢٩٦. النور: ٤٤.

٢٩٧. الحشر: ٢.

٢٩٨. هود: ٢٤.

وآله قال: (فالعبرة تورث صاحبها ثلاثة أشياء: العلم بما يعمل، والعمل بما يعلم، وعلم ما لم يعلم. والعبرة أصلها أول يُخشى آخره، وآخِر يُحقق الزهد في أوله. ولا يصح الاعتبار إلاّ لأهل الصفا والبصيرة)[٢٩٩].

يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث المبارك ثلاثة آثار للعبرة:

الأثر الأول: العلم بما يعمل، أي حينما يعتبر الإنسان تصبح لديه رؤية واضحة عما يعمله، وقدرة على تحليل مواقفه، وتحليل الظواهر المحيطة به؛ لأن سنن الحياة تتكرر، كما ورد ذلك في قوله تعالى: (فلن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلاً)[٣٠٠]، أي أنّ سنّة الله تعالى ثابتة لا تتغير، وإن تغيرت الأسماء والوجوه والأزمنة، فسنن الحياة ثابتة لا تتغير.

الأثر الثاني: العمل بما يعلم، أي نتيجة هذه العبرة يتولد لديه الدافع للعمل، ولذلك علينا أن نعمل بما نعلم، لكي لا نقع في ما وقع فيه أُولئك الذين لم يعملوا.

الأثر الثالث: علم ما لم يعلم: أي من خلال الاعتبار تصبح لديه معرفة جديدة؛ لأنّ الاعتبار مدرسة تُعرفنا الكثير من الحقائق التي علينا أن نعرفها ونعيها.

ثم يتطرق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصل العبرة، وأنها تتألف من أول وآخِر، فهي (أول يُخشى آخِره)، أي أنّ الأُمور بخواتيمها، فمثلاً كان الشمر بن ذي الجوشن من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، قاتل معه في صفين، ولديه تاريخ زاخِر بالجهاد والتضحية والعطاء، ولكنه ختم هذا التاريخ بأنّ قاد الجيش الأُموي لحرب سيد الشهداء عليه السلام، ثم نزوله بنفسه لذبحه بعد أن أحجم عنه الناس.

ومثال على خلاف المثال الاول؛ هو الحر بن يزيد الرياحي، فقد تربى وترعرع في أكناف بني أُمية، وكان محسوباً على الجيش الأموي، وتدرج في هذا الجيش حتى أصبح قائداً عسكرياً كبيراً، ولكنه في يوم عاشوراء

٢٩٩. بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٦ ح٢١.

٣٠٠. فاطر: ٤٣.

حصل على البصيرة وانتقل إلى ضفة الحسين عليه السلام وقاتل معه حتى استُشهد.

والعبرة أيضاً (آخر يُحقق الزهد في أوله)، أي حينما نكون في النهايات يجب أن يكون نظرنا الى البدايات، وحينئذ سنزهد في ما كنا حريصين عليه في الابتداء، ولذا يجب علينا أن نعمل بطريقة، بحيث حينما نعود إلى الوراء وننظر إلى أفعالنا السابقة لا نندم عليها، فمن يتسلح بالاعتبار وكان في أول الفعل، يجب عليه أن يكون نظره دائماً الى النهايات، لأنّ الأُمور بخواتيمها.

ثم يبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الاعتبار لا يتحقق لكل أحد، بل هو خاص بأهل الصفاء والبصيرة، كما قال الله عز وجل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٣٠١]، وقال جلّ اسمه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٣٠٢]، أي أنّ القلب فيه عين، فالذي يفتح الله عين قلبه يرى ويبصر ما لا يراه من كان أعمى القلب، وهو القلب الذي طُبع عليه والعياذ بالله، فهناك قلوب مقفلة دون ذكر الله عز وجل، وهناك قلوب منفتحة على الحقيقة.

الرواية الثانية: عن علي عليه السلام قال: (أحذروا الدنيا، ففي حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وأولها عناء، وآخرها فناء، من صح فيها هرم ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن ومن أتاها فاتته، ومن بعد عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن بصر بها بصرته، إن أقبلت غرت، وإن أدبرت ضرت)[٣٠٣].

يحذّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الرواية الكريمة من الدنيا لما فيها من الخصال المذمومة، ثم يبيّن أربع عشرة خصلة منها كالآتي:

في حلالها حساب: فالإنسان يُحاسب يوم القيامة على ماله الذي كسبه بطرق مشروعة فيمَ أنفقه، فيثاب إن كان قد أنفقه في الحلال، ويعاقب إن أنفقه في الحرام.

في حرامها عقاب: أي إذا كان الإنسان قد حصل على مال بطريق غير

٣٠١. الحشر: ٢.

٣٠٢. الحج: ٤٦.

٣٠٣. بحار الأنوار ٧٥: ٢٣ ح٨٨.

مشروع فإنه يعاقب عليه وإن أنفقه في الحلال.

أولها عناء: فمسيرة الدنيا مليئة بالعناء والتعب والشقاء، وهي لا تصفو لأحد وإن ملك الدنيا.

آخرها فناء: إن الدنيا مصيرها إلى الانتهاء والفناء، وهي لا تدوم لأحد، ولا بد لمن جاءها من أن يخرج منها.

من صح فيها هرم: أي من كان فيها سليم البدن معافى من الأمراض، طال عمره ونكّس في خلقه وصار شيخاً كبيراً ضعيفاً لا يقوى على إدارة شؤون حياته.

من مرض فيها ندم: يتحسر على ما فاته منها أيام صحته.

من استغنى فيها فُتن: يعني يعرّض فيها للامتحان، فيُبتلى بالوجاهة والإمكانات والفرص.

من افتقر فيها حزن: فإن عاش فقيراً قليل المال كان حزيناً كئيباً لعجزه عن تحقيق السعادة فيها.

من أتاها فاتته: فطبيعة الدنيا أنها كلما كرست لها وقتك أكثر ابتعدت عنك.

من بعد عنها أتته: كلما زهدت فيها أكثر أتتك طائعة.

من نظر إليها أعمته: أي من اهتم بها أعمت قلبه.

من بصر بها بصّرته: أي أعطته العبرة والاعتبار، فمن امتلك البصيرة في التعامل مع الدنيا، مكّنته من أخذ العبرة منها.

إن أقبلت غرت: إذا أقبلت الدنيا على أحد أصابته بالغرور.

إن أدبرت ضرت: وفي إدبارها ضرر بالإنسان؛ لأنه يرى نفسه معزولاً عن الفرص التي يطمح اليها ويتمناها.

ولكن ليس معنى ذلك أن نترك الاستمتاع بالدنيا ولذاتها، بل المقصود هو ألاّ تكون الدنيا أكبر همّنا، وأن يكون سعينا فيها ضمن الموازين الشرعية والصحيحة. إذن فالبصيرة هي التي تحقق العبرة والاعتبار، وهذا أثرٌ من آثارها.

الأثر الرابع

الحكمة

الحكمة هي وضع الشيء في موضعه الصحيح ، وينظر من يتمتع بها إلى الأُمور بطريقة عقلانية ، وليست انفعالية ، وهي أثر عظيم من آثار البصيرة ، ويدل عليه عدد من الآيات والروايات نقف عند بعضها .

الحكمة في القرآن

تطرق القرآن الكريم في مجموعة من آياته إلى الحكمة باعتبارها أثراً من آثار البصيرة .

الشاهد الأول : قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتي هيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٣٠٤] .

يتحدث هذا المقطع القرآني الكريم عن الخطوات العشر المطلوبة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، فالإنسان حينما يتحمل أعباء الرسالة ويدعو الآخرين إليها ، فهناك عشر خطوات يستعرضها القرآن الكريم ينبغي علينا مراعاتها :

الخطوة الأُولى : الحكمة : حينما تريد أن تدعو إلى الحق وتروّج للمشروع الرسالي ، وتوصل مشروعك وأفكارك إلى الناس ، عليك أن تطرحها باعتماد الحكمة ، أي تكون حكيماً في طرحك ، وتستدل عليها ، وتناغم عقول الناس الذين تخاطبهم وتتفاعل مع المنظومة ، وأن تعمل

٣٠٤ . النحل : ١٢٥ ١٢٧ .

جاهداً في إيصال هذا المشروع بطريقة يتفاعل الناس معها. وعليك تجنّب الانفعالات، وتجنّب الأساليب الرخيصة في الدفاع عن أفكار حقة، فهذا لا يصح. إذا كان مشروعك راقياً وأفكارك راقية ومتبنياتك حقة، فعليك أن تسوّقها وتعرّف الآخرين بها بطريقة راقية، ومن خلال الحكمة واعتمادها في التعاطي.

الخطوة الثانية: الموعظة الحسنة: عليك أن تعظ الناس وتحفز مشاعرهم، لأنّ الموعظة تعبّر عن الجانب العاطفي الذي يعني استنفار المشاعر والأحاسيس وتحريكها وتجييشها في الاتجاه الصحيح نحو المشروع الرسالي والاصلاحي. وإذا كانت الحكمة تشد العقل، فإنّ العظة تشد القلب. ولهذا إذا أردت أن تكون مؤثراً في المجتمع وتثقف بمشروعك الإصلاحي والرسالي الصحيح، فعليك استعمال الحكمة والموعظة معاً، فالشعائر الدينية التي نقيمها وفي طليعتها الشعائر الحسينية صممت في الرسالة الإسلامية على أساس التوفيق بين العقل والقلب، لأنّ فيها مضموناً وتحليلاً وبياناً للمعلومات، بالإضافة إلى الجانب العاطفي.

وكذلك صلاة العيد التي من قوامها وجود خطبتين للصلاة، يشرح فيهما إمام الصلاة للناس شؤون دينهم ودنياهم، وكذلك شعائر المجلس الحسيني، إذ نرى الجانب العقلاني حاضراً فيها من حيث المضمون والرسالة والرؤية والفهم العميق الذي يضخ للناس، بالإضافة إلى الجانب العاطفي من الحزن والألم عندما يسمع الإنسان ما حلّ بسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام من مصاب جلل.

إن هذا التعاطف الإنساني والوجداني يجعلنا ننجذب إلى الرسالة التي ضحى من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، فسقط وأهل بيته وأصحابه شهداء في كربلاء، والحسين عليه السلام لم يذهب ليقتل صدفة، وإنما عبّر عن مشروعه حينما قال: (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر)[٣٠٥]، فهو مشروع قد أوجد صدمة اجتماعية وتغييراً جوهرياً ونوعياً يهدف إلى تقويم الانحراف الذي ألمّ بالمجتمع، وقد

٣٠٥. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

جرت مفاوضات كثيرة مع سيد الشهداء عليه السلام للتنازل عن مشروعه، مقابل أن يحظى بكل الامتيازات والإمكانات والوجاهات التي كان الحاكم مستعداً لأن يقدّمها، لكن الإمام الحسين عليه السلام رفض التنازل والتضحية بمشروعه. هذا بالإضافة إلى أن الشعائر الحسينية تهدف إلى استنفار العاطفة. ولذلك فإنّ معيارنا دائماً في الشعائر هو أنّا لا نسمّي الممارسة شعائرية إلا إذا توفر فيها أمران:

الأول: الرسالة الهادفة، وهي تمثل البعد العقلي.

الثاني: تعبير ينسجم مع طبيعة المأساة التي مرت على سيد الشهداء عليه السلام.

وأي ممارسة تفتقد لأحد هذين الركنين لا تعد من الشعائر، كما لو كان فيها عقلنة وفلسفة وليس فيها عاطفة، أو كان فيها عاطفة ولكنها خالية من الرسائل الهادفة.

إذن لا يكفي في ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أيُّ موعظة، بل نلاحظ أنّ القرآن الكريم يقيّد الموعظة بالحسنة، وليست أي موعظة، بل يجب أن تكون الموعظة حسنة.

ولعل وصف الموعظة بالحسنة إشارة إلى شروط التأثير في الموعظة، وتكون الموعظة مؤثرة حينما تصدر من إنسان متعظ، كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٣٠٦]، فإنّ من يعظ الناس بأمور لا يتعظ هو بها لا يمكن أن تؤثر موعظته في الناس.

ويجب أن تطرح الموعظة بطريقة لينة، فإنها إذا كانت شديدة فلن تؤثر في الناس، ولن تجدي الموعظة نفعاً إذا كان صاحبها يحمل السوط في يده، وهو يقول لهم: توقفوا عن فعل هذا الأمر، أو افعلوا ذلك الأمر، لذلك نحتاج إلى موعظة تقدم بأسلوب يسير للمتلقي والمتعظ لكي تدخل إلى قلبه ويقتنع بها ويؤمن بها ويأخذ بها.

---

٣٠٦. البقرة: ٤٤.

ويجب أن تبتعد الموعظة عن حالات التهكم والتحقير للمتلقي، وإنما يجب أن توقره، ومن هنا يجب أن تكون الموعظة لشخص معين على انفراد، وليس أمام الآخرين، كما لو كنت تريد أن تعظ شخصاً وتنصحه بإقامة الصلاة، فإنك لو فعلت ذلك أمام الناس فقد كسرته اجتماعياً، فهذه ليست موعظة ناجحة ومؤثرة، بل يجب الخلوة به بمعزل عن الناس، أو تهمس في أُذنه بنحو لا يمكّن الآخرين من سماع ما تقوله له، وتشرح له أهمية الصلاة وضرورة إقامتها، وتبيّن له الخطأ الذي يرتكبه بتركه لها، وعاقبة ذلك في الآخرة.

إذن فالموعظة الحسنة هي الموعظة التي تتسم بشروط التأثير، وكل خطوة تجعل التأثير معدوماً لا تسمّى موعظة حسنة، فالموعظة الحسنة هي الموعظة المؤثرة، وما أكثر المواعظ التي تفقد التأثير، بل بعضها يترك أثراً عكسياً، وربما جاءت في ظروف تدفع الآخر الى العزة بالإثم واللجاج والإصرار على خطئه، ليس حباً بالخطأ، وإنما لكسر الواعظ الذي وعظه بطريقة خاطئة أمام المجتمع وحقّره وأهانه.

الخطوة الثالثة: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي ناظرهم، والمطارحة الفكرية تارة تكون مع شخص خالي الذهن من أي عقيدة سيئة، وليس لديه قناعات خاصه به، فمن الممكن أن يتأثر بالموعظة الحسنة، وتارة أُخرى تكون مع شخص مشبع بقناعات معينة، وتصطدم أي موعظة بقناعاته الشخصية فلا يتأثر بالواعظ لامتلاكه رؤية معينة، ومن تتم نصيحته على خلاف قناعته لا يأخذ بالنصيحة، وهنا يجب أن يتم تفكيك القناعة من خلال المطارحة الفكرية والمناظرة التي نقيمها معه، ونقوم بتفكيك قناعته الخاطئة وتهديمها حتى تزول، فيزول الظلام ويحل النور محلة، وحينئذ تؤثر الكلمات في قلبه وعقله.

فالعقل والعاطفة والموعظة الحسنة مراتب متكاملة ومتعاقبة لضمان التأثير في الطرف المقابل، وإذا كانت هناك قناعات أُخرى فعليك أولاً بالمناظرة الفكرية لإزالة الخطأ من أجل التأثير فيه بالحكمة، ولكن الجدال يجب أن يكون بالتي هي أحسن أيضاً، أي الجدال بالأحسن، ويعني الجدال بالأحسن أن تكون عادلاً وحقانياً حتى بالمطارحة الفكرية،

ويجب أن تتجنب الاتهامات الباطلة وقول غير الحق ولو كان لغاية حقة، فليس في قاموسنا (الغاية تبرر الوسيلة)، بل نحن نقول: يجب أن تكون الوسائل من جنس الغايات، فالغاية النبيلة يجب أن تتحقق بوسائل سامية وشريفة، ولذا يجب أن يكون الجدال على أُسس صحيحة، وليس على أساس المغالطات، حتى إن انطلت هذه المغالطات عليه وآمن بالفكرة الصحيحة، لكنها تبقى مغالطة، وقد دفعته إلى الإيمان بفكرة صحيحة بوسائل غير صحيحة.

فالمجادلة بالتي هي أحسن يجب أن تكون بوسائلٍ صحيحة، وتراعى الأمانة العلمية، والأمانة العلمية تتطلب أن تكون صادقاً حتى عندما تتعامل مع أفكار تعاديها وتعتبرها ضالة ومضلّة ومنحرفة، ولذلك قام علماؤنا كالإمام الشهيد الصدر في كتابيه (اقتصادنا) و (فلسفتنا) بطرح الأفكار الأُخرى وشرحها بطريقة أبهرت أصحابها والمؤمنين بها أنفسهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على توضيحها بهذا الشكل، وكانوا حينما يقرؤون ما يقوله الشهيد الصدرعن نظرياتهم يشعرون بأنه كان أميناً في نقل أفكارهم، بل زاد على ما كانوا يعتقدون بالاستدلال لهم بأدلة جديدة، ثم يفندها وينقضها نقضاً علمياً على أُسس منطقية متينة، لا يسع المنصف إلا التسليم بها، وهذه هي الأمانة العلمية.

وفي الجدال يجب تجنب الإهانة والتحقير والإساءة والمغالطات والتعامل بتعالٍ مع الآخر الذي نجادله.

ويجب علينا أن نتحلى بهذه الصفات الثلاث؛ لأنها روافد أساسية في إبلاغ الرسالة والمشروع الإصلاحي، وهي: أولاً: الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، وثانياً: الدعوة إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة، وثالثاً: الدعوة إلى سبيل الله بالجدال بالتي هي أحسن.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى أعرف بمن يمتلك البصيرة ليكون حكيماً ومتعظاً وقادراً على الجدال بالتي هي أحسن.

إذن فالحكمة أثر من آثار البصيرة والوضوح في الرؤية، وحينما يكون الإنسان بصيراً يكون قادراً على أخذ الحكمة والتعامل معها.

الخطـوة الرابعـة : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُـمْ فَعَاقِبُـواْ بِمِثْـلِ مَـا عُوقِبْتُـم بِـهِ﴾ : إذا لـم تنفـع الحكمـة والموعظـة الحسـنة والجـدال مـع العـدو ، وشـهر بوجوهنـا السـيف وظلمنـا ، فحينئـذ ندخـل مرحلـة جديـدة مـا دامـت الوسـائل السـلمية غيـر ممكنـة التأثيـر فيـه ، واسـتنفدت هـذه الوسـائل أغراضهـا دون جـدوى ، ولـم يعـرف العـدو البحـث عـن العقـل والعاطفـة والجـدال ، وجـاء منتقمـاً ومتشـفياً ليقاتلنـا ، فعلينـا أن نقـف بوجهـه ، ولكـن حتـى عنـد الوقـوف بوجهـه هنـاك ضوابـط شـرعية وأخلاقيـة وإنسـانية فـي التعاطـي مـع العـدو تجـب علينـا مراعاتهـا ، فـلا يجـوز أن نجـور عليـه ، وعلينـا أن نضبـط إيقاعنـا ، وألاّ تكـون ردود أفعالنـا أشـد مـن فعلـه ؛ لأنـه ليـس لدينـا فعـل الاعتـداء ، ولا نسـتخدم القـوة إلا كـردّ فعـل ضـد الآخريـن الذيـن يسـتعملونها ضدنـا ، وليس لنـا أن نبـادر باسـتعمالها إلاّ عندمـا ندافـع عـن أنفسـنا ، لأنّ جهادنـا هـو جهـاد دفاعـي لا ابتدائي ، فالأسـاس هـو أن نثقـف حَمَلَـة مشـروعنا باسـتعمال الحكمـة والموعظـة الحسـنة والجـدال بالتـي هـي أحسـن ، وإذا مـا اسـتخدم الآخـر الوسـائل العنفيـة والمسـلحة ، فعلينـا أن نـردّه بمقـداره ، لا أن نـردّ الصاع بصاعيـن ، فهـذا ليـس منهجـاً إسـلامياً ، بـل المنهـج الإسـلامي هـو : (وإن عاقبتـم فعاقبـوا بمثـل مـا عوقبتـم بـه) ، ليـس أكثـر ، فيجـب أن تكـون دفاعاتنـا بقـدر الفعـل ، ويجـب أن تكـون ردود أفعالنـا بقـدر الإسـاءة التـي نتعـرض لهـا . إنّ ضبـط الإيقـاع والسـيطرة علـى النفـس ومراعـاة العدالـة والقيـم الإنسـانية مسـألة مهمـة جـداً فـي المنهـج الإسـلامي .

الخطـوة الخامسـة : ﴿وَلَئِـن صَبَرْتُـمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّابِريـنَ﴾ : أي أنّ الأفضـل مـن الـردّ بالمثـل ومواجهـة الاعتـداء بالاعتـداء ، هـو الصبـر علـى مـن اعتـدى علينـا ولـم تنفـع معـه الحكمـة والموعظـة الحسـنة والجـدال بالتـي هـي أحسـن ، وأن نـردّ السـيئة بالإحسـان .

وقـد نزلـت هـذه الآيـة الشـريفة ﴿وَلَئِـن صَبَرْتُـمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّابِريـنَ﴾ فـي غـزوة أُحـد ، عندمـا مُنـي المسـلمون بانكسـار عسـكري كبيـر ، وكان عـدد الضحايـا البشـرية كبيـراً ، وكانـت الخسـائر الماديـة كبيـرة أيضـاً ، وكان أحـد أهـم الشـهداء فـي معركـة أُحـد هـو حمـزة بـن عبـد المطلـب عـم رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه ، هـذا الرجـل العظيـم والقائـد العسـكري الكبيـر ذو الشـخصية

المرموقة بين المسلمين، ولم يكتف العدو بقتله، بل مثلوا به وبقروا بطنه وأخرجوا كبده[٣٠٧] أو قلبه[٣٠٨] على اختلاف الروايات، والمعروف أنّ (هند) زوج أبي سفيان هي التي أخرجت كبد حمزة ولاكته، وقطعوا أُذنه وأنفه، وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله ووقف عليه ورآه بهذه الحالة، تحرك الدم الهاشمي في عروقه صلى الله عليه وآله وقال: (مثّلوا بحمزة، لأُمثلنّ بثلاثين منهم)[٣٠٩]، وفي رواية أُخرى: (بسبعين منهم)[٣١٠]، فنزلت هذه الآية الشريفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (بل أصبر)[٣١١].

وقد وفى رسول الله صلى الله عليه وآله بوعده، عندما دخل مكة فاتحاً منتصراً على المشركين الذين حاربوه في أُحد وغيرها، وقتلوا وأساؤوا، فلم يعاقبهم ولم يردّ عليهم بمثل ما فعلوا، وكل ما فعله معهم بعد دخوله مكة فاتحاً أنه قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)[٣١٢]، فجعل لأبي سفيان الذي كان زعيم المشركين في مكة منزلة تكريم في الظاهر، وإهانة وإذلال في الباطن، لأنّ الزعيم يبقى آخر المقاومين، لا أول المستسلمين.

لقد قضي الأمر الذي احتدم النزاع حوله بين قريش والمسلمين، وانتهى باستسلام ذليل لقريش أمام جيش المسلمين الزاحف نحو مكة، ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله البيت الحرام ورفع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على كتفه الشريف وحطّم أصنامهم، ومرغ أُنوفهم بالتراب، وجاء المسلمون برجالات مكة أُسارى، وأوقفوهم في حرارة الشمس اللاهبة أذلاء أمام رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لهم: (ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[٣١٣]، وانتهى إلى الأبد جبروت الشرك وكبرياؤه، ولم يعد

٣٠٧. بحار الأنوار ٢٠: ٥٥، الطبقات الكبرى ٣: ١٢.
٣٠٨. نور البراهين ٢: ٤٢٩.
٣٠٩. ذخائر العقبى: ١٨٣.
٣١٠. بحار الأنوار ٢٠: ٦٣، شرح الأخبار للقاضي المغربي ٣: ٢٣١.
٣١١. المحرر الوجيز ٣: ٤٣٢.
٣١٢. بحار الأنوار ٢١: ١٢٩.
٣١٣. بحار الأنوار ٢١: ١٠٦.

أحد من المشركين يستطيع الوقوف أمام انتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وهكذا انتشر الإسلام وانتشر المشروع الرسالي.

ولكن هل نحن أهل انتقام وتشفٍّ؟ وهل نبحث عن ثأر لأنفسنا وشخوصنا؟ حاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يثأر لنفسه، فهو أعظم من ذلك، ولم يكن يصدر منه في نشوة الانتصار العظيم إلاّ العفو. وقد كان أساس موقفه هذا، هو هذه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتي هيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِه وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، ولكن عندما قاتلوه قاتلهم لكي يمضي في مشروعه الرسالي قدُماً إلى الأمام، وفتح مكة ومضى المشروع، وكانت لأبي سفيان مع عدد من زعماء المشركين عقدة من الإسلام، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن لديه أي مشكلة مع هؤلاء، فتعامل معهم بأُسلوب استطاع من خلاله أن يحوّل طاقتهم السلبية إلى طاقة إيجابية، وكان لسهم المؤلفة قلوبهم تأثير في تحييدهم، وعلينا أن نتعلم هذه الدروس القرآنية.

الخطوة السادسة: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾: تشير هذه الآية الكريمة إلى الأثر السحري للصبر، بشرط أن يكون الصبر لله سبحانه وتعالى بدون شروط وإملاءات. لقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصل إلى هذه الدرجة الرفيعة من الصبر، فصبر وهو يرى أُولئك المسلمين الذين قتلوا كالأضاحي على أيدي المشركين قبل الهجرة، كياسر وسمية وغيرهما من ضعفاء المسلمين، وصبر وقد مثّلوا بعمه حمزة وأخرجوا قلبه ولاكوه بأفواههم القذرة، ولكن كان هذا هو تكليفه فأطاع وصبر.

قوله تعالى: **﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾**، الحكمة هي المنطق، والاستدلال، واعتماد العقل، أي استنفر المنظومة الفكرية في المجتمع، وخاطب عقول الناس، واشرح لهم مشروعك لكي يأخذوا به.

قوله تعالى: ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾، الموعظة ترتبط بالبعد العاطفي؛ تجييش العواطف والمشاعر باتجاه الهدف الصحيح، وهذه الحالة تكاملية بين العقل والقلب، بين الحكمة والعظة، فالحكمة منهجٌ عقلي، والموعظة منهجٌ عاطفي، إذن فالإنسان عليه أن يستنفر وسائل العقل المتمثلة بالحكمة، ووسائل القلب المتمثلة بالعاطفة، من أجل تسويق المشروع الإصلاحي والرسالي الذي يتبناه.

قوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾، هناك مجموعات مشبعة برؤية، ولديها انطباعات ومعتقدات ومتبنيات، ولا تتقبل الفكرة حينما تطرحها عليهم، وعليك أن تُفكك تلك المتبنيات الخاطئة، وأن تشعرهم بأنّ انطباعاتهم وقناعاتهم ليست صحيحة، وكثيراً ما يحدثنا القرآن الكريم في قصص الأنبياء عن المخالفين من الأمم، الذين يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم، وينغلقون على موروثهم، وهنا نحتاج إلى تفكيك؛ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، من أجل تفكيك هذه القناعات، ثم يُشير ذيل الآية إلى الدليل لهذه المسارات الثلاثة:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾، ما يتحكم بمسار الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن هو حالة الهداية أو الضلال، فالبصيرة هي التي تدفع الإنسان ليستخدم أسلوب وأدوات الحكمة والمنهج العقلي ويؤثر بها ويتأثر بها، إذن فالبصيرة، أو الرؤية الثاقبة، هي التي تُمكن الإنسان من اعتماد الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**﴾، هنا ينتقل القرآن الكريم إلى تطور الموقف؛ فإذا لم تنفع الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن أو تؤثر، فعليك أن ترده، وأن تُدافع عن نفسك، ولكن لا ترد الصاع بصاعين، إذ يجب أن يكون رد الفعل مساوياً للفعل الاعتدائي المتجاوز، ولذلك يضع القرآن الكريم منهج اعتماد الوسائل السلمية في تحقيق الغايات، فالأساس هو الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وإذا لم ينسجم الآخر مع الوسائل السلمية واستخدم الوسائل العنفية أو المسلحة فعليك أن تواجهه، ولكن حتى في

المواجهة يجب أن تكون هذه المواجهة منسجمة في حجمها وفي طبيعة تفاصيلها مع طبيعة العدوان، ولا تكون أكثر من ذلك.

يجب ألاّ تتمادى في رد الصاع بصاعين لأنك لست ثأرياً، فالانتقام والتشفي والثأر ليست من شيم الإسلام، ونحن لا نثأر لأنفسنا بل نُوقف اعتداء الأعداء، وحينما نُريد أن نوقف الاعتداء فعلينا أن نستخدم قوة توازي قوة الطرف الآخر، ليعرفوا أنهم غير قادرين على تحقيق غرضهم ويعودوا إلى رشدهم، فحتى حمل السلاح والقتال ضد الآخر هدفه إرجاعه إلى رشده وهدايته.

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾، حتى في موارد الاعتداء، إذا كانت هناك فرصة أن تصبر على هذا الاعتداء وتتحمله، وتستخدم وسائل سلمية لإيقاف هذا الاعتداء، فهذا أفضل من أن تذهب إلى رد الاعتداء باعتداء، إلاّ إذا كنت عاجزاً عن ذلك، ووصلت القضية إلى لحظة لا تستطيع فيها أن تدفع الاعتداء بوسائل سلمية، فحينذاك تذهب إلى استخدام القوة.

قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ**﴾، إنّ هذا الصبر، والصفح، والتسامح، يجب أن يكون لله سبحانه وتعالى، وليس لضعف، أو جبن، أو بسبب قلة الحيلة وعدم القدرة على الرد، وإنما تصفح وتتسامح من موقع الاقتدار والتأثير، والعفو عند المقدرة، فحينما تكون متمكنا من النيل من العدو، حينذاك تلتزم طريق العفو، والصفح، والتسامح.

لقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله المشركين قتالاً شديداً في غزواته حتى وصل إلى فتح مكة، وحينما فتحها انهارت حصون الأعداء، ولم يبق لهم حصنٌ من الحصون، وهنا قال صلى الله عليه وآله: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)، وهنا قال صلى الله عليه وآله: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، فكان العفو بعد المقدرة وليس قبلها، فما دام العدو قوياً ومتشبثاً ويحمل السلاح بوجهك، عليك أن تُقاتله ببسالة، ولكن في اللحظة التي تنتصر عليه فيها، عليك أن تمضي في المشروع الرسالي ولا تنشغل في التفاصيل الثأرية.

قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾، أما إذا لم تنفع الحكمة معهم، ولا

الموعظة، ولا الجدال، ولا الصفح، ولا التسامح، وكان الآخر مصرّاً على الإساءة والاستمرار والتصلب والتعنت بمشاريعه الاستفزازية، هنا يجب ألاّ تُصاب باليأس والإحباط، ولا تقع في الانفعال، بل يجب أن تواصل مشروعك، وتتبنى أهدافك، وتوسع صدرك، وتصبر وتتحمل وتمضي في الدفاع عن مشروعك.

قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾، خصمك يتصور أنه الأذكى، وبإمكانه أن يفرض الأمر الواقع، ويتصور أنه يُحسن التلاعب بالعبارات والصياغات، ويعتقد أن بإمكانه أن يكيدك ويتآمر عليك ويجهض مشروعك، وفي هذه الحالة عليك أن تثبت وتصبر، وتواصل المشروع وتتبناه ولا تتراجع عنه، ولا تخلي الساحة له، هذا هو المنهج، وهكذا علمنا القرآن الكريم؛ ألاّ نتخلى عن مبادئنا، ولا نتخلى عن قيمنا، ولا نتخلى عن دفاعنا عن الأرض والعرض والمقدسات. نمد يد المحبة والإخاء للجميع، ونكلم الآخرين بالحكمة، والموعظة الحسنة، ونجادلهم بالتي هي أحسن، ونصبر، ونصفح، ونتسامح، ولكن ليس على حساب المشروع، ولا على حساب القضية. مهما كانت مكائدهم، ومهما كان مكرهم، ومهما كانت وسائلهم وقدراتهم، فإنّ ثباتك على المشروع وعلى حقك، وتبنيك لحقك وإصرارك عليه، قادر على أن يُغير المسارات والتوازنات ولو بعد حين. قد تتأخر، وقد يحبس الله النصر علينا لفترة، وقد تحصل معرقلات ومعوقات، وقد تبدو الصورة قاتمة للحظة ما، وقد تشعر الأُمة بالتعب والإعياء في لحظة ما، والقرآن يُكلمنا عن هذا الإعياء لأُمة موسى عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣١٤]، فهذه هي سنن الحياة ولا بد من أن نصبر ونتحمل، ونوصل المشروع إلى خط النهاية، مهما كانت المكائد، فكل واحدة من تلك المكائد كان يُعتقد أنها قادرة على أن تهدم المشروع، ولكن هُزِموا وبقي المشروع.

جميع الرهانات تحطمت وتلاشت على صخور إرادة العراقيين وعزمهم

٣١٤. الأعراف: ١٢٩.

وثباتهم وإصرارهم، والبصيرة التي تمتعوا بها بفضل مرجعياتهم، وقيادتهم، وشجاعتهم، وارتباطهم بالحسين عليه السلام وبأهل البيت سلام الله عليهم. جميع تلك المؤامرات تلاشت وبقي العراق، وها نحن اليوم نقترب من معركة المصير، من معركة الحسم، من المعركة التي نُعلن فيها للعالم كله أنّ العراق بات خالياً من الاحتلال الداعشي، بعد أن نحرر فيها محافظة نينوى، وأقولها للجميع؛ إنّ نينوى محافظة عراقية، كانت عراقية وهي اليوم عراقية وستبقى عراقية، وسيقف العراقيون جميعاً بشيعتهم وسُنتهم، بعربهم وكردهم وتركمانهم، بمسلميهم ومسيحييهم وإيزيدييهم وصابئتهم وشبكهم، الجميع سيقفون صفاً واحداً ويحررون محافظة نينوى، ويعيدونها إلى أحضان الوطن، ومن ينظر إلى نينوى على أنها سُنية سيجد المعارضة من السُنة قبل الشيعة، والذي يقول إن نينوى للعرب السنة والكرد السنة والتركمان السنة، لا يمتلك العين التي ترى التركمان الشيعة، والشبك الشيعة، والمسيحيين، والإيزيديين، هذه الرؤية الناقصة لا تستطيع أن تُساعد العراقيين، ولا تستطيع أن تصمد أمام إرادة العراقيين.

ليكن واضحاً للجميع أنّ العراقيين سيجتمعون جميعاً صفاً واحداً ويحررون هذه المدينة، وأبناء نينوى بجميع تلاوينهم سيشاركون في إعمارها وإدارتها، والعراق كله سيكون معهم في خطواتهم داعماً ومساعداً.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ**﴾، في أي تسويق للمشروع، وفي أي تبنٍّ لقضية حقة، يجب أن تكون التقوى حاضرة، والتقوى ليست قضية شخصية – أي مخافة الله في شأن شخصي– فهذا الجانب الشخصي يُمثل معلماً وملمحاً من ملامح التقوى، والتقوى لها مفهوم واسع يشمل التقوى السياسية؛ كيف تتعامل مع منافسيك وخصومك السياسيين. حتى مع الخصم هناك حدود، ولا يجب أن تتجاوز هذه الحدود، وهي مراعاة العدل والإنصاف، واعتماد الحقيقة، وتجنب الاتهامات الباطلة، وعدم إثارة الرأي العام في اتجاهات خاطئة، هذه كلها من التقوى السياسية، ويجب أن تكون التقوى حاضرة بيننا في بعدها السياسي أيضاً.

لا يحق لك أن تحرق بيتاً، ولا يحق لك أن تقلع غرسة أو نبتة أو شجرة، ولا يحق لك أن تمنعه من شرب الماء، فهذا حق إنساني وهو إنسان وإن كان عدواً لك، هذه هي الوثيقة التاريخية التي أطلقها الإمام السيد علي السيستاني دام ظله الوارف بعشرين فقرة، وتُمثل رؤية الإسلام في التعاطي مع العدو بحسب التقوى الجهادية، هذه هي الموازين، وهذه هي المعايير، وجميع النظم والقوانين المشرعة دولياً في ما يخص حقوق الإنسان في المعارك، تنحني تصاغراً أمام رؤية الإسلام، وعدالة الإسلام في التعاطي مع الإنسان، وهذه العشرون فقرة تمثل اختزال هذه الرؤية، وهي شيء عظيم وكبير نفتخر به نحن المسلمين، وعلينا أن نلتزم به. التقوى الجهادية العسكرية، تعني كيف تتعاطى مع الأسير؟ وكيف تُنصف العدو في المعركة؟ وكيف تتجنب الكذب والادعاءات الباطلة حتى على أعدائك؟.

قوله تعالى: ﴿**وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾، الخطوة الأخيرة والمهمة والأساسية هي الإحسان؛ دفع السيئة بالحسنة، وأن تجلد من أساء لك بسياط العدل والتسامح، فالإعراض يؤدي أحياناً من الأثر ما لا يؤديه الإقدام، وهذا منهج قرآني كبير ومهم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[٣١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٣١٦]، دفع السيئة بالحسنة يجعل العدو يتصاغر أمامك ويتحول إلى صديق.

لاحظوا كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين في فتح مكة، وكيف تعامل في معركة بدر حينما أسر سبعين شخصاً منهم، إذ جعل فداءهم من الأسر أن يُعَلّموا بعض المسلمين القراءة والكتابة فيطلق سراحهم[٣١٧]، وكيف تعامل مع المجموعات اليهودية التي كانت تسكن في الجزيرة العربية، وأنتم تعرفون حجم تآمرهم ومخططاتهم

٣١٥. الفرقان: ٦٣.

٣١٦. فصلت: ٣٤.

٣١٧. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ٢٢.

الخبيثة في النيل من شخص رسول الله صلى الله عليه وآله ومن الرسالة الإسلامية ومن المسلمين جميعاً، وحين تمكن منهم كيف تعامل معهم؟.. لاحظوا الفارق الكبير في التعامل.

لذلك لا يحصر الإسلام التعامل مع العدو بالمنطق والاستدلال والحكمة والموعظة، ولكن يعتبر ذلك أساساً، إذا ما كان ذلك العدو مستعداً لأن ينسجم ويتماشى مع هذا المنهج، أو كان التسامح قادراً على تفكيك صفوف الأعداء، فإنّ الهدف الأساس للمسلمين ليس قتل الآخر، وإنما هدفهم الانتصار للمشروع الرسالي والإصلاحي وتحقيق الغايات النبيلة، والأساس عندهم الوسائل السلمية في المواجهة، فما أمكنت فهي المعتمدة وهي التي يجب أن تُراعى في هذه المعركة وهذا الصراع.

الحكمة في الروايات

لنقرأ بعض الروايات على وجه السرعة التي تؤكد أنّ الحكمة، كما أشرنا، من آثار البصيرة.

الرواية الأُولى: عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: (فمن أبصر الفطنة عرف الحكمة)[٣١٨]، من اتصف بالبصيرة، ومن أصبحت لديه رؤية ثاقبة، عرف الحكمة، إذن فالحكمة أثرٌ من آثار البصيرة.

الرواية الثانية: سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: (أيّ الناس أكيس؟ قال: من أبصر رشده من غيه)[٣١٩]، الكياسة هي الفطنة والحكمة تأتي في نسق واحد، والأكيس هو من كانت له القدرة على الغربلة، والتمييز، والتفكيك، وتشخيص الصحيح من الخطأ.

الرواية الثالثة: في مناجاة للإمام زين العابدين علي بن الحسين السجاد صلوات الله وسلامه عليه يقول فيها: (اللهُمَّ صلِّ على محمد

٣١٨. الكافي ٢: ٥٠ ح١.

٣١٩. بحار الأنوار ٦٧: ١٠٦ ح١.

وآل محمـد واجعلنـا مـن الذيـن نظـروا فـي مـرآة الفكـر ، فأبصـروا جسـيم الفطنـة ، ولبسـوا ثـوب الحكمـة)[٣٢٠] ، أي تمتعـوا بالبصيـرة والوعـي ، فحـازوا علـى الفطنـة والحكمـة .

إذن فالحكمـة أثـرٌ عظيـم مـن آثـار البصيـرة ، ونسـأل الله أن يرزقنـا البصيـرة فـي ديننـا ودنيانـا ، وأن يجعلنـا قادريـن علـى تحليـل الظواهـر بشـكلٍ صحيـح .

٣٢٠ . بحار الأنوار ٨٨ : ١٢٧ .

الأثر الخامس

الشجاعة

البصيرة تولد الشجاعة والثبات والإقدام في الدفاع عن المشروع الرسالي والإصلاحي، وعن الحق الذي يتبناه الإنسان.

الشواهد في القرآن الكريم

هناك شواهد عديدة في القرآن الكريم على أنّ الثبات والشجاعة أثرٌ من آثار البصيرة.

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾[٣٢١].

يتحدث هذا المقطع الرائع عن النصر المؤزر والعظيم الذي حققه الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه وعلى نبينا وآله السلام في مواجهة السحرة، في ذلك الصدام الكبير بين فرعون المدعي للربوبية، وموسى عليه وعلى نبينا وآله السلام الذي كان يدعو الناس لعبودية الله سبحانه وتعالى، وقد كانت بعض معاجز موسى عليه السلام هي العصا التي كان يرميها فتتحول إلى ثعبان، فأراد فرعون أن يهزم موسى عليه وعلى نبينا وآله

٣٢١. طه: ٧٠-٧٦.

السلام من خلال هذا المدخل، فجمع السحرة من مصر الكبيرة آنذاك ودعاهم إلى التحدي والمواجهة، وكان مطمئناً أنّ كل أولئك السحرة بكل ما يمتلكون من أدوات قادرون على أن يهزموا موسى عليه السلام، فحشد عددا كبيرا من الناس لذلك اللقاء، وكان الرأي أن من ينتصر في هذه المنازلة فهو على حق، وبما أنّ فرعون كان مطمئناً لانتصاره، فقد كرس هذا الانطباع عبر أدواته وأجهزته، وبتعبيرنا اليوم بوسائله الإعلامية، واجتمع الناس ووقف السحرة، فحذّرهم موسى عليه السلام في البدء من سخط الله سبحانه وتعالى وأنهم سيعرضون الناس إلى الضلال والانحراف، فالناس لا يعرفون طبيعة سحركم، ويرون الحبال التي ترمونها تتحول إلى ثعابين وأمثالها في عيونهم، مع أنها ليست أمراً واقعياً وحقيقياً، بل هي مجرد خيال محض، ولكنكم تعرفون أنه سحر وليس حقيقة، وهي ليست ثعابين، وأنكم تسحرون عيون الناس وتخيلون ذلك. وعندما حانت لحظة النزال قالوا له: ارم عصاك. قال: بل أنتم أرموا أولاً. فرموا حبالهم وعصيهم التي كانت بأيديهم، فتحولت إلى ثعابين كبيرة، فدهش موسى عليه السلام وشعر بالقلق، لأنهم جاؤوا بسحر عظيم يشبه إلى حد كبير المعجزة الإلهية التي سلّحه بها الله تبارك وتعالى، فقال له الله عز وجل مطمئناً: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾[٣٢٢].

ثم جاءت اللحظة المناسبة وألقى موسى عليه السلام ما في يمينه فإذا هي ثعبان عظيم، يبتلع ما أتوا به من الكذب والخداع، كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[٣٢٣]، فحصل لهم الوضوح الكامل بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحراً، وإنما هو إعجاز إلهي حقاً، وحصلت لهم البصيرة، وانكشفت لهم الحقيقة، فتولدت عندهم الشجاعة وأعلنوا إيمانهم بالحق، وأذعنوا بشكل كامل ومطلق حينما جسدوا ذلك بالسجود الجماعي لموسى عليه السلام، ولم يكتفوا بمجرد الكلام بأحقية ما جاء به، أو أن يتركوا للناس تقويم الموقف فينجوا من عقاب فرعون لهم، بل سجدوا

٣٢٢. طه: ٦٨.

٣٢٣. طه: ٦٩.

ليرى جميع من حضر أنهم قد أسلموا، إذ السجود يعني الخضوع الكامل. لقد كانوا شجعاناً وأناساً يطلبون الحقيقة، فرتبوا أثراً على الحقيقة التي اكتشفوها.

وهنا يبدأ المقطع القرآني بقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، فالآية لم تقل سجدوا، بل قالت: (أُلقي السحرة سجداً)، إذ البناء فيها للمجهول إشارة لحجم الانجذاب والدهشة التي حصلت لهم، والانصياع التام إلى الحق الذي عاشوه في تلك اللحظة، فسرعان ما استجابوا وسجدوا.

فلاحظوا ماذا صنعت البصيرة لهؤلاء؟ وكيف دفعتهم ليأخذوا موقفاً صحيحاً عند سلطان جائر بحجم فرعون؟. وحينما آمنوا لم يكتفوا بإيمانهم، بل قاموا بخطوات ليشعروا كل من ضل بضلالهم أنه كان على خطأ، وغيروا قناعتهم من الإيمان بإلوهية فرعون إلى الإيمان بإلوهية الله سبحانه وتعالى وربوبيته، فسجدوا وأذعنوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، وهذا الإعلان والإفصاح عن العقيدة كان إيقافاً للضلال والانحراف وإيصال رسالة لجميع المغرر بهم، أننا في ظرف سابق غررنا بكم، واستخدمنا السحر وسيلة لربطكم بفرعون، واليوم تكشفت لنا الحقيقة، فعلينا أن نبدد كل تلك الانطباعات الخاطئة التي أوجدناها بين الناس. وعبّروا عن ذلك بالفعل والقول، والفعل هو السجود، والقول هو التعبير بأنهم آمنوا برب هارون وموسى، لكي لا يبقى لبس ولا التباس، ولا تبقى شبهة لدى أي شخص من أولئك الذين تعرضوا للتغرير نتيجة سحرهم في ظروف سابقة.

لقد كانت سرعة استجابة السحرة بسبب البصيرة التي أتتهم فوراً، لأنهم كانوا من ذوي الاختصاص، فعرفوا أنّ هذا ليس سحراً بل معجزة، وأنّ موسى عليه السلام نبي. وقد أصابت سرعة استجابتهم فرعون وجماعته وأزلامه بالصدمة والذهول، وكان هذا التحول المفاجئ من عبودية فرعون إلى عبودية الله سبحانه وتعالى، والإشهار للموقف الجديد والتعبير عنه بالسجود والقول، قد أصابت فرعون بحالة من الغضب الشديد، فرفع صوته بالاستنكار والاتهام والتهديد، لأنّ مشروعه تفكك، وأصبحت

الحقيقة واضحة لجميع الناس أنّ الله سبحانه وتعالى حقيقة، وأنّ ما يدعيه فرعون هو الباطل.

هذه هي البصيرة وتأثيراتها الكبيرة، وكيف تترك الأثر العظيم وتغير المسارات وتربك الطغاة حتى من كان بحجم فرعون وتفشل مخططاتهم بالكامل، من خلال هذه الشجاعة التي تتولد عند من يحصل على البصيرة، التي تجعل أصحابها قادرين على أن يقفوا بوجه الطغاة، وأن يعلنوا أمام الملأ إيمانهم بالله سبحانه وتعالى.

إن هذا يحمل في طياته رسالة واضحة إلى من يقول إنّ الإنسان يتأثر بالبيئة والمحيط الخارجي إلى حد الإكراه والإجبار، وكلنا خاضعون لإرادة مجتمعية للعقل الجمعي، وما أكثر من يبرر الأخطاء لنفسه ويدّعي أنه ليس بمقدوره مخالفة البيئة الاجتماعية والانطباعات العامة في المجتمع، والكثير من العادات الخاطئة والموروث الخاطئ، والسلوكيات والكلمات الخاطئة، وعندما نسأل عن السبب يقال إنّ المجتمع هكذا، يعني إذا كان المجتمع هكذا فمن حقنا أن نكون كسائر الناس.

وتبرهن قضية السحرة بشكل واضح على أنّ الإنسان بإمكانه أن يكتشف الحقيقة حتى لو كان الجميع يجهلها، إذن هناك فرصة حقيقية لأي إنسان أن يكتشف الحق ويتمسك به ويعلنه حتى لو كان الرأي العام السائد على خلاف ذلك، وهذا ما يعنيه أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه حينما قال: (لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله)[٣٢٤]، فالكثرة أو القلة ليست لها مدخلية في تثبيت حقانية الشيء أو عدم حقانيته، بل الشيء يكون حقاً إذا دل عليه الدليل والبرهان وإن أنكره جميع الناس، ويكون باطلاً إذا لم ينهض الدليل بإثباته وإن قبل به جميع الناس، فحقانية الشيء ترتبط بالحجة والدليل الذي يساق لهذا الشيء، وبالشواهد واتساقها مع المباني والأُطر العامة، ولا علاقة لها بقبول الناس أو عدم قبولهم لها في لحظة ما.

ثم ينتقل المقطع القرآني إلى بيان شاهد آخر على الثبات الذي حصل

٣٢٤. نهج البلاغة ٢: ١٨١ الخطبة ١٠١.

عند السحرة، كأثر من آثار البصيرة لمّا رأوا المعجزة الإلهية وهو: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فقد جاءنا الدليل وأصبحنا على بصيرة من أمرنا، ولا يمكن أن نقدمك على البصيرة التي حصلنا عليها، ولن نتخلى عن عقيدتنا، وسنبقى متمسكين بمشروعنا الرسالي مهما كانت النتائج، ولن نؤثرك على الله تعالى الذي خلقنا وأوجدنا، فافعل ما تريد فلن نتراجع.

وقولهم: (والذي فطرنا) إشارة للفطرة، فقد ورد في الحديث المبارك عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (كل مولود يولد على الفطرة)[٣٢٥]، ويبقى على الفطرة إلى أن تأتيه العناصر الخارجية وتشوش فطرته، ثم يعود ويرجع إلى فطرته، فأصلنا جميعاً موحدون لله تبارك وتعالى.

فهذه هي البصيرة عندما تحصل للإنسان وتتضح له الحقائق، وهذا هو أثرها السحري الكبير في الشجاعة والبطولة والإقدام التي يحصل عليها صاحبها، ولذلك نجد السحرة قد قالوا ثلاث كلمات مهمة هي: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي لن نتخلى عن المشروع، والأخرى هي: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي افعل ما تستطيع، والأخيرة هي: (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، وأمامنا الآخرة الخالدة الواسعة العظيمة. وأما هذه الدنيا فنتقاسمها معك، وقد تغلب فيها مرة ونغلب مرات، وقد تكسب جولة ولكننا نكسب المعركة كما وعدنا الحق تبارك وتعالى بهذا بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٣٢٦]، فالنتيجة محسومة لنا في الدنيا، ومحسومة لنا في الآخرة أيضاً.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا**﴾: أي أننا آمنا بالله تعالى لنكفّر عن خطايانا، فقد استخدمنا السحر وأضللنا الناس.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ**﴾: الاعتراف بالخطأ

٣٢٥. الكافي ٢: ١٣ ح٣.

٣٢٦. القصص: ٥.

فضيلة، والتراجع عن الخطأ والتوبة إلى الله من المعاصي والذنوب شيء عظيم.

قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾: هنيئاً لمن يعقد صفقة مع الله سبحانه وتعالى، وهنيئاً لمن يحسن العبودية لله سبحانه وتعالى، وهنيئاً لمن يتحمل المحن والآلام ولا يتخلى عن مشروعه وعن عقيدته ومتبنياته. هنيئاً لمثل هذا الإنسان وهذه الجماعة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى**﴾: وهنا ينتهي حديث السحرة، وينتقل الحديث إلى الله جل وعلا بناء على بعض الآراء التفسيرية التي ربما تكون هي الأرجح، فبعد أن استعرض القرآن الكريم هذا الحوار بين فرعون والسحرة، وبيّن فيه شجاعة هؤلاء السحرة بعد أن تحولوا إلى الإيمان وحصلوا على البصيرة، يأتي هنا ويضع الضابطة العامة في دخول جهنم، فيقول: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾، والمراد من (مجرماً) بقرينة آيات أُخرى الكفر، وليس عموم المعاصي، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، له جهنم خالداً فيها، فالخلود للكفار، ويدل على ذلك قوله تعالى عندما يتحدث عن قوم لوط الذين كفروا ولم يؤمنوا بنبيهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[٣٢٧]، حيث استعمل كلمة (المجرم) بحق الكافر.

ويدل عليه كذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾[٣٢٨]، أي من الكافرين، وهذه سنّة إلهية جرت مع جميع الأنبياء؛ فلا يوجد مشروع رسالي يمشي بدون مشاكل ولا مطبات أو مصدات، فجميع المشاريع الإصلاحية يقف بوجهها أعداء يشوشون ويربكون ويزعجون، وجميع هذه المخاضات تجري لأن الدنيا دار فتنة وابتلاء، لكي يميز الله تبارك وتعالى الخبيث من الطيب.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**

٣٢٧. الأعراف: ٨٤.

٣٢٨. الفرقان: ٣١.

وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾، بيان لمصير أصحاب الأعمال الصالحة في الدنيا، وهو الخلود في الجنة.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٣٢٩].

الشاهد الثالث: قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣٣٠].

الشاهد الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[٣٣١].

الشاهد الخامس: قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣٣٢].

الشاهد السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٣٣٣].

---

٣٢٩ . الأنفال: ١٠ ١٢.

٣٣٠ . آل عمران: ١٣٧ ١٣٩.

٣٣١ . الأحزاب: ٢٢.

٣٣٢ . هود: ٥٤ ٥٦.

٣٣٣ . البقرة: ٢٤٩.

الشاهد السابع: قوله تعالى: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٣٣٤].

هذا ما أحصيته، ولعل هناك آيات أُخرى تشير إلى هذا الأثر المهم من آثار البصيرة.

الشجاعة والثبات في الروايات

لقد تعرضت الروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى هذا الأثر المهم من آثار البصيرة، ألا وهو ما تولده من شجاعة وثبات وإقدام وتضحية، نذكر في ما يلي بعضاً منها:

الرواية الأُولى: عن علي عليه السلام: (فإنّا لم نكن نقاتل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بالكثرة، وإنما كنّا نقاتل بالبصيرة)[٣٣٥].

الرواية الثانية: من خطبة لعلي عليه السلام قال: (إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ما باليت ولا استوحشت، وإني من ضلالهم الذي هم فيه، والهدى الذي أنا عليه، لعلى بصيرة من نفسي، ويقين من ربي، وإني للقاء ربي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر)[٣٣٦].

الرواية الثالثة: ورد في زيارة للإمام العسكري عليه السلام زار بها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في يوم غدير خم، قال فيها: (شهدت مع النبي صلى الله عليه وآله جميع حروبه ومغازيه، تحمل الراية أمامه، وتضرب بالسيف قدامه، ثم لحزمك المشهور وبصيرتك في الأمور، أمرك في المواطن..)[٣٣٧].

---

٣٣٤. الأعراف: ١٢٤ ١٢٦.

٣٣٥. بحار الأنوار ٤٠: ٢٥٥ ح ٢٨.

٣٣٦. نهج البلاغة ٣: ١٢٠ كتاب ٦٣.

٣٣٧. بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٥ ح٦.

الأثر السادس

الأمانة وكتمان الأسرار

الإنسان الذي يكون على بصيرة من أمره ، يكون إنساناً كتوماً وأميناً ، لا يخون الأمانة ولا يكشف الأسرار .

الأمانة وكتمان الأسرار في القرآن

أشارت مجموعة من الآيات القرآنية إلى هذا الأثر المهم من آثار البصيرة منها :

الشاهد الأول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾[٣٣٨] .

تتحدث هذه الآية المباركة عن قضية ترتبط بشخص اسمه حاطب بن أبي بلتعة ، والقصة أنّ هناك مغنية في مكة جاءت قاصدة النبي صلى الله عليه وآله في المدينة ، وهي معروفة باسمها ومهنتها في مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد سمع بها حينما كانت هناك ، فقالوا له : هذه سارة جاءت تريد لقاءك يا رسول الله ، فدخلت عليه ، فسألها : أمسلمةً جئت؟ قالت : لا ، قال : أمهاجرةً جئت؟ قالت : لا ، قال : ما جاء بك؟ قالت : كنتم الأصل والعشيرة والموالي ، وقد ذهب مواليَّ واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فأين أنت من شبان مكة؟ قالت : ما طلب مني بعد وقعة بدر ، فحث رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، وكان رسول الله صلى الله

---

٣٣٨ . الممتحنة : ١ .

عليه وآله يتجهز لفتح مكة، فحملت أغراضها وما أعطيت من الكسوة ومن الأموال والإمكانات وغير ذلك، وكانت تريد الرجوع إلى مكة، وهنا أتاها حاطب بن أبي بلتعة وقال: لديّ رسالة وأريد أن توصليها إلى مشركي قريش، وأعطاها عشرة دراهم وكساها بُرداً.

وكان قد كتب في رسالته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يريدكم فخذوا حذركم. فكشف توقيت المعركة، وأرسل هذه الرسالة بيد سارة، فخرجت سارة عائدةً إلى مكة وأخفت الرسالة في مكان أمين، ونزل جبرائيل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وآله بما فعل حاطب، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا مسرعين إلى ذلك المكان. والغريب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يعلم أنّ هذه المرأة قد خانت بعد أن كسوها وأعطوها المال وأخذت رسالة معينة توصلها إلى المشركين، ومع ذلك لم يقل لهم عاقبوها أو استرجعوا الهبات منها، بل أمرهم فقط بأن يأتوا بالرسالة، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال علي عليه السلام: والله ما كذّبنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وسلَّ سيفه وقال لها: أخرجي الكتاب وإلاّ والله لأضربنَّ عنقك. فلما رأت الجِد أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبأته في شعرها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأرسل إلى حاطب فأتاه فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم. قال صلى الله عليه وآله: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ صحبتك، ولا أجبتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عزيزاً فيهم، أي غريباً، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن اتخذ عندهم يداً، وقد علمت أنّ الله ينزل بهم بأسه، وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله وعذره)[٣٣٩].

٣٣٩. بحار الأنوار ٢١: ٩٣.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾، أي لا تُوادّوا ولا تحبوا ولا تجاملوا أعداء الله وأعداءكم.

قوله تعالى: ﴿**تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾، ترسلون إليهم أخبار المسلمين وتكشفون أسرار الحروب.

قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾، إنهم كفروا بالحق والعقيدة التي آمنتم بها.

قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾، هجّروكم وأخرجوكم أنتم ورسولكم لأنكم آمنتم بالله تعالى شأنه.

هناك ثلاثة فوارق بين المسلمين وهؤلاء المشركين تتحدث عنها الآية الشريفة: فأولاً هم يخالفونكم في العقيدة، وثانياً قد اصطفوا لقتالكم، وثالثاً إنّ أهمَّ ما تفتخرون به من الإيمان بالله عز وجل يعتبرونه جريمة كبرى، إذن ما هو الرابط والقاسم المشترك بينكم وبين هؤلاء لتتعاملوا معهم بلين وتمدوا يد المحبة إليهم؟.

قوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي**﴾، التولي لا يصدُق إلاّ مع التبرّي، فهما وجهان لعملة واحدة، فإن كنت من الموالين لله سبحانه وتعالى فيجب عليك أن تتبرأ من أعداء الله، لأنّ الولاء لله والولاء لأعدائه كالنور والظلمة لا يجتمعان، فإن كنت صادق الولاء فعليك أن تكون صادق البراء وتتبرأ من الأعداء، وهذا تعبير عن صدقية العقيدة، فإذا كنت صادقاً في العقيدة وتبنّيها، فلا يصح أن تحابي وتجامل أعداء الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾، تكشفون عن ثغرات المسلمين وأسرارهم وتوقيتات المعركة بين المسلمين والمشركين.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**﴾، التعبير (بما أخفيتم) بدل (بما أسررتم) إشارة إلى أنّ الإخفاء أشد حفظاً من السر، والله تعالى يعلم بكل شيء نخفيه أو نعلنه، فكيف تخونون الأمانة؟.

قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾، وهنا

الشاهد، أي من يكشف الأسرار هو إنسان ضال لا توجد عنده بصيرة، وهو منحرف وفاقد للبوصلة، لأنّ من لديه بصيرة يتكتم على الأسرار، ويحفظ الأمانة، ومن ليس لديه بصيرة وضلّ سواء السبيل يكشف الأسرار، إذن فكتمان الأسرار أثر من آثار البصيرة.

الشاهد الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣٤٠].

نزلت هذه الآية في أبي لبابة، عندما حاصر رسول الله صلى الله عليه وآله بني قريظة، وكانت من القبائل اليهودية المشاكسة والمسيئة والمتآمرة على الإسلام، فنصحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وحذرهم، فلم يقبلوا نصيحته، فحاصرهم واستمر الحصار واحداً وعشرين يوماً فانهاروا، وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من يخبره أنهم يرضون بأن يعاملهم كما عامل يهود بني النضير، فرفض رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك؛ لأنه لم يلمس الصدق منهم، وقال لهم: لا أرضى إلاّ بأن تحتكموا إلى سعد بن معاذ، وكانوا يعرفون أبا لبابة لأنّ منزله كان في منطقتهم وكانت بينهم مصالح حقيقية، لذلك طلبوا أن يرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله أبا لبابة ليتشاوروا معه، واستجاب لهم وأرسل أبا لبابة إليهم، وعندما وصل أبو لبابة إلى اليهود سألوه: ما ترى في هذا الاقتراح من رسول الله يا أبا لبابة؟ هل نقبل بالاحتكام الى سعد بن معاذ؟ وهنا أفشى أبو لبابة سراً عندما وضع يده على رقبته، يعني إذا قبلتم بتحكيم هذا الرجل فإنه سيتخذ قراراً بإعدامكم، فتراجعوا بعد أن كادوا يقبلون بتحكيم سعد بن معاذ، بسبب هذه المناصحة من أبي لبابة، فنزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبره بذلك.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدّ نفسه الى سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى يتوب الله عليّ، واستمر سبعة أيام حتى غشي عليه من الضعف، ولم يقبل أن

٣٤٠. الأنفال: ٢٧ ٢٨.

يأكل ولا يشرب حتى يتوب الله عليه، وعندما وجد الله سبحانه وتعالى فيه الإخلاص والصدق قبل منه توبته، وأتته البشارة، وقيل له: هنيئاً لك يا أبا لبابة لقد قبلت توبتك، فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي يحلني، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فحله بيده ولم يكتف أبو لبابة بذلك، حتى قال: إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، حتى أكفّر عن ذلك الذنب، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يجزيك الثلث أن تصدّق به)[٣٤١]، هذه الرواية يرويها الإمام الباقر والإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليهما.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، لا تعطوا أسرار المسلمين للكافرين، لأنّ في ذلك خيانة لله ورسوله، فلا تفشوا الأسرار العسكرية، ولا تقوّوا أعداءكم عليكم بإيصال المعلومات والأسرار، فإنّ من الأمانة وعدم الخيانة أداء الواجبات وترك المحرمات والعمل بما أمر الله سبحانه وتعالى، فحينما يفسر ابن عباس الخيانة يقول: إنّ من ترك شيئاً من الدين وضعّفه فقد خان الله ورسوله[٣٤٢]، فأيُّ تجاوز للحق يعتبر خيانة.

والأمانة وإن كانت تنصرف للمال، ولكن الأمانة في المنهج القرآني واسعة وشاملة لكل الشؤون الحياتية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وكل ما يعد إطاراً وميزاناً شرعياً في أي مجال من المجالات، فالأمانة تعني الحفاظ على ذلك الحق، والتفريط به يعني الخيانة، ولذلك يقال: (المجالس بالأمانات)[٣٤٣]، وقد ورد في الرواية: (إذا حدّث الرجل بحديثٍ ثم التفت فهو أمانة)[٣٤٤].

ولذلك تشمل الأمانة الأرض والعرض، فنحن مؤتمنون على أرضنا، وعلى عرضنا، ونحن مؤتمنون على هذا الوطن، فيجب أن نحافظ عليه،

---

٣٤١. بحار الأنوار ٢٢: ٢٦ ٢٧.

٣٤٢. تفسير مجمع البيان ٤: ٤٥٦.

٣٤٣. بحار الأنوار ٤٨: ١٢٧ ح٢.

٣٤٤. غريب الحديث لابن سلام ٢: ١٥٤.

فهو أمانة، وأي تفريط بشبر من هذا الوطن وبوحدته خيانة لهذا الوطن.

وتشمل الأمانة الأولاد أيضاً؛ كيف نحفظهم ونربيهم وندفعهم نحو الصلاح، وكيف نبعد صديق السوء عنهم. وكذلك تشمل الأمانة العائلة، والعشيرة، والمجتمع: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[٣٤٥]، هذه أمانة يجب أن ترعاها وتحفظها. وتعتبر خيانة الأمانة من أشد المعاصي وأسوئها، ولذلك اعتبرت الخيانة من النفاق، كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال: (ثلاثٌ من كنَّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)[٣٤٦].

ومن الأمانة أيضاً حفظ شعوبنا، وحفظ أوطاننا، ولذا يجب علينا في الحروب التي تجري هنا وهناك ألاّ نتغافل عن الأمانة في التعامل حتى مع من نقاتله، ففي جميع الحالات يجب مراعاة الأمانة، ومع أنّ الحروب كريهة وبشعة في جميع جوانبها وحالاتها، ولكن الأبشع من الحروب هو أن يتحول المقاتل إلى قاتل وسافك للدماء، وهذه قمة البشاعة والانسلاخ الإنساني، فعندما يُقصف معسكر فهذا أمر متوقع في الحروب، ولكن أن يقوم طيارٌ عربي ومسلم بقصف قاعة عزاء، فهل هذا اجتهاد من الطيار نفسه؟ أو هو أمر من قيادته؟ وفي كلا الحالتين يُعد هذا إعلاناً أنّ الحرب في اليمن قد خرجت من عقالها العسكري ووصلت إلى قاع البشاعة والكراهية التي ستبقى مدة طويلة حتى بعد انتهاء هذه الحرب.

إنّ الضحايا في الاستهداف الأخير يعدّون بالمئات بين شهيد وجريح، وقد كانوا مجتمعين في صالة عزاء، وحتى لو كان هناك توقع بوجود بعض القادة السياسيين أو العسكريين، فهل هذا يبرر القسوة في قتل هذا العدد الكبير من المدنيين؟. ونحن لا نكتفي بإدانة وشجب هذا الحادث البشع، وإنما نخجل من السوء الذي وصلت اليه العلاقات بين الشعوب والحكومات العربية، ولا يوجد ما يستحق كل هذا الدمار والكره والبشاعة في المواقف والتصرفات، ومهما طالت هذه الحروب فسيجلس الجميع

٣٤٥. بحار الأنوار ٧٢: ٣٨ ح٣٦.

٣٤٦. الكافي ٢: ٢٩١ ٢٩٢ ح٨.

على طاولة واحدة في نهاية المطاف، ويبحثون عن المخارج والحلول، وستبقى أرواح الضحايا الأبرياء تطوف عليهم وتذكرهم بحجم القسوة التي مارسوها ضدهم، وتذكرهم بقسوة القرارات التي اتخذوها وبشاعة الممارسات التي مارسوها. الرحمة للشهداء والسلامة للجرحى والصبر والسلوان لليمن وشعبه الطيب الأصيل.

قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾، هذه إشارة إلى العنصرين الكبيرين في هذه الدنيا: الأموال والأولاد، والفتنة هي الاختبار الإلهي، والإنسان الذي يفتن، يعني يُختبر ليتبين المؤمن من الكافر، ومَن الذي يمتلك شخصية قوية ومن الذي يضعف أمام المنزلقات والمخاطر، وليتبين مدى الإنسانية ومراعاة قيمة الإنسان، أو الانحدار نحو الهاوية ليكون أمّعة وورقة يلعب بها الآخرون من ذوي الأجندة المشبوهة.

الفتنة في المال، هي كيفية الحصول على المال، وكيفية إنفاقه، ومدى التعلق به، أي هل أنت الذي تملك المال، أو المال هو الذي يملكك؟ هذا هو السؤال الكبير الذي يطرح نفسه في هذا السياق.

ما أكثر من يتظاهر بالتدين والالتزام، ولكن عندما يأتي الدور إلى المال يضعف، وتجده مستعداً لارتكاب كل موبقة وتجاوز جميع الحدود والاعتداء على كل حق من أجل أن يحصل على المال، ولذلك ورد في الرواية الشريفة: (الدين المعاملة)[٣٤٧]، ولا يكفي الصلاة والصوم، لأنّ العبادة حالة متكاملة في شخصية الإنسان. وكذلك الأمر بالنسبة للأولاد، فهناك من هو مستعد لأن يضحي بكل شيء من أجل أولاده.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، هنيئاً لمن يفوز في هذين العنصرين، فيكون ذا منزلة عظيمة ورفيعة عند الله سبحانه وتعالى.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣٤٨].

---

٣٤٧. عجائب الآثار ٣: ١٠٣.

٣٤٨. التوبة: ١٦.

كتمان الأسرار في الروايات

وردت مجموعة من الروايات عن أهل البيت عليهم السلام في كون كتمان الأسرار أثراً من آثار البصيرة، منها ما روي عن الإمام الباقر صلوات الله وسلامه عليه مخاطباً أبا إسحاق الليثي: (ولا تُطلِع على سرِّنا أحداً إلاّ مؤمناً مستبصراً، فإنك إن أذعت سرَّنا بُليت في نفسك ومالك وأهلك وولدك)[٣٤٩]، ولعل إحدى أسباب كثرة العوارض في بعض المجتمعات أنها تفشي الأسرار، وهذا أثر وضعي كما يقول الإمام الباقر عليه السلام.

٣٤٩ . بحار الأنوار ٥ : ٢٣٣ ح٦ .

الأثر السابع

ترك الذنوب والمعاصي والآثام

حينما يكون الإنسان على بصيرة من أمره ، لا ينزلق الى الشهوات والمعاصي والآثام ، وتكون لديه القدرة على ضبط النفس ، والسيطرة على السلوك ، والتعاطي بطريقة مسؤولة مع القضايا المختلفة .

ترك الذنوب في القرآن

هناك مجموعة من الشواهد من آيات الذكر الحكيم ، تتحدث بشأن أثر البصيرة في ترك الذنوب والمعاصي .

الشاهد الأول : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣٥٠]

هذا المقطع القرآني هو أحد الشواهد القرآنية على هذا الأثر المهم من آثار البصيرة ، وتتحدث هذه الآيات بقصة حادثة الإفك .

وملخص هذه الحادثة أنه كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وآله – كما يبدو ذلك من الروايات أيضاً أنه كان يصطحب إحدى زوجاته

٣٥٠ . النور: ١١ ١٧ .

في غزواته، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله عدة زوجات – كما هو معروف– وكان يعتمد القرعة في اختيارها في كل غزوة، حتى جاء الاستعداد للذهاب إلى غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة للهجرة، فكانت القرعة على السيدة عائشة، فاصطحبها معه في هذه الغزوة، وفي السنة الخامسة للهجرة كانت آيات الحجاب قد نزلت وكُلّفت المسلمات بارتداء الحجاب، وزوجات النبي صلى الله عليه وآله أولى بتنفيذ هذا الحكم الشرعي، وكانت العادة أن توضع زوج النبي صلى الله عليه وآله في هودج لكي لا يراها أحد من المسلمين أو غيرهم.

وقد انتصر المسلمون في تلك الغزوة، وفي طريق العودة إلى المدينة وصلوا إلى مكان قبل المدينة وباتوا فيه، وكانت السيدة عائشة في آخر الليل قد ابتعدت عن القافلة لقضاء حاجة، ثم عادت فانتبهت أنّ قلادتها قد سقطت منها أثناء الذهاب والإياب، فقررت أن تعود وتبحث عن تلك القلادة في الصحراء، واقترب الفجر فصلّى المسلمون ثم ركبوا ومضوا إلى المدينة، وظن من كان مسؤولاً عن قيادة ناقة السيدة عائشة أنها جالسة في داخل الهودج، وتحركت القافلة.

وبعدما عادت السيدة عائشة وجدت أنّ القافلة قد تحركت، فقررت أن تبقى في نفس المكان، وتحدثت في نفسها أنّ المسلمين سيلتفتون في وقتٍ ما الى أنها ليست في الهودج فيرجعون ويأخذونها.

وحين أشرقت الشمس مرّ بذلك المكان أحد المقاتلين واسمه صفوان، وكان قد تأخر عن القافلة أيضاً لسبب من الأسباب، فرأى امرأة جالسة في الصحراء وحدها، فتبينها من بعيدٍ فعرفها، فاقترب من السيدة عائشة وطأطأ الناقة إلى الأرض – أي أجلسها – وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فركبت السيدة عائشة الناقة والرجل يقود الناقة من الأمام، ولم ينطق ببنت شفة حتى وصل إلى المدينة، وحين دخلوا المدينة في منتصف النهار، عرف الناس السيدة عائشة.

وهنا استغل هذه الحادثة عدد من المنافقين يتقدمهم عبد الله بن سلول، وكان أحد وجوه المنافقين، فكوّن فريقاً من المنافقين واتهموا النبي صلى الله عليه وآله بزوجه، فانتشرت الشائعة كالنار في الهشيم،

وتداولها الناس حتى وصل الخبر إلى مسامع رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومرت أسابيع وهذه القضية لم تزل حديث الساعة بين أولئك الناس، ورسول الله صلى الله عليه وآله في إحراجٍ شديد، حتى نزلت هذه الآيات القرآنية الشريفة من سورة النور.

لقد جاءت هذه الآيات لتضع ملامح رؤية تجاه إحدى الظواهر الهدامة في المجتمع، ألا وهي ظاهرة الشائعة، وهي الخبر الكاذب الذي يأخذ مأخذه بين الناس من دون التحقق من صحته، فهذا المقطع القرآني يتحدث بشأن الشائعة بكل هذه الأبعاد، نتيجة هذه القصة التي حصلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ**﴾، الإفك: الخروج من الحق إلى الباطل، والإفك أشد من الكذب، فالكذب بيان أمر خلاف الواقع، ولكن الإفك هو التجني والافتراء.

قوله تعالى: ﴿**عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾، فالشائعة تولد في داخل المجتمع وليس خارجه، وهي من الأمراض الداخلية، فهي تحدٍّ داخلي وليس خارجياً. وكلمة (عصبة)، هي من العصب، والعصب هو ما يشد العضلات، ولذلك عند شلل تلك الأعصاب تتوقف العضلات عن الحركة فيصاب الإنسان بالشلل، و(عصبة) فيها إشارة إلى التآمر، والخطة، والمكيدة، أي أنّ حادثة الإفك كانت تخطيطا تآمريا من المنافقين، تعاونوا مع بعضهم لكي يخلقوا هذه الشائعة وينشروها بهذه الطريقة.

النقطة الثانية اللافتة في هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾، وهنا قد يسأل سائل: أي خيرٍ في اتهامات كهذه تدب في المجتمع، وتعصف به، وتزلزل قناعة الناسً تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله؟.

والجواب: أنّ هذه الشائعات والاتهامات بقدر ما فيها من إساءة وهتك وألم، وبقدر ما فيها من إهانة للمؤمنين، وبقدر ما تهز شخصية بعض الأبرياء والطيبين الذين يُكذب عليهم ويُشوش عليهم من خلال هذه

الشائعات والتسقيط، ولكنها في نهاية المطاف تبقى فقاعة؛ لأنها غير واقعية، فتنفجر في لحظة ما وتنكشف الحقيقة، وعندما تنكشف الحقيقة يتبين من كان وراءها؟ وما هي دوافعهم؟ فتكون سبباً في فضحهم.

فالشائعة بقدر ما تكون هدامة في المجتمع، ولكن بعد ظهور الحقائق يكون لها مردود عكسي وهائل تجاه فاعليها.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى دار الدنيا فتنة، فهذه الحياة فتنة وابتلاء، والمجتمع في فتنة، ويدخل هذه المخاضات ثم يكتشف الحقائق ويفتح عينيه، ويعرف من الصديق ومن العدو، وربما يتعاطف مع المسيء إليه في لحظة ما، ولكن عندما تنكشف الحقيقة تبدأ عملية الفرز والاصطفاف، ولذلك نقول إن أهل الباطل قد يكسبون جولة، ولكنهم بالتأكيد سيخسرون المعركة، والأُمور بخواتيمها.

وهذه التهمة الكبرى لزوج النبي صلى الله عليه وآله بالرذيلة كشفت حقيقة المنافقين، وكشفت حقدهم على النبي صلى الله عليه وآله وعلى المسلمين جميعاً، وكشفت عن مستوى خططهم الدنيئة، وهذه الفضيحة الكبيرة التي حصلت للمنافقين هي النتيجة لتلك المعاناة التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وآله وزوجته والمسلمون جميعاً في حادثة الإفك.

وشعر المسلمون بأنهم حينما ينساقون وراء الشائعات التسقيطية فسوف يصلون إلى الحضيض، ويفقدون كل عزتهم وكرامتهم، فعرفوا قيمة المبدئية، وقيمة حسن الظن.

قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم**﴾ ولم يقل: لا تحسبوه شراً للنبي صلى الله عليه وآله ولا شراً لزوجته، بل لا تحسبوه شراً لكم جميعاً؛ لأنّ ما يُسيء للنبي صلى الله عليه وآله يُسيء لكم، وما تُتهم به زوج النبي صلى الله عليه وآله هو تُهمة لكم جميعاً؛ لأنّ المؤمنين كالجسد الواحد، وهم كلهم في قارب واحد، ويجمعهم مصير واحد.

قوله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ**﴾، أي كل من شارك في هذه الحملة الدنيئة التسقيطية لزوج رسول الله صلى الله عليه وآله مدان، وكل من نشر شائعة وتحدث بشائعة تسقيطية هو

شريك فيها، كلٌ بمقدار مساهمته بتسقيط المؤمنين ونشر الشائعات الكاذبة، ويتحمل الوزر والقسط من العقوبة الإلهية بنفس ذلك المقدار.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ**﴾، يعني من قاد هذه الشائعة، وهو من ابتدع هذه الشائعات، ومن وظّف الناس وجنّدهم بهذا الاتجاه.

قوله تعالى: (لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، ما نوع هذا العذاب الذي هو في نظر الله عظيم؟. إنّ العظمة حسب مدركاتنا ومعطياتنا شيء آخر غير العظمة عند الله سبحانه وتعالى، أما الله العليم بكل شيء حينما يقول (عظيم)، فيجب أن نعرف نوع هذه العظمة.

قوله تعالى: ﴿**لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً**﴾، هنا ينتقل التقريع والخطاب إلى المؤمنين، وليس إلى من نشر الشائعة؛ لماذا تبيعون دينكم بدنيا غيركم؟ ولماذا لا تحسنون الظن بالمؤمنين؟. لماذا تصدقون بهذه الشائعة؟. المنافقون لهم عذابهم الخاص، ولكن العتب عليكم أنتم أيها المؤمنون، أيّ مؤمن يُسقّط في المجتمع فهذا تسقيط لنا جميعاً، وأيّ إساءة تتوجه لبريء وتُشاع فهي إساءة لنا جميعاً.

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾، لا يكفي أن تقول أنت فقط: لا، بل يجب أولاً أن ترفض الشائعة نفسياً، ويجب عليك ثانياً أن تُدافع، وتكتب، وتشرح، وتناصر المؤمن، فالآية هنا تقول: لماذا لا تعترضون على صاحب الشائعة؟ فدوام الشائعة بتداولها.

إلى هنا ينتهي الحديث بعتاب المؤمنين في البعد الأخلاقي والمعنوي، ثم ينتقل الحديث إلى البعد القضائي، فيعلمهم أن يقولوا: ﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، فمن يتهم شخصاً ما بالرذيلة يجب عليه أن يكون لديه أربعة شهود عدول يشهدون بأنهم اطلعوا على هذه الرذيلة.

قوله تعالى: ﴿**فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾، يعني أنّ المدعي إذا لم يكن لديه بينة شرعية فهو كاذب، ويجري عليه حد القذف، ويُعتبر كلامه عند الله عز وجل غير صحيح، إلاّ إذا ثبت بالبينة الشرعية، فهناك تشدد كبير في الجانب الشرعي بشأن حرمات المؤمنين وعدم تسقيطها.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، هذا التسقيط والكلام الذي نطقتم به، يستحق أن ينزل الله عليكم بسببه العذاب العظيم، فالتسقيط والشائعات الكاذبة وذكر الناس بسوء وتسقيطهم على غير وجه حق، فيها أثر وضعي، وهو استحقاق نزول العذاب الإلهي.

و﴿**أَفَضْتُمْ**﴾ من الإفاضة، والإفاضة هي خروج الماء، وانغماس الشيء بالماء يُسمى أيضاً إفاضة، وقد استعمل القرآن الكريم مصطلح الإفاضة، لأنّ هذه الشائعة تجاه زوج النبي صلى الله عليه وآله قد اتسعت وأخذت مديات حتى صدّقها المؤمنون، أو في الأقل تعاطوا معها وتداولوها، والمجتمع كله صدق بقضية جائرة وظالمة فيها هتك لرسول الله وزوجه.

ثم تأتي الآيات القرآنية الأُخرى لتؤكد الموقف المطلوب.

قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ**﴾، أي تأخذون الشائعة من الألسن، وهذه إدانة أولاً لقبول الشائعة.

قوله تعالى: ﴿**وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**﴾، أي تنشرونها بين الناس لأنكم لا تملكون البصيرة، ولذلك تنشرون الشائعات فتقعون في المعاصي والآثام، ولو كانت لكم بصيرة، ولو عملتم بتحقّق وتثبّت لما تفوّهتم بها، ولما أذنبتم، ولما عصيتم الله سبحانه وتعالى في تسقيط بعضكم لبعض.

إذن فالبصيرة هي التي تُعطي الإنسان هذه المناعة من الوقوع في المعاصي.

قوله تعالى: ﴿**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾، أي تقللون من قيمة هذه الشائعة وتأثيرها.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا**﴾، أي تقولون: لا يجوز أن نسمع الشائعة ونشيعها بين الناس.

قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾، أي هذا ذنبٌ وكذبٌ عظيم أن نقول على الناس ما نسمعه دون تريث وتثبت.

قولـه تعالـى: ﴿**يَعِظُكُـمُ اللَّهُ أَن تَعُـودُوا لِمِثْلِـهِ أَبَـداً**﴾، يحذركـم الله سـبحانه وتعالـى مـن التعاطـي والتعاطـف مـع الشـائعة بعـد هـذه الحادثـة.

قولـه تعالـى: ﴿**إِن كُنتُـم مُّؤْمِنِيـنَ**﴾، أي مـن يتـداول الشـائعة يُسـلب منـه الإيمـان والعيـاذ بـالله.

وهناك شواهد قرآنية أُخرى على أنّ ترك الذنوب أثر من آثار البصيرة:

منهـا: قولـه تعالـى: ﴿**وَالَّذِيـنَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَائِـرَ الْإِثْـمِ وَالْفَوَاحِـشَ وَإِذَا مَـا غَضِبُوا هُـمْ يَغْفِـرُونَ**﴾[٣٥١].

ومنهـا: قولـه تعالـى: ﴿**الَّذِيـنَ يَجْتَنِبُـونَ كَبَائِـرَ الْإِثْـمِ وَالْفَوَاحِـشَ إِلَّا اللَّمَـمَ**﴾[٣٥٢].

ترك الذنوب في الروايات

تطرقـت الروايـات الكريمـة عـن أهـل بيـت العصمـة والطهـارة عليهم السلام، إلـى أنّ تـرك المعاصـي والذنـوب هـو أثـر مـن آثـار البصيـرة، نذكـر منهـا مـا رواه أبـو إسـحاق الليثـي قـال: قلـت لأبـي جعفـر الإمـام الباقـر عليه السلام: يـا ابـن رسـول الله، أخبرنـي عـن المؤمـن المستبصر إذا بلـغ فـي المعرفـة وكمـل، هـل يزنـي؟ قـال: اللهـم لا. قلـت: فيلـوط؟ قـال عليه السلام: اللهـم لا. قلـت: فيسـرق؟ قـال عليه السلام: لا. قلـت: فيشـرب الخمـر؟ قـال: لا. قلـت: فيأتـي كبيـرة مـن هـذه الكبائـر أو فاحشـة مـن هـذه الفواحـش؟ قـال: لا)[٣٥٣].

ويظهـر مـن هـذه الروايـة المباركـة بشـكل واضـح أنّ البصيـرة تُعطـي الإنسـان المناعـة مـن ارتـكاب الذنـوب، فـلا يصـدر الذنـب مـن ذوي البصائـر.

---

٣٥١. الشورى: ٣٧.

٣٥٢. النجم: ٣٢.

٣٥٣. بحار الأنوار ٥: ٢٢٨ ح٦.

الأثر الثامن

استجابة الدعاء

إن الذي يمتلك البصيرة يسير بخطى ثابتة ، ويكون عبداً مقرباً لله سبحانه وتعالى ، فإذا ما دعا استجيب دعاؤه .

استجابة الدعاء في القرآن

هناك شواهد عديدة في القرآن الكريم على أثر البصيرة في استجابة الدعاء .

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٣٥٤] .

يتناول هذا المقطع القرآني الشريف الحديث عن زكريا عليه وعلى نبينا وآله السلام ، فقد كان زكريا شيخاً كبيراً ، وكانت زوجه عقيماً غير قادرة على الإنجاب ، وكان يستعد ليفارق الحياة ولم يُرزق بولد ، فطلب من الله سبحانه وتعالى الذرية ليبقى من يواصل مشروعه ويحفظه من بعده ، وكما هو معروف فإنّ المرء يحفظ في ولده ، فالإنسان الذي لا ذرية له ينتهي ذكره بوفاته ، وأما الإنسان الذي لديه ذرية فيستمر ذكره بعد وفاته .

لقد كان لدى نبي الله زكريا عليه وعلى نبينا وآله السلام جانب يرتبط بشخصه ؛ فبدون ذرية سينقطع ذكره من بعد وفاته ، ولديه جانب رسالي من الله سبحانه وتعالى ، فهو صاحب مشروع ، لذلك طلب من الله عز وجل الذرية ، ويبدو أنّ طلبه كان مستحيلاً ، فالرجل عندما يكون شيخاً كبيراً يفقد القدرة على الإنجاب عادةً ، وكانت زوجه عقيماً أيضاً ، فهو لم يستطع أن يُنجب منها في فتوته وشبابه ، فكيف له أن يُنجب في هذا العمر المتقدم؟

---

٣٥٤ . الأنبياء: ٨٩ ٩٠ .

لذلك لا توجد ظروف ومناخات استجابة الدعاء لهذه الموانع والعوائق الطبيعية والمادية، ولكن تذكر الآيتان الشريفتان أنّ الله سبحانه وتعالى استجاب دعاء زكريا عليه وعلى نبينا وآله السلام ورزقه ولداً اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل شبيهاً، مما يُشير إلى أنّ مَنْ كان على بصيرةٍ من أمره يُستجاب دعاؤه، حتى لو كان هذا الدعاء يبدو صعباً بحسب المقاييس والمعايير المادية.

قوله تعالى: ﴿**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً**﴾: أي لا تتركني بدون أولاد.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**﴾: ما أجمل هذا الدعاء، وما أجمل هذا الأسلوب في الخطاب مع الله سبحانه وتعالى، فهو لا يقول (اللهم)، بل يقول (ربي)، وهذا يُعبر عن وجود علاقة وثيقة بين الإنسان وربه، فحينما يُنادي الإنسانُ الله سبحانه وتعالى بقوله (ربي)، ينسبه إلى نفسه، ويستحضر هذه العلاقة الوثيقة بينه وبين الله سبحانه وتعالى.

وكذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى في خطابه لعباده يستخدم أساليب متعددة في الخطاب، فهناك: (يا أيها الناس)، وهناك: (يا أيها الذين آمنوا)، وهناك تعبيرٌ مختلف فيه إشارة إلى القرب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٣٥٥]، الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة لا يُكلم المهتدين، ولا يكلم من سار في طريق الصلاح، وإنما يوجه خطابه للمذنبين، وحينما يتحدث مع المذنبين يخاطبهم: (يا عبادي)، يعني مع أنكم أسرفتم وأذنبتم وأخطأتم وعصيتم وأثمتم ولكنكم عبادي لا أتخلى عنكم، فلا تيأسوا من رحمة الله.

إذن فالنسبة إلى الذات والنفس (ربي) هي إشارة إلى هذا القرب، ثم لا يقول: (إلهي) وإنما يقول: (ربي)؛ لأنّ الرب من التربية، أي الذي ربائي، وأعطائي، وأكرمني، ومنحني، ورعائي، ربي أنت الذي ربيتني، وأنت الذي رعيتني، وأنت الذي حظيتُ في جميع المراحل برعايتك، ومحبتك، وحنانك.

---

٣٥٥. الزمر: ٥٣.

قوله تعالى: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً**﴾، أي أخشى أن أضيع ويغيب ذكري إن لم تكن لي ذرية، وأخشى أن يضيع مشروعي الرسالي بغيابي حينما تتلاقفه الأهواء، ويأخذه هذا يميناً ويأخذه ذاك شمالاً، وأنا قلق على المشروع وعلى نفسي.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**﴾، إلهي، أعرف أنّ البقاء لك وحدك وأننا كلنا فانون؛ لأنّ (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[٣٥٦]، فكلنا ذاهبون إلى الفناء، ولا يبقى أحد في هذه الحياة، أنا أعرف ذلك، وأعرف يا ربي أنك سترث وتحفظ المشروع وستحفظ أنبياءك ورسلك، ولكن أتحدث عن السبب الطبيعي في الحفظ. يا إلهي، إني أعرف أنك خير الوارثين، وأنك من سيحفظ المشروع الرسالي، ولكن عليّ أن أسير ضمن الأسباب الطبيعية، والسبب الطبيعي أن تكون لي ذرية.

لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أعقلها وتوكل)[٣٥٧]، فواجبنا أن نسير ضمن الأسباب الطبيعية؛ بأن نختار الوسائل والأدوات الطبيعية في تحقيق النتائج، ثم نتوكل على الله سبحانه وتعالى، ونطلب منه أن يجعل هذه الأسباب مؤثرة في تحقيق أهدافها.

قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**﴾، استجبنا له لأنه كان من أهل البصيرة، وكان على هداية، وصاحب رؤيةٍ واعية، وكان متحملاً للمشروع.

قوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى)، أي رزقناه ولداً اسمه يحيى. هذا الدعاء الصادق المشفوع بالبصيرة وبالثقة بالله سبحانه وتعالى، هو الذي يأتي بهذه النتائج الطيبة، فحينما ندعو الله سبحانه وتعالى ونحن على وعيٍ وبصيرةٍ من أمرنا، وعلى ثقةٍ عالية بالله سبحانه وتعالى، تأتي الإجابة.

ولكن المشكلة أنّ البعض منا يدعو الله سبحانه وتعالى اختباراً وليس ثقة بالله، يدعو ليرى ويختبر الله؛ أيستجيب له أم لا؟ وكأنه يشك في قدرة الله سبحانه وتعالى على الإجابة، ولقد كان زكريا عليه وعلى نبينا وآله

---

٣٥٦. الرحمن: ٢٦.

٣٥٧. مشكاة الأنوار: ٥٥١.

السلام وهو الشيخ الكبير في السن وزوجه غير قادرين على الإنجاب، ومع ذلك دعا الله عز وجل واثقاً بقدرته فجاءت الاستجابة.

قوله تعالى: (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)، زوجه التي كانت عقيما جعلناها قادرة على الإنجاب، أي أصلح الله تبارك وتعالى حالتها الصحية بفضله وإرادته، فاستطاعت أن تُنجب له ولداً، وتحققت أُمنيته.

ثم تنتقل الآية الكريمة الى ذكر ثلاث خصال كانت لزكريا عليه السلام وزوجه، وبسبب هذه الخصال استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وقد يتساءل البعض منا: لماذا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ والجواب: لأنك لم توفر شروط استجابة الدعاء في نفسك فلا تأتي الإجابة، بينما دعا زكريا عليه السلام ربه وهو يتسم بهذه الخصال الثلاث، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، فما هذه الخصال؟.

الخصلة الأُولى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، عندما جاءتهم النعمة الإلهية، وعندما جاءهم المال، والوجاهة الاجتماعية، والنبوة من الله سبحانه وتعالى وأصبح زكريا عليه السلام نبياً من أنبياء الله، لم تتغير نفوسهم وسلوكهم وتعاملهم مع الناس، ولم يصبهم الغرور والغفلة، بل بقوا ثابتين على طريق الطاعة، وكلما ازدادوا مكنةً، ازدادوا تواضعاً وعطاءً.

وقد ورد طلب هذه الخصلة الكريمة في دعاء (مكارم الأخلاق) للإمام زين العابدين عليه السلام: (اللهمّ لا ترفعني في الناس درجةً إلاّ حططتني عند نفسي مثلها)[٣٥٨]، أي إذا رفعتني درجة بين الناس فاجعلني أشعر بالتواضع بنفس الدرجة، لكي يوجد التوازن بين التأثير الاجتماعي المتصاعد، والتواضع وخفض الجناح النفسي والروحي. ولولا هذا التوازن فسيُبتلى الإنسان بالغرور والكبر والاستعلاء على الناس، لذا ينبغي علينا كلما ازددنا مكنةً مالية واجتماعية وجاهة في الناس علينا أن نزيد في عطائنا إلى الناس، ولا ننسى الفقراء والمحتاجين، ولا ننسى دورنا في خدمة الناس.

الخصلة الثانية: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾، فقد كان زكريا عليه السلام وزوجه

٣٥٨. الصحيفة السجادية: دعاء مكارم الأخلاق.

يدعوان الله عز وجل ليس عند الحاجة فقط، بل يدعوانه رغبة في ثوابه وخوفاً من عقابه، فالإنسان عندما يتعرض أحياناً للشدائد والمرض يذكر الله سبحانه وتعالى، وعندما يُصاب أحياناً بانتكاسة مالية وفقر يذكر الله سبحانه وتعالى، ولكنه لا يذكر الله سبحانه وتعالى في حالات الرخاء، وأما زكريا عليه السلام وزوجه فقد كانا يدعوانه رغباً ورهباً، وفي جميع الأحوال؛ في الفقر والفاقة، وفي الغنى واليسر، في الصحة والسلامة، وفي المرض والضعف، فيدعوان الله تبارك وتعالى في حالات إقبال الدنيا وإدبارها، إذن هما يدعوان الله تعالى في كل حالة، وهكذا يجب أن تكون علاقتنا مع الله تبارك وتعالى ليست علاقة مصلحية، أو مرحلية، أو انتقالية، أو آنية، أو ظرفية، وإنما يجب أن ندعو الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال.

الخصلة الثالثة: ﴿**وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾، كان زكريا عليه السلام وزوجه متواضعين وخاشعين، وعلى بصيرة من أمرهما، ويتسمان برؤية واضحة، ومهما علا شأنهما يبقيان عبدين خاشعين لله عز وجل، ويُحسنان العبودية له سبحانه وتعالى، إذن فالبصيرة هي التي تسببت في استجابة دعاء زكريا عليه وعلى نبينا وآله السلام.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[٣٥٩].

يحتوي هذا المقطع القرآني الشريف على عدد من الأدعية، وتُشير

٣٥٩. آل عمران: ١٩٠ ١٩٥.

الروايات إلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان ملتزماً بتلاوة هذه الآيات الخمس حينما يصلي نافلة الليل[٣٦٠]. وكذلك ورد عن أئمة أهل البيت سلام الله عليهم استحباب قراءتها عند القيام في آناء الليل[٣٦١].

إذن يُحبذ للإنسان أن يلتزم بقراءة هذه الآيات الخمس في أهم الأوقات قربة لله تعالى والتماساً لاستجابة دعائه، ويُستحب للإنسان أن يُوقت صلاة الليل قُبيل الفجر، لأنها أوقات استجابة الدعاء.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾، يعني أنّ في تعاقب الليل والنهار بانتظام وضمن منظومة دقيقة، آيات لأصحاب الألباب، وهم أصحاب البصيرة، وأصحاب العقل والدراية، وأصحاب الوعي، فهذه الظواهر الكونية والانتظام العظيم والكبير في السماوات والأرض والليل والنهار، فيها إشارة ودليل، وفيها رسائل عميقة ومهمة، لأصحاب البصائر، فيعرفونها ويلتقطونها، ويزدادون عقيدة بالله سبحانه وتعالى حينما يرون هذا النظام العظيم.

إذن فيها رسالة واضحة، وحينما نتلو القرآن الكريم فليست التلاوة هي الهدف الكلي، وإنما الهدف الأساس هو التدبر، فما قيمة أن نقرأ القرآن ولا نعرف ما معناه؟ ولا نقف عند آياته، ولا نتأمل ونتدبر في مضامينه؟ وما قيمة التلاوة الخاطفة؟ نعم، فيها أجر، ولكن القيمة الحقيقية في التلاوة هي التلاوة التي يعقبها تدبر وتأمل وبصيرة وتفحص في مداليل ومضامين الآيات الشريفة.

إن هذه الظواهر الكونية، وهذا النظام الدقيق الذي يتحكم بالأرض والسماوات والليل والنهار، وحركة هذه الأرض، فيها دروس عظيمة. كلٌ منّا بقدر وعائه المعرفي، وقدرته على الالتقاط، يستطيع أن يأخذ الدروس والعبر الكبيرة من هذه الظواهر الكونية، ويصل إلى نتيجة واحدة هي أنّ هناك خالقاً ومُدبراً واحداً هو الذي جعل كل هذا النظام

٣٦٠. الكافي ٣: ٤٤٥ ح١٣.

٣٦١. الكافي ٣: ٤٤٥ ح١٢.

لعمل هذه المنظومة بعضها مع بعض، لتتكامل في نسق واحد، وتُشكل النظام الأحسن والأكمل الممكن في حياتنا وفي عالمنا المادي المليء بالتناقضات والتقاطعات.

الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذي استطاع أن يوجد كل هذا النظام في حركة الأرض، وكل هذه الظواهر الكونية بنسقٍ واحد لتتكامل بعضها مع بعض.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾، هم أولو الألباب، أصحاب البصيرة، أصحاب العقل والدراية، هؤلاء يذكرون الله في قيامهم في صلواتهم، وقعوداً في مجالسهم، وعلى جنوبهم حينما يرقدون. يذكرون الله سبحانه وتعالى دائماً في جميع الأحوال، وفي جميع الظروف والفرص.

قوله تعالى: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، نظرتهم نظرة عميقة، نظرة واعية، ومتفحصة لظواهر الكون؛ فيتدبرون، ويتأملون، ويدققون، لكي يستفيدوا الدروس والعبر من كل هذه الظواهر.

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً**﴾، جميع هذه المعطيات المدهشة في الظواهر الكونية، تجعل الإنسان يُذعن أنّ هناك مُدبراً وخالقاً جعل الهدفية الكبيرة في جميع هذه التفاصيل والجزئيات الكونية، وجعل الكون بأكمله يسير ضمن هدفية محددة، وليس عبثياً أو باطلاً أو فوضوياً، فلا توجد فوضى، وكل شيء مقدّر ومحسوب له حسابه، فإذا كانت التفاصيل والجزئيات خاضعة لهدفية كبيرة، فكيف لا يكون المجموع خاضعا لهذه الهدفية؟ وإذا كان كل جزءٍ مهما كان صغيراً في هذا العالم يخضع لكل هذه الهدفية وهذه المنظومات المعقدة التي جُمعت مع بعضها لتُحقق هذا الهدف، فكيف لا يسير العالم كله بهدفية واضحة؟.

لذلك فأهل البصائر ينتقلون من هذه الظواهر الكونية، للاعتقاد بأنه لا يوجد شيء عبثي في هذا الكون، وكل شيء له حساب، حتى بعض الظواهر المؤذية مثل الحشرات الخطيرة، فكل شيء له تأثير وله دور، هكذا ينظر أهل البصائر ويعتقدون بأنّ هناك نظاماً دقيقاً، وكل شيء له تقدير، ولا يوجد شيء عبثي أو باطل، بل يخضع كل شيء لهدفية محددة

ويشير إلى وحدانية الخالق والمدبر الذي ربط هذه الأُمور في نسقٍ واحد.

قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾، ثم ينتقلون من هذه الظواهر وعمقها إلى خلقة الإنسان وهدفية الإنسان، وأنه ليس أمراً عبثياً، وأن هناك أهدافاً مرجوة من حياة الإنسان ووجوده، ويطلبون من الله سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق لكي يحظوا بالرضا منه، ولا يسيروا في طريق عصيان الله سبحانه وتعالى أو التمرد على إرادته فيُصيبهم العذاب الإلهي، لذلك يطلبون من الله تبارك وتعالى التوفيق كلما تدبروا في هذا الكون، وكلما ازدادت عقيدتهم التوحيدية، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣٦٢]، فمعرفة الله وعبادته، والاتصال به، والتمسك به سبحانه وتعالى، هي الهدف الأساس المرجو والمطلوب للإنسان في حياته.

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾، أهم ما يخشاه أهل البصائر، أهل الرؤية العميقة، أولو الألباب، أصحاب العقول، هو الفضيحة والخزي بين يدي الله سبحانه وتعالى، وأمام عباد الله، فالكرامة الإنسانية وهيبة الإنسان وسمعته أعظم شيء عند الإنسان، وما قيمة الحياة التي ليست فيها كرامة؟ وما قيمة الإنسان حينما يُحتقر في المجتمع؟.

لذلك كان الهاجس الأكبر لأُولي الألباب وأصحاب البصائر في يوم القيامة ما هو أخطر من العذاب الإلهي والعقوبة، فحين قالوا: (ربّنا إنك مَن تُدخل النار)، لم يقولوا (عذبته) وإنما قالوا: (فقد أخزيته). هذا هو الشغل الشاغل الذي يُثير مخاوف وهواجس أصحاب البصيرة.

(**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**)، أهل البصيرة يعرفون جيداً أن ما يُنقذ الإنسان هو عمله الصالح، فالعمل الصالح هو المنقذ، وهو الذي ينصر الإنسان، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣٦٣]، والظالم بظلمه لم يترك عملاً صالحاً، أو أحداً يقف معه.

---

٣٦٢. الذاريات: ٥٦.

٣٦٣. الشعراء: ٨٨.

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**﴾، لاحظوا هذه الانتقالة: ما إن تعرفوا على هدف الخلقة، فالخلقة لها هدف، والإنسان له هدف، والطريق شائك فيه منزلقات، ونزوات، ومصدات، وعوائق أمام الإنسان في سيره نحو طريق الهداية، ما إن عرفوا هذه الأمور، حتى عرفوا أنهم بحاجة إلى القيادة الرسالية التي تدلهم على الطريق، وتساعدهم على عبور المنعطفات.

قالوا لقد سمعنا من يدعونا إلى الإيمان فحققنا، وتدبرنا، ودققنا، وتأكدنا من صحة ادعائه، ثم آمنّا وتمسكنا به وبنبوته وبرسالته، فأخذ بنا إلى طريق الهداية والرشاد، إذن فالآية تُشير إلى وجوب الحذر من الأدعياء، سواء من ادعى أنه نبي أو قائد إصلاحي أو قائد يحمل مشروعاً حقاً، فهناك من يدعي النبوة، وهناك من يدعي الإمامة، وهناك من يدعي البابية؛ أي أنه باب للإمام وسفيرٌ له، وهناك من يدعي القيادة الحقة وأنه حاملٌ لمشروع الإصلاح، فيجب التدقيق في هذه الادعاءات، فمن كان صادقاً يؤخذ بكلامه ويُلتف حوله، ومن كان مُدعياً وليس صادقاً نتجنبه ونحذر منه.

﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ**﴾، فلا يكفي أنه نادى فقط، بل سمعناه ينادي للإيمان، وكان صادقاً في ادعائه، ويُمارس هذا الدور عملياً، ويقول: ﴿أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾، ولا يقول التفوا حولي، بل كان يربط الناس بالمشروع وليس بشخصه.

قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾، ربنا إننا آمنا بكل وجودنا بهذا المشروع، ولكن هذا الإيمان لم يمنع من أن نتعرض إلى العواصف، والمنزلقات، والنزوات، والشهوات، وضعفنا أحيانا، فالإنسان المؤمن يضعف أحياناً وتصدر منه المعصية، لذلك نقول: ربنا إننا صادقون في إيماننا، ولكن صدق الإيمان لم يمنع من وقوعنا في بعض النزوات والمعاصي والآثام، فندعو الله أن يغفر لنا الذنوب، والذنب هو الذنب الكبير، والسيئة هي الذنب الصغير، لذلك نطلب من الله سبحانه وتعالى غفران الذنوب الكبيرة، وأن يستر علينا ويصفح عنا في الذنوب الصغيرة.

لاحظوا قوله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً**﴾[٣٦٤]، إذن يجب أن نركز على أن لا يصدر منا الذنب الكبير، ليأتي من بعدها الصفح عن الذنب الصغير.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾، ربنا نحن قمنا بما علينا، فقد آمنّا بك ووحدناك، وآمنّا بنبيك وعملنا العمل الصالح، والتزمنا بواجباتنا، ودعوناك أن تصفح عنّا وتغفر لنا ذنوبنا، والآن نتوقع منك يا ربنا أن ترزقنا ما وعدتنا على لسان رُسلك من المساعدة والتوفيق في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، الخزي، والعار، والفضيحة، وذهاب السمعة، واختلال الكرامة، هذا ما يُثير قلق أهل البصائر والعقول في يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾، إنك صادق الوعد، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، حينما كان هؤلاء من أهل البصائر ودعوا بكل هذه الأدعية، استجاب ربهم دعاءهم، فقد جاءت الاستجابة لهم في كل ما دعوا به الله سبحانه وتعالى لأنهم كانوا من أهل البصيرة.

قوله تعالى: ﴿**أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾، إنّ عملكم لا يضيع، فالذي يكون مستقيماً في عمله، ملتزماً بواجباته ومسؤولياته، متحملاً ما يقتضيه رضا الله من العناء والتضحيات، يستجيب له الله سبحانه وتعالى، ويرزقه السعادة الأخروية.

استجابة الدعاء في الروايات

هناك روايات عديدة وردت في أثر البصيرة في استجابة الدعاء، منها ما روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: (وأمّا دعاء المستبصرين

٣٦٤. النساء: ٣١.

فليس في شيء من ذلك دعاء مؤقّت؛ لأنّ المستبصرين البالغين دعاؤهم لا يُحجب)[٣٦٥]. أي أن أصحاب البصيرة، الذين يطلبون البصيرة، لا يحتاجون إلى أوقات خاصة ليُستجاب دعاؤهم، لأنّ المستبصر الذي يبلغ حد البصيرة دعاؤه مُستجاب في كل وقت وفي كل زمان ولا يُحجب. إذن فأصحاب البصيرة يُستجاب لهم الدعاء.

إنّ الحسين عليه السلام كان من أهل البصيرة، ولذلك كان مقداماً وثابتاً ومصرّاً، ونلاحظ أنّ موضوع الدعاء كان حاضراً وماثلاً عند سيد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في أحلك الظروف، فليلة عاشوراء قضوها بالدعاء والصلاة وبالتوجه نحو الله سبحانه وتعالى.

وفي صبيحة عاشوراء، بدأ خطبه لأُولئك القوم وهم مستعدون لقتاله، بدأها بالدعاء، وسعى جاهداً الى أن يهدي أولئك الناس وينقذهم ويقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وحينما حان وقت الصلاة، طلب منهم في خضم الحرب أن يوقفوا القتال حتى يُصلوا صلاة الظهر، ولكن الآخر لم يستجب، فصلوا صلاة الخوف، ويستمر هذا النهج حتى النهاية، فحين وقع سيد الشهداء عليه السلام صريعاً على رمضاء كربلاء، وفي اللحظات الأخيرة قبل أن يغادر الحياة، كان هناك الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أيضاً، بتلك الأدعية العالية المضامين.

٣٦٥. بحار الأنوار ٩٠: ٣٦٥ ح١٠.

المحور السادس

موانع البصيرة

هناك مجموعة من الموانع التي تمنع الإنسان من أن يكون بصيراً، ويمكن تلخيصها كالآتي:

المانع الأول: وساوس الشيطان

إنّ الشيطان يجعل غشاوة على قلب الإنسان فيحول بينه وبين النظر بنظرة ثاقبة إلى حقائق الأشخاص والأحداث، فيفقد البصيرة التي يجب أن يتمتع بها، وهذا الأمر حاجز ومانع من تحقيق البصيرة.

وساوس الشيطان في القرآن

وردت آيات قرآنية كثيرة في هذا الشأن نشير إلى بعض منها:

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾[٣٦٦]، جاءت هذه الآية بعد آيات عبّرت عن أهوالٍ قيام الساعة، وعن شعور الهلع والرعب والخوف الذي ينتاب البشر عندما تبدأ أحداث يوم القامة، فتأملوا الآيات التي سبقت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٣٦٧].

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ»: هناك من يجادل ويشكك في وحدانية الله، أو يجادل ويشكك في قدرة الله على إحياء الموتى والبعث والنشور، وهو يشكك من دون برهان، ويعتمد على التعصب

---

٣٦٦. الحج: ٣.

٣٦٧. الحج: ١-٢.

الجاهلي ويستند إلى التقليد الأعمى والأوهام والخرافات التي سمعها من الناس من هنا وهناك، ويتنصل من الحق ليس لدليل وسبب واضح سوى التعنت والعزة بالإثم.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾: المريد هو المتمرّد الشِّرِّير، أي شيطان متمرد وعاص، فالشيطان فاقد لكل خير ومساعدة ولا يمكن أن يحقق أي شيء، وهؤلاء يتبعون كل شيطان متمرد، ولا يتبعون الحق والدلائل والحجج التي تقودهم اليه؛ «ولله الحجة البالغة»، هذا هو الإنسان الذي يجادل في الله بغير علم، والذي يقع أسير التعصب الجاهلي والخرافات والأوهام، ويتحجر فكره على الباطل.

الآية تقول: ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾، وهذا دليل على تعدد وتنوع هؤلاء الشياطين، فكل شيطان له أسلوبه ونمطه الخاص في إضلال الناس، وله شباكه الخاصة التي من خلالها يجر الناس إلى ما يريد من الضلال والانحراف، إذن فالشياطين متعددون، وكل واحد منهم لديه أُسلوبه الخاص في التضليل، فهناك من يضل الناس بواسطة المال، وآخر من خلال الشهوات، وثالث من خلال الجاه، وآخرون من خلال أُمور أُخرى.

ماذا تريد هذه الآية أن تقول؟ إنها تقول: أيها الإنسان لا تشعر بالارتياح والكبر والنشوة إذا رأيت أحداً واقعا في مشكلة مخالفة لضوابط الشرع وأنت محصنٍ منها، بل كن على حيطة وحذر من الوقوع فيها، وكن متوثباً وجاهزاً دائماً للانقضاض على الشيطان والقضاء على كل دسائسه وحيله، فالذي يتولاه ويتأثر بوساوسه فإنه يضله ويقوده إلى عذاب السعير، أي أنّ من يقع في شباك الشيطان ويتأثر بوساوسه يفقد البصيرة، وينحرف عن جادة الصواب ويقع في الضلال، وتكون نتيجته عذاب السعير، إذن بوجود الوساوس الشيطانية يفقد الإنسان البصيرة، ومن أراد أن يكون على بصيرة فعليه أن يواجه وساوس الشيطان ولا يستسلم لها، نسأل الله أن يقينا وساوس الشيطان.

الشاهد الثاني: الآيات الشريفة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ

أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ أن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣٦٨]،

قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾، أي أخبر قومك يا رسول الله بقصة ذلك الشخص الذي أعطاه الله العلم والمعرفة، والحديث في الآية الكريمة عن شخص كان عالماً، وقوله تعالى: «آتيناه آياتنا»، أي أنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطاه من العلم الشيء الكثير، وكان في صفوف المؤمنين والعلماء الربانيين، وعنصراً أساسياً في المشروع الرسالي، ولكنه فقد البصيرة بسبب تعرضه لوساوس الشيطان وتأثره بها، فتنصل من ذلك الالتزام الرسالي وفقد البصيرة وأُصيب بالضلال والانحراف، وكم هي عبرة عظيمة لنا في هذا الإنسان وما كان عليه وأين أصبح؛ فقد كان عالماً آتاه الله تبارك وتعالى من الآيات ما لم يعطِ غيره.

المصالح أقوى شراك الشيطان

وتذكر الروايات أنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى بلعم بن باعوراء الذي كان من مشاهير علماء بني إسرائيل، وكان على حظ وافر من العلم الإلهي الذي أهله الى أن يكون له دور مهم في المشروع الرسالي، وكان موسى عليه السلام يعتمد عليه في إرشاد الناس وتبليغ الرسالة، وكان ملماً بالمشروع ومدافعاً عنه، وكان مستجاب الدعوة أيضاً، فقد أعطاه الله تعالى مقام استجابة دعواته لعلمه وتضحياته، ولكنه مع كل ذلك انزلق وبدأ يطلب الدنيا، ووجدها على مائدة فرعون، فبدأ يجامله وينحاز إليه، وأصبح ضمن الفريق الآخر، وكلما اقترب من فرعون، فقد من مقاماته المعنوية، وفقد القرب الإلهي والحظوة الروحية والمعنوية التي منحها الله تعالى له، حتى أصبح معارضاً لموسى عليه السلام، ثم أخذ يشكك بموسى عليه السلام ومشروعه ويستهدفه، والناس من حوله ترى وتتعجب مما صار إليه، ولم يتحرك نبي الله موسى عليه السلام ضده منتظراً الأمر الإلهي بحقه.

---

٣٦٨. الأعراف: ١٧٥ ١٧٦.

والسؤال: لماذا تغير بلعم بن باعوراء عن الدعوة وشكك بشرعية موسى عليه السلام؟.. لماذا تبدلت مواقفه وتحولت من الدفاع والتأييد إلى حالة التشكيك والاعتراض والاستهانة بنبي الله موسى عليه السلام؟.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: (إنّ الأصل في ذلك بلعم بن باعوراء، ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة، وجعله عبرة)[٣٦٩]، فبلعم بن باعوراء يتكرر في كل زمان، وعلى المسلمين الحذر من أمثال بلعم بن باعوراء الذين تدعوهم مصالحهم ودنياهم إلى تغيير مواقفهم من المشروع الإلهي ومن القيمين عليه من الأنبياء والأوصياء، فإنّ من المسلمين من يتسم بهذه السمات ويكون مشمولاً بهذه الآية الكريمة، هكذا يقول الإمام الباقر عليه السلام.

وما أكثر الشواهد التاريخية على مثل هذه الحالات؛ ففي واقعة كربلاء هناك مقاربة لافتة للنظر، فقد كان الشمر من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقاتل في صفين، وكان حاملاً للواء، ومنصهرا بالمشروع ومدافعاً عنه، وعن القائم على هذا المشروع وهو الإمام علي عليه السلام، ولكن عاقبته أن أصبح لعنة للتاريخ، وقد حدث هذا التحول حينما صارت مصالحه في الاتجاه الآخر، فاصطف مع يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد يطلب الدنيا، وتحول من مؤيد إلى معاد يتنافس مع الآخرين في معاداة الحسين عليه السلام، بل زاد عليهم حتى أصبح رمزاً من رموز أعداء الحسين عليه السلام. وفي الاتجاه الآخر كان الحر بن يزيد الرياحي قد تربى في أكناف بني أُمية، وكان قائداً لعسكرهم، وكانت بيئته وأجواؤه معادية لآل البيت عليهم السلام، فقد تربى في المعسكر المعادي لآل البيت منذ أن فتح عينيه، ولكن عندما جدّ الجد وفي اللحظة الحرجة وجدنا منه فجأة موقفاً مغايراً، فانحاز إلى صف الحسين عليه السلام وحظي بإشادته ودعائه ووقوفه على جثمانه الطاهر، وخلّد اسمه في سجل المستشهدين بين يدي الإمام الحسين عليه السلام.

فالتاريخ وحده لا يكفي، ولابد من الحاضر وما نحن عليه اليوم، فلا يكفي أن يقول قائل كنت كذا قبل ثلاثين عاماً، بل المهم ما هو

٣٦٩. بحار الأنوار ١٣: ٣٨٠ ح٣.

عليه اليوم، وما هو موقفه من المشروع الرسالي وقيادته الإلهية، فلا تنفع المواقف السابقة إذا لم تتوج بالثبات على المبادئ والإصرار على المشروع والاستمرار فيه.

إنّ بلعم بن باعوراء آتاه الله تبارك وتعالى العلم وحمّله المشروع فانسلخ منه، والانسلاخ هو الانفصال بعد الالتصاق، وهذا يعني أنّ بلعم بن باعوراء كان معجوناً بالعلوم الإلهية ومنصهراً بالمشروع الرسالي، ولكنه بعد هذا الالتصاق والانصهار انسلخ منه، وغيّر مساره وابتعد عن المشروع الإلهي القويم وتنصل منه.

﴿**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾: يعني لحقه وأدركه، وأثرت وساوس الشيطان في بلعم بن باعوراء فكان من الغاوين، وأفقدته البصيرة، وتحول إلى إنسان غاوٍ ومعادٍ للمشروع الإلهي بعد أن كان منصهراً فيه.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾، أي لو شئنا أن نبقيه على الصراط المستقيم لفعلنا، ولكنها سنّة الله سبحانه وتعالى في الحياة القائمة على أساس الاختيار وليس الإكراه، كما بيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٣٧٠]، أي أنّ الله تبارك وتعالى يمكن أن يرغم الإنسان على الهداية، ولكن خصوصية الدنيا أنها دار بلاء وابتلاء، وبلعم بن باعوراء لم يطق تحمل المنزلة العظيمة التي وهبها الله له، فالمقامات المعنوية أحياناً إذا أصبحت في وعاء غير مؤهل لاستيعابها، يمكن أن تؤدي بهذا الشخص إلى الكبر والاستعلاء، فيتحول علمه الى وبال عليه، وكذلك المقامات الدنيوية.

﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ أن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾، فالإنسان المنغمس في الدنيا والشهوات غير المشروعة، والغارق في المصالح الشخصية، لا يرى إلا نفسه، ومثله كمثل الكلب، لأنّ عدم وجود سقف للطموحات، والسعي وراء المكاسب والميول الدنيوية غير المشروعة، مرض يصاب به البعض، والقاعدة القرآنية لا تنحصر في بلعم

٣٧٠. الإنسان: ٣.

بن باعوراء، وإنما ضرب الله مثلاً بهذا الشخص لكل إنسان تخلى عن مشروعه من أجل طموحات دنيوية غير مشروعه، ففقد البصيرة وضل عن سواء السبيل.

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، يا رسول الله بيّن هذه القصص للناس لتعرفَ أمثال بلعم، ولتعلم أنّ هناك من يغيّر قيمه ومبادئه ويسلك طريقاً آخر لطلب الدنيا، ولذا يجب أن تقص القصص لعل في ذلك اعتباراً للناس، فهناك من يتنصل من المشروع الرسالي، وهناك من يتنصل من المشروع الوطني ووحدة شعبه، وهذا شيء خطير أيضاً.

أثر وسوسة الشيطان في الروايات

تطرقت الروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام الى الحديث عن وساوس الشيطان، باعتبارها أحد الموانع التي تمنع الإنسان من النظر الثاقب لحقائق الأمور، فالشيطان اللعين يلقي بوساوسه في قلب الإنسان، فتكون كالستائر والحجب التي تجعله غير قادر على النظر إلى حقيقة الأشخاص والأحداث.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (لا يتمكن الشيطان بالوسوسة من العبد، إلاّ وقد أعرض عن ذكر الله، واستهان بأمره، وسكن إلى نهيه، ونسي اطّلاعه على سره، فالوسوسة ما يكون من خارج البدن بإشارة معرفة العقل، ومجاورة الطبع، وأما إذا تمكن في القلب فذلك غيّ وضلالة وكفر، والله عز وجل دعا عباده باللطف دعوة، وعرّفهم عداوته، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فكن معه كالغريب مع كلب الراعي، يفزع إلى صاحبه في صرفه عنه، وكذلك إذا أتاك الشيطان موسوساً ليصدّك عن سبيل الحق، وينسيك ذكر الله فاستعذ بربك وربه منه، فإنه يؤيد الحق على الباطل، وينصر المظلوم؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ولن تقدرَ على هذا ومعرفة إتيانه ومذهب وسوسته إلاّ بدوام المراقبة، والاستقامة على بساط الخدمة، وهيبة المطّلع، وكثرة الذكر، وأما المُهمِل لأوقاته فهو صيد الشيطان لا محالة.

واعتبرْ بما فعل بنفسه من الإغراء والاستكبار، من حيث غرّه وأعجبه عمله وعبادته وبصيرته ورأيه، قد أورثه عمله ومعرفته واستدلاله بمعقوله عليه اللعنة إلى الأبد، فما ظنك بنصيحته ودعوته غيره، فاعتصم بحبل الله الأوثق، وهو الالتجاء والاضطرار بصحة الافتقار إلى الله في كل نَفَس، ولا يغرنك تزيينه الطاعات عليك، فإنه يفتح لك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المائة، فقابله بالخلاف والصد عن سبيله، والمضادة باستهزائه)[٣٧١].

إنّ الإنسان الذي يسكن إلى ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه يصبح عرضة لوساوس الشيطان، ويوسوس له بعدم الالتزام بنواهي الله سبحانه وتعالى، أما إذا عششت فيه المعصية فسوف يصبح من القاسية قلوبهم ويُمسخ مسخاً كاملاً، والله عز وجل دعا عباده بألطف دعوة وعرّفهم عداوة الشيطان لهم، وطلب منهم أن يتخذوه عدواً لكونه عدواً لهم، وأن لا يصادقوه لأنّ في ذلك خسارة فادحة لهم، لأن العدو يريد أن ينال من عدوه وينكل به، فكيف يمكن أن يكون صديقاً له، ولذا يجب علينا السيطرة على أقوالنا وأفعالنا ونوايانا والاستقامة على بساط الخدمة.

وفي هذه الأيام يستعد أبناؤنا لخوض عام دراسي جديد، بعد الانتهاء من عطلة استغرقت ثلاثة أشهر، ولو سألنا الطلاب عن كيفية انقضاء أيام العطلة، لوجدنا الإجابة من بعضهم بأنها كانت عامرة بالنشاط العلمي أو المهني أو الفكري، ويكون بذلك قد خرج بيد مملوءة بشيء، وفي مقابل هؤلاء نرى آخرين قد قضوا هذه العطلة من دون شيء مفيد.

نجد البعض يحسب للساعة ولليوم حساباً من أجل أن ينجز شيئاً، ونجد آخرين تذهب أعمارهم سدى من دون أن ينتبهوا، ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام عن أمثال هؤلاء: (أما المهمِل لأوقاته فهو صيد الشيطان لا محالة)[٣٧٢].

وفي هذه الأيام يهل علينا شهر محرم الحرام، حيث نجلس على

٣٧١. بحار الأنوار ٦٩: ١٢٥ ح١.

٣٧٢. بحار الأنوار ٦٩: ١٢٤ ح١.

مائدة الحسين عليه السلام ، فلنتخذ قراراً بأن ندقق في أقوالنا وأفعالنا وسلوكنا ونوايانا وحركاتنا وسكناتنا ونراجعها مراجعة محاسبة وتدقيق ، فكلنا نعلم الصحيح من الخاطئ ، ونحتاج إلى مراقبة وتدقيق واستثمار للوقت ، فهناك عدم استثمار للوقت في البلدان العربية ، وأصبحنا شعوباً مستهلكة في كل شيء ، ونستورد لنأكل ونلبس ، وشعب العراق ، حيث الحضارة والتاريخ ، المليء بالعلم والمعرفة والطاقات والإمكانات تبعثرت جهوده ، ونرى المنتج لا يتناسب مع الخزين المعرفي والتاريخي .

المانع الثاني: الغفلة

أثر الغفلة في القرآن

الإنسان الغافل لا يعرف ما يحصل حوله ، كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾[٣٧٣] ، حينما غفلا لحظة واحدة ، في إشارة إلى أكل آدم وحواء من الشجرة ، مع أن آدم عليه السلام كان معصوماً ، لا يمكن أن يصدر عنه ما ينافي ذلك ، ولكن النهي الذي صدر من الله عز وجل لهما عن أكل الشجرة كان نهياً إرشادياً ، وقد أخبرهما الله سبحانه وتعالى أيضاً بأنهما لو عصيا أمره وأكلا منها فانهما سيخرجان من الجنة ، فمخالفة آدم وحواء النهي وأكلهما من ثمرة تلك الشجرة لم تكن ذنباً ومعصية ، وإنما كانت من باب ترك الأولى ، فلقد كان الأولى أن لا يأكلا لكي يبقيا في الجنة .

ومعنى ﴿جَمِيعاً﴾ أن الأمر بالخروج من الجنة لا يشمل آدم وحواء فقط ، بل الشيطان عليه أن يخرج منها أيضاً ؛ لأنه بسبب إغوائه لهما طردا من الجنة ، ومن المعروف أن آدم خلق ليعيش على الأرض هو وذريته ، لذلك يقول المفسرون إن الجنة التي أُخرجوا منها ليست هي جنة الفردوس ، وإنما هي جنة دنيوية ، أي منطقة خلابة من جنان الأرض طُلب منهما أن يغادراها .

﴿**اهْبِطَا**﴾ : الهبوط تارة يكون من مكان أعلى إلى مكان أدنى ،

٣٧٣ . طه : ١٢٣ .

وتارة أُخرى يكون هبوطاً معنوياً، أي هبطا من منزلتهما بسبب تركهما الأولى، ولو لم يأكلا من الثمرة لكانت منزلتهما أعلى، ولكنهما فقدا مقاماً معنوياً عندما أكلا من ثمرة تلك الشجرة، وكان من عوارض هذا الهبوط المعنوي هو التعرض إلى ابتلاءات الدنيا، فقد كانا في تلك الجنة الدنيوية بعيدين عن المشاكل والمحن، وعندما أُخرجا منها أصبحا أمام اختبارات إلهية.

﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾: أي أنّ آدم وحواء وذريتهما أعداء للشيطان.

﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾: المقصود بهذا الهدى هو إرسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية لهداية البشر إلى الطريق القويم، أي لينصحوهم ويرشدوهم ويوضحوا لهم المسارات الصحيحة، بذلك يقيمون الحجة عليهم؛ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٣٧٤].

﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾: أي الذي يسلك طريق الهدى الإلهي يسعد في الدنيا والآخرة، ومن لا يأخذ بهذه النصائح فسوف يشقى في الدنيا والآخرة.

﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي**﴾: أي من غفل وأعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالى، ولم يلتفت ولم يصغ للبينات الإلهية وأقوال الأنبياء والكتب السماوية، فإنّ نتيجته وعاقبة أمره هي:

﴿**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾: الضنك هو الضيق والشدة، والمعيشة الضنك لا تقتصر على الفقر، وإنما تشمل الأغنياء أيضاً، فهناك من الأغنياء من يقتر على نفسه ويعيش في الضنك ليدخر المال، ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن هؤلاء: (عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء)[٣٧٥].

---

٣٧٤. الأنعام: ١٤٩.

٣٧٥. نهج البلاغة ٤: ٢٩ حكمة ١٢٦.

بين ذكر الله والإعراض عنه

وعليه فالإنسان الذي يلهج بذكر الله عز وجل ويرتبط به يسعد بسعادة الدارين، والإنسان المعرض عن ذكر الله عز وجل يعيش حياة الألم والرعب، إذ الغفلة والإعراض عن الله سبحانه وتعالى يؤديان إلى انغماس الإنسان في الدنيا ونمو ميوله وطموحاته غير المشروعة، فيتكالب على الدنيا، وحينما يتكالب على الدنيا يصاب قلبه بالعمى ويبتعد عن الله عز وجل، فيخسر الدنيا والآخرة.

وإذا ما انغمس الإنسان بالدنيا فانه يفقد القناعة ويريد المزيد، ويفقد الجانب الروحي فيشعر بالفراغ النفسي الكبير، ولكن حينما يعمر القلب بذكر الله عز وجل يطمئن قلبه ويزداد ثقة بالله تبارك وتعالى، ويحصل عنده الشعور بالارتباط القوي به عز وجل، وعندما تحصل الغفلة ترتبك لديه المنظومة الأخلاقية التي تحصنه أمام الشهوات والمنزلقات والتحديات والمخاطر، وحينها سوف لا يجد ما يقوده إلى الصراط السوي، وفي مقابله نجد أنّ من يذكر الله تعالى تكون لديه محددات، وقد أكد القرآن الكريم في كثير من المواقف أنّ الشعور بالفراغ هو حالة معنوية أكثر من كونه حالة مادية، والحالة المعنوية لها أثر كبير في الشعور بالضنك أو الراحة.

إن الإنسان الغافل عن ذكر الله عز وجل حين يكون فاقداً للنعمة نراه يعمل من أجل الحصول عليها، وحين يكون حاصلاً عليها نراه قلقاً في الحفاظ عليها، بينما الإنسان المتوكل على الله تعالى نراه راضيا بقضاء الله سبحانه وتعالى، ولديه ثقة بربه بأنه هو الذي يرزقه ولو بعد حين.

وقد تتعرض الأُمم والشعوب إلى الضنك والضيق بسبب إعراضها عن ذكر الله تبارك وتعالى، بينما الأمة التي تعيش حياة القرب من الله عز وجل فإنها بسبب ذكر الله وإحياء الشعائر تكون قادرة على المواجهة، وهذا اليوم عندما نرى الشعب العراقي كما يقيّمه الآخرون يمتلك إمكانات هائلة بسبب ما تعرض له من الهزات العنيفة طوال حياته المريرة، فنراه لا يبالي بما يتعرض له من محن وامتحانات شديدة، في حين يتم في بعض

البلدان الاوربية إعلان الطوارئ بسبب حادثة طعن أو دهس، وترتبك شعوبها وتعيش حالة من الذعر والهلع، بينما يواجه الشعب العراقي الإرهاب بأقسى أنواعه من داعش وأخواتها، ونراه حياً متوثباً ومليئاً بالأمل والنشاط، وكل هذا من فضل الله تبارك وتعالى، لأنّ حالة الضنك تحولت إلى حالة من الثبات والاستقامة، وذلك بسبب إشاعة ذكر الله عز وجل في المجتمع.

أثر الغفلة في الروايات

لقد جاء في النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام الإشارة إلى دور الغفلة في غياب البصيرة، منها ما ورد في زيارة سيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف للإمام الحسين عليه السلام، وهي الزيارة المعروفة بزيارة الناحية المقدسة: (اللهم إنك أمرتنا فعصينا، وذكّرت فتناسينا، وبصّرت فتعامينا، وحذّرت فتعدينا، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا)[٣٧٦].

(اللهم إنك أمرتنا فعصينا): يشير صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف إلى طبيعة علاقة العبد مع ربه، وكيف يقصّر، وكيف أنّ الله عز وجل يمهله، ويلقي الحجة عليه وينبهه ويمنحه البصيرة ليسير في اتجاه العبودية، فحينما نعصي ونتمرد على أوامر الله سبحانه وتعالى لا نفعل ذلك بسبب الجهل بالأحكام؛ لأنّ الأحكام الشرعية واضحة، وليس هناك مشكلة في وصولها إلينا، بل المشكلة في أننا نتجاهل الأوامر ونعصيها، إذ تنهانا فلا ننتهي، فهناك محرمات نعرفها ولكن لا ننتهي عن ركوبها، إذ نعرف أن الاستماع لهذه الأمور محرم ونستمع، ونعرف أن الحديث بهذه الأمور محرم ونتحدث، ونعلم أن الذهاب إلى الأماكن الفلانية محرم ونذهب، ونحن نقتحم المحرمات مع علمنا بها.

(وذكّرت فتناسينا): نحن نتغافل مع تذكيرك المستمر لنا.

(وبصّرت فتعامينا): تظاهرنا بعدم البصر بالرغم من أنك بصّرتنا وأريتنا الصالح من الطالح، والهدى من الضلال.

---

٣٧٦. بحار الأنوار ٩٨: ٣٢٧.

(وحذّرت فتعدينا): قمت بتحذيرنا فلم نسمع وتجاوزنا حدودك.

(وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا): يا ربّ نحن لم نجد منك إلا الإحسان، وكان ينبغي أن نشكر إحسانك، ولكننا لم نفعل، فلم نمتثل ولم نتوقف عن محرماتك ومناهيك، ولم نبصر ما بصّرتنا إياه، ولم نسر في طريق الهداية، فالمشكلة فينا، والله عز وجل قد ألقى الحجة على العباد.

(وأنت أعلم بما أعلنّا وأخفينا): لا يوجد شيء يخفى عليك يا ربّ، ولا تنطلي عليك الأعذار، فأنت أعلم بكل شيء، ولا نستطيع أن نبرر أفعالنا.

(وأخبر بما نأتي وما أتينا): فكل شيء مكشوف أمامك يا ربّ، والحجة قائمة علينا، ونحن نعرف ما تريد ولكننا لا نلتزم به.

(فصلِّ على محمد وآل محمد ولا تؤاخذنا بما أخطأنا ونسينا، وهب لنا حقوقك لدينا، وأتم إحسانك إلينا، وأسبل رحمتك علينا): اغفر لنا واصفح عنا يا ربّ، فإنك إذا أردت أن تعاملنا بعدلك فحجتك قائمة علينا ونستحق عقابك، وإذا أردت أن تعاملنا بإحسانك فهذا ما نطلبه، فتساهل معنا وارحمنا.

المانع الثالث: الأماني وطول الأمل

الأماني وطول الأمل في القرآن

إنّ الأُمنيات والأحلام الطويلة والعريضة تجعل الإنسان غارقا بأوهام غير واقعية، وبعيدة عن الحياة بمجرياتها اليومية، وهذا يسبب غياب البصيرة، ويمثل ستاراً يحجز الإنسان عن السير في طريق الطاعة لله سبحانه وتعالى.

ومن الآيات التي تشير إلى هذا المانع قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٣٧٧]، وفي سياق الآية تحذير للكفار ومن ينكر

٣٧٧. الحجر: ٢.

الحق من خلال اللجاج في الباطل والاعتراض على الآيات الواضحة والبينة لله تعالى، إذ يصر هؤلاء على الاعتراض وتجاهل الآيات، وعلى انتهاج الطريق الخاطئ، فهم من أهل الإنكار والتعصب واللجاج، والآية تحذر هؤلاء الكفار والمنكرين للحق، وتكشف عن أنهم عندما تأتي لحظة الحقيقة يتمنون لو كانوا مسلمين، و(لو) أداة تعجيز، أي أن هذا التمني يكون في وقت لا مجال فيه لتحقيقه، وذلك عندما يرون أهل الحق في يوم القيامة فيقولون: يا ليتنا كنا مسلمين، فلا رجعة في ذلك اليوم، وكان على الكافر أن يسير في الدنيا بشكل صحيح ويختار الحق، إذ لا رجوع في يوم القيامة إلى الحياة الدنيا ليصحح المسار، نعم يتمنون أن يكونوا مسلمين، ولكن لا فائدة لهذا التمني؛ لأنه كان بعد غلق الأبواب.

وطبعاً هذا لا يمنع من أن تشمل هذه الآية بعض الكفار في عالم الدنيا، ممن لديه نقطة بيضاء في قلبه، فعلى الرغم من كونه كافرا وملحدا، ولكن لديه موضوعية، وتنكشف له الحقيقة في لحظة ما، فيعرف أنّ الإسلام دين الحق والاستقامة والسعادة والسلام، وأنه المنهج الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، ولكنه يغرق في بحر الكلمات؛ ماذا سيقال عنه إذا اعتنق الإسلام؟ وكيف سيسير في مسار إصلاحي صحيح؟ إنه لا يستطيع أن يذعن، وقلبه لا يطيعه؛ لوجود تبعات لا يستطيع تحملها، فهذه الآية تشمل هؤلاء الذين ينكشف لهم الحق في لحظة، ولكنهم لا يسيرون في طريق الحق وتأخذهم العزة بالإثم.

الإذعان للحق شجاعة

يجب أن يكون الإنسان موضوعياً وغير متعنت أو منغلق على فكرة معينة، ويجب أن يسمع ويفكر ويبحث في الأُمور ويدقق فيها، فربما يكون الإنسان في وهم والكلام الآخر هو الحق، والتصلب في التمسك بالمواقف الخاطئة ليس شجاعة، والاعتراف بالخطأ فضيلة وشجاعة وبسالة، ويتحقق ذلك حينما يكون الإنسان موضوعياً، ومن أتباع الدليل أينما مال يميل، ويقف حيثما أوصله الدليل، ويستمع إلى الكلام الحق، وعليه أن يمتلك شجاعة المراجعة، وبسالة الاعتراف بالخطأ، وفضيلة الالتحاق بالحق حتى لو كان على خلاف ما يهوى.

نجد بعض المراجع والفقهاء قد أفتى الناس في قضية وقلدوه فيها، ولكن بعد عشرين سنة راجع النصوص الشرعية ووصل إلى قناعة أُخرى مختلفة عن قناعته الأُولى، وغيّر فتواه على ضوء ما توصل إليه من معطيات علمية جديدة، فليس معيباً أن نخطئ، ولكن المعيب أن نصرّ على الخطأ، ومن المعيب أن نكرر الخطأ بعد أن عرفنا أنه خطأ، فيجب الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه بشجاعة، والشجاعة والفضيلة في الاعتراف بالخطأ اذا ما تبين لنا، وهذا لا يعني السير وراء كل من لديه فكرة، فالثبات على الأُصول والثوابت أمر مهم، ولكن إذا تبين أنّ ما تصوره من الثوابت لم يكن كذلك، فيجب عليه أن يغيرها، ويبقى أُذناً مفتوحة فيسمع الكلام ويدقق فيه، ولا يكون ذلك إلا بالنظر إلى ما قيل، وليس إلى من قال، فقد تجري الحكمة على ألسنة الخصوم والأعداء والمعاندين.

طول الأمل . . تاريخ من المآسي

استكمال الشاهد: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٣٧٨]، أي يا رسول الله هذا هو الردّ الصاعَق على أصحاب العصبية، وهذا هو الردّ الإلهي على كل إنسان مصرّ على رؤية باطلة، فاتركهم يا رسول الله، لأنّ حال هؤلاء كحال البهائم، همّها علفها، فهم يعتقدون بأنّ الشهوات والدنيا هي كل شيء، فدعهم ضائعين في الآمال، يتمنون أُمنيات بعيدة المنال، فتفقدهم البصيرة وينحرفون عن الطريق المستقيم، فأين هم الطغاة والفراعنة الذين ملؤوا التاريخ ظلماً وجوراً؟ لقد أهلكهم الله سبحانه وتعالى الذي يقول للشيء كن فيكون.

إنّ طول الأمل والأُمنيات غير الواقعية والطويلة تجعل على قلب الإنسان غشاوة، وتمنع عنه الإيمان بالمشروع الإلهي، فينحرف ويضيع ويغوي؛ لأنه فاقد للبصيرة ومصاب بطول الأمل.

إنّ الطغاة يعملون ما يشتهون، وقد ارتكب صدام شتى الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية، وكان يعتقد بأنّه لا يوجد ما يوقفه عند حده، وبعد مغامرة دخول الكويت توقع أنّه سينجح فيها، ولكن اختلف الأمر وانهار

٣٧٨ . الحجر: ٣.

الوضع جميعه، وكان سقوط صدام الحقيقي عام ١٩٩١، وتغيرت جميع حساباته منذ ذلك العام، وتتكرر اليوم نفس القضية مع الإخوة في القيادات الكردية؛ فبعد الحكم الذاتي ورفع العلم توقعوا أن كل شيء يعملونه سوف يمر، فقلنا لهم: إنّ هذا الأمر يختلف عن باقي الأمور والإنجازات جميعاً فلم يسمعوا، وسوف يأتي اليوم الذي يندمون فيه على هذه الخطوة، لأنّ هذه الخطوة غير سابقاتها، لما فيها من تجاوز على الخطوط الحمر، فلا العراق يزهد في ترابه، ولا المنطقة تقبل قراراً خاطئاً، وكل هذا كان نتيجة لطول الأمل والغرور والغفلة، فالأماني الطويلة تجعل على قلب الإنسان غشاوة تحجب عنه الرؤية الصحيحة وتفقده البصيرة، وإذا فقد البصيرة أساء إلى نفسه من حيث لا يشعر، وعندما تأتي لحظة الحقيقة يكتشف حجم الخطأ، وحينها لا يجني إلا العقاب والعذاب الإلهي.

إنّ المشروع الرسالي والإصلاحي لا يحظى بالتأييد والدعم مباشرة، بل لابد من أن يمر بمخاض مع أصحاب المصالح الشخصية والشهوات الدنيوية، فهؤلاء يمارسون عملية الاحتجاج والاعتراض والتشكيك وإثارة الشبهات، فيعطلون المشروع الرسالي ويقفون في وجهه، وتاريخ الأنبياء مليء بالآلام والمحن، وتاريخ المصلحين مليء بالتخوين، ولكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾[٣٧٩]، وسيأتي اليوم الذي سينهار فيه الباطل ويبقى المشروع الإصلاحي والرسالي ماضياً بقوة في اتجاهاته الصحيحة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إلا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[٣٨٠]: إنّ الله عز وجل يمهل الإنسان ويجعله أمام تحديات من أجل أن يفيق، ويفتح له الأبواب، ويوفر له فرص النجاة، من أجل أن يشكره على تلك النعم، وتوعّد عباده وأنذرهم وحفّزهم وشجّعهم واستخدم جميع الوسائل لإتمام الحجة عليهم، حتى إذا جاءت لحظة الحقيقة فلا فائدة حينئذ من أي ندامة على ما فات.

---

٣٧٩. الرعد: ١٧.

٣٨٠. الحجر: ٥٤.

والقرآن الكريم مليء بالقصص عن تاريخ البشرية، ليوضّح للناس أنّ السنن الإلهية ثابتة والسيناريو واحد، وأنّ البشر أمام اختيارات؛ فكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء.

طول الأمل في الروايات

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: (أيها الناس إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة)[٣٨١].

وورد في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي رواه كميل بن زياد: (وحبسني عن نفعي طول أملي)[٣٨٢].

إذن، فطول الأمل هو الذي يغيّب البصيرة، أما الأمل نفسه فهو الطموح وأكسير الحياة والمحفز الأساسي باتجاه الفعل والإنجاز، وفقدان الأمل يعني فقدان التطور، والجماعة التي تفقد الأمل تفقد جميع مقومات التقدم والتطور.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (الأمل رحمة لأُمتي، فلولا الأمل ما رضعت الأُم ولدها، ولا غرس غارس شجراً)[٣٨٣]، فجميع الإنجازات تأتي من الأمل والطموح، ولكنه الأمل الواقعي والطموح والآفاق المعقولة التي يضعها الإنسان لنفسه؛ لأنّ الأمل إذا تجاوز حدوده أصبح خطراً، فطول الأمل يضيع الإنسان ويدمر حياته.

المانع الرابع: ترك الحجة الشرعية

ترك الحجة الشرعية في القرآن

حينما يتخلى الإنسان عن الحجة الشرعية فإنّه يفقد البصيرة ويصاب بالانحراف والضلال، ومن الشواهد على هذا الأمر ما ورد في قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إبراهيم إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٣٨٤].

---

٣٨١. الكافي ٨: ٥٨ ح٢١.

٣٨٢. مصباح المتهجد: ٨٤٤– ٩١٠.

٣٨٣. بحار الأنوار ٧٤: ١٧٣ ح٨.

٣٨٤. مريم: ٤١.

عندما أراد الله سبحانه أن يصف ويمدح إبراهيم عليه السلام وصفه بالصدق، وهذا يكشف عن أهمية الصدق والاستقامة المطلوبة في الإنسان، ولاسيما في الأنبياء، فقوام الرسالة الإلهية أن يكون الرسول صادقاً؛ لكي يوصل الرسالة بشكل صحيح إلى الناس، ولهذا يشترط في النبي أن يكون صادقاً، وقد كان من سمات إبراهيم عليه السلام، بل وجميع الأنبياء، الصدق، الذي يستتبع صدقية الرسالة التي يوصلها من الله عز وجل إلى العباد، وقد اهتم القرآن الكريم كثيراً بموضوع الصدق، ولا نجد تأكيداً شديداً في قضية كما نجده في التأكيد على الصدق، كما ورد صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، أي إذا لم يكن صادقاً في نقل ما قلنا، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، أي لانتقمنا منه بالقوة، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، أي لقطعنا نياط قلبه وأفقدناه حياته لو تقوّل بكلمة غير ما قلنا له، سواء كان منقوصاً، أو فيه إضافات نسبها إلى الله سبحانه وتعالى وهي مما لم يأت به الوحي، وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ينطق عن الهوى، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٣٨٥] أي لو تقوّل بكلمة خارج السياق، فلا أحد يستطيع أن ينقذه، إذن موضوعة الصدق تحظى بأهمية بالغة لدى الأنبياء، بل وقدّمت على النبوة.

﴿**إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾: أي انّ الصدق مقدمة لمقام النبوة، و(صدّيق) مبالغة في الصدق، يعني أنّه لا يكذب أبداً، وتحولت حالة الصدق عنده إلى ملكة، فهو صادق دائماً مع نفسه ومع الآخرين ومع ربه، ولا يمكن أن يكون غير صادق في حال من الأحوال، ولا يمكن أن يصدر عنه الكذب.

الصدق عنوان الاستقامة

وكما يكون الصدق في القول ينبغي أن يكون الصدق في الفعل، فالإنسان الصادق في قوله يجب أن يكون صادقاً في فعله، أي أن الإنسان الصادق هو الإنسان الصادق في قوله وفعله، فلا يقول إلا الصدق ولا يفعل إلا الصدق، وهذه صفة مهمة ومطلوبة لنا جميعاً؛ لأنّ الصدق أساس في زرع الثقة، فالإنسان الصادق يثق الجميع بكلامه وإخباره عن قضية ما، وهذا أمر مهم،

٣٨٥. الحاقة: ٤٤ ٤٧.

إذن يجب أن يكون الإنسان صادقاً حتى في أحلك الظروف، لأنّ الناس تثق بالإنسان الصادق، ويجب أن يكون الإنسان صادقاً في كل شيء.

إنّ منشأ كثير من المشاكل والنزاعات بين الناس والسياسيين والأوساط المختلفة في المجتمع هو عدم الصدق في النقل واقتطاع كلمة أو التهويل، فهناك من يقتطع كلمة من كلام أحد الأشخاص، أو قد يبالغ في نقل كلمة عن شخص فيتغير المعنى، ومما يؤسف له أنّ بعض وسائل الإعلام تمارس هذا النوع من الخبث، وحينما نعود إلى كلمة القائل لا نجد هذه الكلمة في قوله من قريب أو بعيد، وعندما نعود إلى أصحاب هذه الوسائل الإعلامية يعترفون بذلك ويقولون نريد الإثارة، وهكذا يتم ترتيب خصومات وعداوات على أساس المانشيت، وأساسه هو نقل مغلوط وبعيد عن الصدقية، ولذا يجب أن يكون الإنسان صادقاً وينقل الكلام والأحداث كما هي ولا يحمّل الكلام من المعاني على غير مقصود متحدثها.

كما يجب أن نكون صادقين في الوعود، ونبدأ بالصدق مع أطفالنا، ويجب أن نعلّمهم الصدق، ويجب أن نكون صادقين مع الناس الذين نتعامل معهم، ويجب أن ينفّذ الإنسان ما يعد به، ويجب أن نكون صادقين في نصحنا ومشورتنا للآخرين، لا أن نبحث عن مصالحنا الشخصية أو مصالح جماعتنا أو حزبنا، وهذا أمر في غاية الخطورة ينبغي الالتفات إليه، ويجب أن يكون هناك صدق في الأفعال وفي كل شيء، وأن نشيع الصدق فينا كأشخاص وكمجتمع، ولكننا نجد مع الأسف الشديد في المجتمع الكثير من الالتباسات، وأنه قد قلّ فيه منسوب الثقة، ويترتب على ذلك الكثير من النتائج السلبية، على خلاف المجتمع الذي يشيع فيه الصدق، إذ نرى الناس فيه مستعدة لأن تعطي المليارات على خلفية كلمة واحدة.

دواعي العبادة

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[٣٨٦]: كان آزر عمّ إبراهيم عليه السلام وثنياً بامتياز، ولديه انحراف عقيدي غريب، إذ كان يعمل بصناعة الأوثان وبيعها، وكان يعبدها، فالأمر شرك في شرك في شرك.

٣٨٦. مريم: ٤٢.

لقد استطاع إبراهيم عليه السلام أن يبرهن لآزر بعبارة قصيرة بطلان الشرك بقوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، فإنّ أهم دواعي العبادة، كما هو معروف، الرغبة في دفع الضرر عن النفس وجلب المنفعة لها، وأغلب الناس يعتمدون هذا المنهج، فإنّك لو سألت أكثرهم: لماذا تعبد الله؟ لأجابك: لطلب الرزق وحل المشاكل، فانّ ارتباط أغلب الناس بالأولياء والأوصياء والصالحين وأهل البيت هو ارتباط لمتطلبات، ولذا نرى كثيراً من الناس يدعون الله عز وجل في حرم الإمام الحسين عليه السلام لقضاء حوائجهم بشفاعة الإمام الحسين عليه السلام، وهذا الأمر ليس أمراً معيباً، وهو أن يطلب الإنسان كل شيء من الله سبحانه وتعالى، ولكن ليس من الصحيح أن يكون منشأ عبادة الله سبحانه وتعالى هو المطالب والحوائج الدنيوية، وإنما يجب أن نعبد الله عز وجل لأنه أهلٌ للعبادة، كما كان يقول الإمام علي عليه السلام: (اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكني عبدتك لأنك أهلٌ لذلك وابتغاء مغفرتك ورحمتك).

وهذا موجود أيضاً في ثقافتنا في الدعاء، أي أن ندعو لأنفسنا وأهلينا وشعبنا وللإنسانية بالخير والبركة، وندعو لشبابنا بالأخلاق الحسنة، وأن يتحلى مجتمعنا بالقيم والمبادئ الإلهية، وأن يشيع فيه الصدق والإيثار والتعاضد والتعاون بعضنا مع البعض الآخر، ونطلب من الله سبحانه وتعالى علو الدرجات والقرب منه، إضافة إلى أشيائنا وحاجاتنا اليومية، ولذا ينبغي أن نأنس بعبادة الله سبحانه والسعي للحصول على الدرجات الرفيعة، على خلاف ما عليه أغلب الناس الذين تكون عبادتهم للمنفعة.

لقد استخدم إبراهيم عليه السلام هذا النوع من الدعاء، فبينما يعتقد عبدة الأوثان أن الإله الذي يعبدونه هو الذي يخدمهم ويقدم لهم المنفعة، قال لهم إبراهيم عليه السلام إن هذه الأصنام التي تعبدونها لا تقدم أي منفعة، وإن الله عز وجل هو القادر على كل شيء.

معيار الاتباع

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾: هنا الشاهد، أي أني أمتلك البصيرة وأدلك على طريق السعادة، لأني أمتلك من العلم ما لم تملك، وأنت تركت الحجة الشرعية

وهو الله سبحانه وتعالى والارتباط به، لهذا فقدت البصيرة، بينما اتصلت أنا بالحجة الشرعية وعبدت الله سبحانه وتعالى فمنحني العلم والبصيرة، فاتبعني لكي أهديك صراطاً سوياً، فإنّ من يتصل بالحجة الشرعية يحصل على البصيرة، وآزر ترك الحجة الشرعية.

إن المعيار في الاتباع ليس هو العمر والمكانة الاجتماعية، بل المعيار هو الارتباط بالحجة الشرعية وما ينتج عنه من علم وبصيرة، وهذا المعيار في الاتباع هو من باب رجوع الجاهل إلى العالم، وهذه قضية عقلائية متسالم عليها، ونمارسها كل يوم في حياتنا اليومية؛ كما في رجوعنا إلى الأطباء الأخصائيين من أجل العلاج، وكذلك في مسألة الهداية؛ إذ تقتضي الضرورة الرجوع إلى الحجة الشرعية، من أجل الحصول على البصيرة.

﴿**يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً**﴾: انتقل إبراهيم عليه السلام في خطابه من خطاب الإيجاب: (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا)، إلى التحذير من الشيطان الذي لا يوفر العَلَم النافع وتحقيق السَعادة في الدنيا أو الآخرة، فالعبادة ليست الصلاة والصوم والحج فقط، بل العبادة بمعناها الواسع هي الطاعة والاتباع، فمن يسمع كلام شخص بنية الأخذ به والعمل به، فهذه عبادة بالمعنى الواسع، ومن يعترف بشرعية فكرة أو شخص فهذا نمط من أنماط العبادة في معناها الواسع، ومن يلتزم بتعليمات شخص فهذه عبادة بالمعنى الواسع، وفي رواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس)، إذا كان المضمون إلهياً فقد عبدت الله، فلابد من أن ندقق كثيرا في ما نسمع ونرى والبيئة التي نحضر فيها، إذ يجب أن نحصن أنفسنا وأهلينا من البيئة الملوثة، وهناك سلبيات كثيرة في جهاز التلفاز الذي يحتوي على آلاف القنوات الفضائية التي قد يشاهدها الأطفال في المنزل، ويجب أن نحذف القنوات المسيئة ولا نسمح بتناول كل شيء، سواء للصغار أو الكبار أو العوائل، وهذا أمر حساس، خصوصا في العراق بلد العشائر والقيم والإسلام، فإن ظواهر الانحراف الأخلاقي والفكري والإلحاد تنتشر حين تكون منابر الشيطان عامرة، وعندنا الانترنت لا قيود عليه، والكل لديهم هواتف وفضائيات مفتوحة على كل شيء، ونحن غير محصنين،

فلا نستغرب ظهور انحرافات أخلاقية خطيرة في المجتمع يجري الحديث عنها في تقارير، وهذه المشاكل نتيجة وليست سبباً؛ فهي نتيجة تساهلنا في الاستماع إلى منابر إبليس.

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يقول لعمه آزر عليك أن تختار أحد طريقين؛ طريق الشيطان أو طريق الرحمن، وألقى الحجة عليه وبذل قصارى جهده لهدايته.

﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾: يا آزر إنك ذاهب إلى العذاب والانحراف لأنك لا تملك البصيرة، وفي ذلك درس عظيم، فإبراهيم النبي العظيم يخاطب شخصاً من أعمدة الوثنية والانحراف وهو آزر بهذا الخطاب الذي يتضمن احتراماً ورقة وشفقة وأدباً وحرصاً وليونة ومرونة، وهذا منهج إنساني وقرآني، وحتى المنحرف لا يجب أن نتعامل معه بقسوة وجفاء، ولا سيما إذا كانت هناك فرصة لهدايته، ويجب أن نُشعر الإنسان مهما انحرف بأن هناك مجالاً للعودة إلى الطاعة، ولذا ينبغي أن تكون لدينا سعة صدر مع المنحرفين ما دامت هناك فرصة للإصلاح.

إذن فالاتصال بالحجة الشرعية يعني العلم والبصيرة، ووجود البصيرة يضمن السعادة للإنسان، وإذا غابت البصيرة فقدنا سعادة التقرب لله.

الارتباط بالحجة الشرعية

الحجة الشرعية لها خط طولي؛ إذ تبدأ من الله سبحانه وتعالى ثم رسوله الكريم ثم آل البيت عليهم السلام، كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣٨٧]، أي لا تتم الغلبة إلا باتباع هذا الخط الطولي في الحجة الشرعية: الله، الرسول، أولو الأمر، كما ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣٨٨]، ويجب أن نتمسك

٣٨٧. المائدة: ٥٥.

٣٨٨. النساء: ٥٩.

بهذا الخط، ونسير بهديه، ونلتصق به، ونتعبد بالموقف الذي يصدر عنه، فإذا التزمنا به فقد حصلنا على العلم والبصيرة، وهذه البصيرة هي التي تدفعنا لتحقيق الغايات النبيلة فنحظى بسعادة الدارين.

وفي زمن غياب الإمام المعصوم، إذ أن إمامنا الحجة المنتظر عجّل الله فرجه الشريف في غيبته الكبرى، تتمثل الحجة الشرعية في المرجعية الدينية، أي الفقيه الجامع لشرائط الفقاهة والفتيا، بناء على التوقيع الصادر من إمام زماننا عليه السلام: (فأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله على الخلق)[٣٨٩]، واستناداً إليه يجب علينا أن نعود إلى المرجع ونتعبد بفتواه، وهذه الفتوى توصلنا إلى السعادة الأُخروية.

وهذه العلاقة بيننا وبين الحجة الشرعية هي العلاقة بيننا وبين الله سبحانه وتعالى والرسول صلى الله عليه وآله، وبيننا وبين أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومصداقها في هذا الزمان هو إمام زماننا عجل الله فرجه الشريف، والارتباط بإمام زماننا يمثل تجسيداً لهذه العلاقة مع الحجة الشرعية، وهو خط طولي وارتباط بجميع أهل البيت عليهم السلام، وارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله، وارتباط بالله سبحانه وتعالى، لأنهم الطريق إلى الله، وكلما كانت علاقتنا بإمام زماننا أوثق، كانت علاقتنا برسولنا الكريم ومن ثم علاقتنا بالله جل جلاله أوثق، فهؤلاء هم وسيلتنا في تعبدنا لله سبحانه، وهم ليسوا في عرض الارتباط بالله سبحانه، بل هم في طول ارتباطنا به تبارك وتعالى، فمن يريد أن يرتبط بالله ورسوله وأهل البيت، فعليه أن يرتبط بإمام زمانه، وهذه المسألة في غاية الأهمية.

تعميق العلاقة مع إمام الزمان

ولكن كيف نعمق هذه العلاقة؟ وكيف نعيش حالة الارتباط والاتصال الروحي والمعنوي بإمام زماننا؟.

الجواب هو أننا نحتاج إلى العديد من الخطوات والإجراءات لكي نحقق هذه العلاقة الوثيقة والارتباط بالحجة الشرعية المتمثلة بإمام زماننا

٣٨٩. بحار الأنوار ٥٣: ١٨١ ح١٠.

عجّل الله فرجه الشريف، ومنها نحصل على اختيار الطريق الصحيح وعلى سعادة الدارين، وهي:

الخطوة الأولى: تعميق الجانب العاطفي والمحبة

كلما كانت المحبة أكبر كان الارتباط العاطفي أوثق؛ كم نذكر إمام زماننا؟ ما هو حجم العلاقة العاطفية التي تربطنا بإمام زماننا عجّل الله تعالى فرجه؟ هل نذكره بالدعاء وفي مظان الإجابة عندما ينكسر القلب وتدمع العين، في لحظة استجابة الدعاء، وندعو له كما ندعو لأهلنا وأنفسنا؟ وهل هو في بالنا، حينما نستيقظ في الصباح ونخرج إلى العمل وننغمس في قضايانا المادية وشؤوننا اليومية؟ وهل نذكر إمام الزمان ونناجيه ونتحدث معه طوال الليل والنهار؟ هل هو حاضر معنا في يومياتنا أو هو غائب عنا؟ هنا تتبين المشاعر.

من يزور سيد الشهداء عليه السلام نيابة عن الإمام الحجة عليه السلام، هل ترد زيارته أو تقبل؟ هذه زيارة مقبولة جزماً؛ لأنها عن الإمام المعصوم إلى الإمام المعصوم، وإذا زرت الزيارة المقبولة كان لك أجرها، وكيفما تشتهي لنفسك وأهلك من الطعام والمكان يجب أن تتمناه لإمام زماننا عجّل الله تعالى فرجه، وهل نقرأ في كل يوم بضع آيات من القرآن الكريم ونهديها إلى إمام زماننا؟ وإذا لم نفعل هذه الامور فعلينا أن نفعلها، إذ كيف لنا أن نرتبط بالحجة الشرعية من دون أن يكون لهذا الارتباط ظهور وبروز في حياتنا اليومية؟ ولذلك يجب علينا أن نأتي بالصلاة والصيام والطواف والدعاء وتلاوة القرآن نيابة عن الإمام المعصوم، والدعاء الذي نرى فيه خشوعا وخضوعا يجب أن نهدي ثوابه لإمام الزمان، وقد شبّه أحد المراجع العظام هذا الأمر تشبيها لطيفا، قال: إذا كان لديك جار وطرق عليك الباب وقت الغداء، وأحضر لك طبقاً من الطعام، وفي اليوم الثاني فعل الشيء نفسه، وعندما يسافر يذكرك، وهو لا يريد منك شيئاً، ماذا سيكون انطباعك عن هذا الإنسان؟.

إذا كنت قد أهديت جميع هذه الأعمال إلى إمام زمانك صاحب العصر والزمان ثم وجدك في حيرة من أمرك في يوم القيامة فهل سيتركك؟ هكذا تؤثر هذه القضية المعنوية في تعميق الارتباط العاطفي وتقوية مشاعرنا مع إمام زماننا عليه السلام، وهذا أمر مهم جداً.

الخطوة الثانية : الالتزام والطاعة

ورد في الحديث القدسي : (أنا جليس من ذكرني ، ومحب من أحبني ، ومطيع من أطاعني)[٣٩٠] ، أي أنّ حقيقة حب الله تبارك وتعالى تتمثل بالالتزام والطاعة والتمسك بمنهج الله سبحانه وتعالى ، وهو منهج رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهج أهل البيت عليهم السلام .

إنّ الذي لا يرضى عنه الإمام لا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ، إذ كيف يمكن أن نكون موالين لأهل البيت ولإمام زماننا ويصدر منا ما لا يرضي الله ونقصر في أداء الواجبات؟ إذا كنا موالين حقاً ومتصلين بالحجة الشرعية حقاً ، فعلينا أن نكون ملتزمين بنهجهم ومنوالهم وأوامرهم ونواهيهم ، كما أمرنا الله تبارك وتعالى بذلك في قوله : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)[٣٩١] ، وقولهم عليهم السلام : (كونوا لنا دعاة صامتين)[٣٩٢] ، (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم)[٣٩٣] ، (كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)[٣٩٤] .

وإذا رأى الناس أنّ أتباع أهل البيت يعطون الصورة الحقيقية عنهم عليهم السلام من خلال العمل بنهجهم ، فإنّ المشكك والمعترض والذي يملك عقيدة أُخرى ، عندما يجدنا نسير على نهج صحيح ، سيتقرب إلى مدرسة الإسلام الأصيل ورسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام وإمام زماننا عجّل الله تعالى فرجه .

يجب علينا أن نتبنى الفكر الذي يحمله إمام زماننا ، ونسوّقه وننشره وندافع عنه ونوضّحه وندعو الناس إليه ونزيل الالتباسات والشبهات عنه ، وهذه قضية حيوية ومهمة .

إنّ النصرة والإسناد ، وتبني مشروع الإمام والدفاع عنه ، والوقوف سداً

---

٣٩٠ . جامع أحاديث الشيعة ١٥ : ٣٥٠ ح١١٠٨ .

٣٩١ . الحشر : ٨ .

٣٩٢ . شرح الأخبار ٣ : ٥٠٦ ح١٤٥٢ .

٣٩٣ . الكافي ٢ : ٧٨ ح١٤ .

٣٩٤ . بحار الأنوار ٦٥ : ١٥١ ح٦ .

منيعاً بوجه أعدائه والمشككين به والصادين عن نهجه، هذا كله يمتد إلى نواب الإمام أيضاً، وهم المراجع العظام، فهذه السمات يجب علينا أن نلاحظها أيضاً بعلاقتنا مع مراجعنا.

فإذا كنا أتباعا لإمام زماننا حقاً، وعلاقتنا به علاقة واقعية، فيجب علينا أن نكون كما يريد وكما يطلب منا، ولكن ما الذي يريده الإمام منا؟ لعل هذا المقطع من أول ما يقوله الإمام عليه السلام عند ظهوره يبيّن ذلك: (يا أيها الناس إنا نستنصر الله، ومن أجابنا من الناس)[٣٩٥] أي إننا نطلب النصرة من الله، ونطلب النصرة ممن يجيبنا من الناس، فإمام زماننا يطلب النصرة منا فهل ننصره؟ صحيح أنه سيطلب هذه النصرة عند ظهوره، ولكنه طلب مستمر، فيجب علينا أن ننصر إمام الزمان اليوم وفي كل يوم، قبل ظهوره وبعد ظهوره، إذا كنا من أنصاره وأعوانه وجنده ومقوية سلطانه والمسارعين إليه في قضاء حوائجه، كما وردت هذه المضامين في الدعاء له عليه السلام[٣٩٦].

(إنا أهل بيت نبيكم محمد صلى الله عليه وآله، ونحن أولى الناس بالله وبمحمد، فأنشد الله من سمع كلامي اليوم لمّا بلّغ الشاهد منكم الغائب، وأسألكم بحق الله ورسوله وبحقي): ما يريده صاحب العصر والزمان هو ما يريده الله سبحانه وتعالى.

(فإنّ لي عليكم حق القربى من رسول الله، إلاّ أعنتمونا ومنعتمونا ممن يظلمنا)[٣٩٧]، والإرهاب الداعشي ظلم، ويجب علينا أن نعين إمام زماننا بالوقوف بوجه هؤلاء الظلمة.

(فقد أخوفنا وظلمنا وطردنا من ديارنا وأبنائنا)، فقد هجّروا أهل البيت عليهم السلام، واليوم يلاحقون أبناءهم ويقتلونهم، ولولا الوقفة المشرفة للجيش والشرطة والحشد الشعبي وكل القوى التي حققت النصر بتلبية هذا النداء لم يبقوا لنا بقية.

---

٣٩٥. بحار الأنوار ٥٢: ٢٣٨ ح١٠٥.

٣٩٦. مصباح المتهجد: ٤٠٩ح٥٣٥/ ١٤٥.

٣٩٧. بحار الأنوار ٣٨: ٢٣٩ ح١٠٥.

(وبغي علينا ودفعنا عن حقنا فأوتر أهل الباطل علينا، فالله الله فينا، لا تخذلونا وانصرونا ينصركم الله)، فالإمام يطلب منا التأييد والمساندة والنصرة.

كل هذه الكلمات: (ظلمنا، بغي علينا، هجّرنا)، كلها دليل على أنّ المشروع الرسالي والإصلاحي يحتاج إلى العناء والتصدي، ويحتاج إلى التحدي وتحمل المسؤولية، فالأمور تؤخذ غلابا، والمشروع الحق لا يتحقق مع الراحة، والأنبياء تعرضوا للقتل وأنواع العذاب على أيدي الظلمة والجلادين، وقد ورد عن الأئمة الأطهار قولهم: (ما منا إلا مقتول أو مسموم)[٣٩٨]، وتعرضوا للاستهداف، والمشروع الرسالي يحتاج إلى وقفة، لأنه يتعرض إلى هزات عنيفة، فهناك من يدافع عن المشروع ويثبت، وهناك من يضعف ويهتز أمام التحديات، وهو اختبار إلهي عسير، وحينما تبدأ الضغوطات والشبهات تجاه المشروع الرسالي ومشروع الإصلاح، سنرى أُناساً تضعف وتغير قناعاتها ولا تستطيع الثبات، وسنرى آخرين يقفون كالجبل الأشم وينجحون في الاختبار، وهذا من سنن الحياة؛ أن نتعرض للاختبار الإلهي حتى يتبين مدى التزامنا بالمشروع الإلهي وتحملنا لمسؤوليتنا تجاهه، ومدى تحملنا لموقف النصرة والإسناد لإمام زماننا، والمهمة خطيرة وتحتاج إلى وقفة رجال بمواصفات خاصة، أنقلها لكم على لسان إمامنا الصادق عليه السلام حين يصف أصحاب الإمام المنتظر عجّل الله تعالى فرجه، فيقول عليه السلام: (ورجال كأن قلوبهم زبر الحديد، لا يشوبها شك في ذات الله، أشد من الحجر، لو حملوا على الجبال لأزالوها، لا يقصدون برياتهم بلدة إلا خربوها (فتحوها)، كأن على خيولهم العقبان، يتمسحون بسرج الإمام يطلبون بذلك البركة، ويحفّون به، يقونه بأنفسهم في الحروب، ويكفونه ما يريد، رجال لا ينامون الليل، لهم دوي في صلاتهم كدوي النحل، يبيتون قياماً على أطرافهم، ويصبحون على خيولهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار، هم أطوع له من الأمة لسيدها، كالمصابيح كأن قلوبهم القناديل، وهم من خشية الله مشفقون، يدعون بالشهادة، ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله، شعارهم: يا لثارات الحسين،

٣٩٨. بحار الأنوار ٢٧: ٢١٧ ح١٨.

إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر، يمشون إلى المولى إرسالاً، بهم ينصر الله إمام الحق . .)[٣٩٩] .

إنّ هؤلاء لديهم بصيرة ووضوح، ومن لديه البصيرة لا يضيّع البوصلة، وهم أشد من الحجر في صلابتهم وقوتهم واستقامتهم، وإرادتهم أقوى من أي اعتبار، ويحققون أهدافهم النبيلة في نصرة إمام زمانهم، ومع كل هذه الصلابة والإقدام والشجاعة يتمسحون بسرج الإمام عليه السلام يطلبون بذلك البركة، وهم متواضعون بين يدي إمام زمانهم، وهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، ويلتفون حول إمام زمانهم ولا يسمحون بأن يصل إليه أذى، ويتلقون السهام بصدورهم، ويكفونه ما يريده منهم.

إنّ إمام الزمان ينتصر بأسباب طبيعية، وهذه هي صفات أنصاره، فما مدى قربنا أو بعدنا منها؟ فإن كنا قريبين نحمد الله ونقوي هذه الصفات، وإن كنا بعيدين فعلينا أن نعمل على أن نقوي أنفسنا على هذه الصفات .

المانع الخامس: التشكيك والتردد

يعيش الإنسان المهزوز داخلياً حالة التشكيك في المشروع الرسالي، وهذا التشكيك يمنع من البصيرة، وإذا فقد البصيرة فقد البوصلة والاتجاه الصحيح والقدرة على اتخاذ الموقف الصحيح، فينحرف عن جادة الصواب.

شاهد قرآني

من الشواهد على هذا المانع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[٤٠٠] .

ينقل لنا القرآن الكريم في هذه الآية ضمن مقطع قرآني قصة مؤمن آل فرعون، في حوار من ضمن حوارات له مع قومه، وكان في زمن فرعون وموسى عليه السلام، وهم نفس القوم الذين أُرسل لهم يوسف عليه السلام، فقال

٣٩٩ . بحار الأنوار ٥٢: ٣٠٤ ح٨٢.

٤٠٠ . المؤمن: ٤٣.

لهم مذكراً إياهم بما جاءهم به نبي الله يوسف عليه السلام: لقد جاءكم نبي الله يوسف بالحجج والبراهين والأدلة الواضحة، جاءكم بمشروع من السماء مشفوع ومقرون بالحجة والبرهان والدليل، وكان عليكم أن تتمسكوا به، ولكنكم خالفتم وما زلتم في شك مما جاءكم به، ورفضتم ذلك المشروع المشفوع بالأدلة الدامغة الواضحة، ولم يكن هذا التشكيك بذلك المشروع الرسالي والرفض لما حمله نبي الله يوسف عليه السلام من رسالة السماء يستند إلى تعقيد في خطابه ومشروعه، لأنّ هذا المشروع كان مشفوعاً بالبينات التي لا يختلف عليها اثنان، فلم تكن لديكم أزمة في الشرعية ولا أزمة في الحجية، بل كانت لديكم أزمة في قبول الحق، فشككتم في الحق مع أن القضية كانت واضحة، فأنتم لم ترغبوا بالالتزام بها؛ لانغماسكم في الدنيا والشهوات ومصالحكم الخاصة، والمشروع الرسالي يضرب هذه المصالح ويتقاطع معها، وحفاظاً على دنياكم ومصالحكم ضربتم المشروع الرسالي وشككتم به؛ للإبقاء على مصالحكم وأوضاعكم الخاصة.

التشكيك صدٌ عن الحق

وهذه مشكلة كبيرة تحصل في حياتنا دائماً، فقد يطرح على الإنسان أحياناً شيء يكون واضحاً فيقبل به لأنه حق، وإن كان خلاف مصالحه، وتارة يطرح عليه شيء فيه غموض فيتم السؤال والاستفسار، ولا ضير في ذلك للباحث عن الحقيقة، لأن الخوف من التساؤلات والتشكيكات ليس ناشئا من البحث عن الحقيقة، ولكنها تكون أحياناً لإحراج الآخر، أو لإظهار القدرات العلمية، أو لغرض التهوين والسخرية والاستهزاء من خلال حركات وإيماءات معينة لتسخيف الفكرة والآراء الصائبة، وفي أحيان أُخرى يراد منها إنكار المشروع فتثار إشكاليات لتثبيط الطرف الآخر ومنع الناس من الالتحاق بهذا المشروع، على الرغم من علم هؤلاء المشككين بأن المشروع حق، وهذه مشكلة يعيشها الإنسان في حالة التشكيك.

وهكذا شككوا بنبوة يوسف عليه السلام بالرغم من قدومه بالأدلة والبراهين، وبعد أن توفي يوسف عليه السلام، قالوا انتهت الرسالة، لكي لا يؤمنوا بمن يأتي بعده، ويستمروا بملذاتهم وشهواتهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: إن المسرف من يتجاهر بالمعصية ويستغل كل فرصة للقيام بها، والمنغمس في الدنيا مسرف ومرتاب ودأبه التشكيك وإثارة الشبهات؛ لكي لا يسمح للناس بالالتحاق بالمشروع الحق، فيأخذ الله سبحانه تعالى البصيرة من هؤلاء الناس، وإذا فقدوا البصيرة فقدوا البوصلة، وحينها سيضلون وينحرفون، فإن قمتم بنفس الخطوة وشككتم ورفضتم فستسلب منكم البصيرة وتضلون، كما فقدتم البصيرة وضللتم عن رسالة يوسف عليه السلام.

مرض نفسي

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: أي يجادل في آيات الله من دون حجة وبرهان ودليل مقنع، ويشكك ويحرض ويشوش الأجواء، وإن كان يعرف أنها صحيحة، ولكنه يهدف إلى التشكيك في الشرعية والنيات، من دون أن تكون له حجة وبرهان ودليل، وشغله التشكيك والرفض، وهذا مرض نفسي يوجد في كل زمان، والمريض نفسياً يشكك في كل شيء إيجابي، فيتهم الجميع بالسرقة مثلاً، ولا يذكر أي شيء إيجابي، والمتصدي لا يستطيع إرضاء الناس، فإن خرج للعمل انتقدوه، وإن لم يخرج اتهموه بعدم الخروج لخدمة الناس، وإن ظهر بمظهر البساطة قالوا يتكلف، وإن ظهر بالمظهر المتأنق قالوا إنه متكبر، فينتقد في كل خطوة يخطوها، والمشكك لا يقتنع بأي مشروع، فهو يشكك بأي خطوة، ويسخّف ويهوّن جميع القضايا.

هناك من دأبه إثارة الإشكالات بين الأصدقاء والتشكي والانتقاد، وهذه حالة نفسية مرضية، وإنسان كهذا يألف التشكيك في جميع الظروف والأحوال ويفقد البصيرة وينحرف، ويكون ذا شخصية سلبية، شأنه النقد الهدام السلبي المثبط، وليس لديه أمل بشيء، ويعشش فيه الرعب، ولا يريد أن يسمع شيئاً إيجابيا، ولا يريد أن يتفاعل مع أي قضية إيجابية، وأحياناً تكون لديه مصلحة فيندفع للتشكيك في جميع الخطوات والمشاريع لكي يقول فقط أنا الذي أعمل وأقدّم، والمقطع القرآني يصف ذلك: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، غضب عظيم من

الله سبحانه ومن المؤمنين على هؤلاء الذين يثيرون الشبهات، والذين لا يملكون أي فكرة صحيحة ولا يتجاوبون مع الأفكار الأُخرى، فينحرفون ويضلون لأنهم فقدوا البصيرة.

وكما تنطبق هذه القاعدة القرآنية على من يشكك في المشروع ويفقد البوصلة فيضل وينحرف، كذلك تنطبق على مشاريعنا الوطنية؛ فالإنسان الذي لا يريد أن يستمع إلى الحق ولا يقبل بالبينات والحجج والدستور والقانون وهي المعايير التي تنتظم فيها الحياة ومن لا يريد أن يلتزم بها، تراه يشكك في الدستور وفي جميع المواقف.

شاهد روائي

لقد ورد في مقطع من مقاطع مناجاة المطيعين ما يشير إلى هذا النوع من موانع البصيرة، وهي المناجاة السابعة للإمام زين العابدين عليه السلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أَللَّهُمَّ أَلْهِمْنا طاعَتَكَ، وَجَنِّبْنا مَعْصِيَتَكَ، وَيَسِّرْ لَنا بُلُوغَ ما نَتَمَنّى مِن ابْتِغاءِ رِضْوانِكَ، وَأَحْلِلْنا بُحْبُوحَةَ جِنانِكَ، وَاقْشَعْ عَنْ بَصائِرِنا سَحابَ الارْتِيابِ، وَاكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ وَالْحِجابِ، وَأَزْهِقِ الْباطِلَ عَنْ ضَمآئِرِنا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَرائِرِنا، فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَواقِحُ الْفِتَنِ، وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِ الْمَنآئِحِ وَالْمِنَنِ.

أَللَّهُمَّ احْمِلْنا فِي سُفُنِ نَجاتِكَ، وَمَتِّعْنا بِلَذيذِ مُناجاتِكَ، وَأَوْرِدْنا حِياضَ حُبِّكَ، وَأَذِقْنا حَلاوَةَ وُدِّكَ وَقُرْبِكَ، وَاجْعَلْ جِهادَنا فِيكَ، وَهَمَّنا فِي طاعَتِكَ، وَأَخْلِصْ نِيّاتِنا فِي مُعامَلَتِكَ، فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، وَلا وَسِيلَةَ لَنا إِلَيْكَ إِلاّ أَنْتَ».

المحور السابع

نماذج من أهل البصائر

نتطرق هنا إلى عدد من أهل البصائر الذين لمعت أسماؤهم على الساحة التأريخية، ونبدأ بالحديث عن بعض الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم ونعتهم بالبصيرة، ثم نتناول بالحديث بعضاً من أوصياء الأنبياء ممن وصفهم الله تبارك وتعالى بالبصيرة في كتابه العزيز، ثم نتحدث عمن أشار إليهم القرآن بعناوينهم العامة واعتبرهم من أصحاب البصائر، كعنوان المؤمنين والمتقين والمقربين والمتفكرين، وأخيراً نذكر أنموذجاً من أهل البصائر من أنصار الحسين عليه السلام ممن حضر واقعة الطف.

أولاً: الأنبياء

لا شك في أن الأنبياء جميعاً هم من أهل البصائر، لأنّ وظيفتهم هي إخراج الناس من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، ولكننا نقتص على بعض من وصفهم القرآن الكريم بالبصيرة.

١ـ نبي الله إبراهيم عليه السلام

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام نبياً متميزاً من بين الأنبياء، وقد حظي بقسط وافر من الذكر في القرآن الكريم، فهو من أولي العزم الخمسة، وهو أبو الأنبياء، وهو جدّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي أسكن ولده إسماعيل في قلب الجزيرة العربية في مكة المكرمة عند بيت الله العتيق، ودعا بدعوته المعروفة التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وهو أبونا الذي سمّانا المسلمين من قبل[٤٠١].

٤٠١ . إبراهيم: ٣٧.

وقد ورد وصف إبراهيم عليه السلام بأنه من أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤٠٢].

إنّ كون إبراهيم عليه السلام من أهل اليقين يعني أنه من أهل البصيرة، لأنه عندما يريه الله تبارك وتعالى ملكوت السماوات والأرض ويرى الواقع والحقائق كما هي، فلن يبقى أمام عينيه أي مانع يحجبه عن رؤية حقائق الأشياء والأحداث، وحينئذ سيكون على بصيرة كاملة من أمره، والمستفاد من الآية الكريمة أنّ إراءة ملكوت السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه من الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾: الملكوت مبالغة في المُلك، والمَلَك بضم الميم هو حق السلطنة في التصرف بالأشياء، وهو وإن كان اعتباريا بالنسبة للبشر، ولكنه حقيقي بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنه المالك الحقيقي لها، فهو خالقها وموجدها من العدم، فالملك إذن هو معنى مشترك بين الله تبارك وتعالى والإنسان، بينما الملكوت هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله تعالى وقيامها به، وهذا أمر لا يقبل الشركة ويختص به سبحانه وحده، ولذلك كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي إلى التوحيد هداية قطعية، كما بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾[٤٠٣].

في الآية الكريمة دقائق ولطائف لا بأس من الإشارة إلى بعضها، منها: أنّ دخول الإنسان في حضرة القدس الإلهية يفتح له باباً إلى ملكوت السماوات والأرض، يشاهد منه ما خفي على غيره من آيات الله تبارك وتعالى، وقد ورد هذا المعنى في ما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: (لولا أنّ

٤٠٢ . الأنعام: ٧٥ ٧٩.

٤٠٣ . الأعراف: ١٨٥.

الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض)[٤٠٤].

قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: يعنى أنّ الحصول على اليقين هو أثر من آثار إراءة الملكوت، وليس هو الأثر الوحيد، بل هناك آثار أُخرى لم تذكرها هذه الآية الكريمة، ولو قال (ليكون) من غير (واو العطف) لكان اليقين هو الأثر الوحيد، واليقين هو العلم الذي لا يشوبه شك بوجه من الوجوه، ومن كان على يقين فهو من أهل البصيرة قطعاً.

٢ـ نبي الله إسحاق ونبي الله يعقوبعليهما السلام

لقد جاء وصف هذين النبيين الكريمين بأنهما من أهل البصيرة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[٤٠٥].

في هذه الآيات الكريمة تصريح بأنّ هؤلاء الأنبياء الثلاثة هم من أهل البصائر، والمراد من الأبصار هنا البصائر، إذ لا خصوصية بأن يكونوا من أصحاب الأيدي والأعين وجميع البشر يتمتعون بهذه النعم، بل المقصود هو كونهم من أهل القوة والبصيرة، وهو تعبير كنائي عن القوة في طاعة الله تبارك وتعالى، وتبصرهم في إصابة الحق في الاعتقاد والعمل.

٣ـ رسول الله محمدصلى الله عليه وآله

ورد وصف الرسول الأكرم بأنه من أهل البصائر في مواضع عدة في القرآن الكريم نذكر بعضاً منها:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٤٠٦].

---

٤٠٤. بحار الأنوار ٦٠: ٣٣٢.

٤٠٥. سورة ص: ٤٥ ٤٧.

٤٠٦. هود: ١٧.

المراد بمن كان على بيّنة من ربه هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وبالشاهد منه هو ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد سمّى الله تبارك وتعالى البصيرة الإلهية الخاصة بالأنبياء بيّنة؛ كما في قوله تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينا وآله السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾[٤٠٧]، وكذلك سمّى مطلق البصيرة الإلهية بيّنة؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[٤٠٨]، فإن كان المراد من البيّنة في الآية محل الشاهد المعنى العام، بقرينة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فالمقصود بها هنا هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً؛ لأنّ الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**﴾: المراد بالشاهد منه هو الشاهد الذي ينتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله انتساباً نسبياً، وأبناء أبي طالب هم أقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنّ أبا طالب شقيق عبد الله والد الرسول الأكرم، فهو أخوه لأبيه وأمه دون سائر أولاد عبد المطلب، والإمام علي بن أبي طالب هو أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان على بصيرة من ربه وشهد بأن ما أتى به رسول الله صلى الله عليه وآله حق لا ريب فيه، فيكون أهلاً لتحمّل الشهادة من بعده، أي تحمّل أعباء الدعوة الإلهية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والدليل على أن المراد هنا هو تحمّل الشهادة لا مجرد تأديتها الذي يفيد صحة الأمر المشهود له، والذي لا محصل له في مثل هذا المقام، هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[٤٠٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٤١٠].

---

٤٠٧. هود: ٢٨.

٤٠٨. محمد: ١٤.

٤٠٩. البقرة: ١٤٣.

٤١٠. الحج: ٧٧ ٧٨.

وقد روى الفريقان من الخاصة والعامة ما يدل على هذا؛ فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن أحمد بن عمر الخلال قال: (سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله عز وجل: (أفمن كان على بيّنة...)، فقال: أمير المؤمنين عليه السلام هو الشاهد من رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله على بيّنة من ربّه)[٤١١]، وروى السيوطي ذلك أيضاً قال: (أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب قال: ما من رجل من قريش إلاّ نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، رسول الله على بيّنة من ربه وأنا شاهد منه)[٤١٢].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٤١٣]، يعلّم الله تبارك وتعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله كيف يخاطب المشركين، وماذا يجب عليه أن يقول لهم، ومعنى الآية الكريمة: إني وإن كنت مثلكم في البشرية والعجز، ولكن ذلك ليس مانعاً لكم من اتّباعي؛ لأنّ الله تبارك وتعالى قد جعلني على بصيرة بما أُوحي إليّ دونكم، ومثلي ومثلكم كالأعمى والبصير؛ فإنهما وإن تساويا في البشرية، ولكنهما مختلفان في الحكم، إذ يجب على الأعمى أن يقتفي أثر البصير ويتّبعه في سيره ويمسك بيده ليصل إلى المكان الذي يريده، وعليه يجب عليكم اتّباعي لأني على بصيرة من ربي لأهديكم إلى الطريق الذي يوصلكم إلى الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: أهل البيت عليهم السلام

المقصود منهم محمد وآل محمد المعصومون، وقد مرّ الكلام في رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقي الكلام في الأئمة الاثني عشر، وهم علي بن أبي طالب وولداه الحسن والحسين والتسعة المعصومون من

٤١١. الكافي ١: ١٩٠ ح٣.
٤١٢. الدر المنثور ٣: ٣٢٤.
٤١٣. الأنعام: ٥٠.

ذرية الحسين عليهم السلام : علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق وموسى بن جعفر الكاظم وعلي بن موسى الرضا ومحمد بن علي الجواد وعلي بن محمد الهادي والحسن بن علي العسكري ومحمد بن الحسن المهدي .

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤١٤] ، وقد كانوا من أصحاب البصائر يقيناً ؛ لأنّ من طَهّره الله تطهيراً لا توجد أي موانع تحجبه عن رؤية الحقائق كما هي .

وكذلك ورد ذكرهم في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٤١٥] ، ومن نصبه الله عز وجل ولياً للمؤمنين لابد من أن يكون كرسول الله صلى الله عليه وآله من أهل البصيرة ، لكي يستطيع أن يجعل غيره من أصحاب البصيرة .

وورد ذكرهم أيضاً في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٤١٦] ، ولابد من أن يكون أُولو الأمر الذين يأمر الله بطاعتهم بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن كان بهذه المنزلة لابد من أن يكون معصوماً ، ومن لوازم العصمة أن يكون صاحبها من أهل البصائر .

وقد وردت روايات عدة بشأن البصيرة عند أهل البيت عليهم السلام :

منها : (قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : يا علي أنت مني بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد والروح من البدن . . .)[٤١٧] .

ومنها : (قال رسول الله صلى الله عليه وآله : علي أفضلكم ، وفي الدين أفقهكم ، وبسنتي أبصركم . .)[٤١٨] .

ومنها : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (فاطمة بهجة قلبي ، وأبناؤها

٤١٤ . الأحزاب : ٣٣ .

٤١٥ . المائدة : ٥٥ .

٤١٦ . النساء : ٥٩ .

٤١٧ . بحار الأنوار ١٩ : ٨٢ .

٤١٨ . بحار الأنوار ٤٠ : ٤١ ح٧٦ .

ثمرة فؤادي، وبعلها نور بصري، والأئمة من ولدها أُمناء ربي)[٤١٩].

ومنها: قال الإمام الباقر عليه السلام لأبي الصباح الكناني: (لقد ظننتم أنّ هذه الجدران تحجب أبصارنا كما تحجب أبصاركم؟!)[٤٢٠].

ومنها: عن أبي سعيد التيمي قال: سمعت أبا ثابت مولى أبي ذر يقول: سمعت أُم سلمة تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي قبض فيه يقول وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: (أيها الناس يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها وقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان بصيران لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض، فأسألهما ماذا خلفت فيهما)[٤٢١].

ثالثا: المتقون

ذكر الله تبارك وتعالى وصف المتقين بأنهم من أصحاب البصائر في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤٢٢].

تتحدث الآيات الكريمة عن مجموعة من التوجيهات التي يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه الكريم بها في التعامل مع الناس، والتعامل مع وساوس الشيطان الرجيم، وكيفية مواجهة المشركين والرد على شبهاتهم، وموضع الشاهد فيها هي الآية الثالثة، وهي تحكي عن صفة من صفات المتقين حين يتعرضون لوساوس الشيطان فيفقدون بصيرتهم، إذ يتذكرون الله عز وجل فترجع إليهم بصيرتهم على الفور، وتفشل محاولات الشيطان

٤١٩. بحار الأنوار ٢٣: ١١٠ ح١٦.

٤٢٠. بحار الأنوار ٤٦: ٢٤٨ ح٤٠.

٤٢١. بحار الأنوار ٣٨: ١١٨ ح٦١.

٤٢٢. الأعراف: ١٩٩ ٢٠٣.

الرجيم لإضلالهم، وكذلك الآية الأخيرة التي تضمنت وصف القرآن الكريم بأنه بصائر للمؤمنين.

والبصائر جمع بصيرة، وهي الإدراك المصيب للواقع، والمراد بها ما يبصر به، وإنما كان القرآن الكريم بصائر للمؤمنين لما تضمنه من قصص وعبر وأحكام وقوانين تعيّن الوظائف العملية للمؤمن، ويؤدي الالتزام بها إلى الاهتداء إلى الطريق الحق، الذي هو سبيل الله تبارك وتعالى، وهو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة.

رابعاً: المنيبون

ورد وصف المنيبين بأنهم من أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[٤٢٣].

المنيبون هم التائبون الراجعون إلى طريق الطاعة بعد تمردهم وعصيانهم لأوامر الله عز وجل ونواهيه، ويحتاج المنيبون لرجوعهم إلى الصراط وترك المعاصي والذنوب إلى التفكر في آيات الله سبحانه وتعالى في السماوات والأرض، لكي تتولد عندهم البصيرة التي يستطيعون عن طريقها العودة إلى طاعة الله تبارك وتعالى، وكما كان القرآن الكريم بصائر للمؤمنين خاصة؛ لأنهم يقرؤونه ويطلعون على ما فيه كما مرَّ في الفقرة السابقة، فإنّ التفكّر في آيات الله في السماوات والأرض سبيل للحصول على البصيرة؛ لأنها كتاب مفتوح ينظر إليه كل إنسان ويتأمل ما فيه من إتقان لا يمكن أن يأتي صدفة، بل هو بحاجة إلى خالق حكيم.

خامساً: المقربون

هم الأشخاص الذين قربهم الله تبارك وتعالى من قدس حضرته بسبب ما يتمتعون به من صفات أخلاقية عالية ومقامات معنوية رفيعة، بعد جهاد طويل في التقرب منه سبحانه، وقد جاء وصفهم بأهل البصائر في قوله

٤٢٣. ق: ٨ ٦.

تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٤٢٤].

تتحدث الآيات الكريمة عن صنف من الناس تتوفر فيهم صفات أخلاقية رفيعة، وهم على درجة عالية من طاعة الله تبارك وتعالى ومن الالتزام بالأحكام الإلهية، وكان دعاؤهم أن يكونوا أئمة للمتقين، وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بمضاعفة العذاب يوم القيامة والخلود في النار لو دعوا مع الله إلهاً آخر، أو قتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق أو زنوا، ومن الواضح أنّ هذا الحال من الالتزام العالي بالشريعة، وهذه الدرجة الرفيعة من العبادة والخضوع بنحو يبيتون فيه لله سجداً وقياماً، يستحق هذا المقام الرفيع وهو مقام الإمامة للمتقين، ومن كان إماماً للمتقين يستحق أن يكون إماماً للمؤمنين، بل إماماً لجميع الناس، وإذا كان المؤمنون فضلاً عن المتقين من أهل البصائر، فلابد من أن يكون أئمة المؤمنين والمتقين من أصحاب البصيرة أيضاً، وقد روى الشيخ المجلسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ قال: (في الجوامع: عن الصادق عليه السلام قال: إيانا عنى، وفي رواية: هي فينا، وروى علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: نحن أهل البيت)[٤٢٥].

موضع الشاهد في هذا المقطع القرآني هو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا

٤٢٤. الفرقان: ٦٣ ٧٤.

٤٢٥. بحار الأنوار ٦٦: ٢٦٣.

ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾، والخرور على الأرض هو السقوط عليها، وهي في الآية الكريمة كناية عن ملازمة الشيء والانكباب عليه، أي أنهم إذا ذكّروا بحكمة أو موعظة قرآنية لم يقعوا عليها وقوع الأصم الذي لا يسمع والأعمى الذي لا يبصر، بل يتلقونها عن وعي وإدراك وبصيرة، فهم ينكبون عليها انكباب الأعمى والأصم ولكن عن بصيرة، فلا تزلزلهم بعدها الشبهات ولا تعتريهم الشكوك، وقد ورد هذا المعنى في رواية عن أبي بصير قال: (سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾، فقال مستبصرين ليسوا بشكّاك)[٤٢٦].

سادساً: المؤمنون

ورد وصف بعض المؤمنين الذين امتازوا بخصائص معينة بأنهم من أهل البصائر في القرآن الكريم في عدة مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[٤٢٧].

وصف الله سبحانه هنا الإنسان الذي اجتمع فيه الإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى الله عز وجل بأنه من أهل البصيرة؛ إذ مقتضى وصفه بالسميع البصير هو ذلك، في مقابل من لم يكن كذلك إذ وصفه بالأعمى والأصم.

والإخبات إلى الله هو الاطمئنان إليه والخشوع له سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ**﴾: أي مَثَلُ الكفار والمؤمنين، وقد تكرر هذا الاستعمال كثيراً في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿**كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ**﴾: أي أن الكافر كالأعمى وكالأصم، والمؤمن كالبصير والسميع، أو أنَ الكافر كالأعمى الأصم، وأن المؤمن كالبصير السميع.

---

٤٢٦. الكافي ٨: ١٧٨.

٤٢٧. هود: ٢٣ ٢٤.

وقد وصف الكافر بهذا الوصف لتعاميه عن آيات الله تعالى وتصامّه عن الاستماع إلى كلامه، بينما وصف المؤمن بعكس ذلك لأنه يتبصّر بآيات الله سبحانه ويستمع إليها ويتفكّر بها ويتدبرها.

قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**﴾: سؤال استنكاري، إذ من الواضح جداً عدم تساوي الإنسان الأعمى والأصم مع الإنسان البصير والسميع، والبصير صيغة مبالغة في شدة البصر، والسميع صيغة مبالغة في شدة السمع.

قوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾: خطاب عام إلى جميع من يصله هذا المثل الذي ضربه الله تبارك وتعالى للمؤمن والكافر، بل وفي كل مثل يضربه الله سبحانه وتعالى، فإنّ تذكّر هذه الأمثال مدعاة للتفكّر بها، ليضع الإنسان خطوته الأولى في الطريق الصحيح.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٤٢٨].

يتحدث هذا المقطع القرآني أيضاً عن حقيقة البصيرة التي يمتلكها المؤمن ويفقدها الكافر عن طريق ضرب الأمثال، وقد استعمل الله تبارك وتعالى هنا مثلين لبيان ذلك، الأول: عدم مساواة الأعمى للبصير، والثاني: عدم مساواة الظلمات للنور، وهما مثلان يصدّقهما كل إنسان ولا يحتاج إلى دليل على صحتهما، والمؤمن في المثل الأول كالبصير، وفي المثل الثاني كالنور، بينما الكافر في المثل الأول كالأعمى، وفي المثل الثاني كالظلمات.

وقد ضرب الله عز وجل هذين المثلين بعد إلقاء الحجة وإتمامها، فالكافر بالحجة الحقة أعمى، والمؤمن بها بصير، وهما لا يستويان ببديهة العقل، والكافر في المثل الثاني كالظلمات والمؤمن كالنور، وهما لا يستويان أيضاً

٤٢٨. الرعد: ١٦.

ببديهة العقل، فمن الواجب على الإنسان الإيمان بالحجة والدليل على وجود الله ووحدانيته، وما يترتب على هذا الإيمان من التصديق بالأنبياء والشرائع التي جاؤوا بها من عند الله تبارك وتعالى، والحجة التي ساقها الله تعالى في هذه الآية الكريمة ولقنها نبيّه الكريم هي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾[٤٢٩].

في هذا المقطع القرآني تشبيه للكافر بالأعمى، ومقتضى السياق هو تشبيه المؤمن بالبصير، وعبّر عنه هنا بالتذكّر، والمراد منه التبصّر.

قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾: استفهام استنكاري مسوق لبيان أن الأعمى والبصير لا يستويان، فهناك بون شاسع لا حدود له بين من يؤمن بأنّ ما جاء به النبي الأكرم ﷺ هو الحق، وبين من ينكر ذلك، وهذا الإيمان هو الذي تتولد منه البصيرة، وقد عبّر عنه هنا بالعلم، مما يدل على أن العلم بالأمر الفلاني أنه حق يساوي الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾: الألباب جمع لُب، وهو القلب الحقيقي الذي يدخله الإيمان فتكون له آثار وبركات، وهو الجدير بالتذكر والتبصر وإدراك الحق من الباطل.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ ...**﴾: وهنا يذكر القرآن الكريم تسع خصال لهذه القلوب وهي:

أولاً: الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، وهو العهد الذي أخذه من ذرية

٤٢٩. الرعد: ١٩ ٢٣.

بني آدم في عالم الذر حينما أشهدهم على أنفسهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[٤٣٠].

ثانياً: عدم نقض الميثاق، والألف واللام في (الميثاق) إما أن تكون ذكرية، فيكون هو نفس عهد الله، أو مطلق الميثاق الذي يقطعه الإنسان على نفسه أمام الله تعالى أو أمام إنسان آخر.

ثالثاً: صلة ما أمر الله به أن يوصل، والذي أمر الله به أن يوصل هم الرحم، وهم الوالدان والأولاد والإخوان والأعمام وذرياتهم.

رابعاً: خشية الله سبحانه وتعالى، أي الخوف منه.

خامساً: الخوف من سوء الحساب، والمراد من سوء الحساب هو المداقّة في الحساب، وهو قول الإنسان يوم القيامة: (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)[٤٣١].

سادساً: الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، والصبر صبران: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية.

سابعاً: إقامة الصلاة، وهي تتضمن معنى أكثر من مجرد أداء الصلاة؛ كأداء الصلاة في أول وقتها، وأدائها جماعة... وما إلى ذلك.

ثامناً: الإنفاق سراً وعلانية، فإنّ لكل واحد منهما الإنفاق سرا والإنفاق علانية آثاره الخاصة به.

تاسعاً: درء السيئة بالحسنة، أي مقابلة التعامل السيئ من الآخرين بتعامل حسن.

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ

٤٣٠. الأعراف: ١٧٢.

٤٣١. الكهف: ٤٩.

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[٤٣٢].

يتضمن هذا المقطع القرآني الكريم بيان حقيقة البصيرة التي يتمتع بها المؤمن دون الكافر من خلال ضرب الأمثال، وذلك بالمقارنة بين ظاهرتين متقابلتين يظهر الفرق الجلي بينهما بالبديهة لكل ذي عقل، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هنا أربعة أمثال هي: لا يستوي الأعمى والبصير، لا تستوي الظلمات والنور، لا يستوي الظل والحرور، لا يستوي الأحياء والأموات، وجميعها يشير إلى مدلول واحد؛ هو عدم مساواة صاحب البصيرة بفاقدها، وفي الآيات الكريمة تصريح بأنّ صاحب البصيرة هنا هو المؤمن الذي يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة، ومن كان كذلك فقد زكّى نفسه، وفائدة التزكية ترجع بالنفع على صاحبها قبل غيره؛ لأنّ مصير الجميع إلى الله سبحانه وتعالى، وحينئذ سيجد النتيجة عندما يوفّى الناس أجورهم جزاء ما فعلوه في الحياة الدنيا.

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤٣٣].

ضرب الله سبحانه وتعالى عدم تساوي الأعمى والبصير مثلاً لعدم تساوي المؤمن الذي يعمل الصالحات مع المسيء، والمسيء عنوان عام، ولكن سياق الآية يشير إلى أن المراد به ما ورد في صدر الآية الأولى، وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير دليل أتاهم من الله تبارك وتعالى، وكان ذلك بسبب التكبر الذي في نفوسهم، والذي سبب لهم العمى وحجبهم عن معرفة الحقائق، ومن هنا نعلم أن التواضع يفتح للإنسان بصيرته ويجعله مدركاً لما حوله بشكل صحيح.

---

٤٣٢. فاطر: ١٨-٢٣.

٤٣٣. غافر: ٥٦-٥٩.

وتتعرض هذه الآيات الكريمة إلى مجموعة فوائد، منها في معالجة التكبر، وذلك بالاستعاذة بالله السميع البصير، وتذكر حقيقة يغفل عنها أكثر الناس؛ وهي أن خلق السماوات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس، وحينها يستعين الإنسان بالله سبحانه وتعالى للتخلص من تكبره وغروره، ويعمل على تغيير نفسه من الداخل باجتثاث جذور التكبر، من خلال القضاء على وهم أنه أكبر وأحسن من الآخرين، بتذكر حقيقة أنّ خلق السماوات والأرض أعظم من خلقه، وإذا كان جميع ما يحيط به من سماوات وأرض أعظم منه فلم هذا التكبر؟!.

الموضع السادس: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٤٣٤].

إن الشاهد في الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾، أي الذين يتبصّرون هم أُولو القلوب الحية اليقظة، الذين يؤمنون بجميع ما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن يتّبعون المحكم دون المتشابه؛ فإنّ في القرآن الكريم آيات محكمات وآيات متشابهات، والآيات المحكمات هن أُم الكتاب، أي التي يرجع إليها في فهم الآيات المتشابهات، وقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بهذا النحو، لكي يتميّز المؤمن الذي يتبع المحكم من المنافق والذي في قلبه مرض الذي يتبع المتشابه، والذي يفعل ذلك من أجل زرع الفتنة بين المسلمين والإيقاع بينهم، للتحكم بهم والسيطرة على مقدراتهم، والناجون من هذه الفتنة هم أُولو البصائر، الناشئة بصيرتهم من التسليم والإيمان بجميع القرآن؛ محكمه ومتشابهه، ومن الرسوخ في العلم الناشئ من إرجاع المتشابه إلى المحكم، واتّباع المحكم دون المتشابه، والمحكم هو الذي لا يختلف اثنان في فهم معانيه وإدراك مقاصده، والمتشابه هو ما وقع الاختلاف في فهم معانيه وإدراك مقاصده، ومن أمثلة المحكم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

٤٣٤. آل عمران: ٧.

شَيْءٌ﴾[٤٣٥]، وهي آية في غاية الوضوح، وتعني أنه لا يوجد شيء يشبه الله تبارك تعالى، فهو سبحانه منزّه عن مشابهة مخلوقاته، ومن أمثلة المتشابه قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٤٣٦]، وظاهرها أنّ له سبحانه يداً مثلما أن لبعض مخلوقاته يداً، وهذا التفسير يؤدي إلى القول بالتجسيم، وهو كفر بواح، وحينئذ سيؤدي التمسك بهذا الظاهر إلى حصول التناقض بين معاني القرآن وآياته، فلابد من تأويل هذا المتشابه لينسجم مع المحكم، وهو أن نقول كما هو الواقع إن المراد من اليد هنا القوة والسيطرة، وحينئذ لا يكون اتّباع المتشابه مذموماً، لأننا أرجعناه إلى المحكم.

٤٣٥ . الشورى: ١١.

٤٣٦ . الفتح: ١٠.

مصاديق البصيرة في واقعة الطف

حينما نقف عند واقعة الطف ، نجد هذه الرؤية العميقة والوضوح والبصيرة في كل كلمة صدرت ، وفي كل فعل صدر ، عن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه .

وما أكثر نماذج البصيرة في عاشوراء ، ولكن نتبرك باستعراض بعض هذه النماذج لنتعرف على مستوى البصيرة عند هذه الثلة المؤمنة التي نالت وسام الشهادة بين يدي أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، وقد شهد الإمام الحسين عليه السلام لأهل بيته وأصحابه بأنّهم من أهل البصائر ، وأنّهم يتمتعون بهذه الرؤية الثاقبة ، ولذلك أصبحوا خير الأصحاب ، إذ قال عليه السلام : (اللهم إنّي لا أعرف أهل بيت أبرّ ولا أزكى ولا أطهر من أهل بيتي ، ولا أصحاباً خيراً من أصحابي)[٤٣٧] ، ولا يمكن أن يكون الأفضل إلا بالبصيرة والرؤية الثاقبة واختيار الحق ، وأنه لا يستوحش طريق الحق لقلة سالكيه ، وقد قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٤٣٨] ، وحينما يكون الإنسان من أهل البصيرة فإنّه يرى الحق كما يرى الشمس ، فيمضي في هذا الطريق .

٤٣٧ . بحار الأنوار ٤٤ : ٣١٦ .

٤٣٨ . سبأ : ١٣ .

البصيرة عند أهل البيت

البصيرة عند الإمام الحسين عليه السلام

لقد كان سيد الشهداء عليه السلام صاحب البصيرة النافذة، فأي موقف من مواقف الحسين عليه السلام بعيد عن البصيرة؟ وكلها تجسيد للبصيرة بأبهى صورها. ولنأخذ نماذج من بصيرة الحسين عليه السلام لكي نستفيد عبراً ودروساً. لقد كان عليه السلام يعرف تفاصيل ما سيحدث في صبيحة ليلة عاشوراء، ولا يتوهم أحد أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يدري ولم يكن له خط رجعة، بل كان يعلم كل شيء من البداية، وهو في مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وقبل أن يخرج.

لاحظوا هذا الحوار بين الإمام الحسين عليه السلام وأمّ سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما رأت عزم الحسين عليه السلام على الخروج إلى العراق قالت له: (يا ولدي لا تحزني بخروجك إلى العراق، فإنّي سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق، بأرض يقال لها كربلاء، وعندي تربتك في قارورة، دفعها إليّ النبي صلى الله عليه وآله، فقال الحسين عليه السلام: يا أُماه وأنا أعلم أنّي مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء الله عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً). انظروا إلى البصيرة الحسينية، فقد كانت لديه معرفة وعلم بما يجري عليه وعلى عياله، الذين شاء الله أن يراهم أسارى.

وقد اعترض البعض على أخذ الإمام الحسين عليه السلام الأطفال والنساء معه وهو ذاهب إلى الموت، فأجابهم بأنّ هذا تصميم رباني؛ لأنّه أُريد للمشروع الحسيني أن يكون مشروع الإنسان والحياة، وليس هناك حياة بلا أطفال ونساء وأنماط وشرائح اجتماعية مختلفة.

وكان الجيش الصغير للإمام الحسين عليه السلام يمثل المجتمع بكل تلاوينه؛ فقد كان فيه الرجل والمرأة والكبير والصغير وشيخ العشيرة والعبد

المملوك، وفيه كل الأنماط والمذاهب والأديان، وأُريد له أن يمثل الحياة، وهذا مشروع حق وإنساني يجب أن يمثل كل الإنسان، وهذه إرادة إلهية.

فقالت أُم سلمة: (واعجباه! فأنّى تذهب وأنت مقتول؟ فقال عليه السلام: يا أُماه إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وما من الموت بدّ)[٤٣٩].

كان لشهيد المحراب (قدس سره) تحليل مهم لهذه القضية؛ وهي لماذا تعلقت الإرادة الإلهية بأن يراق دم الإمام الحسين عليه السلام في العراق؟. يقول: إن الشعب العراقي يتميز بامتلائه بالمشاعر والعواطف، ودم الحسين عليه السلام يُحفظ في العراق، ولو أنّ واقعة الطف كانت في بلد آخر لضاع دم الحسين عليه السلام. وقد قرأت رواية بشأن نبي الله إبراهيم عليه السلام تنسجم مع هذا التحليل، وهي أنّ إبراهيم عليه السلام أراد أن يدعو على العراق، فأوحى الله عز وجل إليه: (لا تفعل فإنّي جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة في قلوبهم)[٤٤٠].

فالله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يدعو خليله إبراهيم عليه السلام على العراقيين، لأنّه قد أودع فيهم خصلتين لم يجعلهما عند غيرهم؛ فإنّه تعالى قد يعطي العلم إلى أمةٍ ما، ولكنه لا يعطيها خزائن علمه، وقد يعطي الرحمة أُمة ما في فترة ما، ولكن لا يُسكنها في قلوبهم على مدى الأعصار، وهذا ليس اعتباطاً، وهذا البلاء والنعمة سبيل الى التكامل.

يقول البعض: لماذا يشتدّ البلاء علينا نحن العراقيين، من مشاكل وطغاة وظالمين وما جرى ويجري في العراق مما لم يجر على شعب آخر؟. والجواب: إنّ الشعب العراقي يجب أن يُعد إعداداً كبيراً، فالقوات الخاصة لا تُدرب مثل تدريب الجنود العاديين، والشعب العراقي يجب أن يلعب أدواراً تأريخية كبيرة، وهذه الأدوار تحتاج إلى تمحيص وغربلة وبناء، وهذا البناء لا يكون إلا بالابتلاء، وهذه من السنن الإلهية التي لا تقبل التغيير، وفي هذه الابتلاءات عزة وكرامة لكم.

---

٤٣٩. بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١.

٤٤٠. بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٣. كنز العمال ١٤: ٩٨، ح٣٨٠٤١. تأريخ بغداد ١: ٥٢. تأريخ مدينة دمشق ١: ١٢٨.

(وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وما للموت من الله من بد، وإني لأعرف اليوم الذي أُقتل فيه، والساعة التي أُقتل فيها، والبقعة التي أُدفن فيها، كما أعرفك يا أُماه، وانظر إليها كما أنظر إليك. وإن أحببت يا أُماه أن أُريك مضجعي ومكان أصحابي، فطلبت منه ذلك، فأراها تربة أصحابه، وأخرج لها من تلك التربة ثم أعطاها منها، وأمرها أن تحتفظ بها في قارورة، فإذا رأتها تفور دماً أيقنت قتله. وفي اليوم العاشر من محرم بعد الظهر نظرت إلى القارورتين؛ قارورة رسول الله صلى الله عليه وآله والقارورة التي وضعت فيها التراب الذي أعطاها الحسين عليه السلام، فإذا هما تفوران دماً، فعرفت أنّ الحسين عليه السلام قد قتل)[٤٤١].

وكانت جميع كلمات سيد الشهداء عليه السلام من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء مليئة بالمواقف التي تكشف عن وضوح في ما ستؤول إليه الامور، وتكشف عن البصيرة الحسينية، والأسباب والمبررات التي دعته إلى هذه الثورة، كقوله عليه السلام: (والله لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد، إنّي عذت بربي وربكم أن ترجمون، وأعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)[٤٤٢].

فالقضية ليست قضية شخصية، ولو أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يعيش معززاً ومكرماً ومحبوباً ومحترماً فإنّه يستطيع أن يحصل على ذلك بسهولة، ولكن المسألة أعمق من ذلك بكثير، فقد خرج بأمر الله عز وجل لإصلاح الأُمة وتقويم الانحراف، وكان عليه السلام يخشى على الأُمة أن ينزل عليها العذاب بقتله؛ لأنّ قتل الحسين عليه السلام ليس قتل شخص عادي، لأنّهم بذلك يظهرون العداوة لله عز وجل، والعداء لله فيه ضريبة كبيرة. ثم يحذرهم عليه السلام من الاستعلاء والتكبر على الله سبحانه، ويستعيذ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ومما يكشف عن عمق بصيرته عليه السلام قوله: (إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما)[٤٤٣]. فالحياة ليست أكلاً وشرباً

٤٤١. بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١.

٤٤٢. بحار الأنوار ٤٥: ٧.

٤٤٣. بحار الأنوار ٤٤: ١٩٢.

وبيوتاً فارهة وسيارات فاخرة، بل الحياة سعادة القلب حينما يسير الإنسان في الطريق الصحيح، والحياة مع الظالم وإن كانت في القصور فهي شقاء وألم، والحياة في طريق الحق وإن أفضت إلى الشهادة، هي عزة وكرامة. وتؤيد ذلك مقولته عليه السلام المعروفة: (هيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون)[٤٤٤].

ومن أقواله التي تدل على بصيرته النافذة قوله عليه السلام في المدينة: (خُط الموت على بني آدم مخط القلادة على جيد الفتاة)[٤٤٥]، فكما أنّ القلادة لا تفارق رقبة المرأة، فكذلك الموت يرافق الإنسان ولا يفترق عنه.

ومن مواقفه عليه السلام التي تكشف عن عظيم بصيرته، أنّه عندما حاصر الحر مع ألف فارس من الجيش الأموي، الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من عياله وأهل بيته وأصحابه، قبل أن تلتحق عساكر وجيوش عمر بن سعد الأخرى، اقترح زهير بن القين على الإمام الحسين عليه السلام فك هذا الحصار ومقاتلة جيش الحر ما داموا قليلي العدد وقبل أن تلتحق القوات الأخرى. فرفض الإمام الحسن عليه السلام قائلاً: (أكره أن أبدأهم بقتال)، وأنّ موقفنا هو الدفاع عن أنفسنا، ولا نعطيهم هذا الامتياز.

وهذا المبدأ نجده أيضاً في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: (لا تدعونّ إلى مبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإنّ الداعي إلى القتال باغ، والباغي مصروع)[٤٤٦]، فالذي يقاتلك قاتله، كما صرّح القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٤٤٧]، ولكن لا تَبدأ بقتال. وهنا تتجلى البصيرة الحسينية لتثبيت المظلومية والحق، ولا مجال للطعن بحق الإمام الحسين عليه السلام. فعندما أرسل يزيد إلى الوليد أمير المدينة، يطلب منه أن يأخذ البيعة له من الإمام الحسين عليه السلام، كان جواب الإمام الحسين عليه السلام واضحاً، فالقضية ليست شخصية، بل هي قضية مشروع رسالي، ومن يحمل

٤٤٤. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥١٤.

٤٤٥. بحار الأنوار ٣٦: ٤٤.

٤٤٦. نهج البلاغة: الحكمة ٢٣٣.

٤٤٧. البقرة: ١٩٤.

مشروع السماء كيف يضع يده في يد من يحمل مشروع الانحراف والانحطاط؟!.

إذن، القضية قضية شرعية ومسؤولية شرعية، قال عليه السلام: (أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله)[٤٤٨].

وفي المكان الذي حاصر فيه الحر بن يزيد الرياحي الركب الحسيني، التحق بالحسين عليه السلام أربعة نفر أقبلوا من الكوفة، على رواحلهم عندما سمعوا بقدوم الحسين عليه السلام، فأراد الحر احتجازهم أو ردّهم. فقال له الإمام الحسين عليه السلام: (لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد، فإن تممت على ما بيني وبينك وإلا ناجزتك)[٤٤٩]، أي إذا منعتهم من الالتحاق فإنّ ذلك بمثابة إعلان الحرب والقتال.

انظروا إلى البصيرة في هذا الموقف الحازم في الدفاع عن الأصحاب والأنصار، وقد اعتبر عليه السلام هؤلاء من الأصحاب وإن لم يكونوا قد جاؤوا معه. وهذا كلام ينطبق عليكم أيضاً، فكل من لم يكن مع المجموعة ولكن قلبه ومشاعره مع الحسين عليه السلام فهو من أصحابه، وهو بمنزلة من جاء معه. وانظروا إلى البصيرة في تثبيت الأمور. ولعل هذا الموقف هو أحد الأسباب التي أيقظت ضمير الحر، فربما خطر في قلبه أنّه إذا التحق بالحسين عليه السلام سيكون من أصحابه، ولذلك قال: (أخيّر نفسي بين الجنة والنار)، والتحق بالحسين عليه السلام لاحقاً. وهذه المواقف الصحيحة ناتجة عن بصيرة واضحة.

وفي يوم الطف حينما حمل الإمام الحسين عليه السلام على عسكر ابن زياد كان يقتل بعضاً ويترك بعضاً آخر مع أنّه كان قادراً على قتلهم، فسئل عن ذلك فقال: (كشف عن بصري فأبصرت النطف التي في أصلابهم،

٤٤٨. اللهوف على قتلى الطفوف: ١٧.

٤٤٩. تأريخ الطبري ٤: ٣٠٦.

فصرفت عمن يخرج من نطفته من هو أهل الإيمان)[٤٥٠]. فهناك من يقاتل أبا عبد الله عليه السلام وهو يحمل في صلبه إنساناً مؤمناً، فيعرض عليه السلام عن قتله، لكي يمنح ذلك المؤمن فرصة الحياة، ويكون صوتاً لصالح الحق، فهل هناك بصيرة أعظم من هذه البصيرة؟.

في ساعات الغربة والوحشة من يوم عاشوراء حينما قُتل الأصحاب وأهل البيت، ولم يبق إلا الحسين عليه السلام وحده، وقد انهالوا عليه من كل صوب وحدب، قال عليه السلام في تلك اللحظات من حياته الشريفة: (هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله، اللهم اجعل ما حلّ بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل)[٤٥١]، إلهي اجعل كل هذا البلاء والمحنة سبباً في علو شأننا في الآجل. وهذا ما نجده اليوم من علو شأن الإمام الحسين عليه السلام في الدنيا والآخرة.

البصيرة عند أبي الفضل العباس عليه السلام

ماذا عسانا أن نقول في أبي الفضل عليه السلام؟. لقد كان عميق البصيرة، ورمزا كاملا للوفاء والنبل والشيمة والنصرة والالتزام بالعهود والمواثيق، وقف لصالح الحق ولم تأخذه في الله لومة لائم. وعندما يلاحظ الإنسان مواقف أبي الفضل العباس عليه السلام، يرى أنّها ملؤها البصيرة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: (كان عمّنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد الله، وأبلى بلاء حسناً، ومضى شهيداً)[٤٥٢]، فكانت لديه بصيرة نافذة، هكذا يقول الإمام الصادق عليه السلام ويشهد له هذا الإمام المعصوم، وهنيئاً لأبي الفضل هذه الشهادة.

وورد في زيارة أبي الفضل العباس عليه السلام كما يرويها ابن قولويه في كامل الزيارات: (أشهد أنك لم تهن، ولم تنكل، وأشهد أنك مضيت على

٤٥٠. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٦٠٩.

٤٥١. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٧٣.

٤٥٢. سر السلسلة العلوية: ٨٩. عمدة الطالب: ٣٥٦.

بصيرة من دينك»، الإمام المعصوم يشهد له بالبصيرة «مقتدياً بالصالحين، ومتّبعاً للنبيين)[٤٥٣].

ويقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه: (رحم الله عمي العباس فلقد آثر وأبلى، وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه فأبدله الله بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة)[٤٥٤]، يعني أنّه عليه السلام نجح في الاختبار، وآثر بنفسه وهواه وحياته وحفظ سيد الشهداء عليه السلام. وهذه شهادة أُخرى من إمام معصوم بحق أبي الفضل العباس عليه السلام.

وقد كان أبو الفضل العباس عليه السلام عالماً فاضلاً أخذ العلم من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وأخيه الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الإمام الحسين عليه السلام، فكيف لا يكون على بصيرة من يكون مشبعاً بالعلم، ومن يكون مملوءا بالمعرفة والرؤية العميقة؟.

وقد تجلت البصيرة النافذة لأبي الفضل العباس عليه السلام في أقواله ومواقفه يوم عاشوراء، منها طلبه من إخوته الثلاثة أن يتقدّموا للقتال لئلا يُقتل فيضعفهم ذلك عن القتال قائلاً لهم: (تقدموا يا بني أُمي حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله)؛ ليتأكد أنّهم ذاهبون على طريق الحق، وأنّهم قد نالوا الشهادة والسعادة الكبرى بين يدي الإمام الحسين عليه السلام. وبعد أن سقطوا شهداء، وسماعه صراخ الأطفال والعيال، جاء إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام مستأذناً في قتال القوم، فلم يأذن له، وبعد الإلحاح أذن له في أن يأتي بالماء للأطفال والنساء الذين أضرّت بهم شدة العطش.

وعندما وصل إلى الفرات قاتل كتائب الجيش الأُموي التي كانت تتولى حراسة الفرات وكشفهم عن المشرعة، ونزل من على ظهر جواده، وكان قلبه يكاد يتقطع من شدة العطش، ولما اغترف من الماء ليشرب، تذكر عطش الحسين عليه السلام وأطفاله وعياله.. أبو عبد الله عطشان وأهل البيت، نساء وأطفالا، عطاشى، أيجوز يا أبا الفضل العباس أن تشرب الماء وأبو عبد الله يعيش العطش، دفع الماء وقال:

٤٥٣. كامل الزيارات: ٤٤٢.

٤٥٤. بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤.

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعـــده لا كنـــت أن تكونـــي
هذا الحســـــين وارد المنون وتشـــربين بـــارد المعيـــن
تالله ما هذا فعال ديني

لاحظـوا البصيـرة النافـذة، ولاحظـوا الرؤيـة العميقـة، ولاحظـوا الوفـاء، ولاحظـوا الإيثـار. وحينمـا كان عليه السلام يقاتلهـم كان يرتجـز ويقـول:

لا أرهـب المـوت إذا المـوت زقا حتـى أوارى فـي المصاليـت لقـى
نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا إنـي أنـا العبـاس أغـدو بالســـقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقى

هكـذا كان يقاتـل ببسـالة منقطعـة النظيـر، وكان همـه إيصـال المـاء للأطفـال والنسـاء. وحينمـا قُطعـت يـده اليمنـى قـال:

والله إن قطـــــعتموا يميني إنـي أُحامـي أبـداً عـن دينـي
وعن إمام صـــــادق اليقين نجـل النبـي الطاهـر الأميـن

فهكـذا كان العبـاس عليه السلام علـى بصيـرة مـن دينـه، وأصبـح بابـاً مـن أبـواب الحوائـج، وأصبـح طريقـاً إلـى الله سـبحانه وتعالـى، بعظمتـه وبوقفتـه وبنصرتـه وببصيرتـه، فهنيئـاً لأبـي الفضـل العبـاس عليه السلام هـذه البصيـرة، ورزقنـا الله وإياكـم هـذه البصيـرة.

البصيرة عند علي الأكبر عليه السلام

إنّ الإنسـان ليقـف متصاغـراً أمـام بصيـرة هـذا الشـاب اليافـع البالـغ مـن العمـر سـبعة وعشـرين عامـاً، ففـي الطريـق مـن مكـة إلـى كربـلاء أخـذت الإمـام الحسـين سِنَة مـن النـوم، ثـم فتـح عينيـه واسـترجع قائـلاً: (إنّـا لله وإنّـا إليـه راجعـون)، فسـأله علـي الأكبـر عليه السلام عـن سـبب اسـترجاعه، فأخبـره الإمـام الحسـين عليه السلام أنـه رأى فـي منامـه قائـلا يقـول: (القـوم يسـيرون والمنايـا تسـير معهـم، فقـال علـي الأكبـر: يـا أبـت أولسـنا علـى الحـق؟ قـال: بلـى، فقـال

علي الأكبر: إذن لا نبالي أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا)[٤٥٥]، فالمهم أن نكون على الحق، وما دمنا على الحق فلا شيء مهم.

انظروا إلى البصيرة النافذة والرؤية الثاقبة، وانظروا إلى الوضوح الذي يحصل للإنسان بسبب البصيرة.

وكان عليه السلام سباقاً إلى التضحية، فبعد أن استشهد الأنصار وجاء دور بني هاشم، بادر علي الأكبر ليكون أول المبادرين من أهل البيت إلى القتال. وهذا دليل على بصيرة علي الأكبر.

وكان عليه السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً، حتى أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يقول: (كنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك صلى الله عليه وآله نظرنا إلى وجه علي الأكبر)[٤٥٦]. وكان علي الأكبر عليه السلام يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله في أخلاقه ومنطقه أيضاً، حتى أنّ المغفور له آية الله السيد صادق العاملي نظم ذلك شعراً فقال:

حوي الصفات الغر وهي صفاته من كل غطريف وشهم أصيد
في بأس حمزة في شجاعة حيدر بإبا الحسين وفي مهابة أحمد
وتراه في خلق وفيه خلائق وبليغ نطق كالنبي محمد

ومن دلائل ما امتاز به عليه السلام من بصيرة نافذة موقفه في يوم عاشوراء من الأمان الذي أُعطي له من قادة الجيش الأموي، بسبب قرابته من جهة أُمه بيزيد بن معاوية عن طريق النساء؛ فقد كانت أُم علي الأكبر هي ليلى بنت ميمونة بنت أبي سفيان، أي أنّ أبا سفيان هو جدّ ليلى من جهة أُمها، ولهذا صاح رجل من القوم في عاشوراء: يا علي إنّ لك رحماً بالأمير يزيد، فإن شئت آمناك، فقال عليه السلام: (إنّ قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله أحق أن تُرعى)[٤٥٧]، أي أنّكم لم تعطوني الأمان لقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وتعطونني الأمان لقرابتي من أبي سفيان! فأين الإسلام وأنت تدّعي أنّك

٤٥٥ . بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٩.
٤٥٦ . بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.
٤٥٧ . سر السلسلة العلوية: ٣٠.

خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ؟!. فانظروا إلى منطق أهل البصائر، هكذا يفحمون الآخرين.

وحينما برز للقتال كان يرتجز ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وربّ البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدّعي أضربكم بالسيف أحمي عن أبي
ضرب غلام هاشمي قرشي

وهكذا يعرّف علي الأكبر بمشروعه الرسالي، وأنّه يدافع عن مشروع والده الحسين عليه السلام، وهو مقاومة الانحراف في الحكم. وهذه الصلابة التي كانت لعلي الأكبر عليه السلام كانت وليدة البصيرة الثاقبة، فقد حكى عنه أرباب السير والمقاتل أنّه لم يزل يحمل على الميمنة ويعيدها على الميسرة ويغوص في الأوساط، ولم يقابل جحفلاً إلا ردّه، ولم يبرز إليه شجاع إلا قتله، حتى قتل مئة وعشرين فارساً. وهذا الثبات لا يكون إلا عن بصيرة، ولا يكون إلا من أهل البصائر.

ومن دلائل بصيرته ما راوه في حياته قبل استشهاده حينما سقط صريعاً ونادى بأعلى صوته: (عليك مني السلام يا أبا عبد الله، هذا جدي قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وهو يقول إنّ لك كأساً مذخورة)[٤٥٨]، انظروا البصيرة والوضوح والرؤية عند علي الأكبر. ثم اخذ الحسين عليه السلام بكفه من دمه الطاهر ورمى به نحو السماء فلم تسقط منه قطرة.

ومنزلة علي الأكبر عليه السلام وما نقرأه في زيارته شاهد آخر على بصيرته: (بأبي أنت وأُمي من مذبوح ومقتول، بأبي أنت وأُمي دمك المرتقى به إلى حبيب الله، بأبي أنت وأمي، من مقدم بين يدي أبيك يحتسبك ويبكي عليك، محترقاً عليك قلبه، يرفع دمك إلى عنان السماء لا يرجع منه قطرة، ولا تسكن عليه من أبيك زفرة)[٤٥٩].

٤٥٨. بحار الأنوار ٤٥: ٤٤.
٤٥٩. كامل الزيارات: ٤١٦.

البصيرة عند القاسم بن الحسن عليه السلام

وهو فتى في الحادية عشرة من عمره، وفي مقتبل شبابه، ولكنه كان على بصيرة من أمره، وكان أبوه الإمام الحسن المجتبى صلوات الله وسلامه عليه قد أوصاه بنصرة عمّه الإمام الحسين عليه السلام، وسلّمه مكتوبا مغلقا وقال له: (إذا أصابك همّ وغمّ فعليك بحل العوذة وقراءتها وفهم معناها، واعمل بكل ما تراه مكتوباً فيها)[٤٦٠]. وفي كربلاء، يوم عاشوراء، وجد القاسم عليه السلام عمه الإمام الحسين عليه السلام مهموماً مغموماً، فتذكر وصية أبيه الإمام الحسن عليه السلام ففتح العوذة، فإذا فيها أمر بالقتال بين يدي عمّه الحسين عليه السلام والتضحية من أجله، فعمل بوصية أبيه.

ويخبرنا أرباب السير والمقاتل، أنّه حينما قُتل الأنصار وجاء الدور إلى بني هاشم، وكان أحدهم القاسم بن الحسن عليه السلام وهو فتى صغير، تقدم بين يدي أبي عبد الله عليه السلام قائلاً: سيدي يا أبا عبد الله ائذن لي بالخروج والبراز، أريد أن أقاتل هؤلاء القوم وانتصر لك، وآخذ بوصية أبي، وأقف مع الحق. وهكذا تتجلى البصيرة والرؤية الثاقبة لهذا الفتى الهاشمي العلوي وهو في الحادية عشرة من عمره، ولكن الإمام الحسين عليه السلام لم يأذن له، فوقع القاسم على يد أبي عبد الله ورجله يقبلهما ويبكي ويطلب منه الإذن بالقتال، فأذن له، ولكن بعد أن سأله كما في بعض الروايات، قال: (يا ابن أخي كيف الموت عندك؟ قال: يا عمّ أحلى من العسل)[٤٦١].

انظر للبصيرة عند فتى لم يبلغ الحلم، والدنيا أمامه كما يقال، وشاب في هذا العمر لو سئل: ماذا تريد؟ لقال: أريد أن أتعلم وأتزوج وأكون إنساناً ناجحاً في الحياة، ولكن القاسم بن الحسن× يرى الموت أحلى من العسل.

---

٤٦٠. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٦٠.

٤٦١. الهداية الكبرى: ٢٠٤.

وقد تجلت البصيرة عنده أيضاً في ساحة المعركة حينما انقطع شسع نعله، فعرف ابن النبي الأعظم أنّه لا يليق به أن يكون حافياً في الميدان. انظروا الآداب ومراعاة المظهر وطريقة الأداء وطريقة الملبس، وكل منّا يجب أن ينظر إلى نفسه، إخواني عليكم النظر إلى ملبسكم ولون ثيابكم والتصاميم وموديل الثوب الذي تلبسون، يا شباب يا أحبتي لا يليق بمن يحمل الاسم العظيم بالانتماء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام، والانتماء للمرجعية الدينية والانتماء للخط الرسالي، أن يلبس أي نوع أو أي لون يشاء، وعليكم أن تعرفوا قيمتكم وتختاروا الملبس المناسب والمظهر المناسب وقصة الشعر واللحية والتفاصيل الدقيقة الأُخرى، وصولاً إلى القضايا العامة، فيجب أن يكون كل شيء بحساب.

وأُوصي أخواتي، وهنّ يسمعن وهنّ في مجلس سيد الشهداء عليه السلام، عليهن أن يعرفن جيداً أنّ عزتهنّ في عفتهنّ وحجابهنّ، وهناك تساهل في مجتمعاتنا النسوية في ما يخص الجورب، فالبعض يلبسن ألواناً غير مناسبة، والبعض يلبسن جوربا لا يستر لون البشرة، فهذه التفاصيل يجب أن تراعى لنكون بأدب الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وبمستوى وقدر المسؤولية. وقد أنف القاسم عليه السلام وهو في تلك اللحظات الحرجة في ساحة المعركة أن يمضي حافي القدمين، فانحنى وهو على ظهر جواده ليشد شسع نعله غير مكترث بالأُلوف من الأعداء الذين يحيطون به ويتربصون لقتله.

وهذه القضية تحتاج إلى تحليل نفسي عميق، إذ كيف يتسنى لفتى في مقتبل العمر وهو مقبل على الموت، وقد سقط أمامه العشرات من الشهداء من أهل بيته والأنصار مضرجين بدمائهم، ويرى أمامه عشرات الأُلوف من الأعداء مصطفين لقتاله، وهو غير مكترث بالجمع وغير مبال بالجيوش؟!، إنّها الثقة والاطمئنان والاستقرار النفسي والبصيرة النافذة، وهذه حالة الطمأنينة: (أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[٤٦٢].

٤٦٢. الرعد: ٢٨.

البصيرة عند مسلم بن عقيل عليه السلام

كان أحد الرجال العظام في واقعة الطف، وقد تجلت فيه صفة البصيرة بشكل بارز، ويكفي أنّه كان خيار الإمام الحسين عليه السلام في نقل رسالته ومشروعه الرسالي إلى أهل الكوفة، ولم يكن اختيار مسلم بن عقيل لهذه المهمة على خلفية أسرية وعشائرية، فالقرابة في المشاريع الرسالية لا تعني شيئاً، بل القدرة على تحمل أعباء الرسالة هي التي تجعل الرسول بمستوى تحمل هذه المسؤولية، والحسين عليه السلام وجد في مسلم هذه القدرة، وكان خير رسول في تعامله وبصيرته ورؤيته وتقديره للأُمور.

وتخبرنا الروايات أنّه حينما كان مختفياً في دار هانئ بن عروة، وكان شريك مريضاً ومقيماً في دار هانئ أيضاً، وكان هوى الناس مع مسلم، قرر عبيد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة زيارة شريك، فطلبوا من مسلم الذهاب إلى الغرفة الأخرى وحينما يأتي عبيد الله ويجلس يعطونه إشارة فيدخل ويقتل عبيد الله ويحسم المعركة سلفاً، ولكن مسلم لم يجبهم بشيء.

وحينما جاء عبيد الله أعطوا لمسلم العلامات والإشارات ولكنه لم يخرج، إلى أن أنهى عبيد الله زيارته، فخرج مسلم وحين سألوه عن السبب في عدم قتله عبيد الله قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (الإيمان قيد الفتك)[٤٦٣]، أي أنّ هذا جاء ليعود مريضاً فكيف نختلي به ونغدر به ونقتله غيلة؟ أتريدون من أجل الخلاص من عبيد الله بن زياد أن نقضي على مشروع الحسين عليه السلام؟ فمشروع الحسين عليه السلام ليس مشروع سلطة، فهو القائل: (إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر)[٤٦٤].

---

٤٦٣. بحار الأنوار ٤٤: ٣٤٤.

٤٦٤. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

لاحظوا البصيرة والرؤية العميقة في هذا الموقف النبيل، فلو كان مسلم قتل عبيد الله بن زياد لجاء غيره والياً على الكوفة، وهذه ليست قضية صعبة، ولكن قتل عبيد الله بن زياد كان سيضع ورقة رابحة بيد يزيد بن معاوية ليصبح هو المظلوم والحسين عليه السلام هو الظالم، وسيستغل الإعلام الأموي هذه الحادثة للتشهير بالخط الحسيني، وسوف يهتز مشروع الحسين عليه السلام، وهنا تبرز البصيرة في النظر إلى عواقب الأمور وملاحظة دقة الموقف الشرعي أمام الإغراءات الكبيرة والمكتسبات الآنية.

وموقف آخر لمسلم بن عقيل يتضح من خلاله ما يمتلكه من بصيرة ونظرة ثاقبة للأمور، فبعد أن تفرق الناس وهجموا عليه وكسروا أضلاعه وأسروه، جاؤوا به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له: (إيه يا ابن عقيل أتيت الناس وهم جمع، ففرقت بينهم، وفرقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض)، أي جعلت بعضهم يقاتل بعضاً، وفرقت الأمة.

لاحظوا كيف يشوش الظالم ويضلل على أهل الحق حقيقتهم، فيقول لمسلم هذا الكلام ويصدق به بسطاء الناس، ويقولون إنّ الأوضاع كانت هادئة قبل مجيء مسلم، ثم انقسم الناس بعد مجيئه!.

لقد كانت الناس هادئة لأنّها ترزح تحت سوط الظلم، وجاء مسلم وأراد أن يأخذ للناس حقهم، ولكن هناك أعوان للظالم منعوه من ذلك، وحدث الاصطفاف، والحق هو الذي فرقهم، وقد كانوا مفرقين من قبل ذلك، ولكنهم كانوا مغدورين واليوم رفعوا رؤوسهم ليدافعوا عن كرامتهم.

فأجابه مسلم وهو مقبل على الشهادة، وهو بين يدي عبيد الله بن زياد: (كلا لست كذلك، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعمل فيهم بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب)، أي نحن الذين ندعو للصلاح، وأنت وأبوك فرقتموهم وظلمتموهم، ونحن نريد أن نعيد الأمور إلى نصابها بطلب من الناس أنفسهم. لاحظوا البصيرة والمنطق والاستدلال الراقي.

البصيرة عند آل عقيل

وهكذا نجد البصيرة متجسدة في بني عقيل بن أبي طالب، ففي ليلة عاشوراء، ليلة المعركة، جاءهم الحسين عليه السلام وجمعهم قائلاً لهم: (يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم)، يكفي يا آل عقيل فقد قدمتم مسلماً، هذا الرجل العظيم، (فاذهبوا فقد أذنت لكم)، أي ابتعدوا هذه الليلة حتى لا تقتلوا، فقالوا: (سبحان الله! ما يقول الناس ونقول لهم؟ إنّا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل ذلك، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك)[٤٦٥].

ما قيمة الحياة وكلنا سنموت اليوم أو بعد عدة سنوات؟.. فقيمة الحياة أن يعيش الإنسان على بصيرة من أمره، وأن يصطف مع الحق، وينحاز إلى الموقف السديد والصحيح، ويدافع عن القيم.

البصيرة عند الأنصار

كان أصحاب الحسين عليه السلام سبعين رجلاً في مقابل ثلاثين أو سبعين ألفاً، والمعركة من الناحية العسكرية معركة خاسرة، ولكن عليهم أن يعملوا بالتكليف، وهذا هو الذي كان يهمهم، أما النتائج فإن كانت الشهادة فهي أحلى من العسل.

لاحظوا موقف الأصحاب في ليلة عاشوراء، ففي تلك الليلة الشريفة حينما كان الحسين عليه السلام يختبر أصحابه، ويرفع عمّن يشاء عبء المسؤولية والتكليف الشرعي، بأن يجعلهم في حل من بيعته، قال عليه السلام لهم: (إنّ القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن غيري، وهذا الليل قد غشيكم

٤٦٥. بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

فاتخذوه جملاً)[٤٦٦]، ولكنهم رفضوا ذلك، وأبوا أن يتخلوا عن نصرته والاستشهاد بين يديه.

فقال مسلم بن عوسجة: (أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي. ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك)[٤٦٧].

وهذه هي البصيرة والوضوح، فلو وقفت الدنيا وما فيها في وجه أحدهم، لما تراجع ولا تنازل ما دام يقوى على رفع السيف والذب عن الحسين عليه السلام والقتال دونه.

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي: (والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق حياً ثم أُذرى، يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك، حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً)[٤٦٨].

نعم إنّها كرامة الدنيا في هذا الذكر الحسن لأصحاب الحسين عليه السلام بعد ١٤٠٠ سنة، ولو كان سعيد إنساناً عادياً فمن سيذكره بعد وفاته؟ ولكننا إلى اليوم نذكره ونذكر موقفه الخالد، والحياة مواقف، ولقد قال كلمة صدق وهو على بصيرة من أمره في اللحظة الصحيحة، واتخذ القرار الصحيح في الوقت الصحيح، فحظي بسعادة الدنيا والآخرة.

وقال زهير بن القين: (والله وددت أني قُتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل كذا ألف مرة، وأنّ الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك)[٤٦٩].

وكان زهير بن القين عثماني الهوى، وفي أثناء الطريق حينما عرف أنّ ركب الحسين عليه السلام يسير بمحاذاته غيّر طريقه وابتعد، ولكن سريرته كانت

٤٦٦. الهداية الكبرى: ٢٠٤.

٤٦٧. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٤٨٥.

٤٦٨. بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

٤٦٩. بحار الأنوار ٤٤: ٣١٦.

نظيفة، فرزقه الله تعالى البصيرة، فبعد أن بقي يبتعد عن قافلة الحسين عليه السلام نزل في مكان الحسين عليه السلام نازلا في مكان على مقربة منه، فأرسل إليه الحسين رسولاً يدعوه إليه، وحاول زهير أن يتهرب من لقائه، ولكن زوجته، وهم من مدرسة سياسية أخرى، قالت له: ابن بنت رسول الله يرسل إليك ولا تذهب ؟! فخجل زهير وقام ولبس ملابسه وذهب إلى الحسين عليه السلام، وما إن جلس عند أبي عبد الله عليه السلام وفاتحه بالموضوع حتى رأى زهير الحق أمامه فتمسك به، ورجع بعد دقائق إلى زوجته وقال لها: ارجعي إلى أهلك، ولكنها أبت إلا الالتحاق بالركب الحسيني.

إنّ البصيرة والحق لا يحتاجان إلى براهين وأدلة واشتراطات وتعجيزات، فمن كانت لديه بصيرة فسوف يتلاقف الحق ويتمسك به.

وحينما نراجع مواقف الأصحاب نجد فيها البصيرة والوضوح، ويكفيهم تقييم سيد الشهداء عليه السلام لهم حينما قال: (يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل بمحالب أُمه)[٤٧٠]، فهم ليسوا على استعداد للتضحية فحسب، بل يستأنسون بها، وهم سعداء بهذا القتل دون الحسين عليه السلام، وكانوا يستبشرون به لأنّهم مقبلون على الشهادة.

وتجسدت البصيرة في موقف مسلم بن عوسجة حينما وقع صريعاً على أرض كربلاء، وكان به رمق، فمشى نحوه الإمام الحسين عليه السلام وحبيب بن مظاهر، فقال له الحسين عليه السلام: ﴿رحمك الله يا مسلم، ثم تلا قوله تعالى: (فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٤٧١]، ودنا منه حبيب وقال: عزّ عليّ مصرعك يا مسلم، فقال مسلم بصوت ضعيف: بشّرك الله بخير، قال حبيب: لو لم أعلم أنّي في الأثر لأحببت أن توصي إليّ بما أهمك، فقال مسلم: أوصيك بهذا أن تموت دونه، وأشار إلى الحسين عليه السلام، قال حبيب: أفعل ورب الكعبة، وفاضت روحه بينهما)[٤٧٢].

انظروا الى البصيرة والوضوح والإيمان والعقيدة كيف تتجلى للإنسان

٤٧٠ . موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٤٩٣.

٤٧١ . الأحزاب: ٢٣.

٤٧٢ . بحار الأنوار ٤٥: ٢٠.

الذي لا يرى إلا الحق، ولا يطالب إلا بالحق، ولا يتمنى إلا الحق، فهنيئاً لمسلم بن عوسجة.

وكذلك موقف عابس بن شبيب الشاكري، هذا البطل صاحب المقولة المعروفة: (حب الحسين أجنني)[٤٧٣]، وكان يقولها بصوت مرتفع، وكان صادق المشاعر والعواطف، وذا بصيرة وإيمان وشجاعة.

وله موقف مع مسلم بن عقيل في الكوفة حينما اجتمع الناس معه، وبايعه ثمانية عشر ألفا، وهنا وقف عابس ورفع صوته مخاطباً مسلم بن عقيل بحضور وجهاء القوم وكبّارهم وقال له: (إنّي لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، ولا أغرك بهم)، أي لا أُريد أن أقول: هؤلاء جيش لك، ومعنى هذا الكلام أنّي لا اقتنع أنّه إذا جدّ الجدّ سوف ترى أحداً منهم، وهذا ما حصل بالفعل، فانظروا إلى العمق والبصيرة والرؤية الواضحة التي منحها الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان، (والله إنّي أُحدّثك عما أنا موطّن نفسي عليه، والله لأجيبنّكم إذا دعوتم، ولأُقاتلنّ معكم عدوكم، ولأضربنّ بسيفي دونكم، حتى ألقى الله لا أُريد بذلك إلا ما عند الله)[٤٧٤].

وكان له موقف مع الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، عندما استأذنه في خروجه للقتال، يقول: (يا أبا عبد الله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ منك، ولو قدرت أن أدفع الضيم عنك بشيء أعزّ عليّ من نفسي لفعلت، نفسي بين يديك، السلام عليك، أشهد أنّي على هداك وهدى أبيك)[٤٧٥]، وهذا الكلام دليل على البصيرة والرؤية العميقة.

وكذلك موقف أبي ذمامة الصائدي، حينما حان الظهر وزالت الشمس يوم عاشوراء، قال للإمام الحسين عليه السلام: (نفسي لك الفداء، إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، لا والله لا تُقتل حتى أُقتل دونك، وأحب أن ألقى الله وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها).

---

٤٧٣ . موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٤٨٥.

٤٧٤ . تأريخ الطبري ٤: ٢٦٤.

٤٧٥ . بحار الأنوار ٤٥: ٢٩.

انظروا إلى البصيرة؛ فهو في ذروة القتال وينتظر الشهادة لحظة بعد أُخرى في ركاب الحسين عليه السلام، وهو يمثل الحق، ويتذكر الصلاة ويقول: دخل وقتها، وهو يعرف أنّ الموت وشيك، ولكنه يريد أن يصلي الصلاة الأخيرة مقتدياً بالحسين عليه السلام، فرفع الإمام الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: (ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها، سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلي لربّنا)[٤٧٦].

وما أكثر هذه المواقف التي سطرها أولئك الأصحاب حتى أصبحوا مصداقا لقول الحسين عليه السلام: (لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابي)[٤٧٧]، فقد كانوا أفضل الأصحاب؛ لأنّهم كانوا على بصيرة من أمرهم، فهنيئاً لهم، وليتنا كنا معهم فنفوز فوزاً عظيماً.

فسلام عليهم وعلى بصيرتهم وهم يقدّمون دروس العطاء والوفاء والثبات والإصرار على الحق، فكانوا بحق مدرسة للإنسانية كلها.

البصيرة عند نساء الركب الحسيني

كان للمرأة دور مهم في واقعة الطف، وكيف لا يكون لها هذا الدور والموقع، في هذا المشروع الرسالي الكبير وهو مشروع للإنسان كل الإنسان، وأي مشروع رسالي استبعد المرأة، وأي مشروع تُمم للإنسانية جمعاء ويستبعد المرأة؟.

هناك من يتساءل: لماذا أخذ سيد الشهداء النساء معه، وهو يعلم بما ستؤول إليه نتيجة المعركة؟. والجواب: أنّه أراد أن يصنع ملحمة إنسانية كبرى، وكيف يمكن أن تصنع مثل هذه الملحمة ونصف المجتمع غائب عنها؟.

البصيرة عند الحوراء زينب عليها السلام: حينما أراد الملعون عبيد الله بن زياد

٤٧٦. موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٥٣٥.

٤٧٧. بحار الأنوار ٤٤: ٣١٦.

أن يشمت بالحوراء زينب عليها السلام قال لها: كيف رأيت صنع الله في أخيك الحسين؟ ودهش الجميع حينما قالت: (ما رأيت إلاّ جميلا) [٤٧٨]. انظروا إلى البصيرة النافذة والرؤية الثاقبة للحوراء زينب عليها السلام، التي رأت كل تلك الآلام والمصائب والمحن ومع ذلك تقول: (ما رأيت إلاّ جميلا).

البصيرة عند أُم البنين عليها السلام: هذه السيدة الطاهرة الجليلة كانت آية في البصيرة، وقد قدّمت أربعة من أبنائها في واقعة الطف مع الإمام الحسين عليه السلام، وهم العباس وعبد الله وعثمان وجعفر عليهم السلام.

ومن دلائل بصيرتها أنّه عندما دخل بشر بن حذلم الشاعر الذي أرسله الإمام زين العابدين عليه السلام إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله لإخبار أهلها بقدوم قافلة سبايا الحسين عليه السلام، وهي على مشارف المدينة.

تلقته أُم البنين وقالت له: أخبرني عن ولدي الحسين، فسأل بشر عن هذه المرأة، فقالوا هذه أُم البنين، فقال لها: عظم الله أجرك بولدك عبد الله، قالت: أسألك عن ولدي الحسين، فقال لها: عظم الله أجرك بولدك عثمان، قالت: سألتك عن ولدي الحسين، فقال: عظم الله أجرك بولدك جعفر، قالت: أسألك عن ولدي الحسين، فقال: عظم الله أجرك بأبي الفضل العباس، قالت: أسألك عن الحسين، قال: عظم الله أجرك بأبي عبد الله الحسين، حينها فقط انهارت أُم البنين.

لقد فقدت أبناءها الأربعة وتحملت ذلك، فانظروا الى البصيرة والرؤية الثاقبة، فقد كان كل نظرها متوجهاً إلى أبي عبد الله الحسين عليه السلام لتطمئن على سلامته، فإذا كان في سلامة وعافية، فلا بأس أن يذهب الأبناء الأربعة في هذا الطريق.

البصيرة عند أُم وهب: لم تكن هذه البصيرة عند العظماء من الرجال، أو النساء ذوات الشأن الكبير، كالحوراء زينب وأُم البنين عليهما السلام، وإنما امتدت لتشمل جميع النساء اللائي حضرن واقعة الطف.

ونقرأ في المقاتل عن (أُم وهب) زوجة عبد الله بن عمير الكلبي، أنّه

٤٧٨. بحار الأنوار ٤٥: ١١٦.

حينما كان يقاتل واحتوشوه من كل حدب وصوب، تذكر الروايات أنّها أخذت عموداً وأقبلت نحو زوجها تقول له: (فداك أبي وأُمي قاتل دون الطيبين ذرية محمدصلى الله عليه وآله)[٤٧٩]، فهي لم تقل له ارجع وانتبه لنفسك، بل قالت لا تترك سيد الشهداءعليه السلام وآل بيته، ودافع عن حجة الله.

وكانوا كلما أرادوا أن يرجعوها للخيمة لا تطاوعهم، وكانت تقول لزوجها: (لن أدعك دون أن أموت معك)، فناداها الإمام الحسين عليه السلام: (جزيت عن أهل بيتي خيرا)[٤٨٠]. ثم بعد أن استشهد زوجها مشت إليه وجلست عند رأسه تمسح الدم عنه وتقول: (هنيئاً لك الجنة، أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك)، فقال الشمر لغلامه رستم: اضرب رأسها بالعمود، فشدخه فماتت مكانها، وهي أول امرأة قُتلت من أصحاب الحسينعليه السلام.

صلى الله عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك وأصحابك، وجعلنا من الآخذين بثأرك تحت راية وليّه الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٤٧٩. بحار الأنوار ٤٥: ١٧.

٤٨٠. بحار الأنوار ٤٥: ١٧.

الفهرست

تقديم ٥
تمهيد ٩

المحور الأول

معنى البصيرة ٢٥

المحور الثاني

أهمية البصيرة ٢٧

المحور الثالث

أدوات البصيرة ٣٩

المحور الرابع

روافد البصيرة ٥٣
الرافد الأول- الكتب السماوية ٥٥
الرافد الثاني- آيات الله في الأنفس والآفاق ٧٣
الرافد الثالث- التسديد الإلهي ٩٥
الرافد الرابع- الإيمان ١٠٣
الرافد الخامس- التقوى ١١٥
الرافد السادس- طاعة الله تعالى ١٢٧
الرافد السابع- طاعة رسول الله(ص) وأهل بيته(ع) ١٤١
الرافد الثامن - التفكر ١٤٩
الرافد التاسع- العلم ١٦١
الرافد العاشر- الزهد بالدنيا والقناعة فيها ١٧٣
الرافد الحادي عشر- كمال الإنسان ١٨٣
الرافد الثاني عشر- إقبال القلب ١٨٩

المحور الخامس

آثار البصيرة ٢٠١
الأثر الأول- التمسك بالحجة الشرعية والحق ٢٠٣
الأثر الثاني- الهداية ٢١٩
الأثر الثالث- العبرة والاعتبار ٢٣٣
الأثر الرابع- الحكمة ٢٤١
الأثر الخامس- الشجاعة ٢٥٧
الأثر السادس- الأمانة وكتمان الأسرار ٢٦٥
الأثر السابع- ترك الذنوب والمعاصي والآثام ٢٧٣
الأثر الثامن- استجابة الدعاء ٢٨١

المحور السادس

موانع البصيرة ٢٩٣

المحور السابع

نماذج من أهل البصائر ٣٢٣
مصاديق البصيرة في واقعة الطف ٣٣٩
البصيرة عند أهل البيت ٣٤١
البصيرة عند الإمام الحسين(ع) ٣٤١
البصيرة عند أبي الفضل العباس(ع) ٣٤٦
البصيرة عند علي الأكبر(ع) ٣٤٨
البصيرة عند القاسم بن الحسن(ع) ٣٥١
البصيرة عند مسلم بن عقيل(ع) ٣٥٣
البصيرة عند آل عقيل ٣٥٥
البصيرة عند الأنصار ٣٥٥
البصيرة عند نساء الركب الحسيني ٣٥٩

مؤلفات

السّيدْ عَمار الحَكيمْ

١- نساؤنا

٢- المرأة المكرمة

٣- شبابنا الجزء الاول

٤- كربلاء رسالة حياة

٥- كربلاء منهج وعطاء

٦- امام الانسانية علي بن ابي طالب

٧- مجددون

٨- في رحاب الطف . . . . التوكل

٩- شبابنا الجزء الثاني

١٠- مودة ورحمة

١١- رسالة الامل

١٢- مفاتيح التواصل

١٣- لمحات من سيرة وحياة عزيز العراق

١٤- في رحاب الطف . . البصيرة الجزء الاول .

١٥- العلاقات الاجتماعية في الاسلام الجزء الاول

١٦- شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام الجزء الاول

١٧- بناء الدولة وادارتها ٣ أجزاء

١٨- النظرية الاسلامية في الحكم دروس من عهد امير المؤمنين عليه السلام لمالك الاشتر .

١٩- رؤيتنا السياسية .

٢٠- مفاتيح التواصل ج-٢-

٢١- في رحاب الطف . . البصيرة الجزء الثاني .

٢٢- السيد عمار الحكيم . . خطاب الاعتدال والبناء - ١٠ اجزاء . ط٢ منقحة ومزيدة .

٢٣- مع الصادقين . . الجزء الاول والجزء الثاني .

٢٤- الشباب والدولة العصرية العادلة

٢٥- هن المجتمع

٢٦- الأُخوة الإيمانية